د.أوعثماني ستار

ثورة الزّعاطشة 1849 م

ترجمة : الأستاذ محمّد العربي حرزالله

العنوان : ثورة الزّعاطشة 1849 م

Titre original : Zaatcha en 1849, histoire d'une révolte

المؤلّف : د. أو عثماني ستار

ترجمة : محمّد العربي حرزالله

بسم الله الرحمن الرحيم

الى العائلة الكريمة

شكر وتقدير

أشكر كل من ساهم وبذل جهدا ولو بالقليل في نشر هـــذا الكتاب و أخص بالذكر :

- الأستاذ محمّد العربي حرزالله.
- وزارة المجاهدين و ذوي الحقوق.
- المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954.
-جمعية الزّعاطشة الثقافية لولاية بسكرة.

.

كلمة المترجم:[1]

إن هذا الكتاب الموسوم "ثورة الزّعاطشة 1849م" لمؤلّفه الدكتور أوعثماني ستار يعدّ إضافة مهمّة إلى تاريخ الجزائر عامّة، وإلى تاريخ منطقة الجنوب الشّرقي الجزائري خاصّة، ذلك أنّ تداعيّات ثورة الزّعاطشة كانت قد طالت رقعة كبيرة من هذه المنطقة، كما ذكر المؤلّف. وبعد قراءتي للكتاب، بصفتي مهتمّ بالشأن الثّقافي الوطني والمحلّي، بما في ذلك جانبه التّاريخي، فقد تعهّدت أمام جمع كريم من أهل الزّعاطشة وليشانة والمنطقة بأكملها خلال حفل بهيج نظّمه فرع جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين بليشانة احتفاء بالمولود الجديد، بأن أنقل محتوى الكتاب إلى اللغة العربيّة قصد تقريب النص من القارئ العربي لغرض تعميم الفائدة.

ولقد حاولت من الجانب المنهجي، أن أتحرّى الأمانة في التّرجمة وخاصّة فيما يتعلّق بدقّة الألفاظ والعبارات، كلّما تعلّق الأمر بأقوال أو كتابات بعض الشّهود الذين باشروا وقائع الثّورة في الزّعاطشة، حتى لا ينحرف التّصريح عن الفحوى التي أدلى بها الشّاهد مهما كانت قاسيّة، لأنّ التّاريخ لا يتحمّل التّزييف.

أمّا من حيث الشّكل، فقد اعتمدت محاولة تقليد أسلوب الكاتب ليظهر للقارئ وكأنّه يقرأ الكتاب من مصدره وبلغته الأصليّة. ولقد اغتنمت خصائص اللّغة العربيّة التي هي لغة طيّعة الجانب، ليّنة المراس، غنيّة المعجم لأعتمد أسلوبا يكاد يكون نسخة طبقة الأصل من أسلوب المؤلّف، فلجأت إلى إمكانيات ترتيب عناصر الجملة العربيّة بأشكال مختلفة

1-Note du traducteur.

كالتّقديم والتّأخير، واعتماد الجمل الاسميّة أو الفعليّة حسبما يقتضي السيّاق والانفعال المعبّر عن سرد الوقائع الثّوريّة التي لا تخلو من حماسة.
وحتّى من ناحية العرض (Disposition) أو (Présentation) حاولت قدر الإمكان تقليد المؤلّف، فوضعت الأقوال والتّصريحات المنسوبة إلى القادة والضباط بين معكوفتين ورسمتها بالخط المائل، لتكون مميّزة عن سرد النص.
ولإفادة القارئ الذي لا يعرف إلاّ اللسان العربي، عمدت على ترجمة التصريحات المودعة بين الهوامش لكونها تكمّل النص الأصلي وتلقي أضواء على بعض الأحداث الهامّة التي طبعت ثورة الزّعاطشة، كما ميّزت بين كلمتي "قائد" و "قايد" بواسطة الهمزة، فوضعت الأولى لتعيين قادة الجيوش والثانية لتعيين القيّاد من العرب.
بقي أن نشير إلى أنّ تصريح السّاسة والقادة الفرنسيين ذوي العلاقة بثورة الزّعاطشة- رغم صحتها الموضوعيّة -لا بدّ وأن تؤخذ بحذر، لأنها لا يمكن أن تخلو من ذاتيّة صاحبها، انطلاقا من" **أنّه ليس كلّ من كتب عن الانتفاضة هو مؤرخ**". وأنّ هؤلاء السّاسة يعتمدون في معلوماتهم عن بعض عملائهم من القيّاد العرب. ولقد أشار الكاتب إلى ذلك بصراحة في قوله:
"...A partir de là, écrit l'auteur, les sources françaises ont établi un portrait insuffisant et parfois fantaisiste, ne s'appuyant que sur les renseignements que leur fournissaient les chefs arabes."
فعلى القارئ المهتمّ أن يحاول مقارنة تلك الأقوال والتّصريحات والكتابات بما يقابلها بمصادر وطنيّة. فإذا كان الشّيخ بوزيّان مجاهدا وطنيّا وجب تمجيده بالنّسبة للجزائريين، فإنّه بالنّسبة للفرنسيين عدوّ مشاغب كان عليهم مواجهته ليتمكّنوا من احتلال منطقة من أهمّ مناطق القطر

الجزائري ثقافة وثروة. والمهمّ بين الموقفين هو الانطباع الذي يخرج به القارئ المحايد مهما كانت جنسيته وعقيدته وميوله الشّخصيّة، لأنّ المحايد ينتصر دائما إلى المظلوم ويمجّد البطل المقاوم، وهي الصّفات التي علقت بالشّيخ بوزيّان الذي تصدّى بكلّ شجاعة لعدوان غاشم رغم تباين الإمكانيّات بين الطّرفين : الظّالم والمظلوم .ولم يكن الشّيخ بوزيّان يملك أمام غطرسة الفرنسيين وإمكانياتهم الحربيّة الهائلة، إلاّ قوّة الإيمان وواجب التصدّي ل" **كافر** "يريد أن يستولي على أرض" **مسلمة**"، فدفع بروحه وأرواح ذويه وأنصاره من أجل ما اعتقد أنّه حقّ لا يمكن التغاضي عنه والاستشهاد في سبيله. وبذلك أصبح الشّيخ أحد رموز مقاومة هذا الشّعب العظيم الذي استطاع في النهاية، أن يهزم الاستعمار، لأنّ الطّينة التي نشأ منها بوزيّان لم تيبس منذ أن داست أقدام المستعمر الفرنسي صخرة سيدي فرج في 14 جوان 1830 إلى غاية تقرير المصير وانتهاء الاستعمار الفرنسي في 05 جويلية 1962 وستبقى الطينة جاهزة لصنع رجال آخرين إذا لزم الأمر!

بقي أن أعبّر عن تشكّراتي الخالصة للمؤلّف الذي بذل جهودا مضنيّة في سبيل إنجاز هذا العمل الذي يعدّ لبنة إضافية لتاريخ الجزائر المليء بالتحديّات والبطولات والأمجاد. وتشكّل الوثائق التي عثر عليها الكاتب وسائل مشجّعة لمواصلة البحث في تاريخ هذه البلاد وهو ما نصح به الكاتب كلّ باحث أو مهتم بتاريخ الجزائر، حيث كتب:

"Peut-être, écrit l'auteur, nous avons ainsi laissé à d'autres chercheurs le soin de continuer la recherche, un jour dans ce domaine.."

كما أسدي للكاتب ولكلّ من شجّع وساهم ودفع إلى ترجمة هذا العمل التّاريخي بتحيّاتي الخالصة وتشكّراتي المسبقة على الثّقة التي منحت لي لأتشرّف بنقل النص إلى اللغة العربيّة.

محمّد العربي حرزالله

غرّة رمضان المبارك 27 – 1438 ماي2017

تنبيه :

هذا الكتاب كان محلّ رسالة دكتوراه أنجزت في ماي 1998 بجامعة إيكس إين بروفانس (Aix-en-Provence) تحت إشراف الأستاذ روبير إلبير (Robert Ilbert) . وإن كنّا قد اخترنا نشر هذه الرّسالة بكاملها تقريبا، فإنّ ذلك كان لغرض إفادة جمهور القرّاء بهذا القدر الوفير من الوثائق ذات العلاقة بانتفاضة الزّعاطشة، والموجودة أساسا في مركز أرشيف ما وراء البحار (Outre-mer) بإيكس إين بروفانس(Aix-en-Provence) ومن شأن هذا البحث أن يقدّم خدمة سائغة للباحثين المختصّين في تاريخ الجزائر المعاصر .وزيّادة على ذلك، فإنّه سيكون بإمكان القارئ بصفة عامّة والباحث بصفة خاصّة، أن يبدي قناعته أو تحفّظاته أو أن يطرح تساؤلات فيما يتعلّق بالمنهجيّة المتّبعة من طرف المؤلّف لدراسة ثورة الزّعاطشة.

إنّ كتابة تاريخ انتفاضة ما، وتكوين نصّ منسجم انطلاقا من وثائق مخطوطة أو مرقونة ليس بالأمر السّهل. إنّ مثل هذا العمل يستدعي البحث في الطّرود ثم قراءة المحتويات بدقّة للوقوف على الوقائع واستخلاص العبر التي من شأنها أن تفيد في تقدّم البحث ومواصلته.

فمن شدّة عملنا اليومي الدّؤوب في وثائق متناهيّة في القدم، كنّا نشعر بانطباع وكأنّنا نغوص في مناخ تلك المرحلة التّاريخيّة، مّما جعلنا نستمتع بالقراءة ونتلذّذ بالبحث.

وعلى كلّ حال، فقد يخطر على البال، بأنّ استغلال الوثائق العربيّة في البحث لم يكن بالشّكل المكثّف، وذلك أنّ بعض الرّسائل منها تخصّ مسائل ليست بذات أهميّة كبيرة، وتتطرّق أحيانا بتفاصيل كبيرة إلى مواضيع مكرّرة، فكان لزاما علينا أن نقتصر على ما كان يبدو لنا مهمّا وأن ننشر

الباقي من الرسائل المخطوطة في الملحق فاسحين بذلك المجال لباحثين آخرين لمواصلة البحث في الموضوع. ويجب ملاحظة أنّ حقل معظم الوثائق العربيّة يعالج أحداثا سابقة لحصار الزّعاطشة، ممّا يفسّر أنّ استعمالها يخصّ الجزئين الأوّل والثّاني دون الثّالث.

وعلى كلّ، فإنّ هذا البحث يمثل تحليلا تاريخيّا مصغّرا يجمع بين سرد الوقائع وتحليل الأحداث، فهو يسمح من جهة بإعادة تركيب للوقائع العسكريّة والسيّاسيّة، ومن جهة أخرى تحليل الطّابع الدّيني والنّفسي للوقائع نفسها.

مقدّمة :

لقد تردّد الفرنسيون طويلا قبل أن يستولوا عن الزّاب. ولم يتغيّر موقفهم إلاّ سنة 1844 بعد أن أبدى حليفهم ابن قانة عدم قدرته على السيطرة عن الأوضاع بالمنطقة. وبعد أن احتلّوا بسكرة، شرعوا في الاستيلاء على كامل المنطقة. وبعد أربع سنوات، أبدت إدارة إقليم بسكرة رضاها عن النتائج المحقّقة بعد أن تحسّس موقف السكّان من التّواجد الفرنسي فالتزم بإقناع المعمّرين بإمكانيّة إنشاء مستعمرات في المنطقة. وكان ضبّاط إقليم بسكرة يريدون إعطاء الانطباع بأنّ زمن المقاومة قد فتر فاسحا المجال لقيّام مستعمرات، وهو ما كذّبته سنة 1849 التي أثبتت العكس، لأنّ الثّورات التي كانت قد نشبت بكامل الجنوب القسنطيني قد امتدّت جذورها إلى الزّاب وبالضّبط إلى الزّعاطشة.

إن أصل كلمة" زاب "و" زيبان" في الجمع سابق لعهد الاحتلال الرّوماني حسب النّقيب ليون لوهيرو .(Léon Lehuraux) وعلى حسب هذا الأخير، فإنّ هذه التّسميّة كانت تنطبق قديما على الواحات التي كانت بسكرة عاصمة لها وعن منطقة الحضنة أيضا .[1] أمّا ابن خلدون فيعطي لهذه التسميّة معنى الواحات. [2] أمّا آخرون فيقرّبون التسميّة إلى" زابي "إحدى المدن القديمة بالحضنة والتي كانت مركز أسقفيّة (Evêché) تعود إلى القرن الخامس قبل

1-LEHURAUX (Léon), Le nomadisme et la colonisation dans les hauts-plateaux de l'Algérie, Paris, Comité de l'Afrique française, 1931, p24, voir note.

2- IBN KHALDOUN, Histoire des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale, traduit par le baron de Slane, Paris, Librairie orientale, 4ème volume, édition 1925, tome III, p125.

الميلاد [1]. وعلى حسب بروكوب (Procope) يكون الزّاب هو الاسم الذي كان تحمله موطن بوادي سطيف أثناء عهد الاحتلال الرّوماني لبلاد البربر.

"من وراء جبل أوراسيوس - كما كتب – تظهر بلاد الزّاب التي عاصمتها سطيف .[2]" وهكذا سيكون من الصّعب الجزم بالمصدر المضبوط لكلمة "زاب[3]."

ويعرف الزّاب اليوم بالمناطق المنتشرة حول بسكرة بحوالي 200 كلم غربا وشرقا وحوالي 50 أو 60 كلم شمالا وجنوبا .[4]ويحدّها من جهة الشّمال جبال

1-Encyclopédie de l'Islam, Paris, A. Picard, Tome VI, 1934, p1246.

2 -Cité par GUYON, Voyage d'Alger au Ziban en 1847, Alger, imprimerie du gouvernement, 1852, p 251.

3-Les historiens divergent sur le nom et la nature des premiers peuples qui ont habité les Ziban. Hérodote écrit qu'à son époque, l'Afrique du Nord fut habitée par deux peuples autochtones : les libyens au Nord et les Ethiopiens au Sud. Salluste ajoute qu'entre les Ethiopiens et les libyens, vivait un autre peuple, à savoir les Gétules. Pour Ibn Khaldoun, c'était la grande tribu berbère Zenâta, qui avait habité les Ziban depuis les temps anciens. Tous s'accorde toutefois à dire que lors de l'islamisation, Zenâta était bien la tribu qui habitait la région. Voir sur ce point HERODOTE, Textes relatifs à l'histoire de l'Afrique du Nord, par Stéphane Gsel, Alger, A. Jourdan, 1915, p 113, Gsel Stéphane, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Paris, Hachette, 1913, p 544, p 297, IBN KHALDOUN, Histoires des berbères, tome III, op cit, pp 179-191.

4-Encyclopédie de l'Islam, Paris, tome IV, 1934, p 1246.

يختلف المؤرخون في اسم وطبيعة الشعوب الأولى التي استوطنت الزيبان .هيرودوت كتب في زمانه أن إفريقيا الشمالية كانت مسكونة من طرف شعبين : الليبيون في الشّمال والأثيوبيون في الجنوب . سالوست أضاف أن بين الليبيين والأثيوبيون كان يعيش شعبا ثالثا: الجيتول .بالنّبسة لابن خلدون، قبيلة زناتة الكبيرة هي التي سكنت الزيبان منذ مدّة طويلة .وعند أسلمة المنطقة، كانت زناتة هي التي تقطن المنطقة .انظر في هذا الصّدد هيرودوت، نصوص متعلقة بشمال إفريقيا، ستيفان جيزل، الجزائر،أ .جوردان1915 ، ص.113

أحمر خدّو والأوراس ومرتفعات بوقزّول وجبال الزّاب ؛ ومن الغرب الفضاء الذي يفصل بين جبل دوحان ووادي جدي ؛ ومن الشّرق الخطّ الذي يمتدّ من أحمر خدّو شمالا إلى شط ملغيغ جنوبا .[1] وكان الزّاب أثناء مرحلة الغزو الفرنسي ينقسم إلى ثلاثة أقسام:[2]

- الزّاب الظّهراوي أو الزّاب الشمالي، وهو الواقع غرب مدينة بسكرة ويشمل قرى العامري، البرج، فوغالة، طولقة، فرفار، الزّعاطشة، ليشانة وبوشقرون.
- الزّاب الشّرقي أو الزّاب الشّمالي وهو القسم المحاذي لشمال بسكرة،

ويشمل قرى الوطاية، برانيس، شتمة، قرطة، سريانة، تودة، سيدي خليل، عين النّاقة، زريبة الوادي، زريبة حامد، بادس، ليّانة، الخنقة والفيض.

- الزّاب القبلي أو الزّاب الجنوبي ويمتدّ من جنوب بسكرة ليشمل مدن

ليوة، الصحيرة، مخادمة، بن طيوس، زاوية سيدي العابد، أورلال، مليلي، بيقو، فلياش، أوماش، كرّة، بسكرة، وسيدي عقبة.

ويضاف إلى هذه التجمّعات مدينتا سيدي خالد وأولاد جلاّل اللتان تبدوان جغرافيا مرتبطين بالزّاب، ولكنه تعوّد استثناؤهما من الإقليم.

ويتكوّن الزّاب جيولوجيا من قسمين اثنين من التّربة : المناطق الزّراعية وهي الواقعة في الغالب بالقرب من الواحات ومن الفضاءات العذراء التي تشكّل

1-MAGUELONNE (J), Monographie de la tribu des Ziban, Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de Constantine, 1910, pp 213-214.

2-Archives d'outre-mer d'Aix en Provence, 10 H 18. Notice sur la division territoriale de la population indigène par le lieutenant Dubosquet, Biskra, 31 décembre 1848.

مراع فسيحة للماشيّة. وتغطّي الرّمال بعض الأماكن من التّراب. " والتربة – كتب هنري فابر (Henri Fabre) تتكوّن من رمال دقيقة، سهلة التفكّك، وهي في الغالب متجانسة يسهل المشي عليها بسرعة."وهي على ارتفاع صغير عن سطح البحر، إذ أنّها لا تتجاوز 100 متر ببسكرة، وتسير نحو الانخفاض كلّما اتّجهنا نحو الجنوب.[1]

أمّا الزّاب الظّهراوي فيتميّز بروابي مرتفعة، صخريّة في معظمها وتعدّ أراضيها خصبة لزراعة النّخيل. وتقوم معظم التجمّعات حول ينابيع ماء تتدفّق في أماكن كثيرة من المنطقة. وأمّا الزّاب الشّرقي فيتميّز بزراعة الجبوب وهو عبارة عن مساحات واسعة تجتازها أوديّة متعدّدة، وتتكوّن تربتها من الصّلصال الأبيض والطّين. وتعلو الزّاب القبلي المتكوّنة تربته من رمال ليّنة، سلسلة من الروابي القليلة الارتفاع .[2]

ويعدّ مناخ إقليم الزّاب دافئا شتاء ومرتفع الحرارة صيفا. وتصل درجات الحرارة الدّنيا 4° أما القصوى فقد تقارب 50 أمّا الأمطار فهي نادرة ولا تنزل إلا على شكل مزون عنيفة. وعلى سبيل الذّكر، فإنّ معدّل تساقط الأمطار يدور حول 150 ملم سنويا.وتعدّ ريّاح الجنوب (الشهيلي) من أشهر ما تمتاز به المنطقة، وعادة ما يتسبّب في زوابع رمليّة تقتلع التّربة والرّمال[3].

إنّ وادي جدي ووادي بسكرة (سيدي زرزور) ووادي الأبيض هي أهمّ الأوديّة التي تسقي أراضي الزّيبان وتصبّ كلّها في شطّ ملغيغ وهو حوض يقع جنوب

1-A.O.M, 12, X, 72, Le Sahara algérien.

2-DUBOC, Mémoire sur la constitution géologique des Zibans et de l'Oued Rir, Paris, Carrelian, Goeury et Dolmont, 1850, pp 20-35

3- CATALDO (Hubert), Biskra et les Ziban, Montpellier, collection Français-Auliers, 1988, p 8.

الإقليم. ويوجد نبع رأس وادي جدي بجبال عمور قرب الأغواط ويسري من الغرب نحو الشّرق قاطعا مسافة 500 كلم ساقيّا بصفة خاصّة واحات الزّاب القبلي .[1]أمّا وادي بسكرة فينبع من روابي قرب باتنة ليتّجه جنوبا ساقيّا مدن للقصر، عين التّوتة، القنطرة ثم يتفرّع في سهل الوطاية ليسقي بسكرة. وأما الوادي الأبيض فينطلق من روابي المدينة بجبال الأوراس ثم ينحدر نحو سريانة محاذيّا الزّيبان بعد أن يحما اسم وادي بيراز.[2]

وتجمّع المياه لتوجّه عبر قنوات لتسقي المناطق المزروعة. أما في بعض الواحات، على غرار سيدي خالد وأولاد جلال، فإنّ السّقي يقوم بواسطة آبار.

وعلى غرار كلّ المناطق الصّحراويّة كان سكّان إقليم الزّاب أثناء تلك المرحلة ينقسمون إلى فئتين : فئة الحضر المستقرّين وفئة البدو الرحّل.

الحضر أو القصوريون (سكّان القصور) كانوا يقيمون بقرى ويعملون داخل واحات. وكان عملهم ينصبّ على فلاحة النّخيل التي تمثّل مصدر عيشهم ووسيلة رزقهم ؛ وتأتي في الدّرجة الثّانيّة زراعة التّوابل ونبات الحنّاء .[3]

وتشتغل النّساء بالنسيج التقليدي وخاصّة صناعة الزرابي والبرانيس والحيّاك والأغطيّة، وكلّ ما تعلّق بالخيل والأكياس التي تستعمل في نقل الحمولة على ظهور الإبل وغير ذلك ...ولتسويق هذه المنتوجات الفلاحيّة والنسيجيّة يتنقّل السكّان عبر مختلف أسواق الزّاب للتّجارة وتبادل السّلع. ومن تلك الأسواق، يقتنون كلّ ما يحتاجونه من حبوب (قمح وشعير) ومن

1-A.O.M. 10 H 18, Etude sur les Ziban.

2-MALEGUONNE, op, cit, pp 217-218.

3-GUYON, Voyage d'Alger au Ziban en 1847, op, cit, pp 201.

أغنام ومن سلع أخرى كالأحذيّة والعطور وغيرها ..بعض الأشخاص يتنقّلون نحو الجزائر العاصمة وقسنطينة لممارسة أعمال مختلفة ليعودوا إلى قراهم ببعض الأموال التي ينفقونها في توسيع بساتينهم.[1]

وكان السكّان الحضر يعيشون في بيوت تبنى بالطوب المصنوع من قوالب من الطّين تجفّف في الشّمس، بينما تسقّف بيوت من جذوع النّخل وجريده وتغطّى بطبقة سميكة من الطّين. وتسمح فتحات صغيرة بدخول الهواء والضّوء. كما كانت البساتين المحيطة بالقرى تصان بأسيجة مزرّبة، ممّا يجعل اقتحامها أمرا صعبا[2].

أمّا البدو الذين كانوا يعيشون في ضواحي الواحات في فترات معيّنة من السّنة، فكانوا قسمين : العرب الشّراقة والعرب الغرابة [3].ويملك هؤلاء الرحّالة ثروات تعادل أو تفوق ثروات الحضر المقيمين. وعلى سبيل الذّكر، كان أهل ابن علي وغمرة يملكون ثلث بساتين النّخيل المتواجدة بالزّاب الظّهراوي، بينما يملك الشّرفة كامل البساتين تقريبا في الزّاب القبلي .أمّا معظم مداخيلهم، فكانت تأتيهم من تربيّة المواشي ومن التّجارة. وكان البعض منهم يمارس حرفة الفلاحة ولو على نطاق ضيّق في مساحات محدودة.

1-CARETTE (Emile), Recherches sur la géographie et le commerce de l'Algérie méridionale, Paris, 1845, p 219.

2-FERAUD (Charles), Kitab El-Adwani ou le Sahara de Constantine et de Tunis, Constantine, L. Arnolet, 1868. Voir son étude sur les Ziban à l'annexe, p 178.

3-Les principales tribus des Arabes Ghraba étaient les Selmya, les Rahmanes et les Byazid et les principales tribus des Arabes Chraga étaient les Ahl-Ben-Ali, les Ghamra et les Chorfa.

أهم قبائل العرب الغرابة هي رحمان والسلمية، البوازيد، الشرفة، أهل بن علي، غمرة.

ويمكن إضافة بعض المداخيل الماليّة التي كانوا يحصلون عنها من نقل الحبوب والبضائع من التلّ إلى الصّحراء أو العكس[1].

كان التلّ دائما هو المنطقة التي تنتقل إليها قبائل البدو الرحّل في فصل معيّن من السّنة بحثا عن مراعي لمواشيها. وكانت القبائل التي تتوجّه إلى التل تتجمّع في فصل الرّبيع بسهل الوطاية شمال بسكرة قبل أن تسلك وجهتها النهائية. ويستغل الرّحل فرصة الطّريق لبيع بعض المنتوجات كالتّمر والألبسة والحنّاء وحتّى الأسلحة، وبالمقابل يشترون الحبوب والحمص والزّيت. وفي الخريف، وفي نهاية أكتوبر يعود الرحّل إلى الزّاب تزامنا مع نضج التّمور ليضربوا خيّامهم في مرابعهم الخاصّة. وبعد جني التّمور تبدأ حركة حثيثة في الأسواق لبيع المنتوج وما حمله الرّحل من سلع من التلّ. وأمّا الفائض فيخزّن لدى المقيمين بالقرى المنتشرة بين الواحات.[2]ويقضي الرّحل معظم الفصل البارد في مضاربهم بالباديّة ليستأنفوا رحلتهم نحو التلّ عند حلول الرّبيع[3].

1-A.O.M, 10 H 18, Notice sur la division territoriale et la population indigène par le lieutenant Dubosquet, Biskra, 1848.

2 -Le Ksourien (citadin) qui emmagasine les provisions des nomades obtient en contrepartie une quantité de grains ou de dattes variable suivant les fractions, mais qui est généralement de 1/20 de ce qui est confié à sa garde. Voire archives du ministère de la guerre à Vincennes, MR 882, Biskra, 21 juin 1885.

القصوري يخزن مؤن البدو ويأخذ بالمقابل 1/20 من الحبوب أو التمر حسب الفصول كما يتولى حراسة المؤونة

3-DAUMAS, Le Sahara algérien, pp 107-108.

كم كان عدد سكّان إقليم الزّاب في بداية الاحتلال الفرنسي ؟ الملازم سيروكا (Sous-lieutenant Séroka) قدّم سنة 1850 عدد 16009 نسمة [1].وفي سنة 1848، الملازم الأوّل دي بوسكي (Lieutenant Dubosquet) رئيس مكتب العرب ببسكرة، قدّر عدد السكّان ب 7280 نسمة، وهو تقدير قريب من التّقدير الذي قدّمه الرّائد توماس (Commandant) (Thomas) سنة 1844 وحصره في 7000ن. لفئتي سكّان اللزاب. وعلى حسب تقديرات خاصّة أقمناها على دراسات أجريّت في تلك المرحلة، يكون عدد سكّان الزّاب يتجاوز 15000 نسمة[2].

وعلى غرار كلّ مناطق القطر الجزائري، كان الزّاب مجبرا على قبول سلطة الأتراك أثناء النّصف الأوّل من القرن السادس عشر .ففي سنة1541 ،

1-A.O.M, 16 H 2, Tableau établi par le sous-lieutenant Séroka sur les confréries dans le cercle de Biskra, Biskra le 18 octobre 1851.

2-Ces estimations, nous les avons faites à partir de deux tableaux établis par le commandant Thomas et le lieutenant Dubosquet, tableaux dans lesquels ils ont recensé le nombre de la population du Zab, village par village. Voir sur ce sujet et à propos des études relatives à la population du Zab de l'époque, les sources suivantes : A.O.M 10 H 18, Notice sur la division territoriale et la population indigène par le lieutenant Dubosquet, 6 H 26, renseignements politiques par le commandant Thomas en 1844, 12 x 72, Le Sahara algérien, A.O.M, F 80 551, statistiques du cercle de Biskra.

وبعد حملة عسكريّة، استطاع حسن آغا أن يخضع الزّاب لسلطة باي قسنطينة مانحا القيّادة للذواودة[1].

كان التّنظيم السيّاسي في منطقة الزّاب يتّكئ على سلطة شيخ العرب. ويمتدّ سلطان هذا الأخير جغرافيّا من الأوراس وبلازما شمالا ومن الجريد شرقا إلى منطقة الأغواط غربا. ويخضع شيخ العرب إلى سلطة باي قسنطينة مباشرة، حيث يتلقّى منه الأوامر والتّعليمات. وتتّسم سلطة شيخ العرب بطابعين في آن واحد عسكري ومدني (إداري). ويساعد شيخ العرب القيّاد وشيوخ القبائل حيث يطبّق سلطته بصرامة فيما يخصّ الأمور العاديّة. وفي

1-L'Ancêtre des Dawawda fut Dawd ibn Mredas, l'un des chefs de la grande tribu de Riah, issu des Banu Hilal. Les Dawawda étaient d'abord campés au sud de Tunis, mais à la suite d'une guerre survenue entre les Banu Salim et les Riah au temps du sultan hafside Abu Zakarya Yahia, ils s'installèrent dans les plaines de Constantine et de Bougie, les plateaux du Tell et les pâturages du Zab, du Righ et d'Ouargla. Lorsque les Turcs arrivèrent dans la province de Constantine, l'influence des Dawawda atteignit son apogée. C'était la raison pour laquelle les Turcs s'associèrent avec eux pour commander le Sud-Constantinois jusqu'à l'avènement du Bey Ahmed Al-Qulli en 1756. Pour plus de détails sur l'histoire des Dawawda avant l'arrivée des Turcs, Voir IBN KHALDOUN, Histoire des Berbères, traduction de De Slane, tome 1, chapitre relatif à l'histoire des Riah, p70.

جدّ الذواودة هو داوود بن مرداس أحد رؤساء قبيلة ريّاح الهلالية .في البداية استوطن الذواودة الجنوب التونسي، ثم زحفوا نحو سهول قسنطينة وبجاية والزّاب وورقلة على إثر حرب وقعت بين سليم وريّاح .وعندما جاء الأتراك إلى قسنطينة وصل مجد الذولودة إلى قمته، بعد أن أصبحوا يشاركون الأتراك في حكم الجنوب القسنطيني إلى غاية عهد الباي أحمد القلي سنة 1756. لمزيد من التفاصيل، انظر ابن خلدون، تاريخ البربر، الجزء1 ، الفصل المخصص لتاريخ ريّاح، ص.70

المسائل المعقّدة، يتدخّل الباي بنفسه سواء بتعيين شيخ عرب آخر أو بإرسال بعثة عسكريّة لترسيخ سلطته[1].

ولفرض سلطته في الميدان، كان شيخ العرب يعتمد على" دائرة مزارقية "أي على مجموعة من الخيّالة يختارهم من قبيلة أهل بن علي يصل عددهم أحيانا إلى 4000 فارس في عهد أحمد باي. وزيادة على ذلك، كانت توجد ببسكرة" نوبة "أو ثكنة تحوي 100 جندي تركي قابلين للتّجديد كلّ سنة. لكنّ بعض الجنود كانوا يتزوّجون ببسكرة ويقيمون فيها، ممّا يفسّر وجود عائلات كرغليّة بالمدينة. وزيّادة عن الأموال التي تمنحها خزينة الجزائر 100 (بيجو في السّنة)، يتلقّى جنود النّوبة مبلغا غارّا من السكّان يقدّر ب 4 بيجو شهريّا. ولم يكن جنود الثّكنة يخرجون كثيرا إلى ما وراء جدران المدينة، لأنّ مهمّتهم الرئيسيّة، كانت تقتصر على حراسة مخازن الحبوب التي يملكها البايلك، وعلى مساعدة شيخ العرب في جمع أموال الغرامة[2].

ومن ذلك التنظيم السياسي الذي كانت تجسّده سلطة رجل واحد المتمثّل في شيخ العرب، استفاد مختلف البايات الذين تعاقبوا على حكم قسنطينة بما أنهم كانوا يبسطون أيديهم على المنطقة وخاصّة على المداخيل الماليّة التي كانت تدرّها الغرامة، دون أن يكلّفوا أنفسهم التكفّل بمشاكل العامّة. وهكذا كانوا يقوّون الجند المحيط بهم من الانكشاريين ليستعملوهم في أغراض أخرى. وكان ذلك النّظام السياسي الذي كان يمنح سلطة الجماهير إلى

1-Tableau de la situation des établissements français en Algérie en 1940, Paris, 451, p 9 cartes, décembre 1841, p 319.

2-Tableau de la situation des établissements français en Algérie en 1940, Paris, 451, p 9 cartes, décembre 1841, p 334.

أعوان محليّين تحت أسماء مختلفة، هو الذي مكّن العثمانيين من حكم الجزائر لعدّة قرون دون الحاجة إلى جيش قويّ.

ولقد عرفت الحالة العامّة في الجنوب القسنطيني تحوّلا هامّا بعد ظهور آل بن قانة على المسرح السياسي. ففي أصولهم العرقيّة، يتصل نسبهم بفاطمة الزّهراء بنت النبي محمد(ص) بحسب حشلاف مؤلّف كتاب عائلات الأشراف في الجزائر وفي ذلك كتب": إنّها شجرة طيّبة مباركة، ذات أصول متينة مرتبطة بسيّد الأنبياء والمرسلين، ومقرّرة من طرف علماء أجلاّء وقضاة مشهورين وضعوا عليها شهاداتهم ووقّعوا عليها بخواتمهم. "[1]

أمّا الملازم سيروكا (Sous-lieutenant Séroka) الذي كانت له معرفة قويّة بشؤون الزّاب، فإنّه يقدم احتمالين :" حسب البعض، يقول سيركا، يكون آل بن قانة من الذواودة، وحسب البعض الآخر فإنّ جدّهم هو أحد مرابطي قبيلة سيدي سليمان الذي كان يملك زاويّة برجّاز قرب ميلة، كما كان له مسجد بقسنطينة يعرف باسم جامع سيدي سليمان المجذوبي "[2]..وأما شارل فيرو (Charles Féraud) فيقول إن أصل آل بن قانة يعود إلى قانة وهي امرأة كانت تعيش خلال القرن الثّامن عشر بقرية كوكو بجرجرة في بلاد القبائل .ويكون أبناؤها قد تفرّعوا ومنهم الفرقة التي لعبت دورا في تاريخ الزّاب، وهي الفرقة التي استقّرت من قبل بقرية رجّاس قرب ميلة. وبعد مدّة، ختم فيرو، تزوّجت إحدى بنات قانة بجندي تركي تمكّن من الصّعود إلى منصب باي على قسنطينة وهو الباي أحمد القلّي.وهكذا تحوّلت عائلة بن

1-Ali Hachelaf Sidi, Les Chorfas : Les nobles du monde musulman, Paris, Publisud, 1995, pp 141-147.

2-A.O.M, 10 H 76, Histoire de Biskra, par Séroka.

قانة إلى عائلة نافذة في إقليم قسنطينة بكامله، ولم يكونوا تنقصهم إلاّ السّلطة[1].

إلى غاية 1762 كان اللّقب التّشريفي لشيخ العرب يمنح قسرا إلى الذواودة، وخاصّة إلى عائلة بوعكّاز. وعندما صعد الباي أحمد القلّي على عرش قسنطينة سنة 1756 تجرّأ لأوّل مرّة بعد سنوات من الحكم على منح لقب شيخ العرب إلى عائلة بن قانة. وكان ذلك سنة 1762 بعد عودة قوافل الزّاب من الحجّ والتي كان يقودها محمّد بن علي بن سليمان بن قانة. وكانت جموع الحجيج تقدّر العمل الذي كان يقوم به رئيس ذلك الوفد المهيب، ولذلك تقدّموا إلى الباي طالبين منه تعيينه كشيخ عرب. ولإرضاء ذلك المطلب، ونظرا لقربه العائلي من آل بن قانة، لم يتردّد أحمد القلّي في تعيين محمّد بن علي بن سليمان بن قانة كشيخ عرب، وكان ذلك سنة[2] 1762 .

وبالطّبع، فإنّ ذلك القرار، قد فتح عهدا جديدا من الصّراع بين تلك العائلتين

الإقطاعيتين دام طويلا إلى ما بعد احتلال الزّيبان .[3]وإلى غاية 1838 تاريخ نهاية سقوط آخر قلعة تركيّة بالجزائر، كان شيوخ العرب الذين تداولوا على المنصب هم:[4]

1-FERAUD (Charles), Le Sahara de Constantine, op, cit, pp 241, 215, 216.

2-BUAZIZ BEN GANA, Etude historique sur la famille Ben Gana, op, cit, p20.

3-A.O.M. 6X 19, Rapport sur le projet de chemin de fer transsaharien par Féraud.

4-A.M.G, 1 H 4809, Monographie de Biskra et de Touggourt.

	شيخ العرب	المرحلة
01	الحاج محمد بن علي بن قانة	1762- 1768
02	محمد بن محمد بن علي بن قانة	1768- 1788
03	محمد بن بوعكّاز	1788- 1793
04	محمد بن محمد بن علي بن قانة	1793- 1794
05	محمد الصغير بن محمد بن قانة	1794- /
06	إبراهيم بن الحاج بن محمد بن قانة	1803- 1894
07	محمد الصغير بن محمد بن قانة	1803- /
08	الذبّاح بن بوعكّاز	1803- 1805
09	علي بن علي بن القيدوم	1805- 1818
10	الذبّاح بن بوعكّاز	1818- 1819
11	محمد بن الحاج بن عبد الله بن قانة	1819- 1821
12	فرحات بن سعيّد بن بوعكّاز	1821- 1826
13	محمّد بن الحاج بن قانة	1826- 1833
14	بوعزيز بن بولخراص بن قانة	1834- 1838

ويتبيّن من هذا الجدول أنّ معظم من تقمّصوا هذا المنصب كانوا من آل ابن قانة ؛ أربعة منهم فقط كانوا من آل بوعكّاز. ومن السّهل فهم هذا الاختلال في عدم التّوازن بين العائلتين لأنّ عائلة ابن قانة كانت تحظى بشيء من النّفوذ لدي بايات قسنطينة .وكان جزء من هذه العائلة يقطن بالتل بل بقسنطينة نفسها، ممّا جعلهم مقرّبين من مركز القرار .والأكثر من ذلك أن بعض البايات كانت تربطهم علاقات قرابة مع عائلة ابن قانة. أمّا شارل فيرو (Charles) (Féraud) الذي لاحظ هذا التقارب والذي لم يكن على وفاق مع آل ابن قانة، فقد ذهب إلى حدّ قول: " سيكون من الدقّة القول

بأنّ الحماس الذي كانت تضعه إحدى العائلتين لتستأثر وحدها وبدون أيّ تقاسم، بالسيطرة المطلقة على مصير أقاليم الجنوب. وللوصول إلى الغاية، فإنّها لم تتردّد في استعمال كلّ الوسائل المتاحة بما في ذلك الوسائل المشبوهة "..

وكان التّنافس بين عائلتي ابن قانة وبو عكّاز ينبع من الرّغبة الجامحة لديهما للوصول إلى مسؤوليات سيّاسيّة. وعلى كلّ حال فقد كانت هناك أيضا عوامل اقتصاديّة واجتماعيّة بحتة تدفعهما إلى مثل هذا التّنافس. وبسيطرة عائلة بو عكّاز لقرون طويلة على قبائل بدويّة تستحوذ على أوسع وأجمل الأراضي في المنطقة، تمكّن الذواودة من جمع ثروات طائلة. غير أنّ، وابتداء من سنة1762 ، برز آل ابن قانة وبدأوا يهدّدون مصالح آل بوعكّاز الاقتصاديّة ويقوّضون من سلطتهم على قبائل الزّاب. وعلى سبيل المثال، تمكّن آل ابن قانة شيئا فشيئا من استمالة سلمية ورحمان والخضران وأولاد بوحديجة، ثمّ التحالف معهم.أمّا القبائل الكبرى الأخرى : أهل بن علي، غمرة والشّرفة فقد بقيّت على وفاق مع آل بوعكّاز. ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ السّلطات السياسيّة بقسنطينة، بما في ذلك في العهد الفرنسي، كانت تشجّع تلك الخلافات وتعمل على إطالتها .

لقد كان تاريخ الثورات الجزائريّة خلال القرن التّاسع عشر ميلادي محلّ اهتمام كبير من طرف المؤرّخين الجزائريين والفرنسيين لأسباب مختلفة. وفيما يخص منطقة الجنوب القسنطيني التي يمثّل الزّاب جزءا منها، نسجّل رسائل كثيرة كتبت حول الأوراس خاصّة في القرنين التّاسع عشر والعشرين. ولنذكر على سبيل المثال أطروحة الدّولة التي تناولها عبد الحميد زوزو

سنة 1992 ، حول التطوّر السيّاسي والاقتصادي والاجتماعي ما بين 1837 و . 1937وفي فصل خصّصه الباحث لثورة الزعاطشة، ولاحظ أنّ الانتفاضة كانت" من الوجهة العسكريّة عبارة عن قضيّة كبيرة، أمّا من الوجهة السيّاسيّة فكانت رمزا لكفاح منسّق ومعمّم".

ولقد بدا لنا من غير الطّبيعي -ورغم وفرة الأرشيف -ألاّ تقام دراسات حول ثورة الزّعاطشة. لقد ترك هذ العزوف مجالا حرّا للمؤرّخين لإبداء آراء مقتضبة إلى درجة أن البعض منهم كان يطلق أحكاما غير مؤسّسة. فعندما أرجع بيليسييه (Pélissier)[1] متبوعا بأندريه جوليان(André Julien[2])، أسباب اندلاع الانتفاضة إلى رفع الغرامة وتوسيع فرضها وإلى الحصار الذي عانت منه قرية الزّعاطشة خلال شهري أكتوبر ونوفمبر عام 1849 ، فإنّهما كانا مجانبين للحقيقة، حتى وإن كان هذان العنصران من الأسباب الرئيسة للانتفاضة، فإنّهما لا يمثّلان إلاّ جزءا من ثورة اندلعت في الحقيقة ابتداء من شهر ماي1849 . ولن يكون للعنصرين معنى إلاّ داخل الإطار العام للثّورة.

لقد كانت ثورة الزّعاطشة من عمل رجل واحد هو الشّيخ بوزيان. ولا بدّ لهذا العمل أن ينصبّ على مختلف مظاهر سيّاسة هذا الرّجل ومفهومه للجهاد والوطنيّة. وباختصار: على صورته كرجل دين وسيّاسة وقتال. ومن أجل ذلك، استدعت الضّرورة البحث عن وثائق مدوّنة بالعربيّة، سواء كانت مكتوبة من طرف الشّيخ نفسه أو من المقرّبين إليه من رفاقه. ويجدر القول،

1-Pélissier de REYNAUD, (E) Annales algériennes, Paris, Dimaine, Alger, Bastide, Vol III, 1854, p.316-478.

2-JULIEN Charles-André, Histoire de l'Algérie contemporaine, Paris P.U.F, tome I, p. 384.

بأنّ الفرنسيين لم يكونوا يعرفون شيئا عن الشّيخ بوزيّان قبل أن ينادي بالجهاد المقدّس. ومن ثمّة بدأ الفرنسيون يرسمون صورة جزافيّة غير مكتملة عن شخصيّة بوزيّان معتمدين على ما كانوا يستقونه من المسؤولين من عملائهم من العرب. ولقد مكّنتنا جملة دسمة من الوثائق المكتوبة بالعربيّة من دراسة شخصيّة الشّيخ وأعماله بشكل علمي. وفي الفترة التي تلت سقوط الحكم التّركي بالجزائر في غياب سلطة سياسيّة مركزيّة حقيقيّة "كان الشّعور الدّيني هو التيّار الوحيد الذي كانت له القدرة على المرور بين قبيلة وأخرى "على حسب ما أشار إليه رونيه غاليسو (René Gallissot)[1] وكانت القبائل تتجاوز خلافاتها وانشقاقاتها لتتّحد في مقاومة الغزو الفرنسي. وإن كان الإسلام قد لعب دورا محوريا في كامل الثّورات فإنّه لم يعتمد الأشكال نفسها في كلّ الانتفاضات.

ففي عام1870 ، اندلعت ثورة باشاغا المقراني برغبة منه ولكن لأسباب أخرى غير دينيّة، لكن سرعان ما تدخّل الشّيخ الحدّاد أحد أقطاب الطريقة الرّحمانية لدعم الانتفاضة على أساس الجهاد المقدّس. وهكذا إنّه لمن المهمّ العودة إلى الدّور المهمّ الذي لعبه الإسلام في ثورة الزّعاطشة لنقف على أهميّة المشاعر الدّينيّة وإلزاميتها في تأجيج ثورات المقاومات الّشعبيّة .

ولإخماد بعض حركات المقاومة، كانت فرنسا تقدم منذ 1830 على محاصرة حواضر ومدن جزائريّة. فعلى سبيل المثال عندما حاصرت فرنسا الأغواط الواحة الصحراوية الهامة سنة 1852 بواسطة لفيف عسكري يقوده الجنرال بيليسييه (Pelissier)، كانت الواحة تحتوي على 600" منزل "على حدّ

1-GALLISSOT (René), Abdelkader et la nationalité algérienne, Revue historique, II, 1965, p.345.

قول العقيد بيين (Colonel Peine) . أمّا قرية الزعاطشة فلم تكن تتكوّن إلاّ من ثلاثين منزلا ! فكيف سقطت الأولى في فترة وجيزة من القتال بينما صمدت الثّانيّة مدّة 52 يوما كاملة؟ إنّ ملحمة الزّعاطشة تمثّل حدثا فريدا من نوعه في تاريخ الجزائر المعاصر. ولمعرفة أسباب طول حصار الزّعاطشة وامتداده، يجب العودة إلى تطوّرات تلك الثّورة منذ بدايتها، لنعثر عن الإجابات المناسبة فيما تعلّق بالكيفية والوسائل التي استعملها كلّ طرف : المهاجم والمدافع .ومن خلال ذلك تظهر لنا أهميّة حركة التّضامن الواسعة المغموسة بالمشاعر الدّينيّة التي مسّت الزّعاطشة من كامل مناطق الجنوب القسنطيني، وقدّمت للمدافعين عنها مساعدات ثمينة.

إنّ حركة الأمير عبد القادر بسبب طابعها الوطني، تطغى عن تاريخ المقاومات الشعبيّة الجزائريّة خلال القرن التّاسع عشر. لكن، وبعد توقّف ثورة الأمير سنة1847 ، فإنّ المقاومات لم تفشل وظلّت مستمرّة حيث عرفت الجزائر حركات متواصلة، تعدّ ثورة الزّعاطشة من أهمّها، ذلك أنّ الشيّخ بوزيّان كان من أبرز المناصرين السّابقين للأمير عبد القادر في المنطقة سنة 1838. وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار ثورة الزّعاطشة امتدادا منطقيّا لثورة الأمير في منطقة الزّاب.

لقد أردت أن أركّز في هذا العمل على الجانب السياسي والعسكري في ثورة الشّيخ بوزيان. ولم يكن الأمر سهلا. وهكذا، وفيما يخص الأشهر الأولى من بداية الانتفاضة، كان لزاما علينا الجمع بين شتات من المعلومات المتفرّقة التي كان مصادرها عربي بالأساس لمحاولة فهم كيف تطوّرت الثّورة في بدايتها. وكان لا بدّ من ترك هذه المصادر تتكلّم لمناقشتها والتعليق عليها فيما

بعد. وربما كان علينا الاستغناء عن بعض التّفاصيل لو أنّ الثّورة كانت قد دامت مدّة أطول.

إن النّقاط الثّلاثة المتعلّقة بشخصيّة الشيخ بوزيان، ودور الإسلام وخصوصيّة ثورة الزعاطشة، تمثّل أهمّ المسارات التي اتّخذها البحث، غير أنّ العمل في جوهره يتمركز حول تساؤل مهمّ وهو : ما هي خصوصيّة ونوعيّة ثورة الزّعاطشة مقارنة مع ثورات أخرى حدثت في الجزائر خلال القرن التّاسع عشر؟

إنّ الأرشيف المتواجد وراء البحار والمتمركز أساسا في مركز إيكس أو بروفنس (Aix en Provence) يشكّل المصدر الأساسي لاستقاء المعلومات عن ثورة الزّعاطشة، حيث نجد هناك مراسلات قائد الحملة على المدينة ومراسلات مختلف ضبّاط نيابات القيّادة بباتنة، وخاصّة تقارير المكتب العربي ببسكرة وباتنة. ويمكن أضافة لهذا الزّخم من الوثائق، الدّراسات المختلفة التي أقيمت لفائدة الإدارة الفرنسيّة، بمختلف الأقاليم المتواجدة على مستوى قيّادة باتنة. ولكن، ورغم ذلك، فإنّه لا يجب إغفال أنّ معظم هذه المصادر تعكس المواقف الرّسميّة للإدارة الفرنسيّة، ولذا وجب أن تؤخذ بكلّ حذر.

إنّ هذا العمل يرتكز في معظمه على مخطوطات عربيّة كان الفرنسيون قد استولوا عنها بعد معركة سريانة وخلال اقتحام الزّعاطشة .

خلال السنة الأولى من البحث، اضطررنا إلى العمل وفق التّقارير التي كانت تصدر عن الإدارة الفرنسية وعن السّلطات العسكريّة. وكان من الواضح أنّ العمل سيكون منقوصا إن نحن اكتفينا بهذه المصادر. لكن، وخلال السّنة الثّانية من البحث، تمكنّا من العثور على رسائل مخطوطة تتمثّل في عشرين

رسالة مخطوطة بالعربيّة وكرّاسا يحتوي على تراجم رسميّة لسبع وثلاثين أخرى كلّا ذات علاقة بثورة الزّعاطشة. وهكذا أعطينا للبحث وجهات أخرى، منها على سبيل المثال الطّابع الدّيني والسّياسي لانتفاضة الزّعاطشة.
أمّا في أرشيف وزارة الحرب بفنسان (Vincennes) فتوجد جملة من الوثائق الهامّة المتعلّقة بالزعاطشة. ويحتوي هذا المركز على أهمّ التّقارير والخرائط والمخطّطات المنجزة من طرف ضبّاط الحملة الثّانية على الزعاطشة، خلال وبعد الحصار على المدينة. وزيّادة على ذلك، توجد مراسلات كثيرة وتعليمات مفيدة تساعد على فهم بعض مظاهر الثّورة. ولقد مكّننا المكوث أيّاما طويلة بهذا المركز من استغلال معظم فحوى هذه المصادر.
ولقد تبيّن لنا أنّ الشّهادات والبصمات التي تركها شهود كانوا على صلة بوقائع الزّعاطشة كانت ذات أهميّة لا يمكن تجاهلها، ويمكن تقسيمها إلى نوعين : شهادات المسافرين والضبّاط الذين مارسوا وظائف في منطقة الزّاب وشهادات العسكريين الذين حملوا أحداثا عاشوها بأنفسهم خلال انتفاضة الزّعاطشة.
وفيما يخص الفئة الأولى نذكر على سبيل المثال الكتاب الذي نشره الدكتور غيون (Docteur Guyon) سنة 1852 ، والذي تعرّض فيه بإسهاب خلال رحلته إلى الزّاب سنة 1847 إلى وصف الحالة السياسيّة والاقتصادية والاجتماعيّة للمنطقة، وقد أرفقه بأطلس يحتوي على صوّر معظمها لمعالم من قرى الزّاب .كما نشير إلى القصّة الطويلة لتاريخ بسكرة التي نشرها كلّ من الملازم سيروكا (Sous-lieutenant Séroka) والنّقيب بيسوال (Capitaine Bisuel) في المجلّة الإفريقيّة، والتي كانت لها أهميّة كبيرة حاصّة من الوجهة التّاريخيّة

والعسكريّة في المنطقة. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذين الضّابطين كانا يستقيّان المعلومات من أرشيف إقليم بسكرة (Cercle) .

ونظرا لذلك، فإنّ معلوماتهما، زيّادة عن اشتغالهما في وظائف مختلفة في الإقليم المذكور، لا يمكن أن تمثّل إلاّ الجانب الرّسمي في الإدارة الفرنسيّة. ولكنّ ذلك لا ينقص من أهميّة المعلومات التي كانا يمتلكانها بالنّسبة لبحثنا. وأعتقد أنّ على كلّ باحث يعمل في مسائل الجنوب القسنطيني خلال القرن التّاسع عشر، أن يستفيد من عمل هذين الضّابطين على وجه الخصوص.

ومن المذكّرات التي كتبها ضبّاط وجنود عايشوا أحداث الزّعاطشة عن قرب، نشير إلى مذكّرات الجنرال هربيون (Général Herbillon) بصفته قائدا للحملة ضدّ الزّعاطشة، والتي نشرت سنة 1863 . وتوضّح لنا هذه المذكّرات جوانب مهمّة عن أصل الانتفاضة وتطوّرها وظروف الحصار وحيثياته والحالة النفسيّة التي كان عليها جنود الاحتلال ومواقف وعزائم المدافعين عن المدينة. ومن مجمل مذكّرات هؤلاء الضبّاط والجنود، يظهر لنا أنّهم لم يطّلعوا عن الأرشيف وإنّما أطلقوا العنان لكلّ ما سجّلته ذاكرتهم، خاصّة ما تعلّق بتألقهم في القتال بشكل لا يخلو من المبالغة. غير أنّ بعض التفاصيل لا تخلو من فوائد مكّنتنا من إزالة بعض الضّلال عن حقيقة الانتفاضة.

فمن وجهة نظر عامّة، يبدو أنّ ثورة الزّعاطشة مرّت بمرحلتين كبيرتين هامّتين:

الأولى، وهي التي امتدّت من شهر ماي إلى شهر سبتمبر من عام 1849 .

الثّانيّة، وهي التي تغطّي كامل مدّة الحصار، أي ما بين 07 أكتوبر و 07 نوفمبر من السّنة نفسها، أو إلى ما وراء ذلك إذا وضعنا في الحسبان تداعياتها على نارة ومواصلة المقاومة إلى غاية جانفي1850 .

إنّ الطريقة التي اعتمدناها تبدأ من معالجة معمّقة لاندلاع الأحداث وتطوّر الثّورة وبروز الشّيخ بوزيّان وردّ فعل سلطات الاحتلال الفرنسي في الزّاب وكذا ردود أفعال رؤساء بعض القبائل العربيّة ..ذلك في القسم الأوّل من البحث ؛ ثم تناولنا في القسم الثّاني منه أسباب الانتفاضة وطابعها الدّيني والسيّاسي من خلال شخصيّة الشيخ بوزيّان ودور الرّحمانيّة في ذلك ؛ أمّا في القسم الثّالث، فقد تطرّقنا بالتّحليل إلى أسباب امتداد حصار الزّعاطشة لمدّة طويلة.

الباب الأول
السّلطات الفرنسيّة في الزّيبان
وثورة الزّعاطشة

الفصل الأوّل
غزو الزّيبان

في المرحلة التي استولى فيها الفرنسيون على مدينة الجزائر، عاصمة القطر، كان آل بوعكّاز يسيطرون بالكامل على شؤون منطقة الزّيبان. وكان رئيسهم فرحات بن سعيّد يكنّ عداوة خاصّة للباي أحمد حاكم القطاع القسنطيني، ذلك أنّ هذا الأخير عزله من منصب شيخ عرب كان يشغله منذ سنة 1821 لصالح أحد أخواله محمد بن الحاج بن قانة. وكان فرحات وهو الرّجل الطّموح المشاغب الملقّب ب"ثعبان الصّحراء" يعمل بكلّ الوسائل لاسترجاع مجده الضّائع.[1]

وكسابقيهم الأتراك عمل الفرنسيون إلى تأجيج الخلاف وتكريس الخلاف بين أهمّ عائلتين في المنطقة وعلى التقرّب من التي تخدم المصلحة الفرنسيّة. ولكن، وعلى خلاف الأتراك عزم الفرنسيون منذ البداية، على حكم المنطقة بصفة مباشرة وتكريس سلطتهم الفعليّة عليها.

1 -Voici le portrait que lui dresse le sous-lieutenant Séroka :"Ferhat ben Saïd avait une de ses organisations de feu qui ne plaisent que dans la lutte, d'une bravoure impérieuse, généreux, simple et pieux; il rappelle le type des premiers héros de l'islamisme, mais son esprit inquiet, sans portée politique, impatient, incapable de fixer un but et de le poursuivre avec persévérance, nuisait à tant de belles et précieuses qualités.."

هذه هي الصورة النمطية التي رسمها الملازم سيروكا عن فرحات بن سعيّد.."": هو من تلك الشّعلة التي لا تتأجّج إلا أثناء القتال، لقد كان ذا شجاعة خارقة، كريم الطباع، بسيط المظهر، شديد الإيمان، وهو يذكّر بصفات أوائل أبطال الإسلام .غير أنّ فكره الحائر دوما ودون بعد سياسي، جعله مستعجلا وغير قادر على الاستقرار نحو هدف محدّد والعمل على بلوغه بكل عزيمة .هذه النقائص كانت تسيء إلى صفاته الحميدة..

1-1 سيّاسة التوغّل الفرنسي في شؤون الزّيبان (1832-1844)

بدافع اليأس والانتقام من باي قسنطينة، خطرت لفرحات بن سعيّد فكرة الاتصال بالفرنسيين منذ سنة 1831. وهكذا أقدم على الاتصال بالجنرال برتهيزين (Général Berthézène) قائد جيش إفريقيا بالجزائر العاصمة، ولم يتمكن من الحصول على أيّة إجابة .[1] وبعد قدوم الدّوق دي روفيقو Duc (de Rovigo) وتنصيبه كقائد لجيش إفريقيا راسله فرحات بعدّة رسائل أبدى فيها عزيمته على الانضمام إلى الجانب الفرنسي. وتشرح هذه الرّسالة التي تلقّها الدّوق من فرحات بتاريخ 23 مارس 1832، السّبب الرئيسي الذي حمل على إبداء هذا العرض :" إذا أردتم الاستيلاء على قسنطينة، سأتكفّل بجعل كل قبائل منطقتي تساندكم بقوّة القضاء والقدر. وهكذا، ستظفرون بكميّات معتبرة من القمح والشّعير والعسل والسّمن والزّيت والبقر ..لا تقلقوا، لأن شيئا لا ينقصكم ؛ سننتصر بسهولة وبدون إعانة غير مساعدتنا ..إذا عزمتم على القدوم، فسأبدأ الهجوم، ثم نتعاون بعد ذلك فيما بيننا"..

1-A.O.M, I E 205, Traduction officielle d'une lettre arabe adressée par le cheikh Ferhat au duc de Rovigo, daté du 5 mars 1832. Ce message a été apporté au duc de Rovigo par une délégation composé de son neveu Chérif ben Dahmane, de son secrétaire Hassen ben Azzouz qui sera Khalife dans le Zab au nom de l'émir Abdelkader après la prise de Constantine, et de six autres personnes. Voir Féraud, le Sahara de Constantine, op, cit, p 270.

A.O.M, I E 205ترجمة رسمية لرسالة بالعربية أرسلها الشيخ فرحات بن سعيّد إلى الدوق دي روفيقو مؤرخة في 5 مارس1832 . وحملها إلى الدوق وفد مؤلف من ابن أخي فرحات (أوابن أخته) الشريف بن دحمان ومن كاتبه الحسن بن عزوز الذي سيصبح خليفة للأمير عبد القادر بعد سقوط قسنطينة، ومن ستة أشخاص آخرين .انظر فيرو، صحراء قسنطينة,op, cit ص.270.

وفي الرسالة نفسها ذكّر الشّيخ فرحات بخصومته مع باي قسنطينة وبالنّفوذ القوي لقبيلته في بادية قسنطينة. وبسبب جهله التّام للشّأن في الزّاب وتشكيكه في النّوايا الحقيقيّة لفرحات بن سعيّد، اكتفى الدّوق دي روفيقو كلّ مرّة بشجيع فرحات على بقائه على اتّصال بالفرنسيين مع إبداء بعض التردّد بل نوع من التحفّظ تجاه المساعدات التي يمكن أن يقدّمها له.

"إنّه لمن دواعي الغبطة (كتب له بتاريخ 31 جولية 1832) أن أطّلع على انتصاراتكم المبينة على خصومكم. لكنني أأسف على عدم الردّ بصفة مرضيّة على طلبكم الذي يلزمني بالسّير لنصرتكم. إنّ الرّغبه في مساعدتكم لا تنقصني ولكنّ الطّقس يعترض عن ذلك ..حاول في هذه الفترة أن تطيل حبل الاتّصال لتمنحني الوقت لمساعدتكم بشكل أو بآخر. وكن مطمئنا بانني سأفعل ذلك"[1]..

لقد حاول الشيخ فرحات طوال المدّة الممتدّة ما بين 1836- 1832 إقناع الفرنسيين بضرورة مساعدتهم له قصد الإطاحة بالباي أحمد. لم يخطر فرحات بالحملة الأولى عن قسنطينة التي وقعت سنة 1836 حيث بقي في الصّحراء. لكن عند سقوط المدينة في الحملة الثّانيّة على يد الجنرال فالي (Valée) بتاريخ 13 أكتوبر1837 ، قدم فرحات إلى سيرتا في 27 من الشّهر نفسه مصحوبا بحوالي ألف فارس وبعدد من شيوخ قبائل الجنوب

1-ROVIGO (duc de), Correspondance du duc de Rovigo, Paris, Champion, Alger, Jourdan, Garbonnel, 1914-1924 4 volumes. Voir vol I, lettre de duc de Rovigo au cheikh Ferhat, Alger, 31 juillet 1832, pp 676-677.

القسنطيني .[1]وهناك استقبله الجنرال فالي" بكل الحفاوة التي يستحقّها "ثم عيّنه بعد أيّام قليلة كشيخ عرب عن منطقة الزّاب وما جاورها.

"إنّ تأسيس مشيخة العرب (كتبت المونيتور Moniteur algérien بتاريخ 19 جانفي1838) تُكمل تنظيم إقليم قسنطينة ... فرنسا لا تفكّر في إدارة هذا الإقليم الواسع لوحدها والذي جعلته بعد احتلاله تحت سلطة الملك : فلا بدّ عليها للضّرورة، أن تجعل تحت إمرة الحاكم العام قادة من الأهالي توكل لهم قيّادة القبائل البدويّة التي تقطن خارج الخطوط المحتلّة من قبل فرقنا[2]"

ولمحاربة أحمد باي وآل ابن قانة الفارّين معه منذ سقوط قسنطينة، حاول فرحات بن سعيّد بدون جدوي، الحصول على دعم بجنود نظاميين من قبل المارشال فالي(Maréchal Valée)[3]الذي رقيّ لدى عودته إلى الجزائر في 29 أكتوبر 1838 إلى رتبة مارشال. غير أنّ هذا الأخير أمر خلفه العقيد برنال (Colonel Bernelle)الذي أوكلت له قيّادة إقليم قسنطينة، أن يجامل بحذق الشّيخ فرحات" لعلّه يكون مفيدا لمواجهة أحمد باي - الذي يعدّ عدوا له - خارج أراضي الإقليم ،ممّا يسمح بانتشار الأمن وازدهار التّجارة بين القبائل الدّاخليّة." وهكذا أصدر الكولونيل برنيل تعليمة في شأن فرحات قال فيها إنّه تفاجأ أن يرى قائدا" بهذه الشّهامة والجرأة.... التي تعوّل عنها فرنسا

1-VALEE Sylvain-Charles (maréchal), Correspondance du maréchal Valée, publiée par G. Yver, Tome I, 1837-1838, lettre du maréchal Valée au président du conseil le 4 novembre 1837.

2-Le moniteur algérien, 19 janvier 1838.

3-Féraud, Le Sahara de Constantine, op cit, pp 280-285

يتخوّف من تهديدات أحمد."ولكنّه قرّر ألا يخرج من قسنطينة أيّ عسكري فرنسي، تركي أو عربي.

تحت تأثير صدمة رفض قائد مقاطعة قسنطينة منحه جنودا نظاميين وصيغة التعليمة السّابقة الذّكر، غادر فرحات قسنطينة بصفة مفاجئة في نهاية شهر نوفمبر 1837 وتوجّه إلى منطقة الزّيبان لمواجهة عناصر الباي وآل ابن قانة الذين كانوا معه، وتمكّن من الدّخول منتصرا إلى بسكرة قبل أن يتموقع بليشانة حيث تمكّن من التصدّي لهجوم من قبل الباي. لكن وفي ديسمبر1838 ، تلقّى فرحات بن سعيّد هزيمة نكراء على مشارف قرية الصحيرة على إثر معركة وصفها العقيد سيروكا" (Colonel Séroka) بأنها كانت من أكبر معارك الزّاب جنونية ودموية "أين خسر آل بوعكّاز ستّ مائة رجل (600) وآل ابن قانة حوالي مائة (100) .

ومع مرور الوقت تبيّين لقائد عائلة بوعكّاز بأنّ السياسة الفرنسيّة في قطاع قسنطينة لا تتوافق مع عزيمته الجامحة وحيرته على محاربة أحمد باي وآل ابن قانة .ففعلا، وبداية من سنة1838 ، أخذ قائد القطاع القسنطيني يعمل على محاربة كلّ توسّع لنفوذ الأمير عبد القادر في الزيبان، ممّا جعل الشّيخ فرحات يبتعد عن الفرنسيين ويبادر إلى الانضمام إلى جيش الأمير آملا أن يجد عند هذا الأخير ما رفضه له الفرنسيون. ومنذ شهر مارس، اطّلع المارشال فالي عن النّوايا الجديدة التي أخذت تساور فرحات بن سعيّد، فكتب بتاريخ 16 مارس 1838 إلى وزير الحرب" : إنّ تصرّفات الشيخ فرحات بدأت تثير بعض الشّكوك لدى الجنرال نقريبه (Général Négrier) قائد إقليم قسنطينة. هذا القائد الذي حاولنا استمالته إلينا، بدا لنا اليوم أنّه يدير وجهته حول الهدف الذي يريده عبد القادر، وهو كمثله، يريد أن

يصبح مستقلاّ. وعليه فإنّه لم يعد يردّ على رسائلي بصفة مرضيّة، ولهذا السّبب أحجمت على منحه صفة باي التي كنت عازما على إعطائها إيّاه. وأعتقد أنّه من الضّروري اعتراض هذا النّفوذ الذي بدأ يتطوّر بتعيين شخص قويّ يمكّنه منصبه العالي من منع فرحات من التأثير وجلب القبائل التي تقطن حول قسنطينة[1]".

إنّ أوّل محاولة لتسرّب نفوذ الفرنسيين في شأن الزّاب انتهت بانضمام فرحات بن سعيّد إلى قضيّة الأمير عبد القادر خلال سنة 1838. ففي نظر الفرنسيين لم يكن الشّيخ فرحات المهوس بالمقت للباي أحمد، هو الشّخص المثالي المناسب لقيّادة منطقة الزّاب باسم الفرنسيين والقادر على الحدّ من نفوذ الأمير عبد القادر في المنطقة وتهيئة المناخ للفرنسيين ليخوضوا حملة عسكرية قصد احتلال المنطقة وتطويعها.

وهكذا، استغل آل ابن قانة الذين كانوا في فرار مع الباي منذ سقوط قسنطينة، الفرصة للتقرّب من الفرنسيين. فلدى مروره بالكاف قرب الحدود التّونسيّة في نهاية 1838 ، استغلّ أحمد بن الحاج بن قانة الظّرف ليراسل الفرنسيين في شخص قائد إقليم قسنطينة ويعرض عليه الاستسلام والتخلّي عن الباي أحمد. وفي 29 ديسمبر1838 ، وبعد أن قبل طلب آل ابن قانة، أخطر الجنرال غالبواه (Général Galbois) المارشال فالي الحاكم العام للجزائر بوصول شيخ العرب الأسبق بوعزيز بن بولخراص بن قانة إلى قسنطينة" : إنّ شيخ العرب الأسبق بوعزيز بن بولخراص بن قانة قد اقتنع في الأخير وقدم شخصيّا إلى قسنطينة حيث شكّل قدومه إحساسا خاصّا . ويبدو حسب تقديري أنّه هو الشّخص الأكثر أهميّة في الإقليم. وكان

1-VALEE, op cit, lettre du maréchal Valée au ministre de la guerre, Alger, 16 mars 1838.

مصحوبا بقائد بسكرة وثلاثين من كبار رجالات الجريد والصحاري الذين شاهد البعض منهم مدينة قسنطينة لأوّل مرّة وقد عبّروا لي عن استسلامهم ووفائهم لفرنسا".[1]

وهكذا، وبتاريخ 18 جانفي1839 ، منح المارشال فالي لقب منصب شيخ عرب لأحمد بن الحاج ابن قانة وعيّنه على قطاع واسع يشمل الزّيبان وجزءا كبيرا من الجريد. وعندما زار فالي قسنطينة في سبتمبر1839 ، أصدر ثلاث قرارات هامّة تتعلّق بتسيير القطاع بأكمله ومن بينها قرار يمنح شيخ العرب الاستفادة من ثلث الغرامة المفروضة عن الأراضي الزراعيّة، ويخوّل له تعيين قادة عن القبائل.[2]

وعلى غرار سابقيه، طالب شيخ العرب الجديد بدعم من الجنود الفرنسيين النّظاميين لغزو اللزاب. ولم يجد حاكم قسنطينة إلاّ التّذكير بالعواقب التي يمكن أن تنجم عن مثل هذا التصرّف، لكنّه لم يتوان عن تشجيع شيخ العرب ليحمله على التوجّه إلى الصّحراء ليواجه وحده الحركة التي أحدثها جيش الحسن بن عزّوز خليفة الأمير عبد القادر عن الزّاب بدلا من فرحات بن سعيّد .[3]وكان جيش الخليفة يعتمد على ظهير من الجنود النّظاميين

1 -Dépêche du général Galbois au maréchal Valée daté du 29 décembre 1838, citée par Féraud dans le Sahara de Constantine, op cit, p 304.

2-BEN GANA Bu Aziz, Etude historique sur la famille Ben Gana, Alger, Jules Garbonel, 1930, pp 61-62

3-Ferhat Ben Said mourut assassiné en 1842 par les Buazid et fut enterré à Sidi-Khaled. Son fils Ali Bey prendrait la relève de la famille et serait désigné en 1854 à la tête d'un grand commandement englobant notamment Oued- Souf et Touggourt.

فرحات بن سعيد انتهى قتيلا من خصومه البوازيد سنة 1842 ودفن بسيدي خالد .خلفه ابنه علي باي الذي عينته فرنسا قائدا سنة 1854 على منطقة واسعة تشمل وادي ريغ (تقرت) ووادي سوف.

الذين منحهم إيّاه الأمير عبد القادر. ولم يجد آل ابن قانة بدّا إلا الرّجوع إلى الصّحراء في نهاية سنة1839 . وسرعان ما خاض قوم ابن قانة المؤلفون من قبائل البوازيد، رحمان والسّلميّة، السحاري (الصحاري؟) وزمالة شيخ العرب، معركة حاسمة في 24 مارس 1840 كبّدوا فيها جيش الحسن بن عزّوز هزيمة كبرى في وادي سالسو على أطراف بسكرة. ومن عين المكان أخطر شيخ العرب الجنرال غالبواه (G. Galbois) بانتصاره عن الحسن بن عزّوز ..." : إنّ الجنود النّظاميين وعددهم 400 هلكوا جميعا ولم ينج منهم أحد، إنّها حقيقة لا تدع أيّ مجال للشكّ .ولقد بقيّ الستّون فارسا الذين أرسلهم ابن عمر [1]قتلى في الميدان. كما أنّنا غنمنا من العدوّ ثلاثة مدافع، راية (علم)، عشر خيمات، وكلّ أثاث العدوّ سقط في أيدينا بما في ذلك البغال والإبل والخيل وكلّ وسائل النّقل ..وباختصار، فإنّنا ووضعناهم في حالة هزيمة نكراء"[2].

هل هذا النص صحيح؟ رغم أنّ هزيمة جيش الأمير لا يعتريها أي شك، فإنّ بعض الشّكوك ما زالت تدور حول الدّور الفعلي لعائلة ابن قانة في معركة سالسو. لقد قام شارل فيرو بتحقيق حول الموضوع في زمن الأحداث معتمدا على شهادة شخصيّة مهمّة وشاهدي عيان آنذاك، ليفنّد مشاركة آل ابن قانة في المعركة لأنّهم كانوا ساعة حدوثها قابعين بالتل، وبالضّبط في سهل المعذر، في الوقت الذي كان بدو العرب الغرابة يواجهون فرق ابن بن عزّوز. ولمّا علم شيخ العرب خبر النّجاح الذي حقّقه هؤلاء البدو، توجّه على جناح

1-Ben Amar était à l'époque, khalife de l'émir Abdelkader dans la région de la Hodna.

2A.O.M, F80, 1674, traduction officielle d'une lettre en arabe adressée par Bu Aziz ben Gana au général Galbois.

السّرعة إلى ساحة المعركة ليناقش مع البدو المنتصرين إمكانية شراء المجد ونسبه إليه .ويخلص فيرو إلى أنّ" يتعهّد ابن قانة لدفع ألف دورو (5آلاف فرنك) للبدو مقابل تسليمهم له المدافع والأعلام والأسلحة والدفاف التي غنموها في المعركة ".[1]ولكن ومهما كان، فإنّ معظم المؤرّخين يعتمدون صحّة حضور آل ابن قانة المعركة.

وعلى كلّ حال، فإنّه ومنذ تلك المعركة، أصبح الفرنسيون مقتنعين بأنّهم وجدوا في عائلة ابن قانة حليفا أمينا لمصالحهم، قادرا على مساعدتهم على حكم الزّاب .[2]لكن، ورغم إلحاح شيخ العرب لغزو الزّاب، فإنّ الحاكم العسكري لقطاع قسنطينة كان يرى أنّ الوقت غير سانح لخوض حملة عسكريّة على المنطقة. ورغم الانتصار في معركة سالسو، فإنّ ظهور آل ابن قانة في منطقة الزّاب لم يصبح ظاهرا إلا خلال فصلي الخريف والشّتاء بعد عودة القبائل البدويّة من التلّ. ومن جهته، تمكّن محمّد الصّغير بن أحمد بن الحاج خليفة الحسن بن عزوز من التّمركز ببسكرة واستطاع خلال أشهر قليلة إعادة نفوذ الأمير عبد القادر في المنطقة. وبتموقعه في قصبة بسكرة مدعوما بفرقة من الجنود النّظاميين، استطاع خليفة الأمير إلى غاية 1844أن يتصدّى لهجومات آل ابن قانة[3].

أمّا خارج منطقة الزّاب، فإنّ الغزو الفرنسي ظلّ في توسّع مستمر في مناطق أخرى من الإقليم، منذ سقوط المدينة سنة1837 . ولم تكد تحلّ سنة 1843، حتّى سقطت معظم مناطق الإقليم في قبضة السّلطات الفرنسيّة .

1-FERAUD, Le Sahara de Constantine, op cit, p 319.

2-A.O.M, 1 KK 470, Historique politique de la province de Constantine depuis la prise de la ville jusqu'à 1847.

3-SEROKA, op cit, pp 423-427

وعندما استخلف الدوق دومال (Dc d'Aumle) الجنرال باراقي دي هيلييه (Génral Barguey d'Hiller)على منصب حاكم على القطاع القسنطيني بأكمله في ديسمبر1843 ، رأى ابن الملك أنّ الوقت قد حان لشنّ حملة واسعة النّطاق على صحراء قسنطينة.

1-2 الغزو العسكري للزّيبان

كانت الحملة على الزّيبان قد تقرّرت عندما كان الحاكم العام للجزائر الجنرال بيجو (Général Bugeaud) يشنّ حملات على كامل التّراب الجزائري على شكل وحدات متنقّلة للحدّ أو إنهاء نفوذ الأمير عبد القادر، وذلك قصد تكريس الاحتلال الفرنسي وتعميمه. وكانت صحراء قسنطينة آنذاك تعدّ في نظر الفرنسيين "بؤرة اضطرابات "بل" ملجأ للمعترضين المتشدّدين" للحفاظ على "روح المقاومة وأمل عودة الانتصار ."[1]"ولقد سبق وأن ذكرنا كيف أن محمد الصغير بن أحمد بن الحاج خليفة الأمير، تحصّن ببسكرة واستطاع أن يقوّض كلّ محاولات آل ابن قانة لحكم الزّاب باسم الفرنسيين. وكانت عزيمة الدوق دومال(Duc d'Aumale) وهو يزحف نحو الصّحراء، هي القضاء نهائيّا عن أنصار الأمير عبد القادر ووضع المنطقة تحت السّلطة الفرنسيّة [2].وزيّادة عن انحصار الخطّ السياسي والعسكري كانت تضاف محفّزات اقتصادية، لأنّ بسكرة تعدّ بوابة للجنوب ونقطة عبور للتّجارة الصّحراوية. ويلخّص لنا التّقرير التّالي الحوافز والتّعليلات الاقتصاديّة : "بعد الحملة على قسنطينة، كان لزاما علينا تحديد مواقعنا وترك السّهول

1-MARTEL (A), Les conflits saharo-métropolitains de la Tunisie 1881-1911, thèse, tome I, 1965, p340 -p 824.

2-A.M.G, H 95, Rapport du général Bugeaud au ministre de la guerre.

الخصبة وراءنا لعدوّنا ؛ وهل في ذلك إلا استغناء عن الغرامة والتّجنيد، وعزوفا عن ثروة من الموارد، وخاصّة ترك وسائل تغذيّة البلد، لقد كان علينا تقليص حدودنا، بينما الحكمة كانت تستدعي أن نمدّد ها على الأقل إلى بسكرة على مشارف الصّحراء : وسيكون لاقتصادنا موضع قدم في مواقع تقاطع قوافل التّجارة، كما ستصبح لنا حدود طبيعيّة تحدّها الصّحراء[1]".

في الثّامن من شهر فيفري1844 ، انطلقت من قسنطينة كتيبة من 1000 رجل يقودها الضّابط بيتافيوكو (Sous-lieutenant Buttafuoco) بغرض إنشاء مركز متقدّم للتّموين قرب آثار لامبيز . (Lambaise) وعلى هامش آثار قرية رومانيّة أقيمت الأسس الأولى لمدينة باتنة في فيفري 1844 على أيدي فرقة من جنود بيتافيوكو. وكان سكّان المنطقة ولاسيّما القبائل الجبليّة، قد نظروا بعين الرّيبة اقتحام الجنود الفرنسيين لأراضيهم، ولم يتردّدوا فورا، ومنذ 19 فيفري في المرور إلى العمل المباشر ضد ما اعتبروهم غزاة. وسارعت قبائل أولاد سلطان والأخضريّة والحلفاويّة وبني فرح إلى غلق معبر القنطرة لمنع مرور قافلة متوجّهة إلى باتنة مكوّنة من إبل كان قد احتجزها شيخ العرب. ولم يجد بيتافيكيو اختيّارا غير التوجّه إلى القنطرة يوم 21 فيفري لمواجهة الثّائرين، ولم يستطع تشتيتهم إلاّ بعد معركة ساخنة فرّوا على إثرها[2].

وفي يوم 23 فيفري تعزّزت القوات الفرنسية ب 2400 حربة(Baïonnettes) ، 600حصان، 4 قطع من الرشاشات، وانقسمت إلى فرقتين. وانطلاقا من باتنة يوم 26 من الشّهر نفسه، توجّه الدوق دومال صوب القنطرة ليصلها

1-A.O.M, 2 H 85, Rapport du duc d'Aumale au général Bugeaud, Batna 22 mars 1844.

2-Le moniteur algérien, 10 avril 1844.

يوم 29 وفي 04 مارس ودخل بسكرة بدون عناء كبير لأنّ محمّد الصغير بن أحمد بن الحاج كان قد غادر المدينة عند اقتراب الفرنسيين [1]ليتموقع في مشونش، وكانت قرية صغيرة على بعد ثمان فراسخ من بسكرة. ولما علم الدّوق دومال أنّ كنوز الشّيخ محمّد الصّغير موجودة بشونش، قرّر الزّحف نحو القرية. وفي 12 مارس1844 ، غادر فريق فرنسي من الخطّ الثّاني مكوّن من 150 حصان يقوده الرّائد تلمبلاي (Commandant Tlemblay) ولدى وصوله مشونش، استقبل بوابل من الرّصاص من المقاتلين العرب المتحصّنين في بساتين النّخيل. وردّ جنود تلمبلاي من الخطّ الثاني الذي كان يقوده الملازم الأوّل فورنييه (Lieutenant Fournier) الذي حسب قول الدّوق "اندفع إلى الأمام بحرابه يدفع العدوّ الذي تأخّر نحو الواحة ليحتمي بجدران البساتين. وبعد معركة ساخنة تمكّن فورنييه من الوصول إلى ربوة تعلو السّهل، ممّا حمل جند محمّد الصّغير من الفرار إلى الجبل"[2].

تقديرا لخليفة الأمير من طرف سكّان مشونش، تمكّن محمّد الصغير بن أحمد بن الحاج من جمع حشد كبيرمن الرّجال يتراوح ما بين 2000 و 3000 رجل ونادى إلى الجهاد المقدّس. وفي 15 مارس لم يتردّد الدّوق دومال في التّوجّه بنفسه من بسكرة إلى مشونش مصحوبا بفيلق من الجيش الفرنسي

1-A.M.G, MR, Description et projet d'attaque de l'oasis de Sidi-Okba par le sous-lieutenant Cholletont.

2 -ROUSSET Camile, "Constantine, les oasis, les bureaux arabes, la Kabylie ", Revue des deux mondes, 15 mars 1888, p335.

مكوّن من 1200 بندقيّة، 400 حصان وفرقة من مدفعيّة الجبال، لمواجهة الوضع .[1]

" المواقع السّفلى الواقع على ضفّة الوادي [2]انتزعت بسهولة (دائما حسب سيروكا) لكنّ صعوبات اعترتنا فيما بعد بسبب صعوبة الأرض أكثر من قوّة العدوّ، للاستيلاء عن المخازن المحصّنة المبنية على قمم مرتفعة ويطلق عليها الأهالي اسم قلاع (جمع قلعة). وانتهت المعركة بدفع كتائب ابن أحمد بن الحاج نحو الجبل".

دائما وحسب زعم الدّوق دومال، فإنّ المعركة كانت حاميّة الوطيس، هاجم فيها الجيش الفرنسي أنصار محمّد بن أحمد بن الحاج من كلّ الجهات مستندا إلى قوّة النّار والمدفعيّة. ومع ذلك استمرّت المعركة مدّة أربع ساعات قبل أن ينسحب المدافعون إلى الجبل. وفي اليوم الموالي عاد الفرنسيون ليحرقوا القرية عن كاملها، بما في ذلك المخازن التي كانت تحتويها[3].

ولم تقتصر مقاومة الغزو الفرنسي للمنطقة على أعمال محمّد الصغير بن أحمد بن الحاج، فبينما كان هذا الأخير يواجه قوّات الدّوق دومال في مشونش، تعرّض معسكر باتنة إلى هجوم مفاجئ، وللمرّة الثّانيّة من طرف

1 -ROUSSET Camile, "Constantine, les oasis, les bureaux arabes, la Kabylie," Revue des deux mondes, 15 mars 1888, p335.

2-SEROKA (Joseph-Adrian), op cit, p429.

3-Le deuxième combat de Mchounech a causé la mort de six français dont un officier et seize blessés. On ignore les pertes des partisans de Mohamed-Séghir, mais on sait seulement que parmi les habitants du village, il y avait 14 morts.

معركة مشونش الثانيّة خلفت 6 قتيلى فرنسيين و 16جريحا. ونجهل عدد الضحايا من أنصار محمد الصغير، لكننا نعلم أن من بين سكّان القرية سقط 14 رجلا .

قبيلة أولاد سلطان. ففي يوم 10 مارس1844 ، قام حوالي 1000 أو 2000 من المشاة مدعومين ب 500 أو 600 فارس بهجوم كبير وعنيف عن المعسكر الفرنسي. وأمام نشوة المهاجمين دام القتال العنيف يومين كاملين، قبل أن ينسحب المهاجمون نحو الجبال[1].

ولما أخطر الدّوق دومال بما وقع قرب باتنة، اضطر إلى مغادرة الزّيبان ليلتحق بالقيّادة في قسنطينة. وبعد ذلك عاد إلى باتنة وفي نيّته قمع المحرّضين على العمليّات السّابقة وخاصّة قبيلة أولاد سلطان، كما كان عازما على مطاردة فلول الباي بالمنطقة وخاصّة في أوساط هذه القبيلة التي كانت تؤويه. وفي 24 أفريل، وعند محاولته اجتياز جبال قريبة من نقاوس، تعرّض إلى التحام شديد مع الجبليين المحليّين. وسيبيّن لنا النصّ التّالي ما كتبه المقتصد العسكري لإقليم قسنطينة، عن رد فعل الدّوق تجاه الهجوم: "وبعد ساعات طويلة من السّير، وحوالي السّاعة العاشرة صباحا غطّانا غمام كثيف إلى درجة أنّنا لم نعد نرى أكثر من أربعة أمتار، فأعطينا الأمر بالتوقّف .وفجأة تعرّض القوم من العرب الذين كانوا يرافقوننا من جهة اليسار إلى هجوم مفاجئ وعنيف من قبائل أوراسيّة توغلت في صفوفنا وشتّتها. ولقد كان الخلط مخيفا في وسط الفرقة، بينما تعرّض رأس المفرزة إلى هجوم آخر من طرف قبائل أخرى. وبعد ساعات من القتال العنيف، اضطرّت الفرقة إلى الرّجوع إلى المعسكر الذي انطلقت منه"[2].

1-A.O.M, 10 H 17, Notice sur Batna par De neveu, Batna 12 décembre 1847.

2-Campagne d'Afrique 1835-1848, voir lettre de Dagnan, intendant militaire de la province de Constantine, Constantine 24 mai 1844, pp 344-345.

وبدلا من أن يكسر شوكة أولاد سلطان بقوّة السّلاح[1]، واجههم الدّوق دومال بأسلوب آخر حيث كبّدهم خسائر من نوع آخر عندما أحرق غلالهم في السّهل، أيّاما قليلة بعد هزيمته العسكريّة أمامهم.

"إنّ البدو الذين أتى بهم شيخ العرب من الباديّة (كتب الدّوق دومال في تقريره المؤرّخ في 2 جوان1844) تلقّوا أوامر للاتّصال بنا ليطلقوا قطعانهم على زروع العدوّ وغلاله. وكانت القطعان تلتهم الغلال وكأنّها جراد، ممّا تسبّب في خسائر لا تعوّض. وكانت أربع قبائل تغلق طريق التل وتساهم في هذا الخراب"[2] "

هل كانت سياسة "الأرض المحروقة "التي كانت مفضّلة لدى المارشال بيجو الوالي العام للجزائر خلال المرحلة كافيّة لحمل قبائل الأوراس على الاستسلام؟ ربّما كانت بعض القبائل بدافع الخوف ، تبدي إشارات استسلام، لكن كان لا بدّ من انتظار سنة 1845 وقدوم الجنرال بيدو (Général Bédeau)إلى أعالي الأوراس ليحصل على استسلام معظم القبائل.

في الوقت نفسه لم تكن منطقة الأوراس قد رضخت كلّها للاستسلام بل بالعكس، استطاع محمد الصغير بن أحمد بن الحاج من الاستيلاء على بسكرة بعد أنّ دبّر مكيدة في وسط جنود القائد. وكان الدّوق دومال لدى مروره الأوّل بالزّاب، قد أعطى الإشارة الخضراء لفرقة من الرّماة" الأهالي " مكوّنة من 300 رجل وموضوعة تحت قيّادة ضابط فرنسي في شخص الملازم أوّل بوتيقاند(Lieutenant Petitgand) . ومن بين المجنّدين من الأهالي يوجد

1-Au cours des combats, les Français ont eu au moins 20 morts et 76 blessés.

أثناء المعركة خسر الفرنسيون على الأقل 20 قتيلا و 76جريحا.

2-A.O.M, 2H 85, Rapport du duc d'Aumale au général Bugeaud, Batna 22 mars 1844.

عدد من الجنود النّظاميين السّابقين في جيش محمد الصغير بن أحمد بن الحاج .هل جاء هؤلاء مستسلمين للسلطات الفرنسيّة ؟ يبدو، ومن خلال رسالة بالعربية محرّرة من طرف المدعو بلقاسم بن عبد الكريم مؤرخة سنة 1844وموجّهة إلى المدعو صالح بن محمّد الأمين بالكاف، مفادها أنّ الجنود المندسّين في فرقة بوتيقاند كان عملا مبيّتا للإعداد لعمليّة استرجاع المدينة: .."وفيما يخص أخبار محمّد الصغير، فعندما دخلت النّوبة[1] إلى بسكرة، أمر هذا الأخير مائة (100) من الجنود المتواجدين بالجبل بالفرار والذّهاب إلى بسكرة للتّبليغ عنه. وكان عليهم عند دخولهم أن يخبروه ليقدم إليهم ويفتحوا له الأبواب ليهاجموا النّصارى"[2]..

في ليلة 11 إلى 12 ماي تمكّن 150 جندي من أنصار محمّد الصّغير 250 حسب الدوق دومال من الوصول إلى الثكنة المهيّأة من طرف آغا الخليفة المدعو أحمد الغربي، ثمّ تمكّنوا من الدّخول إلى قصبة بسكرة واحتلال أهمّ مراكزها [3].وبسرعة تمكّنوا من شلّ حركة ثلاثة ضبّاط فرنسيين وبعض

1 -Nouba veut dire garnison, il fait référence à l'expédition du duc d'Aumale.

1-النوبة تعني ثكنة ، وهو يشير إلى حملة الدوق دومال

2-A.O.M, E 205, Correspondance jointe à une dépêche de commandant de province de Constantine le 14 juin 1844.

3-A.O.M, 8 X, Rapport concernant l'événement qui eut lieu le 18 mai dans la casbah de Biskra par le commandant Thomas. A propos de la fuite du sergent-major Pélisse, le commandant Thomas disait que lorsque l'affaire a commencé, cet officier est sorti par la fenêtre de sa chambre et à l'aide d'un soldat arabe il s'enfuit à Tolga. Luis Rinn écrit que le sergent-major a été sauvé par une prostituée qui lui fit revêtir une gandoura arabe avant de l'accompagner à Tolga. Voir sur ce point, Revue africaine, 1886, "Communication de Luis Rinn", pp483-484.

الجنود، بينما لاذ بالفرار كلّ من قائد بسكرة محمّد الصغير بن القيدوم بن قانة مع الضّابط بيليس (Pelisse) نحو طولقة. وفي رسالة موجّهة إلى أحد أعوانه، عاد محمد الصغير بن أحمد بن الحاج إلى حادثة دخوله بسكرة منتصرا، حيث بقي فيها من 12 إلى 16 ماي:

"إلى الصديق الأفخم والدليل الأتم الذي له صفات نقيّة وسجايا بهيّة السيّد المصون إبراهيم بن عون رأس المناطق الشّرقيّة، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته سأخبرك بالخير إن شاء الله أنّنا هاجمنا أعداء الله الذين تركهم العدوّ في قصبة بسكرة. وبفضل الله هم كلّهم بأيدينا ووضعنا يدنا على كامل ذخيرتهم مثل المدافع والسلاح والكوانين والبارود ؛ أمّا المؤونة قفد وجدنا الشعير والأرز والخبز ووجدنا بقرة ..أما العساكر الذين تبقّوا فقد قتلناهم كلّهم"..[1]

ويؤكد الدّوق دومال أنّ عقدة هذه القضيّة تتمثل في نيّة محمّد الصغير بن أحمد بن الحاج وأنصاره في الاستيلاء على مبلغ الغرامة التي جمعت ببسكرة قصد الانتقام للخسائر الكبيرة التي لحقته في مشونش. وتبيّن لنا من فحوى الرّسالة السّابقة أنّ خليفة الأمير لم يدوّن هذه المسألة لكنّه بالمقابل ذكر أنّها مرحلة جديدة للجهاد الذي يخوضه ضدّ الفرنسيين.

ولدى عودة الدّوق إلى باتنة في 14 ماي1844 واطّلاعه على تفاصيل ما وقع، قرّر التوجّه فورا إلى بسكرة مصحوبا ب 500 فارس فوصلها صبيحة 18 ماي عند مطلع النّهار. وكانت الإجراءات الأولى التي اتّخذها تتمثّل في تعزيز القوّات العسكرية بدينة بسكرة:

1-يحي بوعزيز يحي، من كفاح تاريخ الجزائر إلى القرن التّاسع عشر، أربعة أحداث في ثلاث وثائق، المجلة التاريخية المغربية، عدد2 ،1972 ، ص.102

"أمام ما وصلت إليه الأحداث مثل ما كتب في تقريره المؤرّخ في 2 جوان 1844 أعتقد أنّه توجّب احتلال بسكرة بإقامة ثكنة وطنيّة. وستبقى فرقتان في المكان إلى غاية 20 جوان لتنفيذ كلّ الإجراءات اللازمة قصد إبقاء فرقة فرنسيّة بالقصبة. أمّا خدمات التّموين فهي مضمونة إلى غاية شهر ديسمبر. وقبل ذلك، سيحتل 500 جندي القصبة ليجعلوا محاولات خليفة عبد القادر لإعادة بسط سلطته على الزّاب أمرا مستحيلا . وسيوكل أمر هذه القيّادة الهامة للرائد توماس (Commandant Thomas) الذي يعرف المنطقة"..

وسنرى فيما بعد كيف أنّ هذه القضيّة كانت هي أصل التّغيرات الهامّة التي حدثت في السيّاسة الفرنسيّة تجاه الزّيبان. فبعد شهر ماي1844 ، بدأت واحات الزّاب تخضع شيئا فشيئا للهيمنة الفرنسيّة، وفي غالب الأحيان دون مقاومة تذكر. فبعد انتفاضة الزّعاطشة سنة1849 ، وضعت كلّ المنطقة تحت سلطة إقليم بسكرة (Cercle de Biskra) .

1-3 التّنظيم السيّاسي في الزّيبان (1844-1849)

منذ 1938 السنة التي عيّن فيها الوالي العام للجزائر شيخ العرب في شخص بوعزيز بن قانة على رأس منطقة الزّيبان، أصبحت فرنسا تأمل أن تتبع السيّاسة نفسها التي كان الأتراك قد اعتمدوها قبلها. وسلّم الفرنسيون بأن الصحراء يمكن أن تُحكم" عن بُعْد "حسب التّعبير المخصّص وأنّ" شيوخ القبائل القويّة مدعومة من فرق عسكريّة من الأهالي" تكفي لاستبقاء المنطقة تحت الهيمنة الفرنسية[1].

1-A.O.M, 10 H 17, Itinéraire de Bougie à Biskra par Djiljeli, Constantine 26 novembre 1888.

ومنذ وصوله إلى بسكرة، قرّر الدّوق دومال أن يعطي للزّاب أوّل تنظيم سياسي بشكل يوفّق بين طموح آل ابن قانة والمصالح الفرنسيّة. وانطلاقا من ذلك، شرع الرائد توماس (Commandant Thomas) النّقيب دي نوفو(Capitaine de Neveu)، فورنييه(Fournier) ودي فو (Devaux)وكلّهم خبراء في ميادين اللغة العربيّة وتقاليد السكّان وأخلاقهم، في زيارات كلّ قرى الزّاب للاطّلاع عن كثب عن أحوال العامّة وجمع معلومات إحصائيّة وسيّاسيّة من الإمكان أن تسهّل عمل قادتهم [1].وقبل رجوعه إلى قسنطينة أكّد الدوق دومال لشيخ العرب صلاحياته القديمة على المنطقة، دون أن يرفع عنه إمكانيّة مراقبة أعماله، بينما يتولى هو منطقة قسنطينة. وعلى كلّ، فقد وضعت فرقة من الرّماة مكوّنة من 300 رجل تحت قيّادة ضابط فرنسي، ومكلّفة بمساندة سلطة ابن قانة. ومن جهة أخرى سمح الدّوق لقائد بسكرة بتكوين" قوم "من ستين فارس من نخبة الرّماة تمنحها له قبائل من البدو والدائرة المزرقيّة لأهل ابن علي وأولاد صولة[2].

كان ذلك هو أوّل تنظيم إداري وضعه الدّوق دومال. غير أنّ تلك القرارات لم تكن لترضي الجنرال بيجو المعارض القوي "للإنجازات غير المكتملة "والمؤيّد الشّغوف للاحتلال العسكري لكلّ الأراضي التي تقع تحت الغزو الفرنسي . لكنّ قناعة الدّوق دومال بقدرة آل ابن قانة على حكم صحراء قسنطينة تحت عيون فرنسيّة، وتجنيب القوّات النّظاميّة الفرنسيّة أيّة مغامرة غير محسوبة في هذه الأراضي الواسعة. وبناء على ذلك اكتفى الدّوق بتسليم

1-A.O.M, 2 H 85, Rapport du duc d'Aumale au général Bugeaud, Batna, 22 mars 1844.

2-A.O.M, E 205, Correspondance jointe à une dépêche de commandant de la province de Constantine le 14 juin 1844.

شؤون الزّاب إلى آل ابن قانة دون التّراجع عن مسألة إقامة ثكنة ببسكرة. وبذلك يكون الدّوق قد وضع أسس تنظيم إداري وسياسي جديد بالمنطقة[1].

"إنّ ما وقع[2] (يلاحظ سيروكا) كان درسا قاسيّا للتفكير في الثّقة في الأهالي. ولذلك تقرّر إقامة ثكنة فرنسيّة في القصبة يقودها فرنسي يتمتّع بالسّلطة السياسيّة، وتخوّل له إدارة واحات الزّيبان بطريقة مباشرة، أمّا الباقي فما عليه إلا مراقبته وتوجيه قادته من الأهالي عن بعد[3]"

وقبل رجوعه الثّاني إلى قسنطينة، أوكل الدّوق دومال للرّائد توماس مهمّة تحضير وضع تنظيم جديد للزّيبان. ولم يصل تاريخ 24 جوان حتى وضع حاكم قطاع قسنطينة نادي إداري واتّخذ من بسكرة مقرّا له. في البداية تكفّل الرائد توماس (Commandant Thomas) بتسيير شؤون الإقليم قبل أن يخلفه نائبه غايار سان جرمان (Gaillard Saint-Germain) بداية من جويلية 1844بصفة مؤقّتة ثم نهائية ابتداء من سنة 1845.

1-Après l'affaire de la garnison de Biskra, le duc d'Aumale conclut à propos de la première organisation du Zab :"Les faits sont plus fort que le raisonnement; ils ont prouvé que cette organisation militaire, numériquement suffisante, n'avait rien moralement rien de solide, et je suis le premier à en convenir." Voir A.O.M, E 205, Correspondance jointe à une dépêche de commandant de la province de Constantine le 14 juin 1844.

بعد مسألة ثكنة بسكرة خلص الدوق دومال فيما يتعلق بالتنظيم الإداري الأول في الزّاب": إنّ الوقائع أصدق من التفكير، ولقد أثبت الواقع أن التنظيم العسكري الكافي عدديّا لم يكن يتوفر معنويّا على أي سند صلب، وأنا أوّل من يقرّ هذا".

2-C'est-à-dire l'affaire de la garnison de Biskra.

يقصد ما وقع بقصبة بسكرة

3-SEROKA, op cit, p432.

ولمّا تمكّن الفرنسيون من شؤون الزّاب، شعر الفرنسيون بضرورة إشراك شيوخ القبائل الكبرى النّافذة في تسيير حكم المنطقة. وكان ذلك ضروريّا كلّما تكثّفت بؤر المقاومة ضدّ الغزو الفرنسي، كما حصل في الزّاب مع محمّد الصّغير، وفي الأوراس مع أولاد سلطان بصفة خاصّة. ويبقى التساؤل حول كيفيّة توزيع المسؤوليات وتقاسمها والأسباب التي دعت إليها.

كان هناك قبل كلّ شيء عائلة ابن قانة، التي كانت مستعدّة أكثر من أيّ وقت مضى للتّعاون مع الفرنسيين. ولذلك بدأ آل ابن قانة يسعون إلى استرداد سلطتهم السّابقة، ولو بدعم من فرق عسكريّة نظاميّة فرنسيّة. غير أنّ نشر ضبّاط فرنسيين، كان الغرض منه الحدّ من سلطة آل ابن قانة [1] في "انتظار الوقت المناسب لمكافأة شيخ العرب لوفائه". ولذلك قُسِّم إقليم بسكرة إلى قيادات متعدّدة وضعت كلّ واحدة منها تحت سلطة قائد من الأهالي مرتبط بشيخ العرب، ولكن قبل كلّ شيء بإقليم بسكرة. وخارج عائلة ابن قانة، ينتمي" القيّاد "إلى عائلة قويّة فاعلة في المنطقة، وفي الغالب سبق لها وأن مارست السّلطة في عهد الأتراك، كما كان عليه الحال بالنسبة لعائلة أولاد صولة.

وفي إطار التنظيم الجديد لنادي بسكرة، أثيرت أيضا مسألة اقتسام السّلطة بين فرعين كبيرين متنافسين من عائلة أولاد صولة : أولاد ابن شنّوف برئاسة أحمد باي بن شنّوف خليف آل بو عكّاز، وأولاد بوضياف برئاسة أحمد بن فرحات حليف آل ابن قانة. وكان أحمد بن شنّوف من ألدّ أعداء آل ابن قانة الذين سبق لهم قطع رأس أبيه، ممّا جعله يختفي في الجبال أثناء عهد أحمد باي، مع انحيّازه الصّريح لآل بوعكّاز. وبعد تعيينه منذ 1837 شيخا على

1-A.O.M, 120 H 17, Notice sur Batna par de Neveu, Batna, 12 décembre 1847.

الزّاب الشّرقي باسم الأمير عبد القادر، أين وجد الفرصة في توطيد علاقاته مع محمّد الصّغير بن احمد بن الحاج. لكن، ورغم كلّ ذلك، ورغم خلافه المبين مع آل ابن قانة ونفوذه في الزّاب الشّرقي، حاول الدّوق دومال استمالته ومنحه سلطة في المنطقة. وانتهى الأمر بتقسيم الزّاب بين فرعين متنافسين، كلّ فرع أوكلت له نصف قيّادة الزّاب الشّرقي.

وخارج هذه السيّاسة التي كانت تعتمد على شخصيّات حربيّة لتكريس السّلطة الفرنسيّة على كامل الجنوب القسنطيني، حاول الدّوق دومال الاعتماد على شخصيّة مرابطيّة وراح يبحث في مدوكال عن سي مقران بن محمّد الحاج، ليعيّنه كقائد على منطقة كبيرة" بدون تناسق كبير "و" لم يكن إلا وحدة إداريّة موضوعة لغرض سياسي محض"، أي لكسر نفوذ شيخ العرب. وكانت تلك القيّادة الممنوحة لسي مقران في البداية، تشمل الحضنة الغربيّة، السّحاري، مدوكال، القنطرة، الوطاية، بني فرح وكلّ قبائل واد عبدي، سيدي خليل والدّروع.[1]

أمّا إقليم بسكرة، فقد أعيدت هيكلته مرّات عديدة، وذلك طبقا لاستسلام أعراش جديدة .

وفي نهاية 1848 ، أصبح الإقليم مكوّنا من القيّادات التّاليّة:[2]

1-A.O.M, 10 H 76, Etude historique sur l'annexe de Barika, Barika le 28 mars 1902.

2 -A.O.M, 10 H 18, Notice sur la division territoriale de la population indigène par le lieutenant Dubosquet, Biskra le 31 décembre 1848.

القيّادات	الأعراش والقرى
بسكرة	بسكرة -فلياش -سيد عقبة - الزاب الظّهراوي - العمور
سي مقران	درواه - سيدي خليل – برانيس – بنو شويخ – القنطرة -بني فرح – الوطاية -مدوكال -مرابط أولاد درّاج الشّراقة – أولاد زيّان -الصّحاري - أولاد سحنون -أولاد ناصر -أولاد اعمر -أ .النّاقة -زمالة القائد -عيدات.
أولاد نايل الشّراقة وأولاد جلال.	أولاد زكري – أولاد جلاّل -سيدي خالد– الدّوسن.
الزّاب الشّرقي	أولاد صولة-الخذران-أولاد سي الصّالح - العرش-سريانة - قرطة - زريبة الواد- بادس - ليانة - زريبة حامد -الفيض -مشونش -ميزاب، هبال -الحمّام -أولاد كبيش – أولاد يوب – بني ملكم – السراحنة – الشّرفة
خنقة سيدي ناجي وجبل شرشار	الخنقة -أولاد سيفيرون – شبلة– قلاّل - الولجة – فهيون أحمد، هورام – براقال – عشايش – أ .معافة – بني بربار
النمامشة الغرابة	النمامشة – سيدي عبيد – الجديدة – مديلة –فركانة – نقرين – تامرزة.
العرب الرّحل	أهل ابن علي – الشّرفة - غمرة

ونلاحظ أيضا فيما يخصّ تنظيم إقليم بسكرة ما بين 1844 و 1847 أنّ القيّادة كانت تخضع لرئيس الإقليم مدعوما بضابط فرنسي ومترجم. وبعد 1847تم إنشاء مكتب عربي (Bureau arabe) مستقل ولكنّه لم يشتغل فعليّا

إلاّ ابتداء من سنة 1848[1] وكان هذا المكتب مؤطّرا من طرف ضابطين فرنسيين ومترجم لتسيير شؤون السكّان الأصليين وكتابة التّقارير نصف الشّهريّة عن الحالة العامّة للقبائل. وتشكّل هذه التقارير القاعدة الأساسيّة لاتّخاذ قرارات القيّادة العسكريّة حسب ما يستدعي الوضع. وككلّ المكاتب العربيّة التي أنشئت في الجزائر في تلك المرحلة يتولّى هذا التّنظيم" الإخطار بكلّ الأحداث الهامّة التي تقع وسط القبائل، وممارسة الرّقابة الصّارمة لشؤون شيوخ القبائل وقيّادهم من الأهالي، ووصف الحالة النّفسيّة وتوفير المعلومات التي من شأنها تنوير القيّادات العليا بما يحدث في البلاد من الجوانب الماديّة والنّفسيّة[2]"

أمّا سقوط الزّاب في قبضة الفرنسيين، فقد استقبل من طرف السّلطات الفرنسيّة العليا بالجزائر بمفاهيم مختلفة. فكان الجنرال بيجو يصرّ على التّداعيّات السياسية، خاصّة تلك التي جعلت حدّا لسلطة الأمير عبد القادر التي كانت مصدر قلق مستمرّ منذ1837 على الإقليم بكامله [3]وأمّا

1-PEYRONNET (P), Livre d'or des officiers des affaires indigènes (1830-1930), Alger, tome II, 1930, p 811. Les premiers chefs des bureaux arabes de Biskra furent les suivants : le lieutenant Dubosquet (1848-1850), le capitaine Séroka(1850-1855), le capitaine Labrousse (1852), Lieutenant puis capitaine Rose (1856 et 1860-1861), le lieutenant puis capitaine Langlois(1859-1862).

الضباط الذين تداولوا عن رئاسة المكتب العربي لبسكرة : دي بوسكي (1848-1850) سيروكا-1850) (1855لابروس (1852)روز 1856)ثم (1860-1861 وأخيرا لانقلوا.(1859-1862)

2-A.O.M, H 230, Le régime du Sahara en Algérie, extrait de la Revue militaire française; 1869.

3-A.M.G, H 95, Rapport du général Bugeaud au ministre de la guerre.

الدّوق دومال فكان يركّز عن المظهر الاقتصادي الجديد. وفي تقرير مطوّل أرسله إلى بيجو بتاريخ 13 جويلية1844 ، يقول فيه بصفة خاصّة:
" إنّ إحدى أهمّ النّتائج التي نجمت عن امتلاك الزّاب لم تتأخّر في الظّهور . لأنّنا أصبحنا نلمّ بالأفكار الدّقيقة التي تنظّم العلاقات بين هذه المناطق ومناطق التل وإفريقيا، خاصّة فيما يتعلّق بالعادات والمتطلّبات حيث تجلّت لنا احتياجاتهم التّجاريّة التي يمكن أن تفتح آفاقا لذكاء تجّارنا ليروّجوا لمنتوجات مصانعنا وورشاتنا في فرنسا[1]".
ومهما يكن، فإّن هيمنة الفرنسيين على الزّاب، كانت بمثابة خطوة أولى لغزو الصّحراء الجزائرية، وهي المغامرة الطّويلة التي لم تكتمل إلاّ في بداية القرن العشرين.

ولا بدّ من القول إنّ احتلال الزّاب من طرف الفرنسيين كان نتيجة نسق طويل لاحتواء شؤون المنطقة منذ1832 . وكان الخوف من بسط سلطات الأمير عبد القادر عن المنطقة من الأسباب التي عجّلت بتنظيم حملة عسكريّة على المنطقة. فمنذ احتلال قسنطينة، شرعت فرنسا في مدّ اتّصالات مع العائلات الكبرى النّافذة : عائلة بوعكّاز ثم عائلة ابن قانة. وكانت الحملة على الزّاب قد بدأت سنة1844 ، عندما شعرت فرنسا بالضّعف الذي بدأ يدبّ بين أنصار الأمير عبد القادر بسبب الحروب التي خاضوها منذ 1840 ضد آل ابن قانة، ولم يعد بإمكانهم مواجهة الزّحف الفرنسي. لقد حاول محمّد الصّغير بن أحمد بن الحاج، وعلى مرّتين، مرّة في

1-A.O.M, 12 X 75, Rapport du duc d'Aumale au général Bugeaud sur les relations commerciales avec le Sahara, Constantine 13 juillet 1844.

مشونش ومرّة أخرى بسكرة أن يتصدّى للغزو .لكنّ، واقع الزّحف كان أقوى منذ ماي1844 ، حيث وضع الزّيبان تحت الهيمنة الفرنسيّة.

وكان التّنظيم السيّاسي الفرنسي في الزّيبان يستند على الدّور الكبير الذي لعبته العائلات الكبرى الفاعلة. فباستثناء آل بوعكاز الذين أصابهم نوع من الضّعف بعد موت فرحات بن سعيّد، عمل الضبّاط الفرنسيون على منح القيّادات إلى كامل العائلات القويّة وعلى رأسهم بالطّبع، عائلة ابن قانة.

وسنرى فيما بعد، كيف أنّ هؤلاء القيّاد من العرب عجزوا أمام انتفاضة الزّعاطشة.

الفصل الثاني
اندلاع انتفاضة الزّعاطشة
وردّ فعل السّلطات الفرنسيّة في الزّيبان

في سنة 1849 استطاع بوزيّان أحد سكّان قرى الزّاب أنّ يثير سكّان منطقته ضدّ فرنسا. وسرعان ما توسّعت حركته فيما بعد لتغطّي كامل الجنوب القسنطيني. ومع ذلك، ومنذ1844 ، فقد كان بوزيّان قد جُرِّد من وظيفته السيّاسيّة التي كان يشغلها سابقا، ولم يعد شيخا عن الزّعاطشة ولا مرابطا صوفيّا وهما اللقبان الجديران بأن يؤّلبا السكّان في تلك الفترة على الجهاد المقدّس. لقد استطاع ببساطة أن يستفيد من الوضع القائم في تلك الفترة والمتمثّل في التوتّر السيّاسي الذي كان قائما في ساحة الجنوب القسنطيني استنادا إلى إشاعات كثيرة (منها القول بقدوم الأشراف إلى المنطقة، وعزم سلطات الاحتلال الرفع من الإتاوات عن النّخيل، وغير ذلك) واستطاع، انطلاقا من وقوع حوادث بسيطة، تعميم ثورة شاملة.

1-2 الاضطرابات السيّاسيّة في الأوراس و الحضنة

منذ سقوط نظام" مَلَكِيَّة أو ملوكيّة جويلية (Monarchie de juillet) في فيفيري 1848، أصبح الفرنسيون يخشون أن يغتنم السكّان الأصليّون الفرصة لبث أحداث شعبيّة من شأنها أن تهدّدهم. وكان يجب انتظار سنة 1849لتظهر في الجنوب القسنطيني أوّل بذرة انتفاضة شعبيّة زرعها الشّيخ بوزيّان بالزّعاطشة ، وكانت مسبوقة باضطرابات وقعت في كلّ من الأوراس والحضنة.

الأوراس[1] وهو الجبل المسمّى بالجبل الثّائر، ذلك، أنّه اشتهر منذ القدم بالمعارك التي كانت تخاض ضدّ الغزو الأجنبي في كلّ العصور. ومنذ سقوط قسنطينة، بدأ الجبل الأشمّ يستعدّ لكل احتمالات غزو فرنسي وارد.

1-Massif montagneux qui s'étend du sud de Constantine et qui fait partie de l'Atlas saharien. Ce massif s'étend sur un quadrilatère mesurant environ 100 Km. Du nord au

وفي سنة1848 ، وبعد تطويع الزّيبان لغرض استسلام الأوراس، قام الجنرال بيدو (Général Bedeau) باستكشاف للمنطقة مصحوبا بقوّات ضخمة .منطلقا من باتنة في أول ماي ومدعوما بفيلقين تمكّن في أيّام قليلة من التوغّل في جبال شرشار، متحديّا كلّ العراقيل الطّبيعيّة والتجمّعات القبليّة غير المرحّبة به. ولم يلبث أن واجه مقاومة شرسة في واد عبدي وخاصّة في عيدوسة بتاريخ 20 ماي 1845 مع قبائل نارة ومنّاعة وبني فرح وأولاد عبدي ، بتعداد قدره 2500 مجاهد، وبعدم توازن القوى بين المقاومين من جهة والقوّات الفرنسيّة من جهة أخرى انتهى الأمر باستسلام كلّ القبائل مع إجبارها على دفع تغريم جائر[1].

وفي 1849 ، فرضت سلطات الاحتلال في الأوراس تنظيما إداريّا على الشّكل التّالي : تعيين العربي بوضياف من عائلة أولاد بلقاسم كقائد على القسم الشّرقي، وسي بلعباس ابن أحد مرابطي منّاعة قائدا على القسم الغربي. وفي الوقت نفسه، أقيمت قيّادات مستقلّة ومنها قيّادة باتنة التي أوكلت إلى سي أحمد بن القاضي وقيّادة بون التي تولاّها سي الشّريف بن منصّر، وقيّادة أولاد سلطان التي أوكلت إلى محمّد بن بولباري وأخيرا قيّادة أولاد صالح

sud et 100 km. De l'est à l'ouest. Voir encyclopédie de l'Islam, A. Picard et fils, tome I, 1913, p528.

سلسلة جبيلية تمتد من جنوب قسنطينة وتشكل جزءا من الأطلس الصّحراوي .تمتد هذه السلسلة على شكل مرّبع ضلعه 100 كلم من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب .أنظر موسوعة الإسلام، أ .بيكار وأبنائه،1913 ، ص.528

1-FERAUD, Le Sahara de Constantine, op cit, pp 385-386

وأولاد درّاج الشّراقة التي تولاّها سي المختار بن دايخة، مع العلم أنّ مجمل تلك القيّادات كانت متعلّقة بإقليم باتنة وتعمل تحت إمرته[1].

كانت الاضطرابات والحوادث قد بدأت خلال شهر أفريل 1849 في نارة القرية الجبليّة التي تعلو سهل وادي عبدي، حيث تلقى العقيد كربوشية (Colonel Carbuccia) رسالة من سي بلعباس قايد نارة يخبره فيها بالحالة المضطربة في القرية التي وصلت إلى حدّ قتل شخصين من أقرباء القايد.

"لإطفاء النّار قبل أن يمتدّ لهيبها (كتب شارل بوشي(Charles Bocher) توجّه العقيد خربوشية على جناح السّرعة على السّاعة الرّابعة مساءا، مارّا على القصور وسهل بوزينة، ليصل في الغد عند نهاية النّهار إلى سفح نارة. ولم يمنح فرقته إلاّ مدّة قصيرة للاستراحة ليصعد إلى أعلى القرية عبر مرتفع يفصل بين منّاعة ونارة. ولمّا وصل إلى أسافل القرية المتمرّدة، وجّه صوبها عدّة طلقات مدفعيّة قبل أن يعود إلى السّهل لقضاء الليل[2]".

وعلى حسب الكاتب نفسه، يكون الكولونيل كربوشية قد عاد في الغد إلى باتنة، غير أنّ مصادر أخرى تتحدّث عن فرار بعض سكّان نارة وهم يطلقون نارا مكثّفة عن الغزاة عندما اقتربوا من القرية، ممّا نتجت عنه معركة ضاريّة سقط فيها أحد أهم المحرّضين عن الثّورة محمّد بن بجّاجة وأربعة رجال آخرون[3].

1-A.O.M, 10 H 76, Historique de l'ancien cercle de Batna, Batna le 18 mars 1902.

2-BOCHER Charles, "Prise de Nara, souvenirs d'une expédition dans le djebel Aurès", Revue des deux mondes, Paris 1858; pp 859-860.

3-A.O.M 1 H 6, Lettre du général Herbillon au Gouverneur Général, Constantine, 5 mai 1849.

ويبقى التّساؤل مطروحا هل كانت هناك علاقة مباشرة لحوادث نارة بما حدث من بعد في الزّعاطشة خلال شهر ماي1849 ؟ وممّا يمكن قوله إنّ الرّوابط التي كانت تجمع القريتين قديمة، متعدّدة ومتينة جدّا. فخلال حصار الزّعاطشة، تميّز مقاتلو نارة بمشاركة نشيطة في القتال، وكان عددهم حسب شارل بوشي، يربو عن الأربعين.[1]

وفي الأخير لا بدّ من الإشارة أنّه وبعد سقوط الزّعاطشة في 26 نوفمبر 1849، كانت نارة هي القرية الوحيدة الصّامدة في كامل الجنوب القسنطيني، فكان لزاما على الفرنسيين إرسال قوّات عسكريّة تحت قيّادة العقيد كنروبير (Colonel Canrobert) في جانفي 1850 وتدمير القريّة عن كاملها لتتوقّف الثّورة في المنطقة[2].

أمّا في الحضنة المجاورة للأوراس، فكان السّبب الرّئيسي الذي دفع للثّورة هو الاستغلال الفاحش للسّلطة الذي كان يمارسه سي مقران بن محمّد الحاج الذي كان يشغل منذ 1844 قيّادة كبيرة تشمل كلّ قبائل الحضنة الشّرقيّة. وكان تركيز سلطته يقع أساسا على أولاد سحنون أحد بطون أولاد

1-Sur les liens unissant Zaatcha et Nara, Charles Bochers écrit "Il y avait une sorte de parenté. Dans de différentes affaires où les habitants de Zaatcha se trouvèrent engagés contre nous, ceux de Nara figurent comme auxiliaires et se font bravement tuer dans leur rangs". Voir, Charles Bochers, "prise de Nara", op cit, p859.

عن العلاقات التي تجمع بين الزعاطشة ونارة، كتب شارل بوشي" : هناك شبه علاقات تقارب عائلي . ففي مختلف قضايانا مع سكان الزعاطشة الذين كانوا يناوئوننا، يعترضنا أهل نارة كمساعدين لهم، وكمقاتلين ببسالة في صفوفهم ".

2-Dans la deuxième partie, nous revenons longuement sur cette expédition.

سنعود في الفصل الثاني للحديث مطوّلا عن هذه الحملة..

درّاج. وكانت الاحتجاجات قد كثرت حول تصرّفاته إلى درجة أن سلطات قسنطينة كانت ترسل تقريبا كلّ سنة قوّات فرنسيّة لدعم سلطته[1].

خلال شهر مارس 1849أقدم أولاد سحنون على تفجير حركتهم الاحتجاجيّة. وكانت حالة من عدم الأمن تطغى عن المنطقة، حملت شيخ الشّيوخ قويدر بن بوحفص على الفرار إلى بريكة أين توجد زمالة سي مقران .وعلى عجل انطلقت من باتنة يوم 25 مارس1849 كتيبة عسكريّة يقودها العقيد كربوشية قوامها 700 رجل. ولدى وصوله إلى بريكة، بدأ نائب حاكم باتنة في تلقي احتجاجات أولاد سحنون والاستماع إلى مطالبهم التي كانت تتركّز في غالبيتها عن مشكلة توزيع الميّاه، حيث قالوا له": بينما تموت زروعنا من جرّاء العطش تتخمّر زروعهم بفعل الماء ."ورغم أن كربوشية، اعترف بمطالبهم فإنّه لم يتردّد في تسليط غرامة حرب على أولاد سحنون وأخذ بعض الرّهائن منهم.[2]

وعند عودته إلى باتنة أرسل العقيد كربوشية رسالة إلى الجنرال هربيون ينوّه فيها بسلطة سي مقران ": إنّه كان الأجدر والأنظف ليبقى على رأس هذه القيّادة "ويضيف": إنّ ذكاءه الحادّ وخصوصيّة تصرّفه والهالة التي يحيطه بها قومه تجعل منه قائدا فذّا وإن كان صارما ولا يعير اهتماما كبيرا للدّراهم"[3].

1-A.O.M 1 K K 470, Historique politique de la province depuis la prise de Constantine jusqu'en1847.

2-A.O.M, 10 H 17, Historique politique du cercle de Batna en 1849, par le capitaine du bureau arabe.

3-Cercle de Batna, Rapport du 24 avril 1849.

ولقد تبيّن لنا فيما بعد ومن خلال الحوادث التي وقعت في الحضنة في جوان 1849أنّ توقّعات هذا الضّابط كانت مناقضة لما آلت إليه حالة الاستقرار في المنطقة.

ورغم أنّ حوادث أخرى لم تكن بحدّة ما وقع في نارة ولدى أولاد سحنون، فإنّ نائب حاكم باتنة، لم يتوان في إرسال بعثات عسكريّة قصد تخويف سكّان كامل الجنوب القسنطيني، رغم الهواجس التي كانت تنتاب نفوس الفرنسيين .وكان الجنرال هربيون (Général Herbillon) حاكم القطاع القسنطيني، قد جمع جزءا كبيرا من القوات العسكريّة بما في ذلك ما كان منها ببسكرة وباتنة، لشنّ حملة واسعة على الشّمال القسنطيني لمواجهة الشّريف ابن يمينة وعائلة بني عزّ الدّين القويّة [1]. وكانت تلك هي المرحلة التي اختارها بوزيّان لتفجير حركة ثورة الزعاطشة.

2-2 الشّيخ بوزيّان يضرب بقوّة

أربع سنوات من احتلال الزّاب، أعطت الانطباع الخاطئ لسلطات إقليم بسكرة بأنّ المنطقة ستعيش لمدّة طويلة في كنف السّلم والاستقرار. وخلال سنة1848 ، حاول ضبّاط فرنسيون إقناع المعمّرين بإقامة مستعمرات استيطان في الزّاب[2]، لكون حركات الانتفاضات أصبحت نادرة ، بعد رحيل

1-La famille des Ben Azzeddine commandait depuis les Turcs, un vaste commandement dans le nord constantinois en particulier sur la vaste vallée de l'oued El-Kébir. Depuis 1838, les Ben Azzeddine s'opposèrent aux Français jusqu'à leur soumission.

كانت عائلة ابن عزّ الدّين منذ عهد الأتراك على رأس قيادة واسعة تشمل بصفة خاصة سهول الوادي الكبير. ومنذ سنة 1838 كانت عائلة ابن عز الدين تعارض الفرنسيين وظلّت كذلك إلى غاية استسلامها سنة 1849 .

2-En 1848, le capitaine de génie Lagrénée publia un rapport d'une vingtaine de page intitulé 'Notice sur le cercle de Biskra'. Selon lui, on a tellement répandu de fausses

خليفة الأمير عبد القادر محمّد الصّغير بن أحمد بن الحاج إلى سوف، أشهر قليلة بعد احتلال بسكرة. وكذلك كانت بداية سنة1849 ، فبينما كانت الحضنة والأوراس تهتزّان تحت اضطرابات محليّة، كان الزّاب بصفة عامّة يعيش في الهدوء.

" إنّ الهدوء الذي لم يكن إلاّ مظهريا (كما كتب فيما بعد الجنرال هربيون) وكان يدعمه مرور القوافل العديدة الأوروبيّة والعربيّة والقبليّة في كلّ الاتجاهات وبدون مشاكل، كما كانت قبائل البدو الرحّل تمارس رحلاتها إلى التل صيفا[1]"

ويلخص تقرير مؤرّخ في نصف الشّهر الأوّل من ماي 1849 وصادر عن مكتب بسكرة، المناخ السيّاسي العام الذي كان سائدا في المنطقة:

"رغم الأنباء الرّائجة حول قرب وصول شريف ذي قوّة خارقة للعادة، يتمتّع الاقليم لحدّ الآن بهدوء تامّ. ومع ذلك يتطلّب الحال مزيدا من الحذر.

---

nouvelles sur l'état sanitaire du Zab que les colons refusaient catégoriquement de venir dans ce pays. Avec l'appui des statistiques, il tenta de démontrer que le rendement des cultures dans le Zab (blé, orge, piment..) se rapprochait presque de celles du Tell. Voir, A.O.M, 12 H 25, Notice sur Biskra par le capitaine de génie Lagrénée.

سنة 1848 نشر نقيب الهندسة لاغريني تقريرا من حوالي 20 صفحة عنونه" تعليمة حول إقليم بسكرة "يقول فيه إنّ إشاعات خاطئة تروج حول الحالة الصحية في الزّاب، إلى درجة أنّ المعمّرين يرفضون بصفة قطعية الاستثمار في المنطقة. واعتمادا على إحصائيات، حاول أن يبيّن أنّ مردود الغلال من القمح والشعير والفلفل يقترب من مردود أراضي التل ..انظر.A.O.M, 2 H 25

1-HERBILLON Emile, Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha, Paris, J. Dumainp, 1863, 208, p123.

ولذلك شدّدت الحراسة النّشيطة عن الأجانب وأعطيّت الأوامر لكلّ مسؤولي النّادي ببسكرة بأن يوقفوا كلّ المروّجين إلى مثل هذه الأخبار"[1].

ولمّا لاحظ الرّائد سان جرمان الحالة التي يعيشها الإقليم الذي كان يرأسه توجّه إلى الجزائر خلال شهر فيفري1849 ، على رأس وفد هام يشمل شيوخ قرى سوف[2]من جهة وممثّلين عن مدينتي تقرت وتماسين، ليعرض عن الحاكم العام حالة التّنظيم العامّة في مناطق الجنوب .[3]ولدى عودته إلى بسكرة، ذهب مع معظم ما يملك من قوّات للمساهمة في الحملة الكبرى التي كان الجنرال هربيون يزعم القيّام بها في الشّمال القسنطيني.

وبعد شهر من ذلك، تحدّى الشّيخ بوزيّان السّلطات الفرنسيّة وجعل نفسه على رأس انتفاضة شعبيّة غير مسبوقة في المنطقة.

ولم تفدنا المصادر العربيّة ولا الفرنسيّة بالشّيء الكثير عمّا كان عليه الشّيخ بوزيان قبل سنة 1849 . ولإعطاء فكرة عن شخصه، وجب علينا تجميع شتات من المعلومات من مصادر مختلفة. ومن المؤكّد أنّه سبق وأن عيّن بوزيّان شيخا عن الزّعاطشة من طرف محمّد البركاني نائب الأمير عبد القار على المديّة، عند مرور هذا الأخير بمنطقة الزّاب سنة1839 . ولدى تنظيم إقليم بسكرة سنة 1844 ، اعتبر الفرنسيّون بإيحاء من آل ابن قانة الشّيخ بوزيّان" شخصا نشيطا وخطيرا "وكان منحازا لآل بوعكّاز، ولذلك خلعوه من

1-A.O.M, F 80 497, Cercle de Biskra, rapport de la première quinzaine du mois de mai 1849, par le chef du bureau arabe.

2-Le pays du Souf se compose de plusieurs oasis dont les principaux sont Tarzout, Guemar, El-Oued. Le Souf a pour limite du nord la ligne des chott, allant de Melghigh à la frontière tunisienne et au nord la région de Touggourt.

3-SEROKA, Le Sud constantinois, de 1830 à 1855, op cit, p 503.

منصب المشيخة ووضعوا في مكانه أحد أقربائه المدعو علي بن عزوز. وكان الشّيخ بوزيّان يتولّى جمع اللّزمة أي غرامة التّمر، دون أن يفقد من نفوذه شيئا في الزّاب الظهراوي.[1]

قبل ذلك، وبالتّحديد سنة1831 ، كان الشّيخ بوزيّان قد تميّز أثناء حصار الزعاطشة الأوّل من طرف الحاج أحمد باي، بأنّه كان راميّا متميّزا أصاب الكثير من خصومه، وعلى رأسهم الشّيخ دخينة من السّحاري [2]. إنّنا نجهل تاريخ ميلاد الشّيخ، ولكنّ حسب تقدير بعض الضبّاط الفرنسيين وظهوره مع فرحات بن سعيّد للدّفاع عن الزعاطشة سنة1931 ، يوحي لنا أنّه كان ما بين الأربعين والخمسين من العمر عندما حمل الزّعاطشة على الثّورة سنة 1849.

ولقد عثر في نوفمبر 1849 بالزّعاطشة على رسائل كثيرة مكتوبة بالعربيّة ومؤرّخة قبل ، 1844تشير إلى الشّيخ بوزيّان باسم بوزيّان بن بلقاسم بن لمبارك وأغلب الظنّ أنّ هذا هو اسمه الذي ظلّ مجهولا إلى حدّ الآن. ودائما وحسب هذه الرّسائل، يكون فرحات بن سعيّد هو من عيّنه شيخا عن الزّعاطشة، وكان يتولّى شؤون بوشقرون وفرفار أيضا، خاصّة فيما يتعلّق بدفع الغرامة. ويكون ذلك المنصب هو ما مكّنه من النّفود الواسع الذي ظلّ يلازمه واستفاد منه سنة 1849 في حشد سكّان المنطقة لصالح ثورته[3].

1-FERAUD Charles, Le Sahara de Constantine, op cit, p 397.

2-Bu Aziz BEN GANA, Etude historique sur la famille des Ben Gana, op cit, p 46.

3-Le commandant de bataillon Bonaparte qui a participé à une partie du siège de Zaatcha a estimé que l'âge de Bouziane, était de 40 ans en 1849. Voir son ouvrage "Un mois en Afrique", Paris, Pagnerre, 1850, p21.

إنّ بوادر الثّورة التي نشّطها الشّيخ بوزيّان كانت قد بدأت في مطلع شهر ماي من عام 1849 بالزّعاطشة ، وذلك عندما سرّب خبر" رؤيته للنبي في المنام " وشاع هذا الخبر بسرعة بين قرى الزّاب الظّهراوي. ولكنّ الشّيخ لم يتوقّف عند هذا الحدّ، بل راح يلقى الخطب كلّ يوم " ممّا ألهب المشاعر "[1]على حدّ قول أحد الضبّاط الفرنسيين، كما كان يوزّع العطايا على السكّان لينتهي به الأمر إلى الدّعوة صراحة بالحرب المقدّسة في ظروف سيّاسيّة ملائمة جدّا.[2]

"هذا النّداء للجهاد المقدّس الذي حدث عندما كانت القوّات الفرنسيّة مشغولة في الشّمال (كتب الجنرال هربيون فيما بعد) وكان ذلك حدثا غير سار، لأنّنا لا نملك القوّة الكافيّة لوقف الشرّ عندما بدأت أولى أعراضه تظهر في الزّاب الظهراوي. وكان البطء المفروض في الردّ عن التمرّد قد ترتبت عنه نتائج خطيرة، تركت السكّان لا يخشون مآسي الحرب وينساقون وراء

يقول الرّائد بونابارت(ب.ن) المشارك في الحصار على الزعاطشة، في كتابه" شهر في إفريقيا "إنّ بوزيان كان في الأربعين من العمر أثناء الحصار سنة1849 . انظر كتابه، بانيير،1850 ، ص21 .

1-A.O.M, 2 H 25, Cercle de Biskra, rapport du 21 mai 1849.

2-Selon le chef du bureau arabe de Biskra, la guerre sainte fut prêchée à Zaatcha le 17 mai, c'est-à-dire à la veille de l'incident de Bouziane avec le lieutenant Séroka. Le lieutenant Dubosquet écrit que Bouziane "montait sur le minaret de Zaatcha et faisait entendre le cri de guerre. Après lui et sous ses ordres, deux autres individus montèrent sur le minaret pour faire entendre les mêmes cris." Voir A.O.M; 2 H 25, note additionnelle au rapport de la deuxième quinzaine du mois de mai 1849.

حسب رئيس المكتب العربي ببسكرة أنّ الحرب المقدسة (الجهاد) كانت قد أعلنت في الزّعاطشة في 17 ماي1849 ، ليلة الحادثة التي وقعت لبوزيان مع الملازم سيروكا. وفي ذلك كتب دي بوسكيه" أنّ بوزيان صعد إلى مئذنة الزعاطشة ونادى بالجهاد المقدس. وبعده صعد شخصان آخران بأمر منه وناديا بالنّداء نفسه .انظر التعليمة الإضافية المرفقة للتقرير النصف شهري لشهر ماي 1849.

توهّم شيخهم السّابق بوزيان الذي ادّعى الإلهام ولم يعد يترك أيّ وسيلة للدفع بأتباعه إلى حركة تمرّد كان هو محرّكها، فأصبح صوته مسموعا".[1]

في البداية، ورغم حماس الشّيخ بوزيّان في تحدّي السّلطات الفرنسيّة في الزّاب، فإنّه لم يستطع أن يرقى بانتفاضته إلى ثورة شعبيّة واسعة، رغم أنّ دعوته بلغت سكّان المناطق المجاورة للزّاب الظّهراوي، وهو ما لفت انتباه آل ابن قانة والفرنسيين .وكان على الشّيخ انتظار الحادثة المذهلة التي وقعت له مع سيروكا ليبلغ شخصه شهرة غير مسبوقة سمحت له بتحدّي سلطات إقليم بسكرة بصفة علنيّة ومباشرة. ذلك أن نائب رئيس مكتب بسكرة [2]أثناء دورة تفقديّة في واحات الزّاب علم ببوادر الحركة الاحتجاجية التي كان يهيّئها الشّيخ بوزيّان، فكتب إلى رئيسه الملازم أوّل دي بوسكي مسؤول إقليم بسكرة بتاريخ 16 ماي" : لقد كثر الحديث عن شخص يظهر وكأنّه شريف. وهو يذبح كلّ يوم الأغنام ويوزّع لحومها بسخاء على النّاس ويدّعي أنّ النبي ظهر له في المنام"[3]

1-HERBILLON, Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation de siège de Zaatcha, op cit, p 12.

2-Le sous-lieutenant Séroka a vécu de plus près l'arrivée des Français dans le sud constantinois. Il a été adjoint au bureau arabe de Biskra (1848) puis chef du même bureau (1850) et enfin commandant du cercle (1855).

الملازم سيروكا عايش عن قرب قدوم الفرنسيين إلى الشمال القسنطيني. تقلّد نيابة المكتب العربي ببسكرة (1848) ثم ترأس المكتب نفسه (1850) وأخيرا رئيسا للإقليم (1855) .

3-HERBILLON Emile, Quelques souvenirs d'un cahier oublié, publié par son arrière-petit-fils Beger Levrault, 1829, p129.

كان رأي الملازم سيروكا أن يُتّخذ إجراء سريعا قبل أن تتفشّى فكرة الثّورة . وبعد أن جال في الزّاب القبلي توجّه إلى الزّاب الظّهراوي. وعند وصوله إلى ليوة يوم 12 ماي استقصى شيخ القرية عن الإشاعات الدّائرة حول حراك بوزيّان في الزعاطشة وقد وجد عند الشّيخ نوعا من القلق، فأخبره هذا الأخير" بأنّ النّاس لم يعودوا يطيعونه، وأنهم أصبحوا متخاذلين في تحضير الضيفة (حفلة الاستقبال) ويزعمون أن وجه الأمور سيتغيّر وأنّ حكم البلاد سيعود للمسلمين".[1]

وبما أنّه لم يتلقّ أوامر مضبوطة من المكتب العربي ببسكرة ولم يسجّل أي ردّ فعل من طرف القيّاد العرب، قرّر الملازم سيروكا التدخّل بنفسه رفقة ستّة فرسان (من النّوبة) واثنين من السيبايس(الصبايحية) الذين كانوا برفقته أمسيّة 18 ماي1849 ، وقرّر إلقاء القبض على الشّيخ بوزيّان بعد أن رفض كلّ من شيخي ليشانة وطولقة مرافقته إلى الزّعاطشة. وفي تقرير له، عاد رئيس المكتب العربي ببسكرة إلى تفصيل المواجهة الأولى بين بوزيّان والفرنسيين التي كانت واقعتها غير مسبوقة في تلك القرية مـــن قرى الزّيبان [2] :" دخل الملازم سيروكا إلى الزعاطشة مصحوبا بحراسة بسيطة فوجد بوزيّان وحده في ساحة القرية فأمره أن يتبعه وأراد أن يركبه على بغل. في البداية أبدى بوزيّان نوعا من الطّاعة ولكنّه قطع خيط سبحته وأخذ يجمع حبّات السّبحة ببطء. ولما رأى سيروكا بطء حركات بوزيّان وعلم أنّه يريد ربح مزيدا من الوقت، أمر أحد الخيّالة لينزل من على صهوة

1-HERBILLON, Insurrection survenue dans la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha, op cit, p16.

2-FERAUD, Le Sahara de Constantine, op cit, p 397.

الحصان ليجبر الشّيخ عن السّرعة. فجأة تعالت الأصوات بالتكبير والتهليل والنّداء إلى السّلاح وغلق الأبواب ! وبسرعة خطف الشّيخ بوزيان بندقيّة الفارس الذي ترجّل وأطلق عليه النّار دون أن يصيبه (لم يرد ذلك). ثم تناول بوزيّان كابوسا من يد ابنه وأطلق النّار مرّة ثانيّة على مهاجمه الذي كان يريد أن يركبه على البغل ولم يصبه. وفي خضمّ تلك الحادثة، ظهر السكّان وهم يحملون السّلاح وينادون بالجهاد المقدّس. ومن حسن حظّ سيروكا أنّ الباب التي أغلق تمّ كسره وتمكّن من الهروب دون أن يفقد نفسا، لكنّه اضطرّ إلى ترك حصانين وبندقيّتين وبرنوسا"[1].

لقد كاد الملازم سيروكا أن يخنق الثّورة من نواتها، لو تمكّن من بوزيّان. لكنّ إقدام الشّيخ وحذر أهل الزّعاطشة أحدث العكس ومكّن من انتشار حركة الاحتجاج بسرعة وأعطاها صدى قويّا في كامل واحات الزّاب الظهراوي، وشكّل فعلا نواة ثورة عارمة في الزّعاطشة. ولم يصل مساء ذلك اليوم حتّى وصلت وفود من كامل قرى الزّاب الظّهراوي تبارك وتدعم بقوّة قضيّة بوزيّان.

ويبيّن التّقرير الآتي الذي وصل سلطات الاحتلال - بدون شك من أحد أعوانهم من آل ابن قانة-، يصف النتائج الأولى التي ترتّبت عن حادثة بوزيّان مع سيروكا ليلة 18 ماي 1849 :

"هذا ما قاله لي من ليشانة حمّو شاوش حول قضيّة بوزيّان واستيلائه على الحصانين :يوم الحادثة، توجّه بعض أهل ليشانة لمقابلة بوزيّان وهم : إبراهيم بن باشة، المسعود بن السعيد، بلقاسم بن خنفر، التومي بن غرواط وابنه، بلقاسم بن سلامة، دحمان بن ناجي، ولمبارك بن لحمر. ولمّا

1-A.O.M, F 80 497, Cercle de Biskra, Rapport de première quinzaine de mai 1848.

قابلوا بوزيّان قالوا له :الحمد لله عن هذه المناسبة التي شاهدتم فيه النّبي (ص) ؛ إذا كانت رؤيتك صادقة وإن جاء أحد ليحاربك سنقاتل معك ونمشي وراء خطاك إلى الأبد. وفي صباح الغد ذهب الشّيخ المسعود شيخ ليشانة وأعاد تقريبا الكلام نفسه. ومنذ ذلك صار أهل الزّاب يزورون بوزيّان باستمرار ...ولقد قال لي حمّو أيضا، أنّه وفي ليلة القضيّة، ذهب رجال من فرفار إلى بوزيّان، وهم : الصالح بن الحاج بوبكر القوم، المداني بن الحاج، سليمان بن محبوب، الجلالي، المسعود بن الحاج العرفي، وقالوا لبوزيّان : الحمد لله عن هذه المناسبة إذا كانت رؤيتك صحيحة وأنّك رأيت النّبي (ص) فإن جاء أحد ليحاربك سنقاتل معك ونمشي وراء خطاك إلى الأبد. سنكون مع في السرّاء وفي الضرّاء في الخير وفي الشرّ من بعد ذلك حطّوا رحالهم بالزّعاطشة" [1].

وعليه، فقد اتّخذ الحدث منحى عظيما بالنسبة لسكّان الزّاب الظهراوي إلى درجة أنّ الوفود بدأت تتتابع عن الزّعاطشة، لأنّ السّكان انبهروا من شجاعة بوزيّان الذي واجه بكلّ بسالة ضابطا فرنسيّا من المكتب العربي والذي كان يمثّل سلطة فرنسيّة متعوّدة عن القمع والانتقام. ولذلك توافد النّاس على بوزيّان من ليشانة، فرفار، البرج وغيرها. ولإبداء دعمهم له أقاموا مضاربهم على مشارف الزّعاطشة.[2]

أمّا الجانب الفرنسي، فقد انتابه قلق ظاهر من جرّاء تطوّر الأحداث وأراد إخفاء ذلك. ولقد حاول العقيد كربوشية(Colonel Carbuccia) التّقليل من

1-A.O.M, 15 K 25, Dossier intitulé "Documents concernant l'insurrection du Zab dhahri (dahraoui)", Traduction d'un rapport arabe du caïd Mohamed-Seghir Ben Ali Ben Guidoum, Ben Gana.

2-Ibid.

الحادثة، مفضّلا أنّ توقيف بوزيّان كان يجب أن يقع من طرف قايد بسكرة العربي بدلا من ضابط فرنسي، لكيلا يتورّط فرنسيون في شأن سكّان الزّاب[1] ولمّا كانت التّقاليد الشّعبية تخلّد الأحداث البطوليّة، فإنّ شاعر ليشانة محمّد الليشاني علّق عن الحادثة بطريقته الأدبيّة الفنيّة:

فرخ الحمام اسعاني يحميك يا بن الدّونان
توصل لباي الصّحراء سلّم عليه بوزيّان
بسم الله نبدأ القصة صارت في آخر الزّمان
هذا الرّومي راه جار علينا دي يرفد بوزيّان
بوزيّان راه واعر ما هوش مهمول للخزيان
عندو عرب في لشانة واهلوا كاملة شجعان
قي اللي راشق زويجة مطرزة بالفضّة والمرجان[2]

وممّا لا شكّ فيه أن الشّيخ بوزيّان ظهر في جوان 1849 كمتصدّر لانتفاضة في طريقها إلى التطوّر. فمن خلال اسمه تجاوز قسم من سكّان الزّاب الغربي حاجز الخوف فانبرى مناديّا للجهاد المقدّس وداعما للشّيخ ومتضامنا معه، بينما بقي قسم آخر يتستّر وراء الانتظار، وهو يدرك أنّ الفرنسيين، طال الزّمان أم قصر، سيكون لهم ردّ فعل قويّ. وكان الشّيخ بوزيّان يعمل بكلّ ما

1-A.O.M, 2 H 25, Pièces à l'appui, n° 60; lettre du colonel Carbuccia au général Herbillon, 21 mai 1849.

2-FERAUD, Le Sahara de Constantine, op cit, p 410.

يملك من حنكة على رفع معنويّات أنصاره بطرق شتّى، لأنّه كان يدرك بإيمان راسخ ضرورة الاستعداد لكفاح لن يكون إلاّ طويلا.

3-2 ردّ فعل سلطات إقليم بسكرة

اختلف الضبّاط الفرنسيّون في تقييمهم لحادثة الزّعاطشة. بعضهم اعتقد أنّه لو كان الرّائد سان جرمان(Commandant Saint-Germain) موجودا في بسكرة ساعة الحادثة لأرسل قوّة ضاربة لخنق انتفاضة الزّعاطشة، وكانت تكفيه فرقتان من العساكر المسلّحة، بينما اعتقد البعض الآخر أنّ مجرّد تواجد الرّائد في السّاحة كان كفيلا بردع التمرّد العربي دون استعمال القوّة. و"كان قادرا على خلق معارضة داخل الواحة، كفيلة بإخماد أصوات المنادين للتمرّد.[1]"

يعدّ الرّائد سان جرمان هو واضع أسس الإدارة الفرنسيّة في صحراء قسنطينة .وكان يعمل منذ 1844 على استقلابيّة الصّحراء عن التل بتشجيعه على زراعة الحبوب وتنظيم ورشات حفر آبار عميقة وتنظيم شبكة ريّ (سواقي) متطوّرة والسّهر على حسن توزيع الميّاه. ولكنّه كان بالمقابل صارما عندما يتعلّق الأمر بمواجهة المقاومات الشعبيّة وكلّ مظاهر الاحتجاجات والانتفاضات سواء تلك التي قادها خليفة الأمير محمّد الصّغير بن أحمد بن الحاج، أو تلك التي كان يبديها بعض الشّرفاء في الزّاب. وفي كتابه الموسوم" الكتاب الذّهبي لضبّاط شؤون الأهالي "يلخّص بيروني (Peyronnet)أعمال الرّائد سان جرمان:

"محنّك وله قدرة على التّنظيم .كان يلحّ منذ 1846 على بدء مشاريع حفر آبار عميقة، من شأنها أن تعطي الصّحراء ازدهارا لا يقدّر. كما كان يقوم

1-A.O.M, 1 H 21, Histoire de la campagne du Ziban par le sergent-major Ribes, cahier I.

بتجارب فلاحيّة ناجحة، فنصح بزراعة القطن والليمون والبرتقال والجمّيز، كما عمل على صيّانة وإكمال محطّة للأرصاد الجويّة، كانت قد وضعت أسسها سلطات الاحتلال أثناء احتلال المنطقة. وكان منذ 1847 يريد أن يستقدم الأوروبيين إلى بسكرة فعمل على تحسين سواقي الريّ وصرف الميّاه الزّائدة وإحصاء النّخيل" [1]

وممّا سبق، يتبيّن أن الرّائد سان جرمان كان على معرفة تامّة بشؤون الزّاب، لكنّه كان أوّل من أخطأ في تقدير الحدّة التي بلغتها الانتفاضة في الزّعاطشة . ولما علم ببداية الأحداث في الوقت الذي كان يساهم في الحملة ضدّ حركة الشّريف ابن يمينة في الشّمال القسنطيني، طلب منه الجنرال هربيون رأيه فيما بدأ يحدث في الزّاب. وكان رأي سان جرمان مخالفا للواقع، إذ أنّه قلّل من أهميّة الأحداث مدّعيا" أنّ ثورة الصّحراء لم تكن خطيرة، رغم مظاهر العداء التي بدأت تظهر في منطقة الواحات. وليس من الضّروري إرسال قوّات كبيرة للمنطقة "واعتبارا منه لاعتماد الصّحراء على الشّمال، أكّد " بأن إنهاء حملة مظفّرة على منطقة القبائل، سيساهم حتما في عودة الاستقرار إلى الزّيبان" [2]

أمّا ردّ الفعل الفرنسي على مستوى إقليم بسكرة، فقد اتّخذ من البداية منحى اقتصاديا. ولمنع الالتحاق المكثّف بالانتفاضة، أمر حاكم الاقليم بالنّيابة النّقيب لاقرونيه (Capitaine Lagrenée) بمصادرة قطعان ماشيّة السكّان. ولقد جاء هذا الإجراء بنتيجة عكسيّة دون أن يخيف السكّان، بل

1 -PEYRONNET, P. Livre d'or des officiers des affaires indigènes (1830-1930), Alger, 1930, p 26.

2 -HERBILLON, Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha, op cit, p 26.

بالعكس جعلهم يشعرون بحقد كبير تجاه السّلطات الفرنسيّة، ويساندون صراحة قضيّة الشّيخ بوزيّان[1]. ولدى حصاره للزّعاطشة، نهج الجنرال هربيّون النّهج المتشدّد نفسه، حيث أقدم على قطع نخيل الواحة المحيطة بالقرية. ولقد تبيّن فيما بعد أنّ هذه الأساليب العنيفة لم تكن لتثني عزائم السكّان ولا لتحدّ من توسّع المقاومة.

وفي إجراء ثان، أرسل النّقيب لوقرينيه رئيس مكتب بسكرة الملازم الأوّل دي بوسكي صحبة قايد بسكرة محمّد الصغير بن علي بن القيدوم مدعوما بعشرة من السيبايس(الصبايحية) وثلاثين فارسا. وبما أنّ الملازم دي بوسكي كان عاجزا على إلقاء القبض على بوزيّان، فقد أوكلت له مهمّة الاتّصال بجماعة الزّاب الظّهراوي لتدارس الحالة النفسيّة العامّة التي يوجد عليها السكّان ؛ كما كلّف بالبحث عن السّبل الكفيلة بالحدّ من انتشار الثّورة خارج قرية الزّعاطشة. ولدى وصول البعثة، اتّضح لها أنّ السّكان لم يكونوا مستعدّين لاستقبالها.

.."وعند طلوع النّهار (كتب دي بوسكي) كنت على مشارف الزّعاطشة، وكان بعض السكّان يسمّرون باب القرية.. فأرسلت إليهم تباعا بعض الفرسان ثم قايد بسكرة نفسه لأقنعهم بتسليم بوزيّان والشّيخ ابن عزّوز مدبّري الثّورة، فلم يجيبوني إلا بالشّتائم، بينما كانوا يواصلون أعمال تحصين القرية "[2].

وسرعان ما انتقل ردّ الفعل العدائي إلى حواضر أخرى حيث انتقلت عدوى الزّعاطشة إلى بوشقرون، فرفار، طولقة والبرج، أين منع السكّان بقوّة

1-A.O.M, 2 H 25, Pièces à l'appui, n° 60, lettres du colonel Carbuccia au général Herbillon, Batna, 21 mai 1849.

2-A.O.M, F 80 497, cercle de Biskra, Rapport de la deuxième quinzaine de mai 1849.

السّلاح، رئيس مكتب بسكرة من الاقتراب من مداشرهم. ورغم أنّ هذا الأخير تحادث دون جدوى مع جماعة كلّ قرية (تنظيم مدني يشمل أعيان المدينة وشخصيّات نافذة). وكانت المحادثة تتوقّف كلّما طلب من الجماعة أن تتولّى بنفسها توقيف قضيّة الزّعاطشة. أمّا الشّيوخ ومحيطهم، فرغم إبداء ولائهم للسّلطات وقولهم بأنّهم خدّام لفرنسا، فإنّهم رفضوا بصورة قطعيّة المشاركة بأي صفة كانت في قمع الزّعاطشة.[1]

وفي انتظار نهاية الحملة التي قادها الجنرال هربيون عن الشّمال القسنطيني وتبعا لتطوّر الانتفاضة في الزّعاطشة، حاول العقيد كربوشية التقليل من قضيّة الزّعاطشة التي وصفها" بالتمرّد البسيط"، فكتب في 26 ماي رسالة وجّهها للنّقيب لوقريني ينصحه فيها باليقظة والحذر ويحدّد له السياسة التي يجب أن يتّبعها. وتتلخّص هذه المراسلة في النّقاط التّاليّة:[2]

- احترام عائلة ابن قانة" لأنهم - على حدّ قول كربوشيّة – لايكونون مفيدين بالقوّة، ولكن باستغلال ذكائهم وبالهالة التي تحيط باسم عائلتهم".

1-De nombreux rapport du caïd Mohamed-Seghir Ben Gana témoignent sur la manière dont le chef du bureau de Biskra a été accueilli dans le Zab dahraoui par la population et les Djemaa des villages. Voir A.O.M 15 K 25, dossier intitulé "Documents concernant l'insurrection du Zab dahraoui".

تشهد تقارير كثيرة بالعربية محرّرة من طرف القايد محمد الصغير بن قانة عن كيفية استقبال رئيس المكتب العربي ببسكرة من طرف جماعات الزّاب الظّهراوي، انظر ملفا معنونا" وثائق خاصّة بتمرّد الزاب الظهراوي".

2-A.O.M, Pièces à l'appui, n° 58, lettre du colonel Carbuccia au capitaine Lagrenée, 26 mai 1849.

- قطع كلّ اتّصال بواحات الزّاب الظهراوي وترك قايد بسكرة ليتصرّف حسب الظّروف.
- اتّخاذ مواقف متشدّدة مع الزّعاطشة مع تخفيفها عن الواحات الأخرى بالامتناع عن أخذ رهائن وتسليط غرامة عقابيّة. والهدف هو عزل الزّعاطشة وتحديد التمرّد في قرية أو قريتين، وذلك في "انتظار أيام أفضل وتحضير انتقام مثالي مناسب".

وكذلك تسرّب القلق إلى نفس حاكم القطاع القسنطيني بأكمله فوجّه من مخيّمه بسيدي مروان شمال قسنطينة، رسالة إلى الوالي العام بالجزائر ليخبره من خلالها عن اندلاع الأحداث بالزّعاطشة والإجراءات التي يزعم اتّخاذها لقمع الحركة:

"في انتظار أن أعاقب بقسوة قرى الزعاطشة، ليشانة وفرفار، أعطيت أوامر للإبقاء على الحصار المفروض على هذه القرى لمنعها من أيّ اتّصال خارجي مع التّركيز على هذه النّقطة من التمرّد[1]".

إنّ الحصار الذي كلّف به آل ابن قانة قد طال المنطقة بأكملها غداة الضّربة القويّة التي وجّهها الشّيخ بوزيّان للسلطات الفرنسيّة. وسنرى لاحقا كيف أنّ الموقع الجغرافي للزّعاطشة والغطرسة التي استعملها قوم أبن قانة كانتا وراء فشل هذه السّياسة.

فرغم الحصار المفروض على المنطقة، فإنّه لم يمنع انتفاضة الزعاطشة من التوسّع بسرعة، لأنّ الشّيخ كان يعبّر بإيمان عن نيّته في مواجهة أيّ قوّات

1-A.O.M, 2 H 25, une lettre du général Herbillon au Gouverneur Général, Sidi-Merwane, 29 mai 1849.

فرنسيّة ترسل إلى الزّاب الظهراوي. وبتشجيع وتأثير من أنصاره، رفض إرجاع الحصانين اللذين غنمهما في حادثة 18 ماي1849 ،[1]

وفي الحضنة المجاورة للزّاب، استغلّ أولاد سحنون فرصة انتشار الثّورة في الزعاطشة لينتفضوا ضدّ سلطة سي مقران. ففي 27 جوان، هاجم 800 رجل من المشاة و 400 فارس زمالة سي مقران المتواجدة ببرج بريكة، ممّا فاجأ القايد الذي لاذ بالفرار ولم يجد ملجأ إلاّ في المركز الذي كانت تديره فرقة من اللفيف الأجنبي الفرنسي متّخذة من برج بريكة مقرّا له. وفي اليوم الموالي، واجه أنصار سي مقران المهاجمين من أولاد سحنون في معركة ساخنة، قتل فيها ابن سي مقران وقايد أولاد سلطان. ورغم النّصر الذي حقّقه أولاد سحنون فإنّهم لم يجرؤوا على مهاجمة مركز اللّفيف الأجنبي واكتفوا بضرب حصار متين عن المكان .[2]ولمّا علم العقيد كربوشية بما وقع في الحضنة أصرّ على الجنرال هربيون ليرسل إلى الجنوب القسنطيني الرائد

1-Pour voir en détail les tractations qui ont lieu entre le cheikh Bouziane et les envoyés de l'administration française du Zab au sujet des chevaux pris le 18 mai, il faut se référer à A.O.M, 15 K 25, "Documents concernant l'insurrection du Zab dahraoui. Voir le rapport du caïd Mohamed-Seghir Ben Ali Ben Guidoum Ben Gana et celui d'un de ses compagnons; lettres n° 10 et 11.

لمعرفة خلفية المساومات التي وقعت بين الشيخ بوزيان وموفدي الإدارة الفرنسية بالتفصيل فيما يتعلق بحادثة الحصانين اللذين استولى عليهما الشيخ في 18 ماي، يجب الرّجوع إلى ملف" وثائق تتعلق بتمرد الزّاب الظهراوي .انظر تقرير القايد محمد الصغير بن علي بن القيدوم بن قانة وأحد رفاقه . أنظر A.O.M, 15 K 25.

2-A.OM, 2 H 25 , Revue des événements politiques qui ont lieu dans le cercle de Biskra en 1849.

سان جرمان مدعوما بقوّات من ثكنتي باتنة وبسكرة. ولربح الوقت طالب كربوشيّة أولاد سحنون بالتوّجه إلى باتنة لطلب الأمان (السّلم).[1]

هل كانت انتفاضة أولاد سحنون انعكاسا مباشرا وسريعا لثورة الزّعاطشة ؟ الحقيقة أّن هذه القبيلة كانت منذ مدّة طويلة قد بدأت توطّد علاقاتها مع سكّان الزّاب" وكانت اتصالاتها بهم مستديمة "خاصة التّجاريّة منها سواء مع أهل الزّاب المتوجّهين إلى الجزائر العاصمة أو البدو أثناء رحلاتهم نحو التلّ . ولذلك اعتبر البعض من الضبّاط الفرنسيين أنّ هناك علاقة مباشرة بين ثورة الزّعاطشة وما حدث عند أولاد سحنون.[2]

وكما ذكرنا سابقا، فإنّ أولاد سحنون سبق لهم وأن انتفضوا مرّة أولى في مارس 1849 ضدّ سلطة سي مقران. وفي رسالة وجّهوها فيما بعد إلى العقيد كربوشية شرحوا له فيها أسباب ثورتهم وبأنّهم قرّروا أن ينتقموا لأنفسهم .[3] وكانت ثورة الزّعاطشة هي الفرصة السّانحة التي شجّعتهم على الانتفاضة ليصفّوا حساباتهم مع سلطة القايد.

وفي شهر جوان 1849 كان الشّيخ بوريّان قد ربح رهانه عندما كسب الاعتراف والدّعم من كلّ سكّان الزّاب الظّهراوي. فمنذ ظهوره القوي أمام الملازم سيروكا، لم يعد الشّيخ يدّخر أي جهد لتأجيج نفوس أنصاره، وعرف

1-A.O.M, 10 H 17, Historique du cercle de Batna en 1849.

2-HERBILLON, Insurrection survenue dans la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha, op cit, p 28.

3A.O.M, 15 K 25, dossier intitulé « Documents trouvés à Zaatcha et à la Djébira de sidi-Abdelhafid à Sériana ». Traduction d'une lettre adressée par les O.Sahnoun au colonel Carbucia.

لف معنون" وثائق وجدت بالزعاطشة وفي جبيرة سيدي عبد الحفيظ .ترجمة رسالة بالعربية من أولاد سحنون إلى العقيد كربوشية. انظر الملحقات، رسالة رقم 14.

كيف يظهر بصفة الرّجل المنتظر الجدير بقيّادة الأنصار والمظلومين ضحايا القهر الفرنسي، إلى الجهاد المقدّس الذي سيحقّق النّصر . ولقد تبيّن للشيّخ أنّ مستقبل ثورة الزعاطشة يتعلّق بالصّفة التي سينظّم بها، لامحالة، حركته الواسعة لمواجهة الحملات العسكريّة الفرنسية. وقبل ذلك كان عليه مواجهة آل ابن قانة أوّلا، لأنّ الثّورة ستأتي حتما على سلطتهم وعلى مصالحهم، وسوف يواجهونها بكل ما يملكون من أدوات القمع.

الفصل الثالث

آل ابن قانة وثورة الزّعاطشة

منذ احتلال الزّاب سنة 1844 ، اعتمدت فرنسا سيّاسة جديدة تجاه عائلة ابن قانة. لا شكّ أنّ هذه العائلة كانت خلال تلك السّنة قد تحصّلت على النّصيب الأوفر من القيّادة مقارنة مع القيّاد الآخرين من السكّان الأصليين، لكنّ الضبّاط الفرنسيين الذين كانوا على احتكاك بالجنوب القسنطيني، اقتنعوا أكثر من أي وقت مضى بألاّ يتركوا عائلة ابن قانة وحدها تمارس السّلطة كما يحلو لها. وفعلا، فإنّ شيخ العرب ما بين 1844 و 1849 كان محلّ اهتمام السّلطات الفرنسيّة للتقليص من نفوذه ومراقبه تصرّفات أعوانه.

1-3 علامات تصدّع قيّادة آل ابن قانة(1844-1849)

في سنة 1844 ، كان شيخ العرب بوعزيز بن بولخراص بن قانة هو رأس العائلة القويّة. وكان حسب الفرنسيين" يستحق شرف الاستقرار والوفاء لفرنسا منذ استسلامه "سنة 1838 [1]. بالنّسبة للرّائد سان جرمان فإنّ بوعزيز بن قانة رجل" قليل الذّكاء، محدود النّشاط، همّه أن يظهر أمام خدّامه بهيئة المعبود، وهو يتميّز بين أعينهم بإسرافه المفرط في التّبذير دون أن يوحي إليهم بأيّ احترام غير ما تعلّق بمركزه ".[2] ولقد بقي بوعزيز يشغل منصب شيخ عرب إلى غاية وفاته سنة 1860 ، دون أن يخلفه أحد من العائلة لأنّ الفرنسيين قرّروا في تلك الفترة وضع حدّ لوظيفة شيخ عرب. وكان قايد بسكرة محمّد الصّغير بن علي بن القيدوم هو ثاني شخصيّة في عائلة ابن قانة بعد بوعزيز، وهو الذي حافظ على منصبه إلى غاية 1883 . وكان قد ولد سنة 1818 وقلّدته فرنسا وسام فارس شرف Légion).

1-A.M.G, H 229, Renseignements sur les grandes familles des Ziban.

2-FERAUD, Le Sahara de la province de Constantine, op cit, p 421.

(d'honneur وكان يعدّ بالنّسبة إليها" ذكيّ جدّ "يفهم" طريقة الحكم ويسيّر قيّادته بشكل مقبول، لكن دون أن يُغفل عن مراقبته عن كثب. " غير أنّ الفرنسيين صاروا يؤاخذونه عن معارضته القويّة لبعض الإصلاحاتالمقترحة لقيّادته. وعلى غرار أولئك المقرّبين، كانت هناك شخصيّات أخرى، وإن كانت أقلّ أهميّة كالحاج محمّد قايد أولاد جلاّل، وأحمد بن الحاج علي بن قانة خليفة شيخ العرب المجرّد من كلّ وظيفة رسميّة[1]".

ومنذ احتلال بسكرة في مارس1844 ، أبدى الدوق دومال تخوّفه من عائلة ابن قانة. ففي تقرير له مؤرّخ في 24 مارس 1844 وموجّه إلى الجنرال بيجو، لمّح فيه للإجراءات الأوليّة المتّخذة لإعادة تنظيم الزّيبان، وأثار بصفة خاصّة ضرورة مراقبة المواقف السياسيّة لشيخ العرب :

"لقد رتّبنا الأمور بشكل يترك لشيخ العرب سلطة تمكّننا خدماته من إعطائه قدرا من الثّقة، ولكن بصفة تسمح للحاكم العام بممارسة رقابه مستديمة على أعماله وإعطاء السكّان الضّمانات التي تطلبها".[2]

وبعد حادثة ثكنة بسكرة لم يعد الدّوق يخفي تحوّفه من بوعزيز بن قانة، رغم اعترافه بأنّ هذا الأخير" وفيّ لفرنسا "وأنّ له" مشاعر عاليّة ومجموعة من الخصال الفروسيّة (شجاعة الوراثيّة) في أصوله "ومع ذلك يلاحظ الحاكم" بأنّ له فكر محدود وقليل من القوّة في الطّباع وتأقلم سيّئ مع القضايا. "وعليه توخّى أن ينزع منه السّلطة على بعض قرى الزّاب ويمنحها

1-A.M.G, H 229, Renseignements sur les grandes familles des Ziban.

2-A.O.M, 2 H 85, Rapport du duc d'Aumale au général Bugeaud, Batna 22 mars 1844.

إلى" من هو أكثر منه قدرة ، وإلى ثقاة المرابطين الذين انضمّوا مؤخّرا إلى جانبنا "وخاصّة المرابط سي مقران"[1].

وكذلك كان معظم الضبّاط الفرنسيين الموزّعين على الزّاب يرون وجوب إبقاء سلطة شيخ العرب ويقدّمون المبرّر الأساسي المتمثّل في المساهمة الفعّالة لعائلة ابن قانة في توسيع النّفوذ الفرنسي في الصّحراء منذ1839 ، وعدم وجود عائلة أخرى تتمتّع بنفوذ مماثل في الزّيبان، لكن دون أن يؤكّدوا على ضرورة تحديد فضاء تحرّكات هذه العائلة. وممّا جاء في وصفهم:

.."قساة على طبيعة مبادئ نظام المخزن القديم (كتب شارل فيرو) يجب أن يُوجّهوا في كلّ الظّروف. إنّ عدم توجيههم بكل عناية قد يعيد الزّيبان إلى عهود العنف والسّلب والنّهب، وإلى ترك موارد الثّروة تحت تصرّف البدو، ممّا قد يحيي إقطاعيّة المالك على الفلاّح، وهو الهدف الذي يدعو إليه دوما حدس آل ابن قانة". [2]

إنّ الاهتمام الذي كان يعيره الفرنسيّون للحفاظ على سلطة آل ابن قانة، لم يمنع بعض الضبّاط السّامين من إصدار ما بين الفينة والفينة تحذيرات لشيخ العرب وأعوانه. وكان العقيد هربيون قد تدخّل يوم 29 جانفي1845 ، لتذكير قائد إقليم بسكرة بأن شيخ العرب" لا بدّ أن يعرف أنّ وجود الفرنسيين ببسكرة قد غيّر سلطته بصفة جذريّة كرئيس مطلق للمنطقة ...

1-A.O.M, E 205, lettre jointe à une dépêche de commandant de la province de Constantine, le 14 juin 1844.

2-A.O.M, E 205, lettre jointe à la dépêché de commandant de la province de Constantine, le 14 juin 1844.

إنّ حقوقه (أضاف هربيون) قد قُلّصت ولكنّها ستبقى مضمونة، كما خفّفت عنه المسؤوليات بصفة واضحة"[1].

ولمّا تبيّن لشيخ العرب اليقظة التي يوليها الفرنسيّون تجاهه، أظهر بعض الشدّة للدّفاع عن قيّادته. ولمّا أُحرج بإقامة قيّادة سي مقران بجانبه وتوكيل هذا الأخير على بعض القبائل، لم يتأخّر رد فعل ابن قانة [2]فراسل سنة 1846 ، بصفة مباشرة الوالي العام بالجزائر في شأن قبيلة السحاري التي وضعها قائد إقليم بسكرة منذ 1844 تحت سلطة سي مقران.

" كان السّحاري منذ أعوام طويلة تحت رقابتنا وتحت سلطتنا المباشرة، وها هم اليوم تحت قيّادة مرابط (سي مقران) وهو غير قادر على معاملتهم بالعدل وبالطيبة اللازمين. اسمحوا لي سيّدي المارشال أن أطلب منكم إعادة حكم هذه القبيلة كما كان عليه الحال من قبل[3]".

1-FERAUD, Le Sahara de la province de Constantine, p cit, p 421.

2-A sujet de la rivalité entre le cheikh el-arabe et le caïd Si Mokrane, le commandant Saint-Germain soupçonna en décembre 1846, le chef des Ben Gana d'être derrière les troubles qui secouaient depuis 1844, le commandement de Si Mokrane, Voir, A.O.M 10 H 18, résumé de l'historique politique du cercle de Biskra en 1846.

...فيما يخص التنافس بين شيخ العرب وسي مقران، اتهم الرائد دي سان جرمان في ديسمبر 1846 صراحة رئيس آل ابن قانة بأنه كان وراء الاضطرابات التي كانت تحدث في قيادة سي مقران منذ 1844.

3-A.O.M, 1 H 6, Traduction officielle d'une lettre arabe adressée au maréchal Bugeaud par Bu Aziz Ben Gana, 15 aout 1845.

ومن جهة ثانيّة أصبح مركز عائلة ابن قانة مهدّدا من طرف عائلة بوعكّاز [1].
فمنذ الاستيلاء على الزّيبان أصبح علي باي بن فرحات بن سعيّد ووريثه ب"وهو شاب ما بن 18 أو 19 سنة ينمّ عن قوّة وطموح "يحاول الحصول من الفرنسيين على قيّادة في صحراء قسنطينة [2].ولمّا لم يستمع إليه في البداية، حاول التّدخّل في شأن آل ابن قانة باختلاق مشاكل داخل قيادتهم. وعلى سبيل المثال أرسل موفدا إلى أولاد زكري (أولاد حركات، أولاد ساسي، أود رحمة وأولاد رابح) الذين كان يقودهم سي أحمد بن بوزيد بن قانة، " ليرسلوا عريضة للحكومة الفرنسيّة لتعيّنه على رأسهم".
غير أنّ تلك المحاولة التي قام بها علي باي بن فرحات لم ترق الرّائد سان جرمان الذي سارع إلى طمأنة شيخ العرب وتأكيد دعم الحكومة الفرنسيّة

1-A propos des rivalités entre les Bou Akkaz et les Ben Gana, le commandant Saint-Germain prit au début la défense de la famille du cheik al arabe :"Le parti de la famille des Bou Akkaz (écrit-il en 1846) opposé à celui des Ben Gana comprend dans chaque localité la moitié de la population. Ce parti paraît sur presque tous les points, avoir renoncé à l'espoir d'un changement, il a reconnu que l'action de l'autorité des Ben Gana est tempérée par la vigilance de l'impartialité du pouvoir français. Il sait donc n'avoir pas à redouter des actes dictés par une ancienne animosité". Cependant, on verra plus tard qu'à partir de 1849, le commandant Saint Germain devint le fervent défenseur des Bou Akkaz. Voir A.O.M, 10 H 18, résumé de l'historique politique du cercle de Biskra en 1846.
فيما يخص التنافس بن عائلتي بوعكاز وابن قانة، حاول الرائد سان جرمان في البداية الدفاع عن عائلة شيخ العرب ، فكتبظ : " إنّ حزب آل بوعكاز المعارض لآل ابن قانة يحتوي في كل مقاطعة على نصف السكّان .هذا الحزب يظهر تقريبا في كلّ النّقاط وكأنّه فقد كلّ أمل في التغيير معترفا بأن نفوذ أل ابن قانة مدعوم دوما بيقظة نزاهة السلطة الفرنسية، فكان يدرك أنّه لا يخشى أعمالا تملها عداءات قديمة . "وسنرى فيما بعد كيف أنّه ابتداء من1849 ، تحول سان جرمان إلى مدافع متحمّس عن آل بوعكّاز.

2-A.O.M, H 229, Renseignements sur les grandes familles des Ziban.

له، وقال له" بأنّه حذّر علي باي من أن يتجاوز حدود منطقة بسكرة الموضوعة تحت سلطته[1]".

ومن جهته، تدخّل العقيد هربيون عندما كان قائدا لباتنة سنة 1845 ، ليدافع عن آل ابن قانة أمام بروز آل بوعكّاز كبدلاء.

"إنّ نهجنا حول هذه العائلة (بوعكّاز) غير مشكوك فيه. وسنضمن إذا لزم الأمر سعادتها بمنحها بعض المزايا الماديّة، ولن لا يليق بسياستنا أن نجازي وفاء بوعزيز بن قانة بأن نوحي إليه ببعض المخاوف بتحضير منافس مستقبلي له"[2].

منذ 1848 بدأت العائلات الكبرى من الأهالي في إقليم بسكرة تهتم بالخطوات التي تتّخذ في سوف قصد الاستسلام. ورغم علاقاتهم السّابقة بأهل سوف ورغم الخدمات التي قدّموها لفرنسا عمل آل ابن قانة كلّ ما في وسعهم لتوسيع نفوذهم في الجنوب. ولكن ورغم احتجاجات شيخ العرب، وضعت قبائل سوف منذ بداية 1849 مع نصف قبائل الزّاب الشّرقي تحت سلطة أحمد باي بن شنّوف.[3]

1-Bu Aziz Ben Gana, Etude historique sur la famille des Ben Gana, p 110-111. Au fil du temps, le commandant Saint Germain changea sa position au sujet des Ben Gana en allant jusqu'à se demander si les autorités françaises voulaient faire du cheikh arabe un grand chef "à la Mokrani"

ومع مرور الزمن غير الرائد سان جرمان موقفه من آل ابن قانة، وذهب إلى حدّ التساؤل هل أنّ السلطات الفرنسية تريد أن تجعل من شيخ العرب قائدا على" شاكلة مقراني"

2-A.O.M, 1 KK 3, Lettre du général Bédeau au commandant Saint Germain, Constantine 28 février 1845.

3-A.O.M, F 80 487, Cercle de Biskra, Rapport de la première quinzaine de janvier 1849.

شهر فقط قبل اندلاع انتفاضة الزّعاطشة، تذمّر شيخ العرب من مشروع جديد حضّره الرّائد سان جرمان وكان يرمي إلى تعيين قيّاد عن قبائل البدو التي كانت منذ 1844 تحت سلطة شيخ العرب. ولمّا كان هذا الأخير عازما على ألا يخضع لهذه الخطوة، استغلّ فرصة قدوم العقيد كربوشية إلى بسكرة في أفريل 1849 ليعرض عليه احتجاجه عن مشروع الرّائد سان جران.

"لقد تحادثت مطوّلا مع شيخ العرب (كتب العقيد هربيون). فعن مواقفه وخاصّة فيما يخصّ تعيين قيّاد على البدو وفق ما يقترحه الرّائد سان جرمان .فإذا كان بوعزيز لا يريد ترك هذا الجزء من قيادته طواعيّا ؛ فإنّه أكّد لي أنّكم أنتم السيّد وسيقبل كلّ ما يصدر عنكم" [1].

وفي هذه الرّسالة، يعبّر العقيد كربوشية للجنرال هربيون عن الأسف الذي اعترى شيخ العرب بسبب عواقب السياسة التي ترمي إلى تقليص نفوذه:

"لقد بدت لي حقيقة مهينة له، وهو التخوّف الذي ظهر عليه طوال مدّة نقاشنا معه. وكان يريد تركي حتّى يتجنّب الإهانة التي قد يتلقّاها من المكتب العربي. ولقد آخذته بقوّة عن ذلك الخزي الذي كان يشعر به دون مبرر ودون أسباب لم أتبيّنها. ولقد ذكّرته بخدماته السّابقة وبالثّقة التي يمنحها إيّاكم كما لغيركم يا سيّدي الجنرال. وبعد أن أعلمته بأنكم لا تعيّنون قيّادا على البدو إلاّ إذا أبدى هو الرّغبة في ذلك. ولقد نصحته بأن يقدّم شكاوى في حالة تعرّضه لأيّ شكل من أشكال الإهانة أثناء أداء مهامّه في كنف الكرامة كرجل محبّ". [2]

1-A.O.M, 2 H 25, Pièces à l'appui, n° 15, lettre du colonel Carbuccia au général Herbillon, Batna 17 avril 1849.

2-Ibid.

وتبعا لهذا الإقرار، استغل العقيد كربوشية سفر شيخ العرب إلى قسنطينة ليلتمس من الجنرال هربيون أن يفعل كلّ ما في وسعه" ليرفع من معنويّات القيّاد" . غير أنّ اندلاع الأحداث بالزّعاطشة ثم توسّعها بسرعة، أقبر هذا الاقتراح لمدّة طويلة، يعني إلى غاية انتهاء الانتفاضة الكبرى في الزّاب.

وممّا سبق، يظهر أنّ السياسة الفرنسية تجاه آل ابن قانة منذ 1844 لم تتوضّح ولم تتحّد لأنّ بعض الضبّاط، ولأسباب مختلفة، كانوا يريدون تقليص نفوذها ؛ بينما كان آخرون – اعتبارا للخدمات التي قدّموها لفرنسا –يفضّلون إيثار هذه العائلة على حساب عائلات أخرى (عميلة) منافسة.

2-3 آل ابن قانة وقمعهم لثورة الزّعاطشة

الحقيقة أنّ سلطة آل ابن قانة كانت تضعف مع مرور الوقت، وهو ما لوحظ عند بداية اندلاع الانتفاضة في الزّعاطشة. ولقد انطلقت الأحداث في وسط سكّان كانوا تحت سلطة عائلة ابن قانة منذ1844 . وعليه كان على الفرنسيين سنة 1849 أن يطلبوا منهم قمع الثّورة للحفاظ على مركزهم.

ووجد قايد بسكرة محمّد الصغير بن علي بن القيدوم نفسه عاجزا أمام الأمر الواقع وأدرك أنّ تدخّله لن يكون ناجعا دون دعم من شيوخ الزّاب الظهراوي .وعليه فقد شرع في البداية في محاولة إقناع هؤلاء لجرّهم إلى مواجهة الشّيخ بوزيّان. وبعد شهر كامل من التّفاوض أظهر شيوخ الزّاب الظّهراوي نوعا من التردّد دون أن يخفوا بأنّهم" خدّام الفرنسيين "لكن بشكل سلبي ذهب في بعض الأحيان إلى حدّ الرّفض القطعي لطلب القايد محمّد الصغير. ولم يعد هذا الأخير يخفي خيبة أمله وسوداويته تجاه المستقبل أمام موقف" كبار "القوم من شيوخ الزّاب الظّهراوي رغم أنّهم عيّنوا في قياداتهم بفضل آل ابن قانة.

إنّ رفض الاستجابة لمطالب القيادة الفرنسية من طرف شيوخ قرى الزّاب الظهراوي برّره الرّفض الجماهيري الواسع لقمع الانتفاضة بأيّ شكل كان وخاصّة استعمال القوّة. وعلى سبيل المثال يحكي أحد سكان ليشانة أنّ سكّان هذه البلدة نزعوا العمامة الحمراء – رمز السّلطة – من على رأس شيخهم وحبسوه في القرية لكي لا يتوجّه إلى بسكرة ليشرح موقفه لدى المكتب العربي.[1] غير أنّه وفي حضور قايد بسكرة أثار شيوخ الزّاب الظّهراوي أسبابا أخرى سنعرض لها في حينها ونبيّن كيف تعاملوا مع توصيّات مسؤوليهم. فهذا قايد طولقة يقول:

"لقد قلت لسكّان طولقة وبوشقرون والبرج : إذا تريدون أن تفعلوا شيئا جميلا لأنفسكم، افتنوا الزّعاطشة(حاربوها) ؛ فأجابوني : لو أنّ كلّ الزّاب يحارب وتأتوا لنا بمقاتلين سنحارب معكم في الزّعاطشة وسنعمل ذلك إذا جاءت فرقة هنا. فقلت لهم إذا أردتم أن تفعلوا شيئا يرضي فرنسا فواجهوا بوزيّان قبل مجيء الفرقة. فقالوا لي إذا جاء المحاربون من الزّاب الظّهراوي والزّاب القبلي وأنت هو من يقودنا سنحارب ضدّ ليشانة والزّعاطشة وفرفار".[2]

وهكذا (رواوغ) اشترط شيوخ الزّاب الظهراوي مشاركتهم في القتال بوجود فرقة عسكريّة فرنسيّة، بل بتجنيد قوّات من كامل منطقة الزّاب، وكانوا

1-A.O.M, 15 K 25, dossier intitulé "Documents concernant l'insurrection du Zab dahroui", traduction d'une lettre arabe du caïd Mohamed-Seghir Ben Gana adressée au commandant du cercle de Biskra

2-A.O.M, 15 K 25, dossier intitulé "Documents concernant l'insurrection du Zab dahroui", traduction d'une lettre arabe du caïd Mohamed-Seghir Ben Gana adressée au commandant du cercle de Biskra.

يعرفون أنّ قوّات ثكنتي بسكرة وباتنة كانتا في حملة عسكريّة في الشّمال القسنطيني وأنّ رجوعها إلى الزّاب سوف لن يتمّ إلاّ بعد إتمام مهامّها هناك . كما كان الشّيوخ يعرفون أنّ معظم السكّان اتّخذوا موقفا مؤيّدا للشّيخ بوزيّان، في حين اتّخذ البعض الآخر موقفا يعتريه الشكّ. ومهما كان، فإنّ تلك المواقف لم تمكّن الشّيوخ إلا من إجابة سلبيّة ، مناقضة لما كان يرجوه منهم القايد محمّد الصغير بن قانة.

ولما عجز قايد بسكرة عن الحصول على الدّعم من شيوخ الزّاب الظّهراوي، قام بمحاولة مهاجمة القرى الثّائرة مدعّما ب"قومه "(جنوده الخاصّين) وهي القرى التي كانت غير مُرحِّبَةٍ بالفرنسيين وهي الزّعاطشة، فرفار وليشانة. ولكن، وأينما كان يحلّ ،كان يصطدم بعزائم مناصري الشّيخ بوزيّان وإصرارهم على الدّفاع المستميت. وفي التّقرير التّالي، يصف أحد أعوان القايد المواجهة التي لاقاها المهاجمون من طرف المنتفضين في قرى الزّاب الظّهراوي:

"عندما غادرنا طولقة عبر الطريق الذي يمرّ بينها وبين فرفار، لاقانا سكّان فرفار ليشانة والزّعاطشة وكانوا مسلّحين ؛ وسرعان ما أطلقوا علينا وابلا من الرّصاص، ووقع بيننا وبينهم اشتباك قرب حصنهم. وعندما أعاد "القوم "تعبئة بنادقهم، فرّ المهاجمون".[1].

والحقيقة أنّه ومنذ اندلاع الحوادث، صار القايد محمّد الصغير مجبرا على عدم الاقتراب من القرى وخاصّة الزّعاطشة، ليشانة وفرفار لأنّه لم يعد

1-A.O.M 15 K 25, dossier intitulé « Documents concernant l'insurrection du Zab dahraoui », traduction d'une lettre arabe d'un compagnon du caid Mohamed Seghir Ben Ali Ben Guidoum adressée au commandement d cercle de Biskra.

قادرا على التحكّم في السكّان. وعليه، قرّر استعمال أساليب أخرى في كلّ المناطق التي أصبحت فيها سلطته مهتزّة : فأشهر التّهديد بالانتقام دون أن يغلق سبل الأمان لكلّ من يلتحق بصفوفه. وتترجم الرّسائل الآتيّة مدى غضب القايد تجاه الجماهير التي أصبحت يوما بعد يوم تكنّ عداء خاصّا لآل ابن قانة. وفي نصائحه لسكّان فوغالة وللبوازيد والعمور وجّه القايد ما يلي:

"لا تفعلوا ما أنتم تفعلون الآن، عمّروا بلادكم .. الأشياء التي تفعلونها فارغة ومكذوبة وبعيدة عن الواقع وغير عادلة. كونوا في طاعة شيخهم العمراوي . واستمعوا إلى ما يقول لكم وعندما يأتيكم خادم ليراكم رحّبوا به وعمّروا بلادكم".[1]

ولمخاطبة أهل بوشقرون، أضاف القايد:

"لا بدّ أن تتصالحوا مع شيخكم أبراهيم، وأن تعمّروا بلادكم، ولا تستمعوا لكلام المرتشين. لا تتشبّعوا بالأفكار القبيحة، وليس هناك شيئ تخشونه، وعليكم الأمان التامّ ؛ اخرجوا كلّ الأشرار من بلدتكم ".[2]

وبمرور الوقت، وكلّما كانت الثّورة تتوسّع، كان نفوذ القايد محمّد الصغير بن قانة وعائلته يتراجع ويتقهقر إلى درجة أنّ الرّائد سان جرمان فكّر خلال شهر ماي في عزل القايد واستخلافه بشخص آخر من العائلة.[3]

1-A.O.M, 15 K 25, Dossier de 37 lettres, n° 10, traduction officielle d'une lettre adressée par le caïd Mohamed Seghir aux habitants de Foughala, des Buyazid et des Amour.

2-A.O.M, 15 K 25, Dossier de 37 lettres, n° 10, traduction officielle d'une lettre adressée par le caïd Mohamed Seghir aux habitants de Bouchagroune.

3-A.O.M, 2 H 25, Lettre du commandant Saint-Germain au général Herbillon, le 28 mai 1849.

ولقد سبق وأن ذكرنا بأنّ قائد إقليم بسكرة كان قد كلّف آل ابن قانة بفرض حصار عام على الواحات الثّائرة لمنع انتشار الثّورة . وبدلا من أن يقوم آل ابن قانة بالمهمّة التي أوكلت لهم، لم يتردّدوا في اغتنام الفرصة ليقوموا بنهب أموال أهل الزّاب الظّهراوي وتصفيّة حسابات قديمة مع خصوم لهم . وبالطّبع، كانت نتائج الحصار فاشلة ومخيّبة للفرنسيين، وهو ما يشهد عليه الجنرال هربيون في مذكّراته:

"هذا الإجراء الرّدعي(محاصرة الواحات الثّائرة) كان لينجح لولا أن فرسان "قوم "ابن قانة لم يغتنموا الظّرف ليمارسوا بعض أعمال الانتقامات الشّخصيّة .ولقد توفّرت كثير من الأسباب التي تسهّل من السّلب والنّهب في ظلّ العزلة التي فرضت على السكّان. وكان من الضّروري إبعاد هؤلاء" القوم " عن مهمّة مراقبة الحصار، مع ترك شيخ العرب يعمل حسب الفرص السّانحة لحمل المتمرّدين على الواجب، سواء باللّين أو بعمل صارم موجّه بمهارة"[1].

في الواقع، إنّ الممارسات القمعيّة لآل ابن قانة لم تبدأ في فترة انتفاضة الزّعاطشة، لأن الأتراك والفرنسين طالما أغمضوا أعينهم عن مثل تلك التّجاوزات التي كانت تمارسها تلك العائلة ؛ ولم يمنع ذلك بعض الضبّاط الفرنسيين أن يرفعوا هذا التّساؤل. ألم يراسل الجنرال نيقرييه (Négrier) يوما في أوت 1841 الوالي العام بالجزائر، ليعبّر عن استيائه من الطريقة التي يتعامل بها شيخ العرب مع سكّان بسكرة، بعد أن حقّق نصرا على مناصري الشّيخ فرحات بن سعيّد ؟

1-HERBILLON, insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaacha, op cit, p 20.

"لقد اكتفيت(كتب الجنرال نيقرييه) بالإدلاء صراحة لابن قانة عن عدم رضاي عن سيرته الخرقاء وغير المهذّبة تماما تجاه سكّان بسكرة. لقد تعوّد هذا الرّجل أن يفعل من دون مراقبة كلّ ما يخطر له"..[1]

والحقيقة أن حذر سكّان الزّاب الظّهراوي ومقتهم لعائلة ابن قانة لا يفسّر فقط باختيارهم الوقوف إلى جانب قضيّة بوزيّان بل للانتقام من ظلم وتجاوزات" قوم "شيخ العرب وقايد بسكرة، التي كانت مسلّطة عليهم دوما[2].

وأمام قوّة الثّورة في الزّعاطشة، خرج شيخ العرب عن صمته. ففي ردّه عن توصيّة للرّائد سان جرمان يطلب فيها منه أن يبذل قصارى جده لإطفاء" نار الفتنة "ووقف الثّورة، كتب شيخ العرب رسالة مطوّلة، مؤرّخة على ما يبدو في جوان1849 ، يذكّر فيها باعترافه بعدم قدرة آل ابن قانة على وقف الشّيخ بوزيّان، مع إثارته للجهود المبذولة لردع الانتفاضة في الزّعاطشة.

1-A.O.M, 6 H 36, Lettre du général Négrier au général Bugeaud.

2-Sur ce point, rappelant la réponse des cheikhs de Bouchagroun, Tolga, Farfar et El-Bordj aux recommandations du caid Mohamed Séghir de la nécessité de partir à Biskra pour s'expliquer devant les Français de leur attitude "Nous n'irons pas (disent-ils), tous les jours les goums nous frappent, nous pillent, nous avons peur.." Voir A.O.M, 15 K 25, dossier intitulé "Documents concernant l'insurrection du Zab dahraoui, traduction d'une lettre d(un compagnon du caïd Mohamed Seghir Ben Ali Ben Guidoum adressée au commandement du cercle de Biskra.

في هذه النقطة نتذكر جواب شيوخ بوشقرون، طولقة، فرفار والبرج على توصيات القايد محمد الصغير بن علي بن القيدوم التي تدعوهم للتوجّه إلى بسكرة" لا نذهب، كل يوم القوم يضربوننا وينهبوننا ، إننا خائفون ."انظر A.O.M, 15 K 25 ، ملف معنون" وثائق تخص تمرد الزاب الظهراوي، ترجمة رسالة رسمية من القايد محمد الصغير بن علي بن القيدوم إلى قيادة ناد بسكرة (انظر ملحق، رسالة رقم 11).

"لقد أرسلت جميع القوم وطوّقت كامل الزّاب الظّهراوي. ومن بعد عاد القايد والذواودة إلى الزاب. ومن بين سكّان المنطقة، عاد سكّان طولقة والبرج وبوشقرون إلى الطّاعة، بينما بقي سكّان الزّعاطشة وليشانة وفرفار على تمرّدهم لأنّ هؤلاء استمعوا إلى كلام الرّاشي بوزيّان. أمّا أنا فكم أحببت أن أوقف بوزيّان قبل أن تصلني رسالتكم، ولكنّه كان مدعوما بالقرى الثّلاث :الزّعاطشة وليشانة وفرفار التي لم يستطع" القوم "اقتحامها كما تعملون. وزيّادة على ذلك ما زال العرب البدو في التل وليس معي إلا زمالتي و"قومي " وإخوتي...

...نحن نقوم دائما بتخويف سكّان الزّاب الظّهراوي والزّاب الشّرقي ونريد محاربة الزّعاطشة، ليشانة وفرفار. لكن عندما فكّرت وجدت أنّ كلّ أعواني في التلّ ولم يبق أحد في اللزاب. وبما أنّ هذه القرى اتّفقت على أن تحارب مع بعضها، فإنّ العسكر وحدهم هم من يستطيعون هزمها. أمّا أنا، فكلّ يوم، وبمشاركة" القوم "والذواودة، نقوم بحراسة هذا الرّاشي بوزيّان وأنصاره ليلا ونهارا، ولا ندّخر أيّ جهد في سبيل دولتنا الغاليّة في انتظار قدوم الفرقة التي ستنتصر أمام هؤلاء الرّاشين والمرتشين".[1]..

لقد برّر شيخ العرب في هذه الرّسالة عدم قدرته وعائلته عن ردع الثّورة في الزّعاطشة المدعومة بقوّة من طرف سكّان الزّاب الظّهراوي المؤيّدين للشيخ بوزيّان، كما تذرّع بمحدوديّة عدد" قومه "وأخيرا بغيّاب البدو الذين كانوا متواجدين بالتل. ولا شك أنّ شيخ العرب كان مخطئا فيما تعلّق بهذه

1-A.O.M, 15 K 25, Dossier intitulé "Documents concernant l'insurrection du Zab dahraoui ", traduction d'une lettre arabe adressée par le cheikh el-arabe Bu Aziz Ben Gana au commandant Saint-Germain.

النّقطة الأخيرة، لأنّ الكثير من البدو يقطنون بالزّعاطشة وبليشانة وبفرفار، ويملكون غابات نخيل واسعة في اللزاب. وربّما سيتعاطف هؤلاء البدو عند عودتهم، مع بوزيّان للحفاظ على ممتلكاتهم التي كانوا يخشون قطع نخيلها من طرف الفرنسيين لحمل الثّائرين على الرّضوخ تحت هيمنتها.

وعلى كلّ، وبعيدا عن تبريرات شيخ العرب، لفشل آل ابن قانة للحدّ من توسّع الثّورة. ويعود ذلك الفشل بالدّرجة الأولى للكره المقيت التي يكنّه سكّان الزّاب الظّهراوي لعائلة ابن قانة. إنّ اندلاع ثورة بذلك الحجم في منطقة تعدّ تحت سيطرة آل ابن قانة، تعدّ سابقة خطيرة على سلطة هذه العائلة. ولقد تيّقنت قيّادة إقليم بسكرة بأنّ تدخّل القوّات الفرنسيّة، أصبح هو وحده الكفيل بإنهاء حركة الشّيخ بوزيّان.

3-3 موقف آل ابن قانة من ثورة الزعاطشة بمنظور ضبّاط فرنسيين

"لقد تساءلنا بحكمة (كتب شارل فيرو) كيف أنّ انتفاضة بوزيّان لم تُخْنَقْ منذ البداية أو على الأقلّ نُشْعَرُ بها من طرف أولئك الذين منحناهم قيّادة سكّان تلك المنطقة ؟"[1]

هذا الضّابط الذي عُرِفَ عنه أنّ كان رافضا للطّريقة التي كان آل ابن قانة يسيّرون بها شؤون صحراء قسنطينة، يتّهم ضمنيّا سيّاسة هذه العائلة التي تكون قد سهّلت اندلاع الثّورة بتهاونها وامتناعها عن إخطار السّلطات الفرنسيّة في الوقت المناسب. لقد اطلع الفرنسيون عن حركة بوزيّان بواسطة الشّائعات التي كانت تروج في الأوساط الشّعبيّة بين سكّان الزّاب الظّهراوي، ولكن لم يكن أحد يصدّق – بما في ذلك آل ابن قانة أنفسهم – أنّ تلك الشّائعات كانت نقطة انطلاق ثورة عارمة .

1-FERAUD, Le Sahara de Constantine, op cit, 420.

وشيئا فشيئا، واعتمادا على آراء بعض الضبّاط الفرنسيين، أوضح شارل فيرو دور آل ابن قانة في اندلاع الانتفاضة.

"البعض قالوا إنّ شيخ العرب بوعزيز بن قانة وابن عمّه قايد بسكرة فوجئوا بالأحداث، لكنّ البعض الآخر يرى أنّهم تركوها تتفاعل ليضعونا (الفرنسيين) في حرج، وليحملونا على أن نترك لهم قيّادة الصّحراء، وهو ما كان يشكّل حلم هذه العائلة وطموحها" .[1]

وفي الحقيقة أنّ مقاربة شارل فيرو غير مقنعة لأنّ ماضي عائلة ابن قانة يكذّب وجهة نظر هذا الضّابط. فآل ابن قانة، سواء تحت الأتراك أو تحت الفرنسيين، لم يستطيعوا يوما أن يفرضوا أنفسهم كليّة عن الزّاب دون دعم سيّاسي ما، لأنّ سكّان المنطقة كانوا ثقافيّا وتاريخيّا أقرب إلى عائلة بوعكّاز. وعليه، فلم تكن عائلة ابن قانة تحبّذ أن ترى سكّان الزّاب في حالة ثورة ؛ ولقد رأينا كيف أنّها حاولت في البداية قمع حركة الشيّخ بوزيّان بالقوّة .

أمّا موقف الجنرال هربيون، فيما يخص مسؤوليّة آل ابن قانة في تفاقم الأحداث، فإنّه يقترب كثيرا من قناعة شارل فيرو. ولذلك تساءل قائد قطاع قسنطينة عن الدّور الذي لعبه بصفة خاصّة، قايد بسكرة محمد الصغير بن علي بن القيدوم بن قانة في مجرى الأحداث، وهو يعتقد" أنّ قايد بسكرة بحكم علاقته مع شيوخ القيّادة، كان بإمكانه أن يُنَبّه بالانزعاج الذي كان سائدا، ولكنّه كان على جهل تام بما كان يدور في خلد موظّفيه "..وعليه فقد

1-FERAUD, Le Sahara de Constantine, op cit, 420.

خلص الجنرال إلى " أنه كان هناك خمود، وعدم اكتراث أو حتّى مساهمة ضمنيّة فيما كان يحضّر للمأساة"..[1]

ولكن هناك إجماع فيما تعلّق بموقف آل ابن قانة من الحوادث، وخاصة في عدم فعاليّة مجهودات شيخ العرب وعائلته في إخماد الثّورة في الزّعاطشة. وتبقى الآراء مختلفة حول العوامل التي تسبّبت في ذلك الفشل.

وفي هذه النّقطة بالذّات، أدلى العقيد كربوشيّة في ديسمبر 1849 بما يلي :

"عندما أدركت عائلة ابن قانة أنّ السّلطة على الواحات بدأت تنتزع منها تدريجيّا، مع منح بعض المناصب إلى منافسيهم من نظام المخزن القديم، من عائلة بوعكّاز، وبالتّالي خلق منافس لهم من هذه العائلة، فشعروا بالإهانة.. . مشمئزّون، فلم يعودوا مرتبطين بنا إلاّ مظهريّا، وأصبحوا يسعدون (يفرحون) بالأخطاء التي نرتكبها".[2].

أمّا الجنرال هربيون، وإن كان متأخرا، فقد وجد أسباب عدم فعاليّة عمل آل ابن قانة في شخص شيخ العرب :

"هذا القايد الكبير، الجشع، المنعدم الطاقة، وبدون انسجام مع نخوة المجتمع العربي، لم يكن له أي نفوذ في قومه لأنه يوحي إليهم إلا بقليل من الثّقة تحوّل بسرعة إلى عجز سياسي مؤسف (يرثى له). وهكذا، لم يكن ذا

1-HERBILLON, Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha, op cit, p 11.

2-A.O.M, 2 H 25, Mémoire relatif aux événements accomplis dans la subdivision de Batna du 16 septembre 1848 au 6 décembre 1849.

قدرة على زجر تمرّد الزّيبان. أمّا المتمرّدون فكانوا يرون في الذواودة إخوة يأمنون جانبهم (لا يخافونهم[1])"

وأخيرا، فقد وصف الرّائد سان جرمان عائلة ابن قانة بأنّها" ديبلوماسيّة أكثر منها حربيّة "بعكس عائلة بوعكّاز الذين لو كان لهم حضور في قيّادة 1849لكان كافيّا لمنع أغلبيّة السكّان - حسب رأيه - من السّقوط في صف بوزيّان.[2]

ورغم كلّ هذه الانتقادات لآل ابن قانة، فقد ظل الفرنسيون أوفيّاء لهذه العائلة خلال الحملة الأولى والحملة الثانيّة على الزّعاطشة. لكن، وهو في طريقه نحو الزّعاطشة في جويليّة 1849 ، تفاجأ العقيد كربوشية من الضّخامة التي بلغتها الثّورة، ممّا جعله يذكّر شيخ العرب وقايد بسكرة " بالحساب الصّارم الذي يجب ردّه "بسبب سوء تصرّفهما تجاه الأحداث "ونصيبهما من المسؤوليّة في المساهمة في تطوّر الأحداث "[3]. وأيّاما قليلة بعد فشله في اقتحام الزّعاطشة، كتب كربوشيّة إلى الجنرال هربيون ليقول له : "إنّه متأكّد أكثر من أي وقت مضى، بأن القايد محمّد الصّغير قد غلّطه "[4] ملمّحا إلى الدّور العقيم الذي لعبه هذا الأخير أثناء الحملة الأولى على الزّعاطشة.

1-HERBILLON, Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha, p 21.

2-A.O.M, 2 H 25, Une lettre du commandant Saint-Germain au colonel Carbuccia.

3-A.O.M H 211, Journal de la colonne expéditionnaire de la Hodna et du Sahara par le colonel Carbuccia, Biskra, 20 juillet 1849.

4-A.O.M, 2 H 25, Une lettre du colonel Carbuccia au général Herbillon, dossier pièces à l'appui.

مع حصار الزّعاطشة خلال شهري أكتوبر ونوفمبر 1849 ، وبتواجد قوّات فرنسيّة كبيرة في الزّاب، كلّف قائد الحملة الفرنسي آل ابن قانة بمهامّ فرعيّة كثيرة: موقف السكّان من الانتفاضة، المساهمة في نقل قوافل التّموين بين بسكرة وباتنة والمساهمة في غزو أنصار الشّيخ بوزيّان. وكان القائد الفرنسي قد طلب من شيخ العرب أن يمنع عودة البدو من التلّ قبل انتهاء العمليّة العسكريّة المزمع القيّام بها في الزّعاطشة، لكنّه لم يلبث وأن علم بقدوم أولئك البدو خلافا لتعاليمه، لأنّ البدو تحدّوا شيخ العرب وأبدوا له نوعا من العصيان، فتوافدوا تباعا نحو المنطقة خلال شهر أكتوبر 1849، وذلك ما أحنق قائد الحملة الفرنسي الذي عبّر عن سخطه:

"لقدعبّر الجنرال لشيخ العرب عن رغبته في أن يعترض هو وأعضاء من عائلته البدو القادمين من التلّ ويشرف على رحالهم. لكنّ هذا الأخير أبدى عجزا في اتّخاذ عزيمة، لأنّه فقد كلّ سيطرة عن بدوه، وعرف أنّهم لم يعودوا يستمعون إليه. فمساهمته في هذا الظّرف التي من المفروض أن تكون مفيدة جدّا، تحوّلت إلى لا شيء"[1].

لقد أكّدت قضيّة عودة البدو عن العجز الذي أصبح يطال عائلة ابن قانة الذين وجدوا أنفسهم بين ضغط الجماهير المؤيّدة لبوزيّان والمطالب الفرنسيّة التي تحثّهم على خنق الانتفاضة. فالنّسبة للجنرال كانروبير (Canrobert)المشارك في حملة الحصار على الزّعاطشة، أنّ دور شيخ العرب في السّيطرة على البدو، كان مخيّبا. وهو ما عبّر عنه بقوله:

1-HERBILLON, Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine, Relation du siège de Zaatcha, op cit, p 130.

"إنّ شيخ العرب بعدميّته وعدم اكتراثه، أقنعنا كثيرا بقلّة الخدمات المنتظرة منه شخصيّا. لقد أثبتت الحوادث الأخيرة في الزّعاطشة مدى قصر ذراعه في القوّة، وذهنه في الذّكاء، وتصرّفه في الحماس للسيطرة على البدو. إنّ الظّهور المفاجئ لهؤلاء في وسط تمرّد الصّحراء لم يترك لنا أيّ شكّ في عجز شيخ العرب وغفلته وتهاونه".[1].

إنّ تصرّف آل ابن قانة في قضيّة البدو، بل في قضيّة الزّعاطشة بأكملها، كان له الأثر البالغ في إعادة تنظيم إقليم بسكرة بعد انتهاء الثّورة. ولقد رضخ شيخ العرب لمشروع تقسيم القبائل إلى قيّادتين[2]، وهو المشروع الذي كان يعارضه بشدّة.

إنّ السياسة التي انتهجتها فرنسا لإضعاف سلطة عائلة ابن قانة منذ سنة 1844كانت خطأ فادحا " حسب الجنرال هربيون[3]، لأنّها ساهمت بشكل " من الأشكال في تفجير الانتفاضة. ولم يكن لآل ابن قانة- بسبب الضّعف الذي طالهم - ردّ الفعل المناسب تجاه السكّان الذين كانوا يعانون من سنوات القهر والظّلم ويتوقون إلى المساهمة في الجهاد المقدّس.

وخلال الانتفاضة، قيّم الفرنسيون دعم عائلة ابن قانة لهم بالقليلة وبعديمة الفعاليّة. ورغم بعض الشّكوك التي حامت حول موقف آل ابن

1-A.O.M, 10 H 17, Un rapport du général Canrobert, bivouac de Barika, le 18 décembre 1849.

2-Nous reviendrons dans la dernière partie sur la nouvelle organisation du cercle de Biskra après le soulèvement de Zaatcha.

سنعود بالتفصيل إلى التنظيم الجديد لإقليم بسكرة بعد ثورة الزّعاطشة في الفصل الثالث.

3-A.O.M, 2 H 25, Une lettre du général Herbillon au Gouverneur

Général, Zaatcha, le 7 octobre 1849.

قانة وتصرّفهم خلال الثّورة، فإنّ الفرنسيين قرّروا عدم التخلّي عن خدمات هذه العائلة كما كان عليه الحال في الماضي، وخاصة في إبقائهم على قيّادات في الجنوب القسنطيني. ورغم اتّهام عائلة ابن قانة مرّات عديدة خلال الهزّات التي حدثت في الزّاب في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر، إلى درجة اتّهامهم بالوقوف المبطّن مع الثّائرين، فإنّ فرنسا لم تنزع منهم مفاتيح الحكم، بل بالعكس، بقيّت هذه العائلة على نفوذها إلى غاية استقلال الجزائر.

وفي شهر جوان1849 ، وأمام فشل آل ابن قانة في ردع الانتفاضة، شعرت السلطات الفرنسيّة بخطورة ما كان يقع في الزّعاطشة، واقتنعت بضرورة مشاركة قوّاتها بصفة مباشرة لإخضاع القرية.

الفصل الرّابع
الحملة الأُولى على الزّعاطشة

رغم كلّ الوسائل المستعملة من طرف السّلطات الفرنسيّة خلال شهري ماي وجوان 1849 لإخماد الثّورة في الزّعاطشة، فإنّ حركة الشّيخ بوزيّان لم تتوقّف عن التوسّع المذهل طوال تلك الفترة.

فمنذ 29 ماي، أدلى الحاكم العام (Gouverneur Général) بالجزائر ب "عندما تنتهي الحوادث بالقبائل "سيتمكّن من إرسال قوّات نظاميّة إلى بسكرة، وسيجعل من ذلك " درسا صارما سينزع عن منطقة الزّاب مستقبلا كلّ رغبة في الانسيّاق لكلّ دعوة يصدرها متآمر مهما كان".[1].

وهكذا انطلقت في شهر جويلية قوّة عسكريّة فرنسيّة كبرى نحو الزّاب بهدف جعل حدّ نهائي للثّورة في المنطقة.

ولكن، وقبل إثارة هذا الحدث وتداعيّاته، رأينا أنه من المفيد إعطاء وصف مفصّل عن قرية الزّعاطشة، وخاصّة من جانبها الجغرافي. وسيعيننا هذا الوصف على فهم جيّد للظّروف والكيفيّة التي جرت بها الأعمال العسكريّة.

4-1 وصف واحة الزّعاطشة

إنّ المعلومات التي كانت في حوزة الفرنسيين عن قرية الزّعاطشة قبيل انطلاق الحملة العسكرية عليها بقيّادة العقيد كربوشيّة، كانت تقتصر على علاقات بعض القيّاد العرب مع بعض الضبّاط الفرنسيين الذين سبق لهم دخول القرية قبل1849 . وكانت تلك الأقوال تقول "إنّها عبارة عن ضيعة لا يتجاوز محيطها 600 متر، تتألّف من بيوت متواضعة من الطّين ومتلاصقة فيما بينها، ممّا أوحى للفرنسيين أنّه يمكن زعزعتها وإسقاطها بسهولة بطلقات مدفعيّة ؛ كما كانت البنايات الهشّة والخندق المغمورة

1-A.O.M, 2 H 25, Une lettre du général Herbillon au Gouverneur Général, Sidi-Merouane, 29 mai 1849.

بالميّاه، حواجز ضعيفة لا يمكنها مقاومة الوسائل المزمع استعمالها في الهجوم الكاسح "..وانطلاقا من ذلك التصوّر، كانت حالة الزّعاطشة تعطي الانطباع للفرنسيّين بأنّها مجرّد قرية بائسة من مدن الزّاب الهشّة، وهي لا تختلف في شيء عن واحة أولاد جلاّل التي لم تكلّف قوّات الجنرال هربيون سنة1847 ، إلا يوما واحدا لحسم المعركة أمام الثّائرين، رغم الخسائر الكبيرة التي تلقّاها الجانب الفرنسي.

و يظهر الجدول الآتي أنّ سكّان الزّاب المشكلين من الحضر ومن البدو كانوا قليلي العدد عند حدوث حركة الشّيخ بوزيّان. وكان الرّائد توماس قد قدّر سنة1844 عدد سكّان الزّعاطشة ب 140 نسمة، منها 20 فقط قادرون على حمل السّلاح. من خلال تحقيق أجري سنة 1848 ، تحدّث الرّائد دي بوسكي عن 101 نسمة (وفارس واحد، 20 من المشاة و 80 بين نساء وأطفال وشيوخ) مبرزا أنّ 20 فقط كانوا قادرين على حمل السّلاح.

ومن الأفضل اعتماد رقم تحقيق 1848 ، كقاعدة لسببين رئيسيين : الأوّل، أن الإدارة الفرنسيّة في الزّاب، كان عمرها أربع سنوات سنة 1848 وهو ما كان يسمح بتحقيق جدّى وسط" الأهالي ."والثّاني أنّ الذي أجرى التّحقيق كان هو الشّخص الأول في الإدارة الفرنسيّة الذي كان على علاقة مع السكّان بصفته رئيسا للمكتب العربي ببسكرة. وبالطّبع، فإنّ عدد سكّان الزّعاطشة عشيّة اندلاع الحوادث كان قد تضاعف مناهزا 600 رجل قادرين على استعمال السّلاح، ليصل إلى 1000 خلال الحصار الواسع المضروب على القرية.

القرى	السكان	النخيل	الأنعام	الأشجار
الزّعاطشة	101	504	17567	728
ليشانة	380	1819	42455	7949
فرفار	202	1508	21322	27
بوشقرون	293	1209	35409	2090
طولقة	1306	8419	82535	11705
العامري	102	304	18131	394
فوغالة	50	602	24000	77
البرج	162	713	36402	3004
المجموع	2596	15078	277821	25974

كان الماء هو أحد أهمّ موارد الثّروة في اللزاب. وكان يُقَسَّمُ بطريقة عادلة على بساتين النخيل حسب عدد الأشجار بطريقة عادلة تعتمد نظام" السّاقية " (جمع سواقي). وهي أخاديد متفاوتة الحجم [1]تستمدّ ماءها من نبع أساسي هو نبع فوّار. وهو عبارة عن حوض كبير محيطة 6 أمتار تقريبا [2]تتجمع فيه مياه النبع التي تصدر من تشقّقات في الصّخور. ولتسهيل جريان الماء يخفض مستوى ارتفاع البساتين، بحيث تكون أدنى من مستوى سطح الشوارع التي تتخلّل الواحة.

1-HERBILLON Emile, Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha, op cit, p 4.

2-GUYON , op cit, p 201.

على بعد 200 متر تقريبا من الدّشرة، ترتفع مجموعة من المباني محاذيّة لمسجد محمّد بن السعيد، وتشكّل زاويّة الزّعاطشة .[1]وكانت القرية محاطة ببساتين النخيل المصانة " بجدران من الطّوب متفاوتة الارتفاع، بعضها مزرّب، تتخلّلها شبكة من سواقي الريّ، وتحتوي زيّادة عن النّخيل على أشجار مثمرة أخرى تحجب بكثافتها الرّؤيا وتجعل كلّ استكشاف بعيد مستحيلا ."[2]وكانت القرية محاطة بخندق كبير، وهو عبارة عن أخدود ضخم يتراوح عرضه بين 6 و 8 أمتار وعمقه بين 0,80 و 1,20 متر. وهو ما يجعل المرور إلى القرية صعبا. أمّا الدّخول إلى القرية، فيتم من باب رئيسي أو من بعض المسالك الصّعبة المخفيّة.[3]

وكانت كلّ مباني الزّعاطشة من الطّوب (حسب لغة المنطقة) المصنوع من الطّين المجفّف تحت أشعّة الشّمس. وتتميّز البنايات " بأبراج مرتفعة بين مسافة ومسافة، ومتّصلة فيما بينها بمنازل ذات فتحات ثلاثيّة الأشكال تستعمل لتجفيف التّمر بإدخال الهواء، كما يستعملها السكّان لمراقبة هجومات الأعداء الخارجيّة والتصدّي لها"[4].ولا تتشكّل معظم الديّار إلا من طابق أرضي وحيد. ويفتح الباب الرئيسي على سقيفة مظلمة تؤدي إلى فناء داخلي(غرفة كبيرة غير مسقوفة) تسطفّ داخلها حجرات".[5]

1-A.M.G, H 211, Histoire de la campagne des Ziban, par le sergent-major, RIBES, cahier 1.

2-Ibid.

3-BOCHER (Charles), "Le siège de Zaatcha", Revue des deux mondes, Paris 1851, p 80.

4-Ibid.

5-FERAUD, Kitab Al-Adouani ou le Sahara de Constantine et de Tunis, op cit, p178.

ويصف لنا أحد شهود عيّان ممّن عاشوا حصار الزّعاطشة القرية بما يلي: "تتألّف هذه المدينة من 180 من المباني الأرضيّة (بدون طوابق) ذات فتوحات في وسطها أبواب. (وهذه المنازل فـــي معظمها هـــي عبارة عن أرداب) جمع رَدْبٍ أي بدون منفذ، وتعبر عنه العرب : بخُصم غرارة" أي ركنها "وصفه الشاهد ب Cul-de-sac، أي بدون منفذ وهو لا يختلف عن الكناية العربية. وفي وسط القرية توجد ساحة فسيحة يقوم فيها منزل بوزيّان، وتتصل السّاحة بأكبر منفذين(شارعين). وفوق بعض المنازل ترتفع أبراج مسنّنة تصل إلى20 برجا تطبع أطراف المدينة المحاطة بسور مسنّن هو أيضا ويحمي البنايات من كلّ الجهات. وزيّادة على ذلك، حفرت خنادق عظيمة مغمورة بالميّاه وعرضها أحيانا بقدر 4 نخلات. أمّا البساتين التي كانت مصانة بأسوار مختلفة، فكانت مغطّاة بأشجار اللّوز والمشمش، بحيث يشكّل كلّ بستان قلعة حصينة"[1].

وفي جهة الجنوب من الزّعاطشة تمتدّ واحة ليشانة، وكانت قرية صغيرة من 180ساكنا، انضمّت منذ بداية الانتفاضة إلى الزّعاطشة وانحازت إلى قضيّة الشّيخ بوزيّان .[2]وممّا كانت تمتاز به ليشانة شهرتها في صناعة الزّرابي الفاخرة، زيّادة عن منبع مائها الزّلال الذي كان يغذّي القرية، بينما كان نخيلها الذي ينتج أجود أنواع التّمور، يسقى من مياه الواد القبلي الذي ينبع من جهة الشّمال الشّرقي للبلدة.[3]

1-A.M.G, M R 882, Relation de l'expédition et de la prise de Zaatcha, Zaatcha, 28 novembre 1849.

2-A.O.M; 10 H 18, Rapport du chef du bureau arabe de Biskra, Biskra, 21 décembre 1848.

3 -M.R 1317, Rapport du capitaine Lacroix sur les Ziban, Constantine 1844.

وعلى بعد مسافة غير بعيدة شرق ليشانة تمتدّ واحة بوشقرون التي كان يسكنها حوالي 293 نسمة مقسّمين بين بوشقرون القرية والزّاويّة التي تحتوي على مسجد شهير وهو جامع سيدي محمّد مغزي.[1]

وتمتدّ قرية فرفار غرب الزّعاطشة : وهي قرية صغيرة قُدّر سكّانها سنة 1848 ب 202 أربعون منهم فقط، قادرون على رفع السّلاح .[2]ولقد أقيمت القرية على شكل الزّعاطشة حيث كانت تحتوي على 40 منزلا وبابين رئيسين للولوج إلى داخل التجمّع السكّاني. وكان وادي خديجة هو الذي يمدّ القرية بالماء، ويروي الأراضي الفلاحية التي تمتدّ إلى 400 أو 500 متر.

أمّا مدينة طولقة فتقوم شرقا، وتعدّ هي أكبر قرية في الزّاب الظّهراوي، حيث كان يقدّر عدد سكّانها سنة 1848 ب 1306 نفرا موزّعين على أكثر من 100 منزل. وزيّادة على كثرة نخيلها التي قدّر عدده آنذاك ب 82535 شجرة، كانت طولقة تمثّل أكبر وأهمّ مركز تجاري في المنطقة، كما كانت تملك ورشة لنسيج الزّرابي على مستوى الزّاب[3].

4-2 فشل الاستيلاء على الزّعاطشة

المدّة المنحصرة بين شهري ماي وجولية1849 ، كانت ثورة الزعاطشة في توسّع متواصل يهدّد الوجود الفرنسي في الزّاب وفي الحضنة وفي الأوراس . وكان ساعتها الجنرال هربيون منشغلا منذ مارس بالحملة العسكريّة التي كان يقودها في سهل الوادي الكبير في إقليم سكيكدة. ولم يلبث أن رضخ لمطالب العقيد كربوشيّة قائد نيّابة باتنة العسكري، لتنظيم حملة عسكريّة

1-Ibid.

2-A.O.M, 10 H 18, Rapport du chef du bureau arabe de Biskra, Biskra 21 décembre 1848.

3-CARETTE, Recherches sur la géographie et le commerce de l'Algérie méridionale, op cit, p 220.

على الزّاب، وقد عبّر قائد القطاع القسنطيني عن ذلك بقوله.. " : حملة كانت ضروريّة جدّا لمنع انتشار الثّورة، وتمرّد كلّ الزّاب وحتّى السّفوح الجنوبيّة للأوراس" [1].

وكذلك، تحوّلت ثورة أولاد سحنون إلى حيرة بالنّسبة للفرنسيين، بعد مهاجمة زمالة سي مقران في 27 جانفي1849 ، كما أصبحت نقطة انزعاج لسلطات قطاع قسنطينة. ولذلك أُتّخذ قرار بدء أعمال قمع قاسيّة على قبيلة أولاد سحنون قبل التّفكير في غزو الزّعاطشة.

فمنذ يوم 2 جوان، ظلّ أولاد سحنون مخيّمين في المتكعوك قرب بريكة. ففي رسالة وجّهوها للعقيد كربوشية يطلبون فيها" الأمان والهدوء "فيما يمكن أن يقع وفيما" وقع "بالفعل، ويقرّون بأنّ ما وقع كان بالرغم عنهم، ملمّحين إلى غطرسة وظلم سي مقران (بالحرف الواحد.. : فيما يأتي وما مضى من الأمر الذي وقع بنا فقد سبق به القدر في حكم الله). وفي الأخير عبّروا عن استيائهم لتمسّك السّلطات الفرنسيّة برجل منبوذ من طرف كلّ القبائل[2].

ورغم أنّ أولاد سحنون فكّروا في اعتماد مبادرة صلح محتمل مع الفرنسيين، فإنّهم لم يتّخذوا إجراءات الحذر اللازمة التي تؤمّن جانبهم. ولقد كلّفهم عدم اكتراثهم بالعواقب ثمنا غاليّا، ففوجئوا يوم 09 جولية بهجوم من خيّاليّة الرّائد سان جرمان مدعومة بكتيبة خفيفة مكوّنة من أربعة فرق من جيش

1-A.O.M, 1 H 6, Une lettre du général Herbillon au Gouverneur Général, Constantine 25 juillet 1849.

2-A.O.M, 15 K 25, Dossier intitulé "Documents trouvés à Zaatcha et la Djébira de Sidi-Abdelhafid Sériana, Traduction d'une lettre arabe adressée par O.Sahnoun au colonel Carbuccia.

إفريقيا ومن أربعة أخرى من اللّفيف الأجنبي، كانت تحت قيّادة الرّائد لونوار (Commandant Lenoir) وفي اليوم الموالي استولت القوّات الدّاعمة للحملة الفرنسيّة على 1400 بعير و 5000 من رؤوس الأغنام، بعد أن قامت بعمليّات سطو ونهب على قرى أولاد سحنون.[1]

وكذلك استغلّ العقيد كربوسيّة نشوى" النصر "وأجواء الفرحة التي غمرت القوّات الفرنسيّة، ليتوجّه إلى الزّعاطشة. وبعد توقّف قصير ببسكرة، وصلت الحملة العسكريّة إلى مشارف الزّعاطشة يوم 16 جولية 1849 .[2]

وكانت القوّات المشاركة في الحملة تتكوّن من:

الفرقة الثالثة من جيش إفريقيا، وفرقتين من اللّفيف الأجنبي، وسريّتين من الرّماة الأفارقة، ونصف سريّة من السيبايس (الصبايحية)، من مدفعيّة جبليّة، ومن مجموعة من النقّابة (sapeurs). وبلغ مجموع الكتيبة 1350 : من المشاة، و 222 من الخيّالة، مدفعي هاون 16 عيّار سم، و 04 قاذفات عيار 12 سم.[3]

وكان العقيد كربوشيّة وهو في طريق إلى الزّعاطشة يتمتّع بهامش الحريّة الذي منحه إيّاه حاكم قطاع قسنطينة فيما يخص الطّريقة التي يعتمدها في الهجوم، حيث طلب منه التصرّف حسب ما يقتضي الظّرف في السّاحة،

1-Selon le colonel Carbuccia, les O. Sahnoun ont perdu 62 personnes.

حسب العقيد كربوشية، يكون أولاد سحنون قد فقدوا 62 شخصا.

2-A.M.G, H 211, Journal du corps expéditionnaire de la Hodna et du Sahara par le colonel Carbuccia, Biskra, 20 juillet 1849.

3-A.M.G, H 129, Journal de la colonne expéditionnaire des Ziban par le colonel Carbuccia.

ولكنّه أمره بأن" يتعامل بقسوة مثاليّة "[1] تجاه محاربي الزعاطشة، مع اعتماد الحذر واليقظة.[2]

وهكذا أوضح له " : لا تهاجم إلاّ إذا كنت على يقين تام من النّجاح، واكتف، إن طالت المقاومة، باستعراض ومظهر ينمّ عن تأقلمنا بصفة تجعل الأشياء

1-C'est ainsi que le général Herbillon écrivit au Colonel Carbuccia le 23 juillet 1849 pour lui demander de tenir une conduite sévère et exemplaire envers Zaatcha."Là, vous opérerez aussi avec une extrême rapidité et surtout avec une sévérité qui doit laisser trace. Les Zaatcha doivent disparaitre et être décimés dans d'autres oasis, leurs biens seront distribués à nos fidèles serviteurs et le nom de l'oasis changé.." Voir A.O.M, 2 H 25, pièces à l'appui n° 47, lettre du général Herbillon au colonel Carbuccia, Constantine; 3 juillet 1849.

وهكذا راسل الجنرال هربيون العقيد كربوشية في 23 جويلية 1849 يطلب منه اتخاذ إجراء صارم ومثالي تجاه الزعاطشة" .**هناك، تصرفوا بسرعة قصوى وخاصة بصرامة ستترك أثرا .. الزعاطشيون يجب أن ينتهوا وأن يبادوا في الواحات الأخرى، أملاكهم ستوزّع على خدّامنا الأوفياء واسم الواحة يجب أن يتغيّر** "..انظر A.O.M, 2 H 25 رسالة من الجنرال هربيون إلى العقيد كربوشية، قسنطينة 3 جولية 1849.

1A la date du 14 juillet, le colonel Carbuccia répondit au général Herbillon "*que toutes les precautions étaient prises pour éviter les pertes douloureuses, qu'il n y avait à traiter avec le Zab dahraoui qu'à merci et sans condition, que force nous resterait et que s'en se souviendrait dans deux cent ans, des terribles effets de notre vengeance.*" Voir; A.O.M, 2 H 25, pièces à l'appui, lettre au général Herbillon, Batna 14 juillet 1849.

بتاريخ 14 جويلية، أجاب العقيد كربوشية الجنرال هربيون " **بأنّ كل الاحتياطات قد اتخذت في الزاب الظهراوي لتجنب إصابات مؤلمة في صفوفنا، وسنتعامل مع الزّاب الظهراوي بدون شروط .. وستبقى لنا القوّة وسنتذكّر بعد 200 عام آثار انتقامنا القاسي** ".انظر A.O.M, 2 H 25, رسالة موجهة إلى الجنرال هربيون 14 جويلية 1849 .

2-A.M.G, H 211, Histoire de la campagne des Ziban par le sergent-major RIBES, 1er cahier.

في وضع يسمح لنا بانتظار نهاية الفصل الحارّ دون أن يتّخذ الشرّ أبعادا توسعيّة"[1]

وفور وصوله إلى مشارف الزّعاطشة، بادر العقيد كربوشية بدعوة جماعة واحتي طولقة وبوشقرون ورفقة (فخذ من قبيلة) من ليشانة. ولقد علم بنوع من الغبطة، أنّ معظم الواحات عندما رأت القوّات الفرنسيّة الضّخمة تقترب من المنطقة، اتّخذت موقفا محايدا في الظّاهر بينما كانت تمدّ الزّعاطشة بالمحاربين. وخلافا لذلك، انضمّ معظم واحة ليشانة علنا إلى قضيّة الزّعاطشة. وكان القيّاد" الأهالي "المحليّون يطمئنون قائد القوّات العسكريّة" بأنّ حماس الثّورة سينكسر بعد أوّل صدمة وأنّ التمرّد لا يمكن أن يستمرّ أمام هجوم كاسح "[2].ولم تكن تلك التطمينات المتكرّرة تعكس الواقع. ولقد لخّص النّقيب مارمي (Capitaine Marmier) أحد ضبّاط المكتب العربي بباتنة الشّعور الحقيقي الذي كان ينتاب أهل الزّعاطشة تجاه الفرنسيين ووصول أفول الحملة:

"إنّ الأمل الذي كنّا نعلّقه على القرى لم يلبث وأن تبخّر. فبمجردّ إلقاء نظرة على الواحة، عرفنا أنّ كلّ شيء كان قد أعدّ من أجل المقاومة"[3].

في البداية، قام العقيد كربوشية – وهو يتقدّم قوّاته - باستعراض وسط واحة ليشانة، ولم يعترضه السكّان بسبب الحذر الذي اعتمدوه، فمرّ بسرعة خاطفة على الزّعاطشة، لأنّ المدافعين عن القرية خرجوا بأعداد كبيرة يتقدّمهم الشّيخ بوزيّان بتحدّ. ثمّ دخل القائد الفرنسي إلى واحة فرفار

1-A.M.G, H 211, Histoire de la campagne des Ziban par le sergent-major RIBES, 1er cahier.

2-Ibid.

3-A.O.M, 10 H 17, Historique du cercle de Batna en 1849, par le capitaine Marmier.

وقام باتّفاق سلم مع رفقتين لأنّ رفقة ثالثة كانت قد التحقت في اللّيلة السّابقة بمعسكر الزّعاطشة .وفي عين المكان قام كربوشية بمصادرة أموال الرّفقة الثّائرة وتسليط عقوبة 1000فرنك على القرية.

وللاحتماء من الحرّ الشّديد الذي وصل إلى 59 درجة، جمع كربوشية قوّاته ببساتين فرفار، وكانت هي الفترة التي اختارها الشّيخ بوزيّان للمرور إلى الفعل المسلّح[1].

وفعلا، أطلق مقاتلو الزّعاطشة الذين كانوا قد أخذوا مواقعهم في الواحة، وابلا من الرّصاص المكثّف ضدّ رأس حربة المهاجمين الفرنسيين الذين اضطرّوا تحت وقع المفاجأة من مغامرة دخول بعض الفرسان إلى الواحة، ممّا ترتّب عنه اشتباك عنيف بين الطّرفين، وهو ما كتب عنــه الرّقيب ريبس:

" ..إنّ فرساننا" (كتب الرّقيب الأوّل ريبس) الذين غامروا بدون حذر في الالتحام مع ناس الزّعاطشة، تمكّنوا من الرّجوع، لأنّ جزءا من فرقة للمشاة هبّ لنجدة فرساننا الذين ارتموا بدون حذر بين أشجار النّخيل وسط الواحة .ولقد واجهنا صعوبات لجعل حدّ لتلك المحاولة المنعدمة الهدف. ولقد ترك العدو 15 قتيلا على السّاحة، بينما فقدنا بكلّ أسف خمسة من رجالنا ، وتكبّدنا خمسة عشر جريحا".[2]

وكانت تلك المحاولة القويّة من الجانب الفرنسي تهدف إلى تخويف المدافعين عن الزّعاطشة، لكنّهم أقرّوا بصعوبة اقتحام واحة محصّنة بذلك الشّكل.

1-A.M.G, H 129, Journal de la colonne expéditionnaire des Ziban par le colonel Carbuccia.

2-A.M.G, H 211, Histoire de la campagne des Ziban par le sergent-major RIBES, 1er cahier.

ولقد اعتبر العقيد كربوشية المحاولة الأولى ناجحة، تمهيدا للاقتحام الكاسح الذي قد يجعل حدّا لعزيمة أنصار الشّيخ بوزيّان.

ومن جهتهم، قيّم سكّان الزّعاطشة المواجهة الأولى بالامتحان النّاجح، بل بالنّصر ولذلك شاع الحماس بين السكّان الين لم يعد حديثهم إلاّ على وجوب مواصلة الكفاح مهما كان الثّمن.[1]

أمّا الشّيخ بوزيّان فكان يحضّر بكلّ ثقة للمواجهة الحاسمة وهو مغتبط، وستأنس بوصول الدّعم من جهات مختلفة. وكان نداؤه للجهاد قد لقي صدى كبيرا في الزّاب، بل في الأوراس ولدى أولاد نايل. وكانت واحات الزّاب الظهراوي هي التي شكّلت أغلبيّة جيش بوزيّان، مع إظهارها لموقف محايد منذ وصول القوّات الفرنسيّة. وكانت الفرق المكوّنة في الزّاب تتألّف من المشاة فقط، ولكنّها كانت تظهر عزيمة صلبة توحي بدفاع قويّ، مستميت وطويل عن الواحة .

وحسب البحوث التي قام بها الملازم سيروكا ، والتي ستوكل له فيما بعد رئاسة المكتب العربي ببسكرة، فإنّ المدافعين عن الزّعاطشة كانوا ينتمون إلى الواحات التّاليّة[2]

1-A.O.M, H 129, Journal de la colonne expéditionnaire des Ziban, par le colonel Carbuccia.

2-SEROKA, "Le Sud Constantinois de 1830 à 1855", op cit, p506.

الرقم	القرى والأعراش	عدد المقاتلين
01	الزّعاطشة وغمرة	100
02	ليشانة وأهل بن علي	200
03	فتّوسة وفرفار	40
04	نـارة	40
05	أولاد بن خليل ، العمور	30
06	بوشقرون	04
07	بوازيد العامري	02
08	العمور، النوافع	10
09	شرفة الزّاب القبلي	50
10	البـرج	06
11	الوطاية	40
12	أولاد حركات	40
13	أولاد جلال و سيدي خالد	50
	المجموع	572

كما يبيّن الجدول السّابق، فإنّ ما يزيد عن 500 مقاتل كانوا قد تجمّعوا في الزّعاطشة مقابل قوّات فرنسيّة كبيرة تفوقهم في العدد وفي المعدّات. ولكن، ورغم أنّ الزّعاطشة كانت منقوصة من الإمكانيّات، فإنّها كانت متضامنة بقوّة مع قضيّة الشّيخ بوزيّان ومؤمنة بها وعازمة أكثر من أيّ وقت مضى عن الدّفاع على القريّة التي ترمز إلى الصّمود والمواجهة. ولذلك قام المدافعون عن القرية بترتيبات محكمة و"بمهارة"، ومنها توسيع الخندق الواقع على

الجهة الشّماليّة للواحة، وبناء جدران إضافيّة على عجل من شأنها أن تدعم تحصين البلدة[1].

ولتفادي كلّ مفاجأة، تحصّن بعض المقاتلين في بساتين النّخيل على قرب من الزّاويّة بينما تموقع آخرون وراء الجدران وفوق سطوح المنازل والحيطان المسنّنة[2].

وأمام إصرار مقاتلي الزّعاطشة وتحدّيهم، اضطر العقيد كربوشيّة – الذي عسكر على سفح ربوة على بعد 700 متر تقريبا شمال القرية بالقرب من منبع عين ميوب (Mayub)، على اختيار أحد الأمرين : أمّا أن يقوم بحصار دائم على القرية أو أن يقوم بهجوم كاسح يمكن أن يضع حدّا لمقاومة الزّعاطشة وصمودها.[3]

وبعد تشاور طويل مع الرّائد سان جرمان والنّقيب لاغريني وشيخ العرب وقايد بسكرة، قرّر قائد الحملة أن يقوم بهجوم قويّ يوم 16 جويلية لاقتحام الزّعاطشة علّه يرفع من درجته العسكريّة .

1-A.O.M, 1 H 6, Rapport du général Herbillon au Gouverneur Général, Constantine, 25 juillet 1849.

2-A.M.G, H 211, Histoire de la campagne des Ziban par le sergent-major RIBES, 1er cahier.

3-Le colonel Carbuccia a eu un moment l'idée de se retirer après son premier accrochage avec les défenseurs de Zaatcha. Toutefois, il affirma qu'une *"retraite sans combattre le couvrait de honte et devenait le signal d'une révolte générale".* A.M.G, h 129, Compte rendu du combat du 16 juillet 1849.

لقد ساورت العقيد كربوشية فكرة الانسحاب بعد الالتحام الأول مع مدافعي الزّعاطشة .لكنه أكد فيما بعد" **أن انسحابا بدون قتال سيغمره بالخزي ويكون إيذانا باندلاع ثورة شاملة.**" راجع . A.M.G, h 129,المتضمّن عرض حال معركة 16 جويلية 1849 .

وبعد فشله، وبعد أن انهالت الانتقادات على هجومه الفاشل، حاول العقيد كربوشيّة تبرير قراره:

"من كلّ الجهات، كانت تصلني معلومات دقيقة بصفة مباشرة وشخصيّة ؛ ولقد علمت بأنّه، ومن خلال القرارات التي اتخذت خلال اجتماعاتهم أنّ قرار خوض الجهاد المقدّس كان قد اتّخذ ونودي به على مرأى منّي وأنّ فرقا كثيرة من المقاتلين ستصل إلى الزّعاطشة، قادمة من أولاد جلال، المسيلة، وحتى من الأوراس ومن واحات صديقة"[1].

وحتّى وإن اعترف بصعوبة الهجوم على قرية محصّنة بإحكام وأمام مقاتلين عازمين على الدّفاع، فإنّ كربوشيّة كان على ثقة تامّة في قدرات قوّاته لربح المعركة. وهو ما عبّر عنه:

.."ولكنّني أراهن على سمعة سلاحنا، وعلى الفرحة التي عمّت جنودنا منذ الصّباح، جندنا الذي يعدّ من أقدم وأشجع أفرادنا في الجزائر، كما أعوّل على مهارة الضبّاط الذين سيقودون عملا حاسما. وأخيرا، لقد كنت مقتنعا بأنّه وبعد الفشل، فإنّ انسحابنا سوف لن تكون له نتائج مخزيّة أكثر من نتائج انسحابنا بدون أن نقاتل"[2].

وكان مخطّط الهجوم الذي وضعه قائد الحملة يقوم على هجوم كاسح وسريع تنفّذه فرقتان منفصلتان من 450 جندي ؛ واحدة مكوّنة من فرقة اللّفيف الأجنبي يقودها الرّائد سان جرمان لتهاجم الواحة من الجهة المقابلة للفرنسيين بمرورها عن طريق الزّاويّة ؛ والأخرى يقودها القائد لونوار

1-A.M.G, H 129, Journal de la colonne expéditionnaire des Ziban par le colonel Carbuccia.

2 -A.M.G, H 129, Journal de la colonne expéditionnaire des Ziban par le colonel Carbuccia.

وستسلك الطريق الذي يؤدّي من عين الفوّار .[1] وزيّادة على ذلك، تكلّف فرقة ثالثة لقطع الطريق بين الزّعاطشة وواحتي فرفار وطولقة من جهة الغرب، بينما تكلّف فرقة رابعة لتتمركز من جهة الشّرق بالقرب من ليشانة، في وقت يشغل القوم مدعومين ببعض الفرسان النّظاميين الجهة الجنوبيّة، على أن تبقى هذه القوّات المساعدة على البقاء في مواقعها طيلة تنفيذ الهجوم على قرية الزّعاطشة.[2]

وكان تحرّك القوّات الفرنسيّة قد بدأ على السّاعة الرّابعة بعد الظّهر، حيث أعطيّت الإشارة للمدفعيّة لتبدأ - ولكن بدون جدوى – في هدم جدران القرية. وفي الوقت نفسه حاولت القوّات المهاجمة التوغّل في الواحة بقوّة أملا في تجاوز الحواجز الطّبيعيّة لزعزعة مقاومة المقاتلين.

ولقد تمكّن الرّائد سان جرمان من الاستيلاء عن الزّاوية بعد معركة طاحنة، انسحب إثرها المقاتلون العرب. ومن ثمّ توجّه نحو البساتين ولكن ما أن اقترب من القرية حتّى وجد نفسه محاصرا بخندق كان المدافعون قد قاموا بتوسيعه وتعميقه بنحو متر. وكانت البنايات قائمة وراء الخندق ومتّصلة ببعضها حيث كانت تمثل شبه قلعة متماسكة ولا تظهر منها إلا جدران مسنّنة تخفي المدافعين عن القرية. ولقد اغتم هؤلاء فرصة محاصرة الجنود بالخندق، ليطلقوا وابلا من الرّصاص أجبر الفرنسيين على أحد

1-A.M.G 211, Journal de de la colonne expéditionnaire de la Hodna et du Sahara par le colonel Carbuccia.

2- A.M.G, H 211, Histoire de la campagne des Zibans par le sergent-major RIBES 1er cahier.

الخيّارين : إمّا أن يرتموا في الخندق أو أن يلوذوا بالفرار .[1]وبسرعة، وقبل أن يستقر الرّائد سان جرمان على قرار، ارتمى الجنود في الخندق تجنّبا لكارثة الإصابات المباشرة" : الملازم مانجان "(Lieutenant Mangin)كتب الرقيب-أوّل ريبس،" كان على رأس مجموعة من رماة القنابل، فارتمى في ماء عكر في قعر الخندق :ولكن، وقبل أن يصل إلى حافّة الخندق، كان كلّ الرّجال المرافقون له قد أصيبوا، فعاد أدراجه وحيدا".[2]

اعترافا بفشله واستحالة تصعيد عسكري، وأمام الخسائر المسجّلة في صفوفه، أخلى الرّائد سان جرمان موقعه وتراجع ليحتلّ موقعا جديدا بعيدا عن مدى الرّصاص الموجّه من جهة الزّعاطشة. ومن هناك، طالب بقطعة مدفعيّة لمحاولة فتح ثغرة في الجدران وتهديم المنازل أملا في استعمال الحطام لردم الخندق. ولكنّ الجدران التي كانت تبدو هشّة لم تتأثر إطلاقا بوقع الطّلقات المدفعيّة (تصوّروا لو أنها كانت من الإسمنت التي تتهافت عنها الناس اليوم) ! وأمام الأمر الواقع، اختفى العقيد كربوشيّة وراء حالة من التّشاؤم واليأس، ليعترف أخيرا بفشل خطّته، بعد أن اطّلع على نتيجة الفرقة الثّانيّة التي قادها الرّائد لونوار والتي كانت هي الأخرى مخيّبة للآمال.

"في تلك اللّحظات (كتب في عرض حال موجّه للجنرال هربيون) كانت خسائرنا تزايد. ولقد اقتنعت من استحالة فتح ثغرة من الموقع الذي كنّا نشغله، ولكن بقي لي أمل فيما يمكن أن تحقّقه فرقة جيش إفريقيا. ولكنّ

1-A.M.G H 211, Histoire de la colonne expéditionnaire de la Hodna et du Sahara par le colonel Carbuccia.

2-A.M.G, H 211, Histoire de la campagne des Zibans par le sergent-major RIBES 1er cahier.

هذا الأمل تبدّد فجأة، عندما علمت أنّ شجاعة جندنا قد اصطدمت بحاجز لا يمكن تجاوزه رغم الشجاعة في القتال التي أبداها، واستطاع بفضلها أن يعطّل جزءا من قوّات العدوّ ليسهّل مهمّة اللّفيف الأجنبي. فأمرت بأن تبذل محاولة أخرى ولكنّها فشلت، ممّا جعني أقرّر إعلان الانسحاب الذي تمّ في نظام تامّ، لأن العدوّ لم يجرؤ على ملاحقتنا".[1]

وعلى كلّ فإنّ الإقرار بفشل اقتحام الزّعاطشة، أُعْتُبِر من طرف الجنرال بأنّه حدث مهمّ بالنّسبة للقرية خاصّة وللزّاب عامّة، لاسيّما وأنّ الخسائر في صفوف الفرنسيين كانت أكثر من تلك التي طالت سكّان الزّعاطشة[2].

ولكن، هل كان الشّيخ بوزيّان – رغم هذا الانتصار الأوّل – يدرك أبعاد هذه العمليّة ونهايتها ؟ فرغم نشوة النّصر، كان كلّ سكّان الزّاب يعرفون أن قائد القوّات الفرنسيّة سيعاود الكرّة في الأيّام القادمة. وفي حالة انسحابهم مرّات، سيعود الفرنسيون حتما، من أجل الانتقام لهزائمهم. ومع ذلك، احتفلت الزّعاطشة ليلا بذلك الحدث المبين على مرأى ومسمع من الجنود الفرنسيين الحانقين (المغتاضين).

"لقد قضّى المتمرّدون (كتب الرّقيب الأول ريبس) كلّ الليل في الترحّم على موتاهم. ومن معسكر قوّاتنا، كنّا نسمع بوضوح غناءهم المرفق بطلقات البارود.. شيء عجيب ! لم يكن غناؤهم غناء حزن وحداد. ولقد علمنا بعد

1-A.M.G, H 211, Histoire de la campagne des Ziban par le sergent-major RIBES 1er cahier.

2-Les Français reconnurent avoir perdu dans la journée du 16 juillet 31 tués et 117 blessés (d'après les recherches faites par Séroka.)

اعترف الفرنسيون بخسارة 31 قتيلا و 117 جريحا يوم 16 جويلية (حسب بحث قام به سيروكا)

أيّام، أنّ نساءهم بدلا من أن يبكين بلباس حداد، ارتدين ملابس احتفاليّة (لباس العيد) أثناء دفن أمواتهن ورقصن على قبورهنّ." [1]

وأمام إصرار أهل الزّعاطشة على القتال إلى النّهاية، واستحالة ضرب حصار دائم على الزّعاطشة بعد ظهور وباء الزحّار في الجيش الفرنسي (نوع من الإسهال الحاد يشبه أعراض الكوليرا)، اقتنع العقيد كربوشية بضرورة وقف الحملة. ولم يمنعه فشله الذّريع من القول" إنّ يوم 16 جويلية 1849 ستحسب على هامش تاريخ الجزائر بصفتها إحدى الوقائع البطوليّة لجيشنا [2]

ومهما يكن من أمر فإن جيش إفريقيا كان قد تلقّى ضربة غير مسبوقة في الزّعاطشة، خلافا لسمعته كقوّة لا تقهر منذ 1830 . وكان هو من استولى على العاصمة وبجاية وقسنطينة. فأمجاده أصبحت محلّ شكّ، على الأقلّ في أعين سكّان الزّاب أمام فشله في الاستيلاء على الزّعاطشة. وما كان على ذلك الفشل إلى أن يخدم قضيّة الشّيخ بوزيّان أمام السّلطات الفرنسيّة في الزّاب عامّة، وأمام قامة العقيد كربوشية العسكريّة.

3-4 التّداعيّات التي نتجت عن فشل الاستيلاء على الزّعاطشة

منذ عودة القوّات التي شاركت في الحملة على الزّعاطشة وحلّها، تملّك قادة القطاع القسنطيني حسّ من الكراهية لبوزيّان ومشاعر انتقام لهزيمتهم في الزّعاطشة. وفي تقريره للحاكم العام بالجزائر، حاول الجنرال هربيون التّقليل من ضخامة الهزيمة مذكّرا بأنّ الزّعاطشة تكبّدت خسائر جسيمة

1A.M.G H 211, Histoire de la campagne des Ziban par le sergent-major RIBES, 1er cahier.

2-A.M.G, H 129, Journal de la colonne expéditionnaire des Ziban par le colonel Carbuccia.

وأن بوزيّان قد أصيب بجراح.." جراح حدّت من غبطته التي طالما صاحبت دعوته "..وأكّد أنّه " حتّى وأنّ أهل الزّعاطشة لم يطلبوا الأمان بعد، فإنّهم على الأقل سيتوقّفون عن بث دعايتهم التي كانت هي أساس انطلاق التمرّد في الحضنة" [1].كما كتب الجنرال، وهو يبدي تفاؤلا حيال مستقبل الانتفاضة :

"رغم عدم نجاحنا (لم يقل فشلنا) ، فقد أحدث الهجوم الذي قمنا به قلقا في نفوس سكّان الزّعاطشة، لأنّهم يعرفون أنّ الفرنسيين كعادتهم، لا يتركون بدون حلّ أعمالا كانوا قد بدأوها. وهم يدركون أنّ ألدّ أعدائنا في

1-Le colonel Carbuccia a partagé l'analyse du général Herbillon, allant jusqu'à affirmer que son action à Zaatcha *" a imposé beaucoup de tireurs aux arabes".* Ces analyses ne plurent guère au ministre de la guerre qui écrivit le 10 aout 1849 au général Hebillon: *"Le colonel s'efforce de faire croire, et vous avez en effet, adopté cette idée, que cet échec a imposé beaucoup de tireurs aux arabes. Je ne peux partager cette espérance : je crois qu'ils sont trop bon juges pour ne pas voir dans cet événement une défaite partielle, et pour que leur ardeur et leur confiance dans les oasis, ne s'en accroissent pas sensiblement. Les champs d'allégresse que jouissaient les habitants disent assez que le colonel a fait éprouver sans nécessité un échec grave à nos troupes."* Voir A.M.G, H 263, lettre du ministre de la guerre au général Herbillon.

لقد تقاسم العقيد كربوشية الرأي مع تحليل الجنرال هربيون، وذهب إلى حدّ قوله إنّ عمله بالزّعاطشة " فرض كثيرا من الرعب على العرب ."ولم تعجب تلك التحاليل وزير الحرب الذي كتب إلى الجنرال هربيون بتاريخ 10 أوت 1849: " العقيد يعتقد، وقد وافقتموه عن الفكرة بأن هذا الفشل، قد فرض كثيرا من الرّعب على العرب. وأنا لا أستطيع أن أقاسمكما هذا الرّأي : أعتقد بأنهم يرون في هذه الحادثة هزيمة جزئيّة لنا وكافية بأن ترفع الحماس وتذكي الثقة في الواحات. إنّ جو الفرحة الذي عمّ السكان يدلّ على أنّ العقيد سجّل هزيمة بدون معنى لقوّاتنا " انظر A.M.G, H 263 رسالة من وزير الحربية إلى الجنرال هربيون.

المنطقة هو حرّ الصّحراء الشّديد، وأنّ هذا العدوّ (الطبيعي) الذي يعيقنا اليوم، لا يمنعنا من العودة للانتقام والعقاب في فصل ملائم".[1]

بعد شهر واحد من رسالة وزير الحربيّة إثر الهزيمة في الزّعاطشة، غيّر الجنرال هربيون موقفه ووصف الوضع في الزّاب" الخطير جدّا "و" ببؤرة استفزاز [2] "وهو طبعا يعني وجوب تركيز القتال على الزّعاطشة، معترفا بأنّ فشل 16 جويلية أعطى للسكّان الزّاب الظّهراوي" قوّة معنويّة قويّة توحي بشهرة الزّعاطشة كحصن يستحيل الاستيلاء عنه."[3]

ومن جهته، ووعيا منه من القوّة التي اتّخذتها ثورة الزّعاطشة، ذكّر قائد إقليم بسكرة يوم 10 أوت بأنّه وأكثر من أي وقت مضى، وجب " الحفاظ على ما تبقى لنا من كرامة صارت تنتزع منّا يوما بعد يوم "وعليه" يجب بتر جدور هذا التمرّد وتسديد ضربة قويّة ترفع من شأن سلطتنا المطلقة ".. واعترف ذلك الضّابط بأنّ قضيّة الزيبان لم تعد قضيّة إقليم بسكرة وحده بل إنها أصبحت تعني قطاع قسنطينة بأكمله. وعلى كل حال فإنّ تحليل ذلك الضّابط تقاسمه كلّ من الوالي العام للجزائر والجنرال هربيون على السّواء.[4]

وعلى كلّ فإنّ تصرّف العقيد كربوشية في الزّعاطشة الذي أفضى إلى فشل قد لق انتقادا كبيرا في فرنسا وفي الجزائر. وكان وزير الحربيّة قد رفض كلّ

1-A.O.M, 1 H 6, Rapport du général Herbillon au Gouverneur Général, Constantine, 25 juillet 1849.

2-Ibid.

3-HERBILLON, Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, 24 aout 1849.

4-A.O.M, Rapport du commandant Saint-Germain, Biskra, 10 aout 1849.

التّبريرات التي قدّمها رئيس الحملة الفاشلة. ولقد عبّر الوزير عن ذلك برسالة مطوّلة وجّهها إلى الحاكم (الوالي) العام بالجزائر:

".. إنّني أقدّر مستوى إقدام هذا الضّابط، ولكنّه كان مندفعا : وأخشى أن يكون غرض الحديث عنه (طلب الشّهرة) هو الذي دفعه بدون بصيرة إلى عدم تقدير الصّعوبات التي كان تستوجب التغلّب عليها"..

وأضاف الوزير.."إنّ مواجهة واحة مأهولة لا تعالج بطريقة مهاجمة موقع جبلي. إنّ الجدران المتينة والمنازل المحصّنة بالأخشاب وأخاديد الماء لا تنزع بوسائل بسيطة تكفي لحرب الجبال أو لاقتحام موقع في الخلاء. إنّ العقيد لا يمكن أن يُعذر لكونه كان على علم بالاحتياطات التي اتّخذت في الواحة وبنوايا النّاس التي يسكنونها"[1] .

ولقد قاسم الجنرال هربيون رأي وزير الحربيّة فيما يخص مسؤوليّة العقيد كربوشية في الفشل الذي لحق القوّات الفرنسية بالزّعاطشة. وعليه فقد بدا الجنرال متحفّظا فيما يخص التّصريحات التي أدلى بها العقيد أثناء قراءته لعرض حال متعلّق بمعركة يوم 16 جويلية، وذهب إلى حدّ اتّهام العقيد بأنّه" أغلق السّمع عن توصيّات الحيطة والحذر"، وأنّه بدلا من أن يسعى إلى فرض" طلب الأمان "راهن على أن يتعرّض لفشل .[2]

1-A.O.M, H 261, Une lettre du ministre de la guerre au Gouverneur Général, 10 aout 1849.

2-Parmi les réponses du colonel Carbuccia aux critiques du général Herbillon, on cite une lettre écrite le 24 juillet 1849, où il dit notamment : *"Parti de Biskra ayant à réprimer une petite émeute je me suis trouvé en face d'une guerre sainte. Il m'était plus temps de reculer. J'ai cru qu'il valait mieux combattre que de quitter le pays.."* Voir A.O.M, 2 H 25, Pièces à l'appui, n° 26, Lettre de Carbuccia à Herbillon, Batna 24 juillet 1849.

ومن جهة أخرى، عبّر الجنرال هربيون - أثناء ردّه عن رسالة وجّهها إليه العقيد تعبّر عن استحالة اجتياز حواجز الزّعاطشة باستعمال أسلحة ثقيلة -وهو يشتاط غضبا، بما يلي:

"وبما أنّ تفكيرك استقر على هذا الرّأي (عدم قدرة المدفعية على تهديم القرية) كان عليك ألاّ تتعرّض لخسائر لا يمكن تفاديها. يبدو من خلال عرض حالك، أنّك تريد المصالحة مع شرف فرنسا. وكان عليك أن تدخّر دمها إلى ظروف أكثر أهميّة، دما غاليّا مثل دمك. لقد نظرت إلى مسألة الزّعاطشة وكأنها قضيّة ثانويّة ...ولقد كنت أنصح لك بألاّ تندفع إن لم تكن متحقّقا من النّصر التامّ .وكان عليك تدبير انسحاب مقنّع بدلا من التعرّض لفشل ذريع[1]"..

ومن جانب الزّعاطشة بلغ الاعتزاز بالنّصر درجة عمّت كلّ السكّان لكونهم نجحوا في ردّ فرقة عسكريّة فرنسيّة مسلّحة. ولقد تملّكهم شعور بأنّهم لم يدافعوا عن الزّعاطشة فحسب، بل إنّهم رمزوا للمقاومة الشّعبيّة في كامل الجنوب القسنطيني. ولقد قلنا إنّه وقبل تنظيم الحملة الفرنسيّة، فإنّ أعين سكّان هذا الإقليم كلّها كانت تنظر صوب الزّعاطشة. وبعد معركة 16 جويلية، سارع سكّان الزّاب الذين كانوا من البداية مقحمين في الدّفاع عن الزّعاطشة، إلى الانضمام لقضيّة الشّيخ بوزيّان صراحة، وأمام الملإ، مهدّدين بذلك التّواجد الفرنسي في المنطقة.

" إنّ التمرّد (كتب الرّائد سان جرمان) سيتجاوز الحدود التي هو عليها الآن . لقد بدأ الزّاب الظّهراوي بأكمله يطعن فينا. ولم نعد نطمع في تعاون الزّاب القبلي معنا بل في حيّاده فقط .كلّ قرى الزّاب كانت ممثّلة بمقاتلين يوم 16

1-A.O.M, 1 H 6, Rapport du commandant Saint-Germain, Biskra, 10 aout 1849.

جولية. لقد غضضت البصر وتظاهرت بتصديق كلامهم، ولكنّه صار من المستحيل تصديق أوهام السّلطات الفرنسيّة" [1].

وجنوبا، بأولاد جلاّل، تمكّن الشّيخ بوزيّان من كسب دعم المرابط سي المختار شيخ الرّحمانيّة. ولقد سبق للشّيخ المختار في جانفي 1847 أن نشّط حركة مقاومة ضد حملة الجنرال هربيون على أولاد جلاّل. وبعد انتهاء المعركة فرّ الشّيخ (نحو الجلفة) وهو يبثّ دعاية واسعة ضدّ الاحتلال الفرنسي. وفي خضمّ اندلاع ثورة الزّعاطشة ظهر الشّيخ المختار في أولاد جلال مع بعض أنصاره من عرش أولاد نايل وعمل على دعم الزّعاطشة بمعظم سكّان واحتي أولاد جلاّل وسيدي خالد ثم بأولاد ساسي، وكان مدعوما بإخوانه رغم محاصرته. وهكذا راسل الشّيخ المختار الشّيخ بوزيّان برسائل عديدة، من بينها هذه المراسلة:

"سدّد الله خطاكم ونصركم على الكفّار. من جميع أهل أولاد جلال بدون استثناء، ومن الشّيخ المختار والشّيخ محمّد بن الحاج امعمّر. سأخبركم عن أحوالنا، وأطلعونا عن أخباركم ليلا ونهارا. لنا ثقة في الله وفيكم. حضّر لنا ذخيرة الحرب. ولا تخصّنا إلا أخباركم" [2].

وبسرعة تحوّل دعم أولاد جلال وصار أكثر نشاطا. ولما أُذهل الشّيخ المختار بنجاح الشّيخ بوزيّان، سارع بإرسال بعض الفرسان وحوالي 50 راجلا من

1-A.O.M, 1 H 6, Compte-rendu des événements politiques et des opérations militaires depuis le mois d'avril 1849.

2-A.O.M, 15 K 25, Dossier intitulé"Documents trouvés Zaatcha et dans la djébira de si Abdelhafid à Sériana " Traduction officielle d'une lettre arabe adressée par le cheikh Mokhtar au cheikh Bouziane, carnet de 37 lettres, n° 27.

أولاد ساسبي .[1] وفي نهاية شهر جويليّة وصل شخصيّا صحبة 300 مقاتل من أولاد جلال وسيدي خالد وأولاد زكري إلى الزّعاطشة، وعرض على الشّيخ بوزيّان دعما مطلقا للهجوم على بسكرة.[2]

أمّا في الأوراس، فقد باتت رسائل الشّيخ بوزيّان تتداول بين أيدي رؤساء القبائل الجبليّة، حيث كان مبعوثوه يشيعون عجز الفرنسيين في الزّعاطشة ويدعون المواطنين جهارا نهارا للجهاد المقدّس. ولقد بادرت قبيلة أولاد عبدي التي كانت لها سوابق مع الجيش الفرنسي وكانت قد شاركت في انتفاضات عديدة، إلى اغتنام الفرصة لتحمل راية الثّورة. ومنذ الأيّام الأولى لشهر أوت، سارعت إلى إعداد 400 من المشاة قادهم المدعو أحمد بن الجودي الذي كان شيخا سابقا عن عرش أولاد زيّان لاقتحام زمالة القايد بلعبّاس الذي كان معسكرا بوادي طاقة وحملوه على الفرار[3].

"هذه المحاولة الجرّيئة (كتب رئيس المكتب العربي ببسكرة)كان يمكن أن تحقّق نصرا مبينا، نظرا لسرعة تحرّك المتمرّدين ولأنّنا لم نكن ننتظر عداء مماثلا".[4]

أمّا القايد بلعبّاس فقد عسكر قرب باتنة، في وقت كان فيه الأوراس يجنح نحو الثّورة. ولمّا استنجد الشّيخ بوزيّان من المقدّم سي عبد الحفيظ

1-A.O.M, F 80 497, Rapport du bureau arabe de Biskra pour la première quinzaine du mois d'aout 1849.

2-A.O.M, F 80 497, Rapport du bureau arabe de Biskra pour la première quinzaine du mois d'aout 1849.

3-A.O.M, F 80 497, Rapport du bureau arabe de Biskra pour la première quinzaine du mois d'aout 1849.

4-Ibid.

(الخنقي) خرج هذا الأخير عن صمته معلنا الانضمام للثّورة، جارّا معه قسما كبيرا من الأوراس.

لقد أبانت الحملة الفرنسيّة الأولى على الزّيبان عن مقاومة شرسة في الزّعاطشة لم يكن الفرنسيّون ينتظرونها. ولقد مكّنت تلك الحملة من بروز الشّيخ بوزيّان كرجل قوي استطاع أن يفرض هيبته واعتزازه على سكّان صحراء قسنطينة .ولقد انخرطت تحت إمرته كلّ الفرق التي جاءت لدعمه بما في ذلك رجال الدّين الذين انحنوا أمام سلطته. ولقد تحوّل الشّيخ بسرعة إلى شبه رأس مدبّر لثورة شعبيّة. ولقد عمل على تكثيف خرجاته في المنطقة، في غالب الأحيان، مصحوبا بقوّات مثيرة من أنصاره، واستطاع أن يفرض سيطرته أمام أعين السّلطات الفرنسيّة لإقليم بسكرة. ومن جهة أخرى حاول الشّيخ بوزيّان إقناع الفرق التي أتت إلى الزّعاطشة قبل وبعد 16جويلية بالبقاء معه لمواجهة الحملة الفرنسيّة الثّانيّة التي كان يعدّها الجيش الفرنسي. ولقد حاول الشّيخ توسيع ثورته إلى المناطق المجاورة ولاسيّما إلى الأوراس أحد معاقل الرّحمانيّة وموطن القبائل الجبليّة المتمرّسة على شدّة الحروب، لأنّه كان يدرك أنّ نجاح حركته مستقبلا متعلّق بموقف هذه المنطقة من ثورته.

قبل1849 ، لم تكن الزّعاطشة إلا واحة صحراويّة صغيرة ولم يكن بوزيّان إلا قروي بسيط تتجاهله السّلطات الفرنسيّة المحليّة. ولقد كان ذلك من الأسباب التي جعلت الفرنسيين ينظرون إلى بداية الانتفاضة التي أسس لها الشّيخ بوزيّان بشيء من الاستخفاف وكانت تعتبرها مجرّد عش مقاومة محليّة يمكن خنقها محليّا. ولقد تغيّرت المعطيات بعد تاريخ 16 جويليّة، عندما تكبّدت القوّات الفرنسيّة فشلا مخزيّا جعلها تنظر إلى عزيمة السكّان

بقناعة أخرى تنمّ على أنّ قضيّة الزّعاطشة لم تعد محدودة داخل إطار سلطات إقليم بسكرة ولكنّها أصبحت تعني كلّ القطاع القسنطيني .
وانطلاقا من ذلك، حاول الفرنسيون إنهاء هذه القضيّة قبل أن تتحوّل إلى ثورة عارمة في مناطق أخرى تصعب السّيطرة عليها.
وكعادة الفرنسيين رأوا أن الحلّ لا يمكن أن يكون إلا عسكريّا. وكان عليهم انتظار شهر أكتوبر لإرسال حملة عسكريّة ثانيّة على الزّعاطشة، وكانت ساعتها الكثير من المعطيات ذات العلاقة بثورة بوزيّان قد عرفت تطوّرات كبيرة في كامل الجنوب القسنطيني

الباب الثاني
محاولة تفسير الطّابع السياسي والديني
لثورة الزّعاطشة

الفصل الأول
أسباب انتفاضة الزّعاطشة

إنّ ما قام به الشّيخ بوزيّان سنة 1849 يعدّ عملا ثوريّا هامّا، لأنّ المحاولات التي قامت قبله لتفجير وتعميم ثورة باءت بالفشل. ولمحاولة فهم نجاح الشّيخ لا بدّ من التّساؤل عن مصادر ثورته وشخصيّته وعن الدّعم الذي تلقّاه لاسيّما من الزّوايا.

منذ احتلال الزّاب، كانت المنطقة مسرح هزّات متعدّدة : نذكر منها على سبيل المثال تلك التي قام بها الشّريف بومعزة في أولاد جلال سنة1847 .

ولقد كان الشّريف محاصرا ومطوّقا باستمرار بقوّات فرنسيّة متنقّلة، منذ أن ثار في الظّهرة سنة1845 .

في نهاية 1846 ، وصل الشّريف متبوعا بقوّة من أنصاره إلى واحة أولاد جلاّل، وهي مدينة غير بعيدة عن الزّعاطشة. وبسرعة، قرّر الفرنسيون التدخّل بواسطة كتيبة قادها الجنرال هربيون (Général Herbillon) بنفسه. وبعد أن طوّقت البلدة قامت القوّات الفرنسيّة بهجوم سريع يوم 10 جانفي 1847على البلدة انتهى بفشل أوّلي في السيطرة على المقاومين، ممّا حمل الجنرال على فتح مفاوضات مع الثّائرين، آل إلى اتّفاق أنهى حركة بومعزة لأنّ هذا الأخير كان قد غادر الواحة قبل وصول القوّات الفرنسيّة[1]، وكاد أن يدفع بأولاد جلال إلى انتفاضة واسعة.

وزيّادة على مواجهة الثّورة في أولاد جلال، كان الفرنسيون قد سخّروا قواتهم مرّات عديدة لملاحقة أنصار أحمد باي الذي كان قد لجأ إلى الأوراس بعد سقوط قسنطينة. ولكنّ هذا الأخير وبعد مقاومة طويلة في الجبل، اضطر إلى الاستسلام سنة 1848 بعد أن كانت حركة الأمير عبد القادر قد انتهت في ديسمبر1847 . وكانت حركتا الأمير وأحمد باي، زيّادة عن الاضطرابات التي

1-A.O.M, 10 H 17, Cercle de Batna, historique de 1847.

عرفها الجنوب القسنطيني ما بين 1844 و 1849 قد أحدثت شروطا ملائمة لاندلاع الثّورة في الزّعاطشة.

قبل وبعد وصول الفرنسيين إلى المنطقة، كان النّداءات إلى الجهاد المقدّس متكرّرة. وفي سنة 1849 نجح الشّيخ بوزيّان في تجسيد تلك الرّسائل في ثورة عارمة اتّخذت أبعادا خطيرة على الوجود الفرنسي في المنطقة بأكملها.

وفي سيّاق الثّورة نفسه، هل يمكن أن نهمل ارتفاع الضّرائب على السكّان من الأسباب التي أدّت إلى الانتفاضة ؟ إنّ السّلطات الفرنسيّة في تلك المرحلة كانت تقدّم هذا السّبب كعامل رئيسي في اندلاع الأحداث. ولكنّنا عندما نقوم بمقابلة الآراء المتناقضة حول قضيّة الزّعاطشة، وخاصّة آراء من كانوا في موقع جدير بإعطاء معلومات مفيدة، فإنّ يمكن لنا أن نفهم أكثر ما يرمي إليه هذا البحث.

1-1 الجهاد المقدّس

منذ البداية وطوال المدّة التي استغرقتها الانتفاضة لم يزل الشّيخ بوزيّان على صلة برجال الدّين في المنطقة ليعطي دعوته صبغة شرعيّة. إنّ دعم تلك الطّبقة الاجتماعيّة له كان مفيدا بل ضروريّا بالنّسبة إليه ليساعده على حشد الجماهير والحفاظ على روح التمرّد عن السّلطات الفرنسيّة. وعلى سبيل المثال نقرأ في رسالة وجّهها الشّيخ بوزيّان إلى الشّيخ الصّادق بن الحاج أحد أقطاب الرّحمانيّة في الأوراس قوله بالحرف الواحد :

.."واعزموا ولا تتراخوا واستحفظوا على أرواحكم وانصروا الدّين ينصركم الله ..والزّاب الظّهرواي و القبلي كلهمّ على كلمة الإيمان يعني على نصرة الدّين والمسلمين وكلّها اجتمعت على حماية الدّين"[1].

وفي الرسالة نفسها يبدي الشّيخ بوزيّان اعترافه بالمجهود الذي أدّاه الشّيخ الصّادق فيي الأوراس على ذمّة الجهاد" لقد ظهّرتم الدّين بعد غيّابه"(كتب له حرفيا .[2]وعند قراءة هذه الرسالة، من المستحيل عدم ملاحظة حيرة بوزيّان عن الدّين الإسلامي ومستقبله تحت حكم فرنسي كافر.) فهو يدعو إلى صون الدّين من جهة وتكوين حركة قويّة حوله سيكون باستطاعتها حماية العقيدة الغاليّة جدّا في نفوس السكّان. ويبدو أنّ تلك الرّسائل كان لها الوقع المرغوب من الشّيخ، وإلا فكيف نفسّر انتشار الأفكار الثّوريّة في مدّة قصيرة لا تتعدّى ثلاثة أو أربعة أشهر في قطاع واسع مثل صحراء قسنطينة ؟

وأمام أنصاره، كان الشّيخ بوزيّان يطوّر أفكاره الثّوريّة ويدعو إلى الجهاد المقدّس بواسطة خطب كان يلقيها يوميّا أثناء التجمّعات الشّعبيّة أو بعد الصّلوات .كما كان يوجّه رسائل خاصّة إلى رؤساء القبائل (الأعراش) وشيوخ القرى وإلى الشّخصيّات النّافذة .

ورغم مجهوداتنا في البحث، فإنّنا لم نعثر إلا على ثلاث رسائل صادرة عن الشّيخ بوزيّان. وبالمقابل لم نعثر إلا على عدد أقل من المراسلات التي تلقّاها

1-A.O.M, 15 K 25, Dossier intitulé "documents trouvés à Zaatcha et la djébira de Si Abdelhafid à Sériana", Traduction d'une lettre arabe adressée par le cheikh Bouziane au cheikh Sadek Belhadj.

2-Ibid.

هو من أنصاره، وكانت عبارة عن ردود عن رسائل كان قد وجّهها لهم، مثل هذه الرسالة التي وردت إليه من عرش أولاد اعمر:

"السلام عليم من طرف كلّ أولاد اعمر، ومن بينهم قدّور عبد الرحمن، ابن سلطان، سي الموفي وعبد الحفيظ. لقد تلقينا رسالتك ..الجهاد واجب خاصة في هذا الوقت ؛ حسب الشّيخ خليل .[1]إنّ هزيمة الكفّار مضمونة ..لا

1-Khalil Ben Ishaq Ben Moussa Ben Chayeb Abou al-Mawada al-Din, connu sous le nom d'Ibn El-Djoundi, appelé Sidi-Khélil en Algérie, célèbre jurisconsulte malikite d'Egypte; mort au Caire en 776 (1374) ou selon d'autres en 767 ou 769. Né d'un père hanafite, il embrassa le rite malékite sous l'instance d'un de ses professeurs, à savoir El-Manuffi. Après la mort de ce dernier, il se consacra à l'enseignement. Il a surtout écrit un résumé du rite malékite sous le titre de "Mokhtasser" (résumé) ; ce manuel largement étudié en Algérie jusqu'à nos jours a été traduit intégralement en français par le docteur Perron sous le titre "Précis de jurisprudence musulmane ou principes de législation musulmane civile et religieuse selon le rite malékite", Paris; 1848-1858. Voir Encyclopédie de l'Islam, tome II, Auguste Picard, 1927, p 940.

خليل بن اسحاق بن موسى بن الشويب أبو مولى الدين المعروف بابن الجندي والمعروف في الجزائر بالشيخ خليل من أشهر فقهاء المالكية في مصر .توفي في القاهرة سنة 776 هـ (1374) وقيل سنة 767 أو .769 ولد من أب حنفي اعتنق المذهب المالكي على يد الشيخ المنوفي .وبعد وفاة شيخه، تفرّغ للتعليم .على هامش ذلك كتب مختصره الشهير) مختصر خليل (وهو الكتاب المتدارس بقوة إلى اليوم بالجزائر .ولقد حظي المختصر بترجمة كاملة من طرف الدكتور بيرون تحت عنوان" : **مبادئ التشريع الإسلامي المدني والديني حسب المذهب المالكي**"، باريس، .1858-1848 أنظر الموسوعة الإسلامية، أوغست بيكارد،1927 ، ص.940

تخشى الموت في سبيل الله .. الله يرحم يوم القيّامة من يموت في سبيله .. عندما تذهب إلى الجهاد اخبرنا به حالا ".[1]

ومنذ بداية الانتفاضة، لم يشكّ سكّان الزّاب في شرعيّة الجهاد المقدّس الذي يجب الانخراط فيه، وهو ما يفسّر اندفاع النّاس بقوّة إلى ساحات القتال ودعمهم المطلق للشّيخ بوزيّان. ولم تكن الدّعوة للجهاد والتّعبئة العامّة للسكّان بفعل الشيخ بوزيّان وحده، بل كانت بفعل شخصيّات دينيّة شائعة. وعادة ما تكون هذه الشّخصيّات من شيوخ زوايا لهم إخوان (أتباع) وتلاميذ، أو من رؤساء عائلات قويّة لها نفوذها المعنوي في العامّة. وتقوم تلك الشّخصيّات بالتّحريض على الالتحاق بدعوة الشّيخ بوزيّان، شارحة لها، ومركّزة على شرعيّة بل على ضرورة الجهاد في سبيل الله.

ومن هذه الأمثلة نشير إلى هذه الرّسالة التي وجّهها الشّيخ حسن البكري إلى أنصاره : (كتبتها بنصّها الأصلي وأسلوب كاتبها الخاص)

"هذه من طرف عبد الله محمد بن الحسن البكري إلى إخواننا في الله وصحبتنا في الدين صدقا، السيّد بو بكر و السيد أحمد الزواوي وكافّة إخوانهم من أولاد الصّالح، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ومغفرته. أما بعد فقد بلغنا أحوالكم السميّة وشمائلكم المرضية بوقوفكم بالجد والاجتهاد على الجهاد مع السيّد بوزيّان غمر الله مقامه بالرحمة والرّضوان فأفرحنا ذلك منكم غاية ودعونا لكم بجزيل الخير. نهاية، نسأل الله أن يشدّ بكم عضد الدّين ويشيّد أركانه ويزيح الكفّار وأهله ويكبت أعوانه ويرفع

1-A.O.M, 15 K 25, Dossier intitulé "Documents trouvés à Zaatcha et la djébira de Si Abdelhafid à Sériana", carnet de 37 lettres, n° 32, traduction officielle d'une lettre arabe adressée par les Ouled-Amor au cheikh Bouziane.

الذين يحاربون في سبيله. ونحن في ذلك الأمر قائمين وعل الحث على جهاد أعداء الله معينين. وإذا يسّر الله وقدمنا إلى تلك الناحيّة فلكم منا جزيل الشّكر وجميل الاحترام أنتم ومن ضرب على دين الإسلام، والله ولي الإعانة والتّوفيق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"[1].

زيّادة عن تفهّم دعوة الشّيخ بوزيّان والحثّ على الانضمام إليها، ختم كاتب الرّسالة على مواصلة الكفاح مع تحرّي الحيطة والحذر. قبل حصار الزّعاطشة ومعركة 16 جويلية 1849 ومعركة سريانة، كانت الاشتباكات المسلّحة بين القوّات الفرنسيّة وأنصار بوزيّان نادرة ، ولكن مقابل ذلك، تملّكت السكّان روح الثّورة ورفض الاحتلال الفرنسي منذ شهر ماي من السّنة نفسها. ولإشاعة تلك الرّوح الجهادية، ورفع معنويّات المنخرطين في صفّ الشّيخ بوزيّان، اتّكأت تلك الشّخصيّات المعروفة بمستواها الدّيني على مراجع إسلاميّة لإذكاء روح الجهاد والتحدّي.

ورغم ذلك، فإنّ دعوة الشّيخ بوزيّان الصّريحة إلى الجهاد، لم تلق إجماعا مطلقا من طرف كلّ مرابطي المنطقة، ممّا أثار جدلا واسعا في أوساط "الطُّلبة "(يطلق على العارفين بعلوم القرآن والفقه الإسلامي). ولم يواجه بوزيّان أولئك الرّافضين لفكرة الجهاد المقدّس من الطُّلبة بنفسه مواجهة مباشرة، بل تركه لأنصار قضيّته، ومنهم الشّعراء الذين لم يتركوا فرصة إلاّ

1-A.O.M, 15 k 25, Dossier intitulé « Documents trouvés à Zaatcha et la djébira de Si Abdelhafid à Sériana », Traduction officielle d'une lettre arabe adressée par Mohamed Ben Hassan El-Bikri à Abo Bakir et Ahmed Zwawi et à tous les Ouled Sallah. (Voir annexes, lettre n°6).

وتعرّضوا إلى أولئك المشكّكين بالنّقد اللاذع، وكان محمّد الليشاني من بين الشعراء المتحمسين لقضيّة الجهاد[1]

"سال الطّلبة اللي بكتوبهم علماء واهل قرآن
كان الجهاد حرام على اتباع طريق المسلمين
لا حكم للطالب الرومي يخدع الدنيا بالأمان
يقول الجهاد حرام عشّا يكذّب في بوزيّان
حاشا أربعة من دميخ واللي في قلبو الإيمان
غير اللي كافر بالظّاهر وغرّهم ذاك الشيطان"

وعلى كلّ، فإنّ أصوات أولئك الذين عارضوا باسم الدّين لجوء بوزيّان للجهاد، لم تكن مسموعة، لأنّه كان من الصّعب في تلك الفترة إسماع صوت غير الصّوت الذي يدعو إلى الجهاد، بسبب التّعبئة العامّة للجماهير والدّعم العاطفي للشيخ بوزيّان.

في معظم المصادر الفرنسيّة يفضّل الضبّاط الفرنسيّون استعمال لفظ "التعصّب "عندما يتعلّق الأمر بالجهاد. ولكن بالنّسبة لهؤلاء الضبّاط أم لغيرهم ممن يستعملون" الحرب المقدّسة "فإن الجميع يتّفقون على أنّ ثورة بوزيّان تدخل ضمن ما يصنّفونه بالحروب الدّينيّة، وأنّ بوزيّان رجل متعصّب:

1-Texte cité et traduit par Charles Féraud, Le Sahara de Constantine, op cit, p 411. (Voir annexes, chant de Mohamed Lychani.)

نص ذكره وترجمه شارل فيرو،" صحراء قسنطينة op cit, p 411"انظر الملحق : شعر محمّد الليشاني (كما ترجمه فيرو).

.. "فهي إذن (كتب رئيس المكتب العرب بباتنة في جويلية1849) ليست من هذه الثّورات التي يدعو إليها بعض رؤساء القبائل باستعمال نفوذهم، فهي ليست ضدّ الحكم، بل هي حرب دينيّة مدعومة بجماهير مهوسة، مُضلَّلة بكلمات متعصّب : وهو ما يفسّر هذه المقاومة اليائسة التي نواجهها" [1]

أمّا تحليل الجنرال هربيون فيذهب في اتّجاه مخالف:

.. "كان يكفي أن يُقدح زنديق شرارة حرب مقدّسة في أوساط ساذجة ليحطّم الهدوء ويشعل الحريق، الذي كان في البداية بالزّعاطشة مجرّد حيلة بائخة أملى بها التعصّب الدّيني ؛ ولكن، وبتعاقب سلسلة من النّكبات، اتّخذت حجما كبيرا يهدّد بانتشارها في الإقليم بكامله"[2]..

هذان الضّابطان كغيرهما، قاما من بعد بالرّبط بين السّبب الدّيني وأسباب أخرى سيّاسية واقتصاديّة لتفسير اندلاع الثّورة في الزّعاطشة. وبما أنّ الفرنسيين كانوا متعوّدين على المواجهة باسم الإسلام، فإنهم لم يقلّلوا من دور الجهاد في تفجير الثّورة.[3]

1-A.O.M, F 80, Cercle de Batna, Rapport de la deuxième quinzaine de juillet 1849.

2-HERBILLON, Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha, op cit, p 12.

3-A propos du rôle de la religion dans l'insurrection de Zaatcha, le Colonel Carbuccia nous a laissé un témoignage important qu'il a recueilli auprès d'un des défenseurs de Zaatcha, lors du siège de cette oasis, un jour d'octobre 1849 " Dans la nuit écrit-il, les fanatiques du village m'appelèrent par mon nom. Un mur nous séparait. Je leur ai exposé l'inutilité de leur défense. Ils me répondirent en assez bon langage ; les Français ont pris Alger, Bône, Constantine ; ils prendront Zaatcha; mais nous ne voulons pas nous rendre et nous mourrons tous pour notre religion que vous voulez détruire." Voir A.O.M, 2 H 25, Mémoire relatif aux événements accomplis dans la subdivision de Batna le 16 septembre 1849 par le colonel Carbuccia.

أمّا المؤكّد أنّ هناك شبه إجماعا بين المصادر الفرنسيّة والمصادر العربيّة على أنّ" الجهاد "من بين أهمّ العناصر بل هو أهم عنصر في دفع الشّيخ بوزيّان إلى الثّورة، كما كان الجهاد بالنّسبة لمحاربي الزّعاطشة هو العامل المشترك، كما كان سرّ استماتتهم وقوّة شكيمتهم في الدّفاع عن قريتهم.

2-1 مسألة الضّريبة (الغرامة)

بعد عنصر الجهاد المقدّس في الدّفع إلى الثّورة، يمكن ذكر تفسيرات أخرى، ابتداء من الجانب المالي(الاقتصادي) .لقد كان الأتراك، يفرضون على السكّان إتاوة تسدّد نقدا وتعرف ب" الغرامة "وتحسب وفق عدد السكّان وما يملك كلّ فرد من رزق .وفي حالة انعدام السّيولة النّقدية، كان بإمكان السكّان المعنيين تسديد الغرامة بدفع رؤوس من الحيوانات (خيل، إبل، غنم). وفعلا، كانت تنطلق كلّ سنة من قسنطينة في فصل الخريف ميليشية تركيّة مدعومة ب 250 جندي لجمع الغرامة من سكّان الصّحراء. وكان شيخ العرب هو من يتولّى نقل تلك البعثة بتسخير الابل لحملها وحمل بضائعها وما تجمع من أموال. وكان بقاؤها في المنطقة يستلزم عدّة أشهر لأداء مهامّها ولا تعود إلى التلّ إلا عند حلول الرّبيع.[1]

وفيما يتعلق بدور الدّين في انتفاضة الزّعاطشة، ترك لنا العقيد كربوشية شهادة هامّة أخذها عن أحد المدافعين عن الزّعاطشة خلال الحصار، وبالضبط في أحد أيام أكتوبر1849:" وفي الليل (كتب كربوشية) ناداني متعصبو القرية باسمي وكان يفصل بيننا حائط ، وكنت قد حذّرتهم من عدم جدوى دفاعاتهم .فأجابوني بلغة قريبة من الحسن بأن الفرنسيين أخذوا الجزائروعنابة وقسنطينة وقد يأخذون الزعاطشة، ولكنّنا لن نستسلم وسنموت جميعا في سبيل ديننا الذي جئتم لتحطيمه " انظرVoir A.O.M, 2 H 25مذكرة متعلقة بأحداث المكتب العربي بباتنة في 16 سبتمبر1849 ، العقيد كربوشية.

1-Tableau de la situation des établissements français en Algérie en 1840, op cit, p 344.

أمّا فيما يخص دفع اللّزمة (الغرامة) من قبل البدو للمرور إلى التلّ، فكان يلزم ثمان قبائل معيّنة فقط لأنّ قبيلتي أهل بن علي والسّلميّة كانتا معفيتين.[1]

ومنذ1844 ، فرض الفرنسيون على سكّان الزّاب ضريبة جديدة على أشجار النّخيل تدفع نقدا وتسمى" لزمة"، وذلك بعد أن كانت قد قامت بإحصاء شامل للنّخل وحدّدت مبلغ 0,25 فرنك عن الشّجرة الواحدة. وذلك إضافة لما كان يدفع البدو عن رؤوس أنعامهم (إبل، غنم، ماعز) أثناء مرورهم إلى التلّ، بحيث حدّد المبلغ ب 5 فرنك عن بعير أو عن 25 شاة. وبذلك كان يمكنهم دخول أسواق التلّ .كما كانت تدفع ضريبة ، في كامل قطاع نادي بسكرة، ضريبة عن الأراضي بإتاوة قدرها 30 فرنك عن كلّ جابدة (مقدار ما يحرث حمل أو حصان).[2]

وكان القيّاد الذين تجمع الضّرائب في قطاعاتهم يأخذون – وفق قرار المارشال فالي (Maréchal Valée) ثلث (1/3) المبلغ على الأراضي الزراعيّة، بمعنى (1/6)السّدس من مجموع المبلغ العام.

وعلى سبيل المثال، كانت الضّرائب المسلّطة عن الأهالي (Indigènes) سنة 1845موزّعة كالتّالي:[3]

- شيخ العرب 22.254,50 : فرنك
- قايد بسكرة 10.000,50 : فرنك
- شيخ طولقة 500,50 : فرنك

1-A.O.M, F 80 933, Les impôts arabes en Algérie.

2-A.O.M, 1 KK 8, n°104, 24 mai 1848, lettre au Gouverneur.

3-A.O.M, 2 H 25, Une lettre du général Herbillon au cheikh al-Arabe, Constantine, 18 janvier 1845.

- حاكم بسكرة 1200,50: فرنك
- حاكم سيدي عقبة 1200,50: فرنك
- شيخ أورلال 1000,50 : فرنك
- شيخ مليلي 1000,50 : فرنك

المجموع 38.154,50

في 1846 كان الرّائد سان جرمان يريد رفع الضّرائب على سكّان الزّيبان .وإلى غاية 1847 كانت الضّرائب – في رأي الضّابط الفرنسي -منخفضة في السّنوات الأولى لترك المنطقة " تنمو وتتعافى من فوضى دامت ست سنوات " وأنّ الزّيادة في الضّرائب" ستقبل بسهولة "[1]من طرف السكّان لأنّ الأمر يتعلّق بإعادة بناء بسكرة ، وهو المشروع الذي يرفض قائد القطاع القسنطيني تموينه.

وعلى هذا الأساس قام رئيس إقليم ببسكرة بإحصاء أشجار النّخيل الذي أبان عن إضافة 329000 نخلة توجب الغرامة. وبالحفاظ على إتاوة 0,25 فرنك للنخلة الواحدة ارتفعت مداخيل الغرامة إلى 82000 سنة 1849.

ودون أن يرضى الرّائد سان جرمان عن المبلغ، رفع الإتاوة إلى 0,40 فرنك للشجرة الواحدة. تلك الزيّادة رفعت مبلغ المداخيل إلى ما يقارب 300.000 فرنك إضافي على الدّخل السّنوي للّزمة في محيط إقليم بسكرة.[2]

1-A.O.M,15 K , Un rapport du commandant Saint-Germain, Biskra, 1 aout 1846.

2-A.O.M, 10 KK 20, n° 149, Rapport du colonel Carbuccia, Batna 2 octobre 1848.

ويظهر الجدول التّالي الارتفاع المذهل للمداخيل خلال سنتي 1848 و 1849[1]

قيادات إقليم بسكرة	اللزمة سنة1848	اللزمة سنة1849
بسكرة والزّيبان	190796,62 f	192030,75 f
الزّاب الشرقي	36912,50 f	40192,25 f
أولاد صولة وأحمر خدّو	15800,00 f	1380,00 f
أولاد جلال وأولاد زكري	29500,00 f	49500,00 f
سي مقران	118950,00 f	78654,00 f
خنقة سيدي ناجي و شاشار	15250,00 f	13150,00 f

ومن جهة أخرى أخضع الرّائد سان جرمان شيوخ الزّوايا والمرابطين إلى الضّريبة العامة ملغيّا – حسب الجنرال هربيون" – زكاة العشر وضريبة العمل "التي كان يؤديها الملاّك لشيوخهم:

" لقد كان التّجديد الذي فرضه الرّائد (كتب الجنرال هربيون) وكنت قد عارضته دون أن أتمكّن مع الأسف من وقف تطبيقه على العرب. وكان مبدأ يقوم على التّساوي في دفع الضّرائب ممّا يقرّبهم منّا (من تقاليدنا) ولكنّه كان مخالفا لتقاليدهم وعاداتهم وثوابتهم وعقيدتهم"..[2]

أمّا الضّابط بونابارت قائد الفوج، فقد كتب:

1-Tableau établi d'après les deux rapports suivants : A.O.M, F 80 495, cercle de Biskra, rapport de la deuxième quinzaine de mai 1848, et A.O.M F 80 497, cercle de Biskra, rapport de la première quinzaine d'octobre 1849.

2A.O.M, 2 H 25, Une lettre du général Herbillon au ministre de la guerre, Zaatcha le 20 octobre 1849.

"وكانت القاعدة التي توخّاها الرّائد سان جرمان هو تساوي أمام واجب الضّريبة، ولم يعد يفاضل المرابطين في بلد تكثر فيه هذه الفئة ذات النّفوذ الواسع، ممّا جعل هذا الإجراء يخلق لنا أعداء لا تمكن مصالحتهم من أناس كان بإمكانهم خدمتنا كما كانوا يفعلون مع الأتراك قبلنا ".[1].

ويقول بيليسييه (Pélissier) إنّ الإجراء الذي اتّخذ لغرض توسيع الضرائب وتوزيعها " سلب بعض الامتيازات الشّخصيّة ." [2]بينما يعتقد العقيد كربوشية" أنّ الفرنسيين بذلك يكونون " قد أخدشوا بدون كيّاسة مصالح هؤلاء المرابطين "[3]وعلى إثر تلك الإجراءات قامت بعض الشّخصيّات الهامّة في الزّاب باحتجاجات لدى الإدارة الفرنسيّة ببسكرة وقسنطينة بواسطة مراسلة مؤرّخة في فيفري1849 . ويشير قائد القطاع القسنطيني إلى ذلك بقدوم سي مالك شخصيّا وهو أحد كبّار الملاّك ببسكرة ليحتجّ على رفع الإعفاء من الضّريبة الذي كان يتمتّع به في السّابق.

وكانت السّلطات الفرنسيّة قد طمأنته بقولها " : عندما يستسلم البلد بأكمله وتهدأ الأوضاع، سنكون في وضع أحسن لاتخاذ إجراءات من شأنها أن تنظّم مسألة الإعفاءات بطريقة أكثر تطابقا مع عاداتنا"..[4]

ومن تداعيّات رفع اللّزمة، اعتبارُ كثيرٍ من الضبّاط الفرنسين أنّ ذلك الإجراء كان هو السّبب الرئيسي في الدّفع إلى الثّورة بالزّعاطشة. ومن بين

1-BONAPARTE, Un mois en Afrique, op cit, p 21.

2-PELISSIER, Annales algériennes, Paris, Dimatine, vol. III; 1854, p 316.

3-A.O.M, 2 H 25, Mémoire relatif aux événements accomplis dans la subdivision de Batna, du 16 septembre 1848 au 6 décembre 1849 par le colonel Carbusccia.

4-A.O.M, 1 KK 3, Une lettre du général Herbillon au commandant Saint Germain, Constantine, 21 février 1849.

أولئك شارل بوديكور (Charles Baudicour) الذي عبّر عن ذلك بقوله " : لقد قالوا إنّ التعصّب هو من تسبّب في الثّورة بالزّعاطشة، والآن تبيّن أنّ السّبب الحقيقي هو رفع الضّريبة المبالغ فيه على النّخيل، والذي كان يرمي إلى إفلاس مجموعة كبيرة من سكّان هذه الواحة"..[1]

إنّ مثل ذلك الرّأي الصّادر عن ضابط لم تكن له علاقة بالجنوب القسنطيني ساعة الأحداث لم يكن ليلقى قبولا من طرف أولئك الضبّاط الذين عاشوا أحداث الزّعاطشة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على غرار العقيد كربوشية والجنرال هربيون. ومع ذلك أدان هذان الضّابطان السيّاسة الماليّة التي انتهجها الرّائد سان جرمان في منطقة الزّيبان.[2]

1-BAUDICOUR (Luis), La guerre et le gouvernement de l'Algérie, Paris, Sagnier et Bray; 1853, 600p. p504.

2-Un autre officier à savoir le sergent-major Ribes partage l'analyse de ces deux officiers; mais tout en affirmant que ce n'était qu'un prétexte : "Mais c'est surtout le mode de perception de l'impôt du palmier qui a irrité la population et fourni aux marabouts un prétexte pour exploiter cette irritation et satisfaire leur rancune. Par ordre de Saint-Germain, les sous-officiers chargés du détail de l'opération de recensement des arbres exécutèrent avec une rigueur qui n'était pas certes dans les intentions de l'autorité supérieure." Voir A.M.G; 1 H 211, Histoire de la campagne des Ziban par le sergent-major Ribes, cahier I, chapitre 2.

ضابط آخر وهو الرقيب أول ريبس يشاطر تحليل الضابطين، ولكنه يقول إنها مجرّد ذريعة : " خاصة وأنّ الضريبة على النخيل التي أغضبت السكان كانت ذريعة للمرابطين لكي تبرر لهم حقدهم .لقد نفّذ ضباط الصف تحت إمرة سان جرمان عملية الإحصاء بكل صرامة لم تكن في نيّة السلطات العليا "..انظر A.M.G; 1 H 211, المتضمن تاريخ الحملة على الزيبان، الرقيب أول ريبس، كراس1 ، الفصل.2

لقد عدّ الأوّل أن رفع الضّريبة كان مبالغا فيه " : فهو مرتفع جدّا مع الأسف وقد بلغ فجأة الضّعف تقريبا "..والأخطر من ذلك أنّ الإجراء – دائما حسب كربوشيّة" – قد مسّ جميع الأشجار منتجة أو غير منتجة، دون التّفريق بين أعجاز النّخل والأشجار المذكّرة والأشجار المثمرة."[1]

أمّا الثّاني، فقد كتب لدى مروره بالزّاب في ديسمبر 1849 بالزّاب " إنّه مقتنع بأنّ الواحات لم تكن في مستوى الغنى الذي كنا نعتقد، وإنّ إحصاء النّخيل لم يجر بالدقّة التي تتطلّبها عمليّة غاية في التّعقيد"...[2]

وما يمكن استنتاجه من هذه المواقف أن رأيي الضّابطين الأخيرين كان قد اتّخذا بعد انتفاضة الزّعاطشة. فهما، إذن لم يكونا يجهلان السياسة الجديدة التي انتهجها سان جرمان، ولم يقدّما لرئيس إقليم بسكرة النّصح الكافي لينتهج سياسة أخرى أكثر عدلا فيما يخصّ مسألة الضّرائب[3].

هذا العدول عن آراء سابقة يدلّنا على أمرين : إمّا أنّ آراء هذين الضابطين كانت قد تغيّرت بالفعل أمام الحجم الذي اتّخذته الثّورة وإمّا أنّها كانت

1-A.O.M, 1 KK 3, Lettre du général Herbillon au commandant saint-Germain, Constantine 21 février 1849.

2-A.O.M, 2 H 25, Lettre du général Herbillon au Gouverneur Général, Constantine 15 décembre 1849.

3A propos de la suppression par le commandant Saint-Germain des exemptions dont bénéficiaient naguère les marabouts et les personnages religieux, le général Herbillon n'était pas enthousiasmé par une telle mesure, mais il a laissé passer la loi du commandant Saint-Germain. Voir A.O.M, 1 KK 3, Lettre du général Herbillon au commandant Saint-Germain, Constantine 21 février 1849.

فيما يخص إلغاء الإعفاء من الضرائب الذي كان يتمتع به المرابطون والشخصيات الدينية، فإنّ الجنرال هربيون لم يكن راضيا عن مثل ذلك الإجراء، ولكنه ترك الأمر للرائد سان جرمان ليتصرّف . انظر A.O.M, 1 KK 3 رسالة من الجنرال هربيون للرائد سان جرمان، قسنطينة في 21 فيفري.1849.

مجرّد ردود أفعال سياسوية متأخّرة ترمي إلى تحميل المسؤوليّة إلى الغير، مسؤولية اندلاع الأحداث التي قادها الشيخ بوزيّان في كامل الجنوب القسنطيني.

يبقى أن نشير إلى أن كثيرا من الضبّاط الفرنسيين أثناء المرحلة كانوا يعتقدون أنّ رفع وتعميم اللّزمة لم يكن إلا "ذريعة "استغلّها الشّيخ بوزيّان وأنصاره لدفع السكّان إلى الثّورة. وهو ما ذهب إليه الضّابط لابيار (Officier Lapierre)

"لم تكن الضرائب المفروضة ولا التّنظيم الحالي لإدارة حكم الأهالي هما من أدّتا إلى الانتفاضة. إنّ السّبب الأوّل كان قد وضع من قبل من طرف المشاغبين لتحرض السكّان ضدّنا. فلم تكن إلا ذريعة من الذّرائع الأخرى" [1]

وكان ذلك هو الموقف التي اتخذه الملازم سيروكا: (S. lieutenant Séroka)

"لقد ادّعوا أنّ الضّريبة المسلّطة على النّخيل هي سبب الانتفاضة، لقد أخطأوا تماما؛ كان بإمكان الأهالي أن يقولوا ذلك ؛ لقد اتّخذوا من ذلك ذريعة. فإذا كانت الضّريبة على النّخل ثقيلة، جدّا فلماذا لم يبدأ الأهالي بالاحتجاج ؟ فبدون أن يشتكوا، دفعوا الضّرائب ليثوروا بعد ثلاثة أشهر . كان لا بدّ من اجتماع عدّة أسباب لتتحوّل الثّورة في الزّعاطشة إلى ما هي عليه"[2]..

من الجدير بالذّكر القول إنّ سيروكا كان في فترة الأحداث عضوا في المكتب العربي ببسكرة. ولذلك كان تحليله يميل إلى دعم سيّاسة معيّنة تصبّ في خانة رفع اللّزمة من طرف الرّائد سان جرمان. وكان سيروكا نفسه ممّن

1-A.O.M, 2 H 25, Organisation du cercle de Boussaâda en 1851, Alger, 22 janvier 1851.

2-SEROKA (Joseph-Adrien), op cit, p 505.

شاركوا في تطبيق الإجراء. ولكن، خلافا لأقواله، فإن الاحتجاجات كانت حقيقة لا يمكنه إخفاؤها. ألم يكن يعلم بتنقّل سي مالك أحد المرابطين وكبار مالكي النّخيل إلى قسنطينة للاحتجاج؟ فعندما يُرجع ضابط في مركز سيروكا تطوّر الانتفاضة بالزّعاطشة إلى حتميّات متعدّدة وهو من كان شاهدا على الأحداث منذ البداية ،وخاصة بداية الاحتكاك بين السكّان والسّلطات الفرنسية (سيروكا كان أول من اشتبك مع الشّيخ بوزيّان كما سبق وأن ذكرنا) فإنّ ذلك يدلّ على أنّ كثيرا من الضبّاط الفرنسيين يتجاهلون الأسباب الحقيقيّة التي كانت تدفع بين الحين والحين الشّعب إلى الثّورة.

1-3 آراء مختلفة أخرى

هناك من يحلّل الأسباب التي أدّت إلى الثّورة في الزّعاطشة خارج عنصري الجهاد المقدّس والضّريبة القاسيّة. فبعض الضبّاط يبحثون عن أسباب ثورة الزّاب داخل سيّاق المناخ السيّاسي العام في الجزائر، بعد سقوط ملوكية جوليّة في فرنسا سنة 1848 ، والبعض الآخر يرى الثّورة من خلال المجتمع الزّابي وانفساخه السيّاسي التّاريخي.

فعلا، ومنذ ثورة فيفري 1848 بفرنسا وإعلان الجمهوريّة الثّانيّة تحرّكت الأمور بالجزائر. وكانت أخبار الخلافات السياسية بفرنسا تجول في قطاعات الجزائر الثّلاثة وتفسّر بطرق مختلفة. وكان البساكرة الذين يتنقّلون إلى العاصمة لأسباب مختلفة، يشيعون أخبارا (عن الوضع في فرنسا) مبالغا فيها. وهذا ما جاء في أحد تقارير إقليم بسكرة :

"لقد مكّنتهم علاقاتهم المتواصلة بالسكّان الأوروبيين غير المستنيرين (كتب رئيس المكتب العربي ببسكرة) من سهولة التكلّم بلغتنا وتفسير أحداثنا

السيّاسيّة بطرق خاطئة وخطيرة. وكانت تصل الزّاب كلّ يوم رسائل من إخوانهم بفرنسا تصف الأوضاع بالخطيرة، لأن فرنسا أصبحت – في نظرهم -على شفا حرب أهليّة، وأنه سيكون بإمكان الجزائريين الاستيلاء عليها واحتلالها لأنها خسرت كلّ عساكرها في إيطاليا "..[1]

وعلى حسب هذا الضّابط " فإنّ تلك الأخبار تزامنت مع تواجد عدّة شرفاء في نقاط مختلفة (مناطق) ومع تقليص الجنود من ثكنات باتنة وبسكرة، لدعوتهم للمشاركة في الحملة على بلاد القبائل ".. وذلك ما دفع الشّيخ بوزيّان " ليتقمّص شخصيّة دينيّة "و " ينادي المؤمنين إلى فرض الجهاد المقدّس ."[2]وكانت الجماهير الجزائرية في تلك المرحلة ميّالة إلى تصديق الإشاعات التي كانت تروج، ولم تكن على كلّ حال وليدة سقوط ملوكيّة جويليّة بفرنسا (Monarchie de Juillet) بل قبل ذلك. ولكنّ القول بأنّ ذلك كان سببا في اندلاع انتفاضة الزّعاطشة، هو قول فيه كثير من عدم الصحّة، دون أن نقلّل من أهميّة المناخ السياسي الذي كان سائدا في فرنسا لدفع الجماهير في الزّيبان إلى الانضمام للثّورة.

في مقال ظهر سنة 1851 حول حصار الزّعاطشة، كتبه شارل بوشي بصفته مشاركا في الحصار ومهتم بالعلاقات التي كانت تجمع بين البدو والحضر في منطقة الزّاب، يقول فيه حسب رأيه إنّ الثّورة في البداية ،كانت من صنيع البدو الذين كانوا هم حرّضوا الحضر (سكان القرى) عليها:

1-A.O.M, F 80 497, Cercle de Biskra, rapport de la deuxième quinzaine de juillet 1849.

2-Ibid.

"ما أدّى إلى الثّورة هو بالضّبط تلك الحالة من الدّعة التي جلبت للزّابيين [1] نوعا من الحسد السّاخر من طرف الأعراب الرّحل الذين كان يزعجهم نظام ديمقراطي يكاد يكون مطلقا، فلم يتركوا أيّ فرصة ليؤاخذوا الحضر على قبول هيمنتنا عليهم. من ذلك انطلق انزعاج صامت اختار مسألة فرض الضّرائب كسلاح وحيد صار يملكه ضدّنا. وعندما جاءت دعوة بوزيّان للتشويش عن السكّان وجدت أرضا مهيّأة للانتشار. إنّ ذلك الهدوء – حتّى وإن كان السكّان ينعمون به تحت هيمنتنا – لم يكن بالنّسبة إليهم إلاّ عار يجب التّكفير عنه، فذهبوا يبحثون عن ذلك في الثّورة".. [2]

لكنّ الوقائع قد تكذّب مقال بوشي لأنّ البدو كانوا ساعة انطلاق الانتفاضة بالزّعاطشة كانوا في التل ؛ ولم يشاركوا لا من قريب ولا من بعيد في بداية الحوادث. فالانتفاضة كانت إذن، من عمل سكّان قرى الزّاب الظّهراوي من الحضر. ولم يلتحق البدو بمسرح الأحداث في الزّعاطشة إلا في أواخر شهر أكتوبر1849 . وكان شارل بوشي قد كتب مذكّراته سنة1851 ، في وقت كانت الأحداث المتعلّقة بثورة الزّعاطشة لا تزال مجهولة من طرف العامّة. وربّما لهذا السّبب تختلف تحاليل هذا الضّابط عن آراء غيره، خاصّة فيما تعلّق بأسباب انتفاضة الزّعاطشة وعمّا يمكن أن نستخلصه من الأحداث السياسيّة التي طرأت على الزّاب قبل وبعد سنة1849.

1-En parlant des Zabi, les sources françaises de l'époque faisaient allusion aux sédentaires

الزّابيون في المراجع الفرنسية للمرحلة تعني السكّان الحضر (سكان المدن دون البدو).

2-BOCHER (Charles), Le siège de Zaatcha, op cit, p 77.

أمّا رئيس المكتب العربي بباتنة، فقد انعكف كثيرا سنة 1849 على علاقات الكراهيّة والبغض السّائدة بين الفرنسيين وسكّان الزّاب من العرب بسبب "التعصّب"، فكتب في ذلك:

"إنّ سكّان الزّاب بفضل اطّلاعهم على عادانا وميولنا وبفضل علاقات التّجارة واستقلالهم التّام للتلّ سواء في مجال جلب الحبوب أو استغلال المراعي، يرغبون أكثر من أي وقت مضى في إبقاء السلم. لكنّ التعصّب (التطرّف الدّيني) الذي لا يحسب ولا يفكّر، لا يعرف إلا إحساسا واحدا وهو البغض .ولقد أثبتت لنا تجارب طويلة أن هذا الوتر المهتزّ لم ولن يتوقف يوما من قلوب الشّعب العربي"[1].

ليخلص إلى القول:

"بالعكس ..نعتقد أنّ رفع الضريبة عن النّخيل لم يكن إلاّ ذريعة للكشف عن النّوايا، لأنّ السبب الحقيقي للعنف هو هذا التعصّب الذي فرّقنا وسيفرّقنا طويلا إذا لن نتمكّن من الاستعانة برجال خاصّين نعلمهم من البداية اللغة ومصلحة البلاد، وخاصة إذا لم نوضع تشريعا يناسب عادات شعب متخلّف علينا كثيرا، ونعمل على إدماجهم أو على الأقل تقريبهم من مستوانا".[2]

لقد حاول هذا الضّابط باتّخاذ منطقة الزّاب مثالا، أنّ يحمّل " الإسلام "كلّ الأحقاد التي يحملها " الشّعب العربي "تجاه الفرنسيين. ولم يستطع هو ولا غيره الإقرار بأن سبب ذلك هو نتيجة السياسة الفرنسيّة المتبعة منذ 1830ضدّ السكّان الأصليين في الجزائر الذين عانوا من جرائم الجيش

1-A.O.M, 10 H 17, Historique politique du cercle de Batna par le capitaine Marmier.

2-Ibid.

الفرنسي، ومن مصادرة الأراضي وحرق قرى بأكملها، وأنّ ذلك يولّد أحقادا تؤدّي حتما، بعد الفينة والفينة إلى ثورات شعبيّة.

بقي أن نشير إلى أنّ بعض التحاليل الأخرى لفرنسيين، تقول إنّ أسباب ثورة الزّعاطشة بالذّات تكمن في تاريخ المنطقة الحافل بالأحداث منذ العهد التّركي، لأنّ بسكرة لم تخضع يوما لهيمنة الأتراك:

"إنّ مثل هذه التصرّفات المشينة من قبل سكّان الزّيبان لا ينبغي أن تفاجئنا، لأنّ الثّورات في الواحات كانت متواصلة أثناء العهد التركي، وطالما شكّل قمعها حرجا كبيرا لبايات قسنطينة. فلم يكونوا يسيطرون على بسكرة التي كانت في ثورة دائمة على ثكنتهم إلا باستعمال العنف كهدم البيوت وإجبار بعض السكّان على التجمّع وتشتيت العض الآخر عبر الواحات، وهو الحلّ الذي يجب أن نبدأ في التّفكير فيه إذا أردنا أن نبسط سلطتنا هنا"..[1]

صحيح أنّ سكّان الزّاب كانوا قد ثاروا مرّات عديدة ضد سلطة الأتراك، ولكنّ ذلك كان لأسباب مختلفة عن تلك التي حدثت سنة 1849 . في العهد التركي كان السكّان يخضعون لنفوذ عائلتين قوّيتين : آل بوعكّاز وآل ابن قانة .وكانت الاضطرابات تقع بوحي من إحدى العائلتين ولأسباب سيّاسيّة محضة [2] لكنّ نفوذ العائلتين تراجع كثيرا بعد1844 ، وأصبح السكّان يتعاملون مع سلطة جديدة (كافرة) غريبة عن تاريخهم وعاداتهم وخاصة مناقضة لعقيدتهم.

1-A.O.M, M R 1317, Boussaâda et son insurrection en 1849, par le lieutenant Lapière.

2.-Voir introduction et précisément le point concernant la situation politique des Ziban sous les Turcs.

انظر مقدمة الكتاب وخاصة النقطة المتعلقة بالحالة السياسية في الزيبان إبّان العهد التركي.

وزيّادة عن تحليل الجنرال هربيون الذي يصرّ على أنّ " التعصّب الدّيني "[1] هو السّبب الرئيسي في الانتفاضة دون أن يبرّئ سياسة التدخّل المباشر في شؤون العامّة من السكّان، المتّبعة منذ 1844 .

ففي رسالة موجّهة إلى الوالي العام بالجزائر مؤرّخة في 7 أكتوبر 1849 ، علّق الجنرال هربيون طويلا على هذه النّقطة :

" أعتقد أنني قلت لكم مرارا، إنّني تماديت - رغما عنّي - في تمديد الاحتلال نحو الجنوب والابتعاد عن الهدف الذي كنا قد حدّدناه بعد احتلال بسكرة . فعند استيلائنا على هذه النّقطة ارتأينا أن نضع أعيننا عن الزّاب، ثمّ احتواءه بوضع قوّة محدودة ومحصّنة (داخل حصن). ولكنّنا دخلنا بسرعة في الشّؤون الدّاخليّة لسكّان الواحات، وهكذا حطّمنا الكثير من امتيازات المرابطين الذين كانوا دوما يتمتّعون بنفود واسع في هذا البلد. وهكذا خلقنا مصاعب نحن اليوم في مواجهتها[2].

أمّا الرّقيب أوّل ريبس، فيعتقد أنّ أسبابا كثيرة، عامّة (التطرّف الدّيني، الشّرفاء، الزوايا (ومحليّة) رفع الضّرائب، تقليص سلطة شيخ العرب) هي

1-A.O.M, 2 H 25, Une lettre du général Herbillon au Gouverneur Général, Zaatcha, 25 janvier 1850.

2-O.M, 2 H 25, Une lettre du général Herbillon au Gouverneur Général, Zaatcha, 7 octobre 1849.

من حملت السكّان على التمرّد .[1]لكنّه يشدّد في تحليله عن أخطاء الرّائد سان جرمان ورفعه الفاحش للضّرائب[2]

وخارج كلّ الآراء، يسجّل الجانب التّاريخي أنّ الشيخ بوزيّان دعا إلى الجهاد لتفجير أولى بداية الانتفاضة فانضمّت الجماهير لقضيّته تدريجيّا ولا يمكن تفسير ذلك إلا برغبة هؤلاء في الحرب المقدّسة ضد الفرنسيين(الكفّار)، وفي نظر كلّ واحد المساهمة في الجهاد ضدّ الكفّار أكثر من الوقوف في وجه سلطة أجنبيّة .ولقد كان الجهاد بالنّسبة لكلّ القبائل بما في ذلك قبائل الأوراس هو الوسيلة الوحيدة التي تعيد إحياء روح المقاومة ضدّ الاحتلال الفرنسي. كما كان بالنّسبة لسكّان الزّعاطشة، لاسيّما أثناء الحصار، هو مصدر العزيمة على المقاومة إلى النّهاية والتّضحيّة بكلّ شيء في سبيل قضيتهم.

ولقد تزامنت دعوة الشّيخ بوزيّان وأنصاره مع تدهور الحالة الاقتصادية في الزّاب إثر رفع اللّزمة خلال سنة 1848 ، وتنصيب إدارة جديدة، وبالتّالي سياسة جديدة ذهبت في معظمها إلى المس بمصالح السكّان. فمن الواضح وبدون اعتماد ترتيب معيّن للأسباب أنّ الجانب الاقتصادي المتمثل أساسا في رفع الضّرائب كان ذا علاقة بالثّورة. ويضاف إلى ذلك كلّه، المناخ السياسي المتوتر الذي كان سائدا في كامل الجنوب القسنطيني منذ بداية 1848وعبّرت عنه أحداث كثيرة في الأوراس والحضنة، زيّادة عن الإشاعات

1-Voir le 3ème chapitre de la première partie au sujet de la relation du ckeikh al-Arabe avec l'insurrection de Zaatcha.

انظر الفصل الثالث من الباب الأول المخصص لعلاقة شيخ العرب بالانتفاضة.

2-A.M.G, 1 H 21, Histoire de la campagne de Zaatcha par le sergent-major Ribes, cahier 1, chapitre 2.

المبالغ فيها التي كان ينشرها البساكرة حول الأوضاع العامّة المتدهورة في فرنسا.

ويبدو لنا أنّ تلك الأحداث الاقتصادية والسياسيّة مجتمعة هي من ساهمت في إذكاء الغضب الشّعبي، ممّا جعل السكّان يتحمّسون لدعم ثورة الشّيخ بوزيّان، إضافة لشخصيّة هذا الأخير التي ساهمت في سرعة تطوّر الأحداث وتوسّعها.

الفصل الثاني

الطّابع الدّيني والسيّاسي لثورة الزّعاطشة من خلال شخصيّة الشّيخ بوزيّان

كما سبق وأن ذكرنا، فإنّ أحد أهمّ الأسباب التي دفعت إلى الانتفاضة، كانت رغبة السكّان في المشاركة في الجهاد المقدّس. ولم يتردّد معظم السكّان في رفع السّلاح لمواجهة السلطات الفرنسيّة أملا في تغيير الأوضاع الاجتماعيّة التي صاروا يعيشونها منذ1844 ممّا جعل الثورة تتلوّن بطابعين : طابع ديني (عقائدي) وطابع سياسي (عسكري).

وانطلاقا من مركزه كقائد مطلق (ديني، سياسي وعسكري) عن الثّورة، تحمّل الشّيخ بوزيّان شقّي الثّورة من خلال شخصيّته القويّة. ومن هنا نتفهّم الزّخم الذي اتّخذته الأحداث.

1-2 شخصية الشّيخ بوزيّان (الدّينيّة)

رغم أنّ بوزيّان لم يكن مرابطا ولا شيخ زاوية، فإنّه استطاع أمام أنصاره ومنذ حادثة رؤية النبي (ص) في المنام، أن يظهر أمام السكّان برجل الدّين المحترم المهاب. وعلى حسب نائب فرنسي(برلماني) ممّن عايشوا الحصار على الزّعاطشة " :أنّ بوزيّان لعب دور الشّخصيّة الدّينيّة "فربح بذلك " قدسيّة مستحقّة.[1]"

أمّا التّقارير الفرنسية الأولى لسنة 1849 ، فإنّ جلّها يقدّم بوزيّان على أساس شريف من الشّرفاء .[2]وكان كلّ الضبّاط الفرنسيين يقرّون له هذه الصفة في تقاريرهم. ولكن لا يوجد دليل على أن الشيخ قد ارتقى يوما إلى هذا الشّرف الصّوفي. ففي كلّ الرّسائل المحرّرة بالعربيّة من طرف الشّيخ نفسه أو من طرف أتباعه، لا توجد إشارات تصبّ في هذا المعنى، كما هو عليه الحال مثلا بالنّسبة " للشّريف بومعزة ."وكان بوزيّان يذيّل رسائله

1-BONAPARTE, (P.N), Un mois en Afrique, op cit, p 21.

2-A.O.M, 2 h 25, Cercle de Batna, rapport du 21 mai 1849.

بعبارة الشّيخ بوزيّان دون أي إشارة إلى لقب" شريف ."وربما كان يقصد بالمشيخة ذلك اللّقب الذي كان يشغله قبل 1844 بالزّعاطشة باسم سلطة الأمير عبد القادر.

إنّ المحاولة الفاشلة التي قام بها الملازم سيروكا يوم 18 ماي 1849 للقبض على الشّيخ بوزيّان، رفعت هذا الأخير إلى قمّة مسرح الأحداث، بحيث أصبح في أعين سكّان قريته رمزا لسلطة دينيّة قادرة على حمل لواء الجهاد المقدّس، حسب عبارة أحد أنصاره " إنّه المجاهد في سبيل الله! [1]"

وسرعان ما اعترفت كلّ الشّخصيّات الدينيّة والسيّاسية التي انخرطت في الجهاد بالشّيخ بوزيّان كقائد للمجاهدين على كامل الجنوب القسنطيني ووضعت نفسها تحت تصرّفه. وكان أوّل من انطوى تحت صفوفه شيخ الزّعاطشة ابن عمّه الحسن بن عزّزو مباشرة أثناء حادثة 18 ماي وساهم معه1849 في مواجهة الملازم سيروكا [2]بالقوّة التي ذكرناها. ومنذ تلك الحادثة (البطولية) لم يعد الحسن بن عزّوز إلى بسكرة وبقي ملازما أمينا لبوزيّان.

وممّن انضمّوا إلى حركة الشّيخ بوزيّان نذكر رؤوس زوايا شهيرة من بينهم شيخ زاوية أولاد جلال الشّهير سي المختار (الشيخ المختار). ولتأكيد دعمه وطاعته لبوزيّان مكث سي المختار مؤقّتا بالزّعاطشة بصفة مؤقّتة مثله مثل الشّريف مولاي الرشيد والشّيخ موسى الدّرقاوي، وكلّهم جاؤوا إلى الزّعاطشة لمبايعة الشّيخ بوزيّان ووضع أنفسهم تحت تصرّفه .كما انضمّ إلى

1-A.**O.M, 15 K** 25, Dossier intitulé "Documents trouvés à Zaatcha et **à la** djébira de Si Abdelhafid", carnet de 37 lettres, n° 1, traduction officielle d'une lettre arabe adressée par des partisans anonymes du cheikh Bouziane à ce dernier.

2-A.O.M, F 80 497, Cercle de Biskra, Rapport de la 2ème quinzaine du mois de mai 1849, par le chef du bureau arabe.

الحركة كلّ من المقدّم سي عبد الحفيظ (الخنقي) والشيخ الصّادق بن الحاج اللذين كان نشاطهما قبل ذلك منحصرا في الأوراس، وكان نفوذهما أوسع من نفوذ بوزيّان لكونهما على رأس زاويتين عظيمتين : ومع ذلك دعّما مباشرة قضيّة شيخ الزّعاطشة الأسبق.

طوال الثّورة في الزّعاطشة، لم يتوقّف الشّيخ بوزيّان عن استعمال مقامه الدّيني لإشاعة قدسيّة الجهاد والمقاومة المستميتة في نفوس أنصاره. وأثناء الحصار – كما كتب شارل بورزول (Charles Bourseul) تعرّض بوزيّان إلى امتحان صعب من طرف بعض الأنصار الذين كانوا يريدون أن يتأكّدوا من عزيمة قائدهم على المقاومة إلى النّهاية. وللردّ عليهم وقتل كلّ شكّ توجّه بوزيّان إلى ساحة القرية مخاطبا النّاس بشكل جعل كلّ الأمور تعود إلى نصابها:

"وهناك .. محفوفا بأشجع مقاتليه وهادئا ككلّ مسلم مستسلم للقضاء والقدر، خاطب الجمهور بكلمات مثيرة رفعت كلّ شكّ عن نواياه مبدّدة كلّ خوف..ثم رفع يده اليمنى كيمين يتعهّد فيه مع الموت ..وأخيرا ختم خطبته بكلمات رصينة، متأنيّة " : وعندما تحين ســـاعة الاستشهاد سنموت جميعا" [1].

لقد أبانت تلك الخطبة المؤثرة عن رجل يجمع بين القول والعمل وبين النيّة والفعل. إنّ الإيمان بالقضاء والقدر بالشّكل الذي تحدّده أركان الإيمان لدى المسلم الصّادق، كان السّلاح الذي راود الشّيخ طوال مدّة الحصار ، لكن

1-BOURSEUL (E.C), Souvenirs de la guerre d'Afrique, Insurrection des Ziban, Metz, imprimerie militaire de Véronais, 1851, p 30.

دون أن يغفل صعوبة الظّروف التي اعترضته، لأنّه كان يدرك أنّ قريته، في حالة الفشل، ستتعرّض في النّهاية، إلى انتقام فاحش من طرف أعدائه.

ورغم أنّنا لا نعرف مستوى الشّيخ بوزيّان العلمي والدّيني فإنّنا نلمس من خلال رسائله الخاصّة مرجعيته الأكيدة للدّين الإسلامي، ولكن هل كانت معارفه الدّينية (الفقهية) عميقة إلى درجة تمكّنه من التحليل العميق الذي يبرّر لجوءه للجهاد ؟ ففي إحدى رسائله إلى الشّيخ عبد الحفيظ، كتب بوزيّان:

.." أعني بذلك الشّيخ المنوّر السيد عبد الحفيظ حفظه الله وأكرمه وصانه ووفاه. وبعد، إن سألت عنّا فإنا نحمد الله ونشكره ولا يخصّنا إلا الاجتماع بك والملاقاة معك. وقد أتانا جوابكم وفهمنا ما فيه جزاكم الله عنّا كل خير"..[1]

وفي هذه الرسالة نفسها تعرّض الشّيخ بوزيّان إلى مسائل ذات أبعاد سياسيّة وعسكريّة ، وخاصّة فيما تعلّق بأماكن اللّقاءات، ضم القبائل للثّورة وغير ذلك. ولم يغفل الشّيخ بتمجيد أعمال أنصاره وحثّهم على مزيد من الكفاح المسلّح. ولا شك أنّ المرجعيّة الدّينيّة حاضرة بقوّة في مراسلات بوزيّان وهو ما كان يُغنيه عن الكلام الطويل في شرح قضيّته.

أمّا بالنّسبة للفرنسيين، فقد تغيّر موقفهم من الشيخ بوزيّان، لأنّهم لم يكونوا يؤمنون في البداية بقدرته على لعب" دور ديني "يمكّنه من تفجير ثورة شاملة .وكان البعض من الفرنسيين ينظر إلى " رؤيته للنبي "كخرافة "

1-A.O.M, 15 K 25, Dossier intitulé"Documents trouvés Zaatcha et dans la djébira de si Abdelhafid à Sériana "، Traduction officielle d'une lettre arabe adressée par le cheikh Bouziane au cheikh si Abdelhafid.

الرسالة بإنشاء وأسلوب الشيخ بوزيان.

مخالفة للمبادئ الإسلاميّة ."[1]وبعد الأبعاد الضّخمة التي اتّخذتها الانتفاضة فيما بعد، صنّف الفرنسيون الشّيخ بوزيّان في صورة الرجل" المتعصّب."[2]
ومها كان، فإنّ تلك القامة الدّينيّة التي اكتسبها بوزيّان وارتقى بها إلى مركز زعيم ثورة شعبيّة، هي من ساعدته على تجنيد السكّان وتهيئتهم للجهاد في سبيل الله.

2-2 صورة الزعيم السياسي والعسكري

زيّادة عن تقديمه كزعيم روحي توجّب على الشّيخ بوزيّان منذ البداية تأديّة وظيفة القائد السيّاسي والعسكري للحركة الاحتجاجيّة. فمنذ فشل توقيفه بالزّعاطشة في 18 ماي لم يعد أحد يشكّ في قدرة الشّيخ الأسبق (للأمير) على قيّادة الثّورة في الوقت المناسب ضدّ الفرنسيين.
لقد وصفه بعض الضبّاط الفرنسيين من البداية بالرّجل السياسي الطّموح . وكانت له الرّغبة – حسب رئيس المكتب العربي ببسكرة -في " الرقي إلى شيخ عن الزّعاطشة وتحمّل مسؤوليّات أكبر "ولذلك لم يجد وسيلة " لإرضاء طموحه، أمام سكّان سدّج، منفعلين بقدوم شرفاء، أكثر من الثّورة باسم النبيّ" .[3]
ولقد ذهب الملازم سيروكا في تحليله إلى أبعد من ذلك ولكن في الاتجاه نفسه الذي سلكه رئيس المكتب العربي ببسكرة في تلك الفترة، حيث كتب:

1-A.O.M, 2 H 25, Note additionnelle au rapport de la 2ème quinzaine du mois de mai 1849.

2-A.M.G, 1 H 131, Note du commandant Lavarande.

3-A.O.M, 2 H 25, Cercle de Biskra, note additionnelle au rapport de la 2ème quinzaine du mois de mai 1849.

"لم يكن بوزيّان شخصيّة دينيّة، ولكنّه أراد أن يستغلّ الظّرف السّانح ليصبح شيخا، ولذلك مارس علينا التّخويف ليعطي لنفسه أهميّة".[1]

لقد كان الشّيخ بوزيّان طموحا فعلا، ولكن ليس من أجل الارتقاء إلى منصب شيخ على الزّعاطشة ولا إلى أي منصب آخر، كما تريد تلك الادّعاءات الفرنسيّة، لأنّ رغبته كانت تكمن قبل كلّ شيء في خوض حرب تحرير مقدّسة ضد الفرنسيين. والحقيقة، أنّ النّص الذي حقّقه يوم 16 جويلية 1849ولّد لديه طموح سيّاسي صوب مدينة بسكرة. وسرعان ما غيّر من نبرة خطابه التي كانت مرنة إلى أسلوب صارم. ففي بداية مراسلاته مع قايد بسكرة وبعض ممثّلي الإدارة الفرنسيةّ، أظهر الشّيخ بعض الليونة فيما يخص بعض المشاكل[2]، ولكنّه غيّر من موقفه عندما أحسّ بأنّ الفرنسيين بدأوا يمارسون نوعا من القمع حتّى قبل الحملة على الزّعاطشة، ممّا جعله يوقف تلك الاتصالات، ولم يُقِمْ أيّ نوع من الاتّصال أثناء الحصار الرّهيب على الواحة".[3]

1-SEROKA, op cit, 505.

2-A.O.M, 15 K 25, Dossier intitulé "Document concernant insurrection du Zab dahraoui", traduction officielle d'une lettre arabe adressée par Bouziane au Caid Mohamed-Seghir Ben Ali Ben Guidoum Ben Gana.

3-Le sergent-major Ribes a écrit à propos de la première campagne de Zaatcha que "certaines sources affirment que le cheikh Bouziane, par l'intermédiaire du cheikh de Tolga" a demandé l'aman au colonel Carbuccia et que cela soit reconnu dans une lettre écrite par lui et le cheikh de Zaatcha. On ignore de quelles sources il parlait, mais ni les rapports de Carbuccia, ni les différentes sources de l'époque ne nous ont laissé trace de ce fameux contact entre les deux parties. Voir A.M.G, 1 H 211, Histoire de la campagne de Zaatcha, par le sergent-major Ribes, cahier 1, chapitre 4.

إنّ خلفيّة شغل بوزيّان لوظيفة شيخ (سابق) عن الزعاطشة قبل1844 ، جعلت السكّان يطمئنّون عن قدرته في تسيير الشؤون السيّاسيّة المرتبطة بحركته. وتدلّ الرّسائل التي كانت ترده عن توسّع سلطته و تنوّعها، لأنها لم تعد تقتصر على الجانب السياسي البحت. وعلى سبيل المثال، وردته رسالة من رجل يريده أن يتدخّل ليمكنّه من استرجاع ديونه[1]، وأخرى من شخص يتقزّز من تصرّف شيخ القرية وموقفه من الجهاد المقدّس .[2]وكذلك صار السكّان ينقلون إليه انشغالاتهم اليوميّة وتظلّماتهم التي كانوا يوجّهونها قبل ذلك إلى المكتب العربي ببسكرة، رغم أنّ الشّيخ بوزيّان لم يعتمد أيّ شكل من التّنظيم الإداري لتسيير حركته. وفي هذا الإطار يعترف الرّائد سان جرمان بأنّ للشيخ مبعوثين وممثلين في قرى كثيرة بالجنوب القسنطيني ولكنّه لم يجد ضرورة في تعيين خلفاء له أو شيوخ عن القرى أو القبائل (البدوية) المساندة له. ويبدو أنّ بعض الشيوخ الذين كانوا تحت إمرة الإدارة الفرنسية كانوا يساندون الشّيخ بوزيّان بطرق غير مباشرة، وهو ما تدلّ

كتب الرّقيب أول ريبس عن الحملة الأولى على الزعاطشة بأنّ " بعض المراجع تؤكد أنّ بوزيان طلب الأمان من العقيد كربوشية بواسطة شيخ طولقة، ومن خلال رسالة مشتركة كتبها الشيخ مع هذا الأخير ".ولكنّنا نجهل تماما هذه المراجع التي تحدّث عنها .ولا يوجد أثر في تقارير كربوشية نفسه ولا في مصادر المرحلة تذكر اتّصالات بين الطّرفين .انظر" A.M.G, 1 H 211: تاريخ الحملة على الزيبان، الرقيب أول ريبس، كراس1، فصل 4.

1-A.O.M, 15 K 25, Dossier intitulé "Documents trouvés à Zaatcha et à la djébira de Si Abdelhafid", carnet de 37 lettres, n°6, traduction officielle d'une lettre arabe adressée par un personnage anonyme au cheikh Bouziane.

2-A.O.M, 15 K 25, Dossier intitulé "Documents trouvés à Zaatcha et à la djébira de Si Abdelhafid ", carnet de 37 lettres, n°6, traduction officielle d'une lettre arabe adressée par Mohamed-Tayeb de Bignou au cheikh Bouziane.

عليه رسالة بعثها من طولقة المدعو محمّد بن ضيف الله إلى الشّيخ بوزيّان فيما يخص الحملة الثّانيّة على الزّعاطشة وتدلّ صراحة على التّحذيرات التي وجّهها محمّد بن الميهوب يدعو فيها إلى المقاومة:

.."ونخبركم أنّ رجلا جاءنا من الوطاية وقال لنا أن عسكر سطيف وباتنة وصلوا إلى بسكرة وأنّ الجنرال خرج من قسنطينة ليلتحق بهم.ونحن الآن نعمل لتحضير دفاعنا في مدينتنا من كلّ الجهات .ولقد كتب لنا ابن الميهوب رسالة وقال لنا بأن نستعد للدفاع ونكون حذرين لأنّ الكفّار سيأتون هذه المرّة بقوّات كبيرة.ومن بعد ذهب إلى بسكرة وقال لنا أنّه علم هذه الأخبار من غريب، وما طلبته مني سيفعله إن شاء الله تعالى "[1](الرسالة بأسلوب قريب من العاميّة.)

وكان العمل السيّاسي للشيخ بوزيّان يتّصف بالمحليّة خلافا لمن سبقوه من روّاد المقاومات الشّعبيّة التي قامت ضد الاحتلال الفرنسي. ذلك أنّ هؤلاء كانوا يقطعون آلاف الكيلومترات لنشر حركاتهم بينما اكتفى بوزيّان بالمجهودات التي كان يبذلها محليّا وخاصّة في قريته جالبا بذلك أنصارا له من جهات عدّة. إنّ الدّفاع عن الزّعاطشة كان يمثّل بالنسبة إليه أهميّة كبرى ليس لكونها قريته ولكن لأنّها أصبحت منذ 18 ماي 1849 هدفا رئيسا للإدارة الفرنسيّة بالزّاب، بل لقيّادة القطاع القسنطيني بأكمله.

1-A.O.M, 15 K 25, Dossier intitulé "Documents trouvés à Zaatcha et à la djébira de Si Abdelhafid", carnet de 37 lettres, n°8, traduction officielle d'une lettre arabe adressée par Mohamed Ben Daif Allah de Tolga au cheikh Bouziane.

إنّ تركيز الشّيخ بوزيّان وأنصاره على الزّعاطشة خلق لهم مشكلا كبيرا فيما يخص التّموين بالأغذيّة والمؤونة بصفة عامّة. ورغم أنّ السّلطات الفرنسيّة تصف الشّيخ بالثريّ (الغنيّ) فإنّ ذلك لم يكن كافيّا لإطعام المقاتلين الماكثين بالزّعاطشة بصفة مستمرّة والوافدين إليها يوميّا من كلّ الجهات.

ولمواجهة الوضع، اضطرّ الشّيخ بوزيّان إلى التماس مساعدات من بعض الأغنيّاء من مالكي الأغنام والنّخيل ومن ميسوري القرية. وفي كثير من الأحيان، كان يحدّد بنفسه نوع وكميّة الإعانات المرجوّة [1] كما كان يجد الكثير من المموّنين المتحمّسين لمساعدته. وفي ذلك كتب سي الجموعي بن يوسف " : وبعد دعوتكم لنا، أعطانا السيّد عبد الوال خمسة نعاج للمجاهدين في سبيل الله"[2] .

كما عبّر أحدهم عن التماس الشّيخ بقوله .. " : إن أراد المؤونة، ما عليه إلاّ أن يقدم إلينا ويأخذ كلّ ما يريد"..[3]

وبالمقابل، كان هناك بعض المتردّدين في دفع الإعانات، كما كتب أحد سكّان إحدى قرى الجنوب القسنطيني متأسّفا للشّيخ بوزيّان، بأن معظم رجال الطّريقة رفضوا تسليم كميّة الشّعير المفروضة عليهم من طرف الشّيخ[1] .

1 -A.O.M, 15 K 25, Dossier intitulé "Documents trouvés à Zaatcha et à la djébira de Si Abdelhafid", carnet de 37 lettres, n°28, traduction officielle d'une lettre arabe adressée par Sidi Eddif au Cheikh Bouziane

2-A .O.M, 15 K 25, Dossier intitulé "Documents trouvés à Zaatcha et à la djébira de Si Abdelhafid", carnet de 37 lettres, n°24, traduction officielle d'une lettre arabe adressée par Djémoui Ben Youcef au Cheikh Bouziane.

3 -A .O.M, 15 K 25, Dossier intitulé "Documents trouvés à Zaatcha et à la djébira de Si Abdelhafid", carnet de 37 lettres, n°31, traduction officielle d'une lettre arabe adressée par Mohamed Khoudja au cheikh Bouziane.

ولقد عمل الشّيخ بوزيّان بكلّ عناية لضمان تموين المقاتلين والضّيوف والزّائرين طوال المدّة اللازمة لبقائهم بالزعاطشة. ولم يتسنّ له ذلك إلا بالمساعدة الطّواعيّة للسكّان الميسورين من أهل قرى الزّاب على الخصوص.
وكان الشّيخ بوزيّان، قد انتهج خطّة حربيّة (إستراتيجية عسكريّة) تقوم على الدّفاع، لأنّه كان يقدّر حجم القوّات العسكريّة الفرنسيّة وأدرك أنّ الاحتماء وراء الجدران والنّخيل سيسمح لجنوده بالصّمود مدّة طويلة أمام الهجومات الفرنسيّة التي كان يتوقّعها عنيفة ومتتاليّة.
ورغم ضرورة الظّرف، فإنّ الشّيخ بوزيّان لم يصادر أسلحة الأشخاص الذين رفضوا الانضمام إليه، إلى درجة أنّ بعض المقرّبين من أنصاره انتقدوا طيبته وحلمه تجاه من كانوا يخالفونه في قضيّته.
وتؤكّد أقوال كثيرة لأنصار الشّيخ بوزيّان معبّرة عن تخوّفها وشعورها من أن بعض" أصدقائها "مقرّبون من الفرنسيين .[2]فأثناء حصار الزّعاطشة، لاحظ النقيب شارل بوشي، أنّ المدافعين عن القرية" يشطاطون غضبا "كلّما وجدوا أنفسهم في مواجهة جنود من" الأهالي" في الجيش الفرنسي، أي من الزواف (Zouaves) والصبايحية (السيبايس) الخيّالة العرب (Spahis) [3]

1-A .O.M, 15 K 25, Dossier intitulé "Documents trouvés à Zaatcha et à la djébira de Si Abdelhafid", carnet de 37 lettres, n°28, traduction officielle d'une lettre arabe adressée par Sidi Eddif au Cheikh Bouziane.

2-BOCHER, Le siège de Zaatcha, op cit, p 84.

3 -Il sagit des caid, leurs goums incorporés dans certains corps de l'armée française comme les Zouaves et les spahis. A part cela, le général Herbillon a constaté à plusieures reprises ; lors du siège de Zaatcha, l'absence de coopération de la population.Voir, A.O.M, 2 H 25, Lettre du généra Herbillon au Gouverneur Général, Zaatcha 18 octobre 1849

وكان الشّيخ بوزيّان يشاطر جنوده المشاعر نفسها، لكنّ أولويته كانت منصبّة على الفرنسيين بالدّرجة الأولى. وربّما رفض لذلك السّبب الردّ عن صاحب الرّسالة الأخيرة. ولم يستطع الفرنسيون إغراء ولا شخص واحد من السكّان للتعاون معهم، وفي ذلك كتب الجنرال هربيون إلى الحاكم العام بتاريخ 18 أكتوبر.. " : رغم كلّ مجهوداتي وعرضي للمال (الدراهم) لم أستطع أن أسخّر جاسوسا واحدا".[1]

وبعد أن صدّ الشّيخ بوزيّان بنجاح الهجوم الأول عن الزّعاطشة، وبتشجيع من أقرب أنصاره ولاسيّما الشّيخ المختار الجلاّلي، قرّر تغيير إستراتيجيته السياسيّة والعسكرية بمهاجمة مدينة بسكرة مقرّ الإدارة الفرنسيّة على الزّاب .[2]لأنّه أدرك أنّ استيلاءه على بسكرة سيجعل حركته أكثر قوّة وقادرة على تهديد الوجود الفرنسي بمنطقة الجنوب القسنطيني بكامله.[3]

لقد أراد الشّيخ بوزيّان من البداية أن يضمّ إلى قضيّته أنصارا له من الأوراس .ولذلك أخذ ينسّق استعداداته للجهاد منذ أوت 1849 مع أقطاب

يعني بهم القياد العرب ومعاونهم و"قومهم "وبعض المنخرطين في بعض الوحدات العسكرية الفرنسية مثل الزواف والسيبايس (الصبايحية) خارج ذلك لاحظ الجنرال هربيون خلال حصار الزّعاطشة غياب أي تعاون من طرف السكان. انظر .A A.O.M, 2 H 25 رسالة من الجنرال هربيون إلى الحاكم العام، 18 اكتوبر.1849.

1-A.O.M, 2 H 25, Lettre du général Herbillon au Gouverneur Général, Zaatcha 18 octobre 1849.

2 -BOCHER, Le siège de Zaatcha, op cit, p 84.

3 -A.O.M, F 80 497, Cercle de Biskra, rapport de la 1ère quinzaine du mois d'aout 1849.

الرّحمانيّة كما تدلّ على ذلك رسائله الموجّهة للشيخ عبد الحفيظ والشيخ الصّادق بن الحاج[1].

1 -Par exemple, nous citons cette lettre adressée au cheikh Sadek Belhadj : « Voila, nous avons reçu votre réponse et avons compris le sens, que Dieu vous récompense par son bien. Quant à nous, nous n'avons pas tenu la promesse de nous mettre en route samedi dernier. Nous attendons toujours la promesse des habitants de l'ouest et dès qu'ils nous répondront si Dieu le veut nous vous mettrons en route le samedi et aussitôt un courrier vous parviendra pour vous informer. Voilà, nous lèverons le camp et nous irons camper à Oued M'lili. Quand notre courrier vous parviendra, rassemblez vos hommes et venez avec détermination. Quand nous quitteront M'lili, nous irons camper à Oumach et nous nous rencontreront avec vous Biskra. Rendez-nous la réponse à propos du lieu de note rencontre prochaine. Apprenez nous cela avec empressement, et salut. » Voir : A.O.M, 15 K 25, Dossier intitulé "Documents trouvés à Zaatcha et à la djébira de Si Abdelhafid", traduction officielle d'une lettre arabe adressée par le cheikh Bouziane à Si Abdelhafid (annexes n° 2).

على سبيل المثال نذكر هذه الرسالة التي كتبها الشيخ بوزيان إلى الشيخ الصادق بن الحاج : "حفظك الله بمنه وكرمه مقام ذات المعظم المكرّم الأجلّ الرحيب الأقبل الزكي الأشمل إلى من أيده الله بالرضا والرضوان وختم لنا وله بالشهادة والغفران أعني بذلك السيد الصادق بن الحاج صانه الله آمين ووقاه الله من كل آفة ونصره .وبعد فقد أتانا جوابكم وفهمنا ما فيه، ولكن جزاكم الله عنا كل خير فقد ظهّرتم الدّين بعد غيبته وأننا خالفناكم في وعد السبت الماضي على الرحيل فرانا نرحلو في وعد الغرب وكيف انجملوا علينا بها إن شاء الله نرحلوا يوم السبت .وكيف نرحلوا ياتيكم الرقاص(البريد) من عندنا واعزموا ولا تتأخروا واستحفظوا على أرواكم وانصروا الدين ينصركم الله ....ولكن رانا نرحلو ونحطوا في واد مليلي وياتيكم الرقاص وأنتم اجملوا ناسكم واقدموا بالعزم والسلام عليكم من الشيخ بوزيان زيّن الله الجميع بجاه النبي الشّجيع وكافة المجاهدين مسلمين عليكم والسلام ...كتبها في الخميس ليلة الجمعة ستة وعشرين في الشهر ....ثم نرحلوا ونحطوا في أوماش وسنلتقي بكم في بسكرة .ارجعوا لنا الجواب بسرعة على مكان اللقاء القادم والسلام عليكم".

ويبدو أنّ أشخاصا من داخل بسكرة نفسها أبدوا استعدادهم لدعمه حالما يصل المدينة .[1] لكن، ورغم الدّعم الذي كان يلقاه من أنصار شتّى، فإنّ الشّيخ أجّل الحملة على بسكرة ثم عدل عنها نهائيّا لأسباب سيّاسيّة ولوجيستية (تتعلّق بالعدّة وعدد الجند)، وبذلك غيّر من استراتيجيّته السيّاسيّة والعسكريّة.

إنّ عدول الشّيخ بوزيّان عن مهاجمة بسكرة قلّص سياسيّا من وقع قضيّته، لكن دون أن يؤثّر في اهتمام أهل الزّاب الذي لم يتغيّر تجاه وجوب القيام بثورة .ولذلك أصبحت بوادر الانتفاضة تؤرق الجانب الفرنسي بقوّة، إلى درجة أنّ قمعها في نظر الجنرال هربيون صار " أمرا ذا أولويّة" خوفا من

1- Cet homme s'appelait Ali Ben Mayen. Il a écrit au cheikh Bouziane la lettre suivante : « Comment vous êtes avec les créatures ; je suis votre serviteur ; j'ai été prisonnier dans le silo pendant trois ans ; les Français m'ont dit que vous êtes l'ami de Bouziane et maintenant je suis libre. Si vous voulez venir apprenez-le-moi. En ce moment la casbah est vide de soldats ; dépêchez-vous ; s'il vous manque quelque chose, dites-le moi ; si vous venez apprenez-le moi et donne-moi des détails sur votre personne. » Voir : A.O.M**, 15 K 25,** Dossier intitulé "Documents trouvés à Zaatcha et à **la** djébira de Si Abdelhafid, carnet de 37 lettres, n°35.

هذا الرجل يدعى يدعى علي بن المعين (أو لمعيني) وقد كتب الرسالة التالية إلى الشيخ بوزيان : "كيف راكم (كيف أنتم) مع الخلائق ؟ أنا خديمكم (خادمكم) وكنت محبوسا في المطمورة لمدّة ثلاث سنوات . قال لي الفرنسيون أنت صديق بوزيان، والآن أنا حرّ. إذا أردتم القدوم فاخبروني. في هذه المدّة القصبة فارغة من العسكر ؛ اسرعوا . وإذ ينقصكم شيء قولوه لي (اخبروني عنه) وإذا كنتم قادمين اخبروني واعطوني تفاصيل عن شخصكم." انظر

A .O.M**, 15 K 25,"** Dossier intitulé "Documents trouvés à Zaatcha et à **la** djébira de Si Abdelhafid", carnet de 37 lettres, n°35.

عواقب اضطرابات سياسيّة قد تحدثها في كامل منطقة الجنوب القسمطيني.

3-2 الرّوح الوطنيّة

لقد أوجد سقوط آخر قلعة سياسية تركية بقسنطينة سنة 1837 فراغا سيّاسيّا في الزّاب رغم هيمنة بعض العائلات العريقة. وكان الأمير عبد القادر وهو أوّل من ملأ ذلك الفراغ من خلال خليفته بالمديّة محمّد البركاني الذي اقتحم المنطقة وفرض سلطته. ومنذ ذلك أصبح السكّان يتأثّرون بدعايات خلفاء الأمير الذين تعاقبوا على الزّاب، خلفاء تبنّوا خطابا حماسيا كان يعجب الأمير وقوامه" **محاربة الغزو الفرنسي من أجل الاستقلال الوطني** ."

فهل كان بوزيّان الذي انخرط مبكّرا في هذا الاتّجاه، وطنيّا متحمّسا أم مجرّد محارب في حرب مقدّسة ؟

فبعد الأحداث السيّاسية التي وقعت خلال سنة 1849 والتي دفعته إلى لعب الدّور الأهم في انتفاضة الزّعاطشة، بدأ الشيخ بوزيّان يعي أهميّة الكفاح الذي صار يرمز له. فهو لم يعد ذلك الرّجل العادي، كشخص من العامّة يشتغل بشؤونه بين النّاس ويحيا حياة هادئة ميسورة في قريته الصّحراوية. لقد أصبح فجأة حامل لواء حركة تجمع أناسا شتّى ومن آفاق مختلفة همّهم الوحيد محاربة الفرنسيين وطردهم ليعيشوا أحرارا في منطقتهم.

إنّ مشاعر الشّيخ الوطنية (على نطاق واسع) كانت رغم ذلك محدودة، لأنّه وإن كان بدون شكّ، يحلم بطرد الفرنسيين وتولّي تسيير شؤون السكّان بعد ذلك، فإنّه كان في نظرنا يدرك صعوبة المستقبل ولذلك كان طموحه يتوقّف عند حدّ ما في منطقته، لأنّ مناخ المرحلة وأوضاعها لا يسمحان له ببلوغ منزلة كتلك التي ارتقى إليها الأمير عبد القدر الذي اكتسب تكوينا دينيّا

وسياسيا حقيقيّا، منذ عهد أبيه واستفاد من رحلاته المشرقيّة ومن توسّع حركته. ومن المعلوم أنّ حركة الأمير كانت قد انطلقت في ظرف مغاير حيث كان الفرنسيون منحصرين في العاصمة وفي بعض النّقاط من المدن السّاحليّة .كما كان الأمير يملك فسحة من الوقت تمكنّه من الاستعداد لتحضير برامجه، بينما كان الشّيخ بوزيّان يفتقد إلى هذه المقوّمات لأنّه لم يتلقّ تكوينا قاعديّا معمّقا ولم يك يملك تجربة مسبقة، باستثناء مشاركته في نزاعات محليّة (مواجهة باي قسنطينة) أو شغله لمنصب شيخ عن الأمير على الزّعاطشة. وبالتّالي، فإنّ تجربته السياسية كانت محدودة جدّا. ولقد ثار الشّيخ بوزيّان في وقت كان الفرنسيون قد تمكّنوا من احتلال مناطق كثيرة من التّراب الجزائري. وبناء على هذه الحقائق، لم يكن الشّيخ بوزيّان إلا رجلا شهما مشبعا بالوطنية وعازما على الدّفاع عن أرض الوطن انطلاقا من منطقته[1].

لمّا وجد الشّيخ بوزيّان نفسه منذ ماي 1849 على رأس حركة ثائرة باسم الجهاد المقدّس أصبح محلّ اهتمام وأنظار طرفين متقابلين : الفرنسيين من جهة والسكّان من جهة أخرى. لقد أصبح يمثّل أمام أعين العامّة والخاصّة من أنصاره قامة رجل الدّين القويّ. فرغم عدم انتمائه إلى أصول مرابطيّة

1-Le chef de bataillon Bonaparte a donné l'exemple d'un défenseur de Zaatcha, qui avant de succomber à ses blessures a tenu à dire : "Roumis (chrétien) que vous avais-je fait pour me traiter ainsi ? Mon sang coule, mais je suis content de mourir pour ma patrie et ma religion." Voir, Bonaparte (P.N) op cit, p 51.

لقد أعطى رئيس فوج بونابارت مثالا حيّا عن ذلك بذكره لمدافع عن الزّعاطشة صرّح قبل موته متأثرا بجراحه : " أيّها الرومي النصراني، ما ذا فعلت لك حتى تعاملني هكذا ؟ إن دمي ينزف ولكنني فخور بأن أموت في سبيل وطني وفي سبيل ديني "!

مؤكّدة ورغم تواجده بين رجال دين أقوياء ونافذين من شيوخ زوايا، شرفاء ومُقَدَّمين، فإنّه كان هو من تقلّد رمز الجهاد. ولقد حاول أنّ يتبوأ المسؤولية بكلّ شرف وعزّة ليظهر كإمام وزعيم حرب في آن واحد، على أولئك الذين بايعوه على المنصب. ولقد عمل على أن تكون تصرّفاته ومعاملاته وكتاباته وخطبه مسبوغة بالطّابع الدّيني.

ولمّا وجد الشّيخ نفسه في خضم أحداث ثورة عارمة، تحمّل واجب مسؤوليتها السياسية والعسكريّة. ولقد تمكّن من تحقيق إنجازات كبيرة بفضل" ذكائه الحادّ "و" طابعه الحيوي "و" علاقاته الواسعة" . لقد استطاع بكلّ مهارة أن يسيّر الشؤون المرتبطة بحركته التي كانت صيرورتها متعلّقة به شخصيّا. لقد بيّنت أعماله بأنّه كان فعلا ذلك الرّجل الذي يجمع بين واجبات الجهاد والمشاعر الوطنيّة.

ولغاية أوت1849 ، استطاع الشّيخ بوزيّان أن يحافظ على روح المقاومة في منطقة الزّاب بفضل نشاطاته المكثّفة وقدراته الشّخصيّة، ممّا مكنّه في ذلك الوقت الصّعب من دعم مشاهير الطّريقة الرّحمانيّة في المنطقة بأكملها بما في ذلك منطقة الأوراس.

الفصل الثالث
تأييد ودور الطريقة الرّحمانيّة

إنّ معظم الهزّات والثّورات الشعبيّة التي قامت بالجزائر في وجه الاحتلال الفرنسي كانت مدعومة أو متّكئة على طريقة دينية (صوفيّة).

عام 1871، انتفض الباش آغا المقراني ضدّ سلطات الاحتلال وطلب من أحد أقطاب الرّحمانيّة الشّيخ الحدّاد أن يدعوّ إلى الجهاد ليدعم ثورته. وقبله، كان الأمير عبد القادر قد اتّكأ على معظم الطّرق الصوفيّة الوطنية ابتداء من الطريقة القادريّة التي ينتمي إليها .

وفي سنة 1849 ، استطاع الشّيخ بوزيّان في البداية، أن يفجّر انتفاضة مكتفيّا بسكّان قريته ودون دعم سياسي أو ديني أوّلي من أيّ جهة كانت.

وخلال أشهر طويلة، تطوّرت الانتفاضة في الزّاب ثم عمل الشيخ بوزيّان على توسيعها نحو الأوراس باعتماده على دعم أقطاب الرّحمانيّة في المنطقة. وبعد مدّة من الترقّب، أعلن شيوخ الطريقة دعمهم له مسخّرين كلّ ما يملكون من طاقات لإسعافه.

1-3 الرّحمانيّة والغزو الفرنسي للزّاب

لأسباب مرتبطة بتكريس الاحتلال، قام الفرنسيون منذ 1830 بمحاولات لمعرفة المجتمع الجزائري. ولقد اكتشفوا شيئا فشيئا أهميّة الطرق الصوفيّة وسلطاتها الرّوحيّة في التصدّي للغزو الفرنسي .

ففي سنة 1846 ، نشر دي نوفو رئيس المكتب العربي بباتنة أول كتاب عن الزّوايا معتمدا على إحصائيّات عن هذه المؤسّسات. وحسب تلك الدراسة، فقد كان عدد المنخرطين في فروع الرّحمانيّة بإقليم قسنطينة وحده

67139منخرطا من ضمن 1038962 نسمة، ممّا يدل - إن صحّت الأرقام - على هيمنة الطريقة على الإقليم.[1]

لقد تأسّست الرّحمانيّة على يد عبد الرحمن بوقبرين في نهاية القرن الثّامن عشر في زاوية آيت إسماعيل بجرجرة في منطقة القبائل. وفي حياته عيّن مؤسس الطريقة خلفاء له لنشر الطريقة في الشّرق الجزائري ومنهم : مصطفى باش طرزي الكرغلي .[2]ومنذ سنة 1793 سلّم الطريقة إلى أشهر مقدّميه وهو محمّد ابن بن عزّوز البرجي (نسبة إلى قرية البرج بالزّاب" الذي اشتهر بورعه وعلمه "وكلّفه بنشر الطّريقة بالجنوب.[3]

وبمساعدة أهمّ تلاميذه، وخاصّة الشّيخ المختار بن خليفة والشيخ عبد الحفيظ الخنقي والشّيخ الصّادق بن الحاج، استطاع الشيخ ابن عزّوز تأديّة مهامّه إلى غاية وفاته سنة1819 . وبوصيّة منه خلفه على رأس زاوية البرج الشّيخ علي بن اعمر [4]الطّولقي (نسبة إلى طولقة) إلى غاية وفاته سنة

1 -A.O.M, 16 H 2, Statistiques des ordres religieux établis en novembre 1851.

2 -La Rahmaniya se réclame de l'ordre de Khalloutya fondée en 1397 par le Persan Umar al-Khalouati.

تنتمي الرحمانية إلى الخلواتية التي أسسها عمر الخلواتي سنة 1397 .

3-El- moqadam est celui qui est mis en avant, il dépend du khalife de l'ordre et sa qualité de donner l'Ouarde, c'est à dire l'initiation de l'ordre sur une ou plusieurs régions. Voir Luis Rinn, Marabouts et Khouanes, Alger 1844, p 78

المقدم هو" الذي يأتي في المقدمة "وهو تحت سلطة رئيس الزاوية ويعمل على نشر الورد أي تعليم مبادئ الطريقة في منطقة أو في مناطق عديدة.

4 -Ali Ben Amar mourut en 1842 d'une balle au moment où il sortit de sa zawiyya pour régler un conflit armé entre les partisans de l'émir Abdelkader et ceux des Ben Gana.

علي بن اعمر استشهد سنة 1842 برصاصة طائشة عندما خرج من زاويته ليصلح بين أنصار الأمير عبد القادر وابن قانة في نزاع مسلّح.

1842، وهي السنة التي استرجع فيها أهل البرج رئاسة الرّحمانية في شخص سي مصطفى ابن عزّوز الذي كان يبدي عداء واضحا للفرنسيين وأوكلت إليه مهمّة نشر الرّحمانيّة في الجنوب.[1] لكن، سرعان ما هاجر هذا الأخير إلى نفطة (بتونس) سنة 1843 قبيل سقوط بسكرة في يد الفرنسيين، وترك المسؤوليّة الرّوحية لأحد تلاميذه الشّيخ علي بن عثمان الذي نقل مقرّ الزّاوية من البرج إلى طولقة أمام معارضة ثلاثة شيوخ له، وهم:

- الشيخ عبد الحفيظ الخنقي رئيس زاوية خنقة سيد ناجي المنفصلة منذ1819 عن زاوية البرج الأصليّة.
- الشّيخ الصّادق بن الحاج رئيس زاوية سيدي مصمودي(مصمودة) المستقلة منذ 1819 عن زاوية البرج الأصليّة.
- الشيخ المختار بن عبد الرحمن بن خليفة رئيس زاوية أولاد جلال المنفصلة منذ 1815 عن زاوية البرج الأصليّة.

وعلى خلاف فروع الرّحمانية في منطقة القبائل التي ظلّت متماسكة إلى غاية 1871بغضّ النّظر عن بعض الخلافات البسيطة، فإنّ زاويتي طولقة في الزيبان، والخنقة في الأوراس هما من سيطرتا عن الفرع بالجنوب. ولذلك السّبب كانت ردود الفعل تجاه الغزو الفرنسي أقلّ حدّة من تلك التي وقعت في بلاد القبائل حيث بقيّت القيّادة موحّدة.[2]

1 -Dans le Sahara de Constantine et en Tunisie. La Rahmaniya est connue aussi sous le nom d'Azzouzya, vraisemblablement inspiré de Mohamed Ben Azzouz.

2-En 1853, le chef Rahmani de la branche kabyle El-Hadj Amar quitta brusquement la zawiyya d'Ait-Smail et gagna la montagne pour préserver sa liberté et s'opposer solennellement à la conquete française de la Kabylie. Trois ans après, il fut l'auteur d'une insurrection qui touchait l'ensemble de la Kabylie du Djurdjura. Mais celà n'a pas

ومن ذلك نستخلص موقفين:

1 -زاوية طولقة التي كان لها نفوذ كبير في الزّيبان ووادي ريغ وسوف وأولاد نايل تعاملت بشكل من المهادنة مع السّلطات الفرنسية، فشيخها علي بن عثمان الذي ترأسّها مدّة 50 سنة إلى غاية وفاته سنة 1898. ركز في دوره على الجانب الدّيني والاجتماعي، وبذلك جنّب زاويته قمع الإدارة الفرنسيّة.[1]

2- زاوية نفطة التي أسّسها مصطفى بن بن عزّوز بعد هجرته من الزّيبان كانت مناوئة للغزو الفرنسي[2] لأنّ أسرة ابن عزّوز كانت قد انضمّت مبكّرا إلى

---

empeché les Français de conquérir l'ensemble de la région, l'année suivante. Voir la notice que lui a consacré le général Randon, A.M.G, MR 882, Notice sur le nommé Si al-hadj Amar.

سنة 1853 ترك الحاج عمر الرّحماني فجأة زاوية آيت اسماعيل ليلتحق بالجبل للإبقاء على حريته ومواجهة غزو الفرنسيين لمنطقة القبائل . بعد ثلاث سنوات أصبح يقود انتفاضة مست كل جرجرة بمناطق القبائل . ولكن ذلك لم يمنع الفرنسيين من احتلال المنطقة في السنة الموالية .انظر تعليمة خاصة للجنرال راندون عن المسمى سي الحاج عمر.

1-La France tenait souvent à détruire la zawiyya dont le chef avait mené une action ou un mouvement de révolte à leur encontre. A tire d'exemple, en 1859, la zawiyya de Sidi Masmoudi avait été détruite par le général Devaux après que Sadek Belhadj avait fomenté une insurrection dans la région. Pour connaitre l'insurrection de Sadek Belhadj en 1858 et 1859, voir A.O.M, 10 KK 30, L'insurrection de Sadek Belhadj en Aurès , 1858-1859.

لقد تعودت فرنسا على هدم كل زاوية يقود رئيسها حركة ثورية. على سبيل المثال، هدنت زاوية سيد مصمودي سنة 1858 من طرف الجنرال ديفو عندما قاد الشيخ الصادق بن الحاج ثورة في المنطقة.. لمعرفة ثورة الشيخ الصادق عد الى A.O.M, 10 KK 30

2 -Le duc d'Aumale affirme que les Ben Azzouz était plutot expulsés des Ziban par les Français. Voir : A.O.M, 1 H 6, une lettre du duc d'Aumale au maréchal Bugeaud, 13 juin 1844.

قضيّة الأمير عبد القادر، ووصل أحد أبنائها الحسن بن عزّوز إلى حدّ شغل منصب خليفة لهذا الأخير على الزّيبان قبل أن يقيله الأمير سنة 1840 إثر هزيمته في معركة سالسو .[1]وبعد سقوط بسكرة، ومن موقعه من نفطة واصل مصطفى بن بن عزّوز كفاحه بواسطة مراسلات وجّهها إلى شخصيّات نافذة في الزّاب، عبّر من خلالها على مضاعفة النّداء للجهاد المقدّس وتوخّي نصر قادم .[2]وعلى حسب هذه الرسالة المرسلة من محمّد بن عزوز البرجي (ويكون هو مصطفى بن عزّوز) إلى أحد أفراد أسرته نقرأ :

يؤكد الدّوق دومال أن عائلة ابن عزوز طردت من الزّاب من طرف الفرنسيين .انظر في هذا الشأن رسالة من الدّوق إلى الماريشال بيجو.A.O.M, 1 H 6

1 -Après sa défaite face au Ben Gana à Selsou en mars 1840 (Voir chapitre 1, partie 1) Hassan Ben Azzouz a perdu la confiance de l'émir Abdelkader qui le destitua quelques mois après. Se trouvant à M'sila en juillet 1841, il tomba dans un piège tendu par Ahmed Ben Mohamed El-Mokrani qui le livra aux autorités françaises. Détenu à l'ile Sainte-Marguerite, il se mettait à écrire des lettres de protestations adressées notamment au roi de France. Libéré au début de 1844, il mourut à Bône en 1947. Voir au sujet de son incarcération à l'ile St. Marguerite et ses correspondances diverses, l'article de X. Yakono, "Les premiers prisonniers algériens de l'ile Sainte-Marguerite"; 1841-1843, Revue d'histoire maghrébine, 1974.

بعد انهزامه أمام ابن قانة بسالسو في مارس 1840 (انظر الباب1 ، الفصل1) فقد الحسن ابن بن عزوز ثقة الأمير عبد القادر، فعزله بعد أشهر قليلة. ولما كان متواجدا بالمسيلة سنة1841 ، سقط في فخ نصبه له أحمد بن محمد المقراني وسلمه إلى السلطات الفرنسية التي أودعته السجن في جزيرة سانت مرغريت أين بدأ يوجه مراسلات احتجاج وجه بعضها إلى ملك فرنسا. أطلق سراحه سنة 1844 ليموت ببونة (عنابة) سنة1847 . انظر، مجلة التاريخ المغاربي1974 .

1- A.O.M, 16 H 10, Notice détaillée sur les Zawiyya, cheikhs et moqadems du cercle de Biskra, 27 mai 1895.

.

.."لقد جاءنا جوابك وفهمنا ما فيه ولقد أخبرتمونا أنكم ستأتون إلينا مع أبنائكم لأنكم لا تستطيعون أن تعيشوا في بلاد الكفّار. لكن، اعلموا أنّ كتيبة كبيرة من الكفّار خرجت من حدود تونس وأن باي تونس خرج لمقابلتها بجنوده وخيله. ولقد قتل الباي الكثير من الفرنسيس وهم الآن مطوّقون بإحكام. ولقد جاء الجنود الأتراك من طرابلس ومن تونس وسيمشون نحو الفرنسيين. إن حكومة فرنسا قد انتهت بينما بدأت حكومة الشّرفاء. أينما تكونوا اعطونا الأخبار الظّاهرة والباطنة، وبعد مدّة سنقدم إليكم بقوّات كبيرة بحول الل وقوّته. وإذا لم ينقصكم شيء عندنا بلغوا سلامنا إلى صاحبنا الغالي أحمد فريد. وهكذا قد وصلت ساعة الخير وانتهت ساعة الشرّ. ابعثوا لنا جوابا عندما يأتي إخواننا من قمار. ودائما ابعثوا لنا أخبار الكفّار، ولقد ظهر شريف في الغرب وسيمشي نحو تقرت ؛ سي مصطفى أخو الأمير عبد القادر موجود بالكاف ..قطّع (مزّق) هذه الرسالة بعد أن تقرأها.[1]

كلمات هذه الرّسالة تعكس الحالة النّفسيّة التي كانت سائدة في المرحلة وخاصّة لدى الذين ينظرون إلى وصول الفرنسيين بقلق وبأعين سيئة. إنّ

1 -A .O.M, 15 K 25, Dossier intitulé "Documents trouvés à Zaatcha et à la djébira de Si Abdelhafid à Sériana", traduction officielle d'une lettre arabe adressée par Mustafa Ben Azzouz El-Bordji à Mohamed Ben Essid (annexes n° 6). On ignore la date exacte où cette lettre a été écrite, mais d'après son contenu elle date de quelques années après la prise de Biskra en 1844, peut être datée de 1846 à 1847.

ملف معنون" وثائق هامة وجدت في الزعاطشة وفي جبيرة سي عبد الحفيظ بسريانة ." ترجمة رسمية لرسالة بالعربية كتبها مصطفى بن بن عزوز البرجي إلى محمد بن الصيد (انظر ملحق رقم6) لكننا نجهل تاريخ هذه الرسالة .وعلى حسب مضمونها تكون قد كتبت بعد الاستيلاء على بسكرة سنة 1844، فيحتمل أن يكون تاريخها 1846 أو1847 .

الكلام عن جيش تركي قادم وعن شرفاء منقذون خطاب يزيد من رفع التوتّر بين العامّة ويدفع إلى الثّورات الشّعبيّة.

وزيّادة عن الرّحمانيّة في المنطقة، كانت التيجانيّة موجودة في أقاليم الجنوب، لاسيّما في تقرت، تماسين وسوف. وتوجد الزّاوية الأم - بالنسبة للجنوب - في تماسين وهي إحدى فروع عين ماضي (قرب الأغواط). ويكثر زوّار هذه الطريقة وخاصة في مواسم معينة.

وكان لويس رين (Luis Rinn) من أوائل من كتبوا عن الطرقيّة في الجزائر .وفي كتابه الصّادر سنة 1888 يقول، ولكن دون أن يذكر المصادر أنّه وخلال بعثة الدّوق دومال سنة 1844 ، بأن بعضا من بدو صحراء قسنطينة (لم يوضّح من هم) استفتوا شيخ زاوية تماسين المدعو سي الحاج علي ليعرفوا رأيه في الموقف الذي يتّخذونه تجاه الفرنسيين، فقال لهم:

" إنّ القدر هو من أعطى الجزائر للفرنسيين ...ابقوا إذن في السّلم ولا تُسمعوا صوت البارود ..لقد حرركم الله من الذين لا يعرفون إلا العنف...

..."اتركوا الآخرين يفعلون ما يريدون لأنهم يبدو - وإن كانوا كفّارا – قد سلكوا طريق العدل والعقل الذي سيثمر بالخير للجميع .الحق يتبع الحق : وكلّ ما صدر عن الله يجب أن يُقبل" ..[1]

ليس بإمكاننا أن نصدّق أو نكذّب مثل هذه الادّعاءات. فقط، نقول : إنّ هؤلاء البدو– إن وجدوا فعلا -كانوا من أنصار شيخ العرب بوعزيز بن قانة وكان شخصا يمارس وظيفته باسم الفرنسيين وتحت إمرتهم وكان قد تنقّل بنفسه في البعثة. فكيف يمكن لزمرة من أتباعه أن تنتقل إلى تماسين للفتوى دون علمه؟

1- RINN (Luis), op cit, p 427.

وبالمقابل، فإنّنا نعرف بعض المواقف التي اتخذتها التيجانية في مواضع أخرى من القطر[1]، لاسيّما منذ1841 .

ورغم حدوث حراك ثوري في مناطق عديدة من الزّاب ما بين 1844 و 1848 شارك فيه إخوان المرابطين الرّحمانيين : محمّد الصغير بن أحمد بن الحاج سنة1844 ، الشيخ المختار بأولاد جلال سنة 1847 الخ...فإنّه كان انتظار انتفاضة الزّعاطشة لينخرط أقطاب الرّحمانيّة بقوّة إلى جانب بوزيّان ولاسيّما في الأوراس.

2-3 تسخير إخوان الطّريقة الرّحمانيّة : دور سي عبد الحفيظ الخنقي

في وقت كانت فيه الانتفاضات الشّعبيّة تتتابع في الجزائر، لم تعرف سلطات الاحتلال الفرنسي الأسباب التي جعلت السكّان يتحوّلون فجأة من حالة السلم والهدوء إلى حالة حرب معلنة. البعض أرجع ذلك التحوّل إلى "التعصّب الدّيني "[2]بما أرجعه البعض الآخر إلى أسباب أخرى، ومنهم لويس رين الذي قال: " لو نتفحّص الأشياء بهدوء (ببرودة) نستنتج أنّ الأسباب الأولى تعود إلى المجال السياسي والمشاعر الإنسانيّة : مصلحة أو نِدِيّة أو انتقام أو غضب"..[3]

ولكنّ المحلّلين، عادة ما ينسون أنّ السكّان قبل أن يخوضوا في طريق الكفاح المسلّح، يولون اهتماما خاصّا لمراكز رؤسائهم وشيوخ زواياهم، وخاصّة في الأوراس، على خلاف الزّاب أين كان مرابطو الرّحمانيّة يتمتّعون بسلطة

1 -AZAN (Paul), L'émir Abdelkader, Du fanatisme musulman au patriotisme français 1808-1881, Paris, Hachette, 1925, pp 181-182.

2 -TURIN (Yvonne), Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, Alger, Entreprise Nationale du Livre 1971, p 136.

3 -RINN (Luis), Marabouts et Khouans, op cit, p 110.

روحيّة ومعنويّة كبيرة لكن دون سلطة سيّاسيّة بسبب وجود عائلات إقطاعيّة كعائلتي ابن قانة وبوعكّاز. لقد كان سكّان الأوراس قد عرفوا منذ العهد التّركي نوعا من الاستقلاليّة، إذ كان لهم" شكل من الحكومة المستقلّة " لا يخضع إخوان الرّحمانيّة إلا لها .[1] فإذا كان الفراغ السياسي الذي تركه سقوط الحكم التركي في العاصمة وفي قسنطينة، قد شغلته العائلات الاقطاعيّة، فإنّ ذلك لم يحدث في الأوراس لأنّ ذلك الفراغ لم يؤثّر على " النّظام المرابطي الذي استمر في العمل كما كان في السّابق ."[2]فكان يكفي لرئيس زاوية أن يرفع راية الثّورة ليتبعه معظـم السكّان، وهو ما حدث سنة1849 .

لقد كان الشيخ سي عبد الحفيظ الخنقي نسبة إلى قرية الخنقة إحدى صغار القرى الجبلية الواقعة في السّفح الجنوبي لجبل أوراس. وكان الشّيخ ذا نفوذ واسع على قبائل أحمر خدّو والزّاب الشّرقي، ووهو من تلاميذ ابن عزوز البرجي كان هو من عيّنه مقدّما، فكان بذلك من روّاد نشر الطريقة الرّحمانية في الجنوب وخاصّة في الأوراس. وابتداء من سنة 1819 ، أعلن استقلاليته عن الزّاوية الأمّ وعن زاوية طولقة، رافضا كلّ وصاية عن زاوية الخنقة[3].

أثناء غزو الأوراس سنة 1845 ورغم مشاركة أقطاب الرحمانيّة بقوّة في المقاومة، فإنّنا لا نعرف بوضوح موقف الشّيخ سي عبد الحفيظ. وعند

1 -NADIR (Ahmed), "Les ordres religieux et la conquete française 1830-1851", Revue algérienne des sciences juridiques, politiques et sociales, vol. IX, n° 04, décembre 1972, p 825.

2- Ibid.

3- A.O.M, 16 H 73, Rapport S.I.N.A, 1955.

اندلاع الأحداث في الزّعاطشة سنة 1849 ، حاول الشّيخ بوزيّان عدّة مرّات استقطاب الشيخ عبد الحفيظ وجرّه إلى دعم قضيته خاصّة بعد حادثة 16 جويلية[1] ، لكنّ هذا الأخير تباطأ نوعا ما في إبداء ردّ فعل، ممّا غلّط سلطات الاحتلال. ففي تقرير مؤرّخ في 24 أوت 1849 صادر عن رئيس المكتب العربي بباتنة النّقيب مارمييه (Capitaine Marmier) يتحدّث بصفة خاصة عن الأهميّة التي توليها السّلطات الفرنسيّة للشيخ سي عبد الحفيظ تذهب إلى حدّ الطّمع في تدجينه (وهو ما ستدحره فيما بعد مواقف وعمل الشّيخ) :

"إنّ السّيرة التي يتّبعها سي عبد الحفيظ لحدّ الآن تدعوني إلى تجديد الطّلب :فهو لم يردّ على دعوات بوزيّان فحسب، بل لم يزل يدعو إلى السّلم وإلى الرّضوخ لطاعتنا. لقد ردّ على المبعوثين الذين أرسلهم إليه بأنّه من الجنون مواجهة الفرنسيين وأنّ الذين يدعون إلى الثّورة لا يجنون إلا مصائب الحرب لإخوانهم"..[2]

يبدو واضحا أنّ صاحب هذا التّقرير يطمع (يائسا) في تسخير نفوذ سي عبد الحفيظ ضدّ الشّيخ بوزيّان:

"يجب ألاّ نتهاون في أي شيء لإبقائه على هذا الاستعداد، قد يكون لنا، خاصّة في هذه الظّروف، مساعدا جيّدا"..[3]

1 -Le cheikh Si Abdelhafid faisait à l'époque, des interventions pour régler des conflits internes entre tribus. Avant de les faire, il demandait des autorisations auprès des Français.

كان الشيخ عبد الحفيظ قبل الأحداث يقوم بالمصالحة الداخلية بين القبائل المتخاصمة. وكان قبل أن يفعل يطلب الإذن من الفرنسيين (مما كانوايعتبرونه طاعة له).

2 -A.O.M, 10 KK 30, n° 121, Rapport du capitaine Marmier, Batna, 21 aout 1849.

3 -Ibid.

وقبل أن يخرج الشّيخ سي عبد الحفيظ عن حيّاده، كان الكثير من إخوان الرّحمانيّة قد انضمّوا إلى معسكر الشّيخ بوزيّان، بينما بقي البعض الآخر متذبذبا بسبب بعض المواقف التي اتّخذتها بعض الزّوايا، لاسيّما الزّاوية الأمّ بطولقة.

أمّا إخوان زاوية خنقة سيدي ناجي، فقد ثابروا على تبليغ شيخهم بالموقف الذي اتّخذوه لصالح الانضمام لصفوف الشّيخ عبد الحفيظ:

"لقد ذهبنا إلى الشّيخ بوزيّان في مجموعة كبيرة (كتب أحد إخوان زاوية الخنقة إلى الشّيخ عبد الحفيظ). لقد جاءه الشّيخ سيدي المختار مصحوبا بناس كثيرين من سيدي خالد وأولاد نايل ..كنّا في الزّعاطشة، وكان كلّ النّاس يلتحقون ليلا ونهارا ..يعني سكّان الغرب كانوا يأتون من كلّ الجوانب"[1].

أمام ضغط الظّرف وتحس إخوانه وتشجيع الرسائل التي كانت ترده من الشّيخ بوزيّان، قرّر الشّيخ سي عبد الحفيظ الانضمام إلى معسكر الشّيخ بوزيّان في أواخر أوت 1849 .

"ولقد كان لكلمته وقع هائل في الأوراس والزّيبان (كتب العقيد خربوشية في 12سبتمبر)، حيث توافدت عليه الإخوان [2]من كلّ صوب، من الجبل ومن الواحات، ليلتفّوا حوله ثم ينتشرون لبث روح الثّورة".[1]

1 -A.O.M, 15 K 25, Dossier intitulé "Documents trouvés à Zaatcha et à la djébira de Si Abdelhafid à Sériana", traduction officielle d'une lettre arabe adressée par les Ouled-Djellal au cheikh Si Abdelhafid.

2 -Frères affiliés.

إخوان : منخرطون في الطريقة،(مريدون)

ولندائه، انضمّت إليه بسرعة وفود أولاد داود، أولاد عبدي، بنو بني سليمان، وكلّ قبائل أحمر خدّو، وباختصار كلّ قبائل السّفح الجنوبي لأوراس.

ولقد عوّل سي عبد الحفيظ كثيرا عن دعم شيخ آخر من الأوراس وهو الشّيخ الصّادق بن الحاج من أولاد أيّوب المقيم بسيدي مصمودي في أعالى السّفح الجنوبي لجبل أوراس. وكان قد حفظ القرآن الكريم في قريته قبل أن يلتحق بزاويّة البرج التي عاد منها بلقب مقدّم مقرّب من شيخها. وسرعان ما أسّس زاوية مصمودة وتفرّغ إلى تعليم القرآن الكريم والتكفّل بالشؤون الاجتماعيّة. ولقد اشتهر الشيخ الصّادق منذ نعومة أظافره بكره الفرنسيين، فدعّم قضيّة الأمير عبد القادر قبل أن ينضمّ مع الشّيخ سي عبد الحفيظ إلى ثورة بوزيّان.

وفي رسالة وجّهها له الشّيخ سي عبد الحفيظ يحثّه فيها على دفع أنصاره إلى المشاركة في الجهاد المقدّس إلى جانب الشّيخ بوزيّان، نقرأ ما يلي:

.."ويجب أن تجبر المؤمنين على خوض الجهاد المقدّس، وإذا تقدر تأتي إلينا للتشاور. قل لأولاد بلقاسم وأولاد محاد الصّغير أن يدفعوا النّاس إلى الجهاد بدون تأخّر"..[2]

في البداية، فضّل الشّيخ عبد الحفيظ البقاء في الجبال خاصّة في السّفوح الجنوبيّة لأوراس لمراقبة تطوّرات الأحداث محفوفا بأنصاره من سكّان

1 -A.O.M, 1 H 6, Lettre du colonel Carbuccia au directeur des affaires indigènes de Constantine, Batna, 12 septembre 1849.

2 -A .O.M, 15 K 25, Dossier intitulé "Documents trouvés à Zaatcha **et à la** djébira de Si Abdelhafid à Sériana ", carnet de 37 lettres, n°21, traduction officielle d'une lettre arabe adressée par Sidi Abdelhafid au Cheikh Sadek Belhadj.

الأعالي، بينما ظلّ أنصاره من سكّان السّهول ينتظرونه بشغف للانضمام إليه، وهي الحالة التي كانت عليها قبيلة أولاد اعمر التي وجّهت له رسالة تعده فيها بالالتحاق به فور نزوله إلى السّهل.

وخلال شهر سبتمبر1849 ، استطاع الشّيخ سي عبد الحفيظ أن يجمع حوله عددا كافيّا من المحاربين لينزل من المرتفعات إلى السّهل ويحط بقرية مشونش غير بعيد من بسكرة عاصمة الزّيبان قاطبة، والتي أصبحت هدفا له. ومن موقعه، كتب إلى قرينه الشّيخ الصّادق بن الحاج يطلب منه الالتحاق به [1] (نكتب ما استطعنا قراءته منها):

"الحمد لله وحده وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله

إلى الولي الصالح والقطب الواضح واللسان الفاصح سيدي عبد الخفيظ حفظه الله ونصره آمين ..من خدّامك أولاد اعمر كافّة وجملة .. وبعد سيدنا سمعنا بك عزمت على الجهاد واشتقنا إليك كثيرا وأردنا أن نقدم لك ولكن سمعنا أنّك في الجبل ونحن أهل صحراء ولن نقدر على الجبل...

وهانا نستهيوا (نهيّؤ) في أمر الزّاد .. وإذا كنت أبينا وسيدنا ونحن خدّامك حين تقدم إلى بصكرة (بسكرة) تخبرنا أمّا نقدم إلى بصكرة (بسكرة) أو في الطريق .. ونحن في هذه السّاعة نعمروا في البلاد وننتظروا في اليوم الذي ترحل فيه من الجبل لتلقى بزيان (بوزيّان) ونحن خدّامكم وأولادكم...

وخرج بعض النّاس ليلحقوا بك عددهم خمسين أو أكثر. (يبدو أنّه وقع بينهم خلاف في كيفية الاتصال بالشيخ لم أتبين قراءته. في الترجمة

1 -A.O.M, 15 K 25, Dossier intitulé" Documents trouvés à Zaatcha et à la Djébira de Si Abelhafid à Sériana", traduction d'une lettre arabe adressée par les Ouled Amor au cheikh Si Abdelhafid.

الفرنسية، نقرأ : بقي الناس محتارين ووقع اضطراب بينهم فقرروا انتظار نزول الشّيخ).. وقرروا انتظار قدوم الشيخ من الجبل ليخبروه ..والسّلام..

خلال شهر سبتمبر 1849 تمكّن الشّيخ سي عبد الحفيظ من جمع عدد كاف من المجاهدين فنزل من الجبل وحطّ رحاله بمشونش غير بعيد عن بسكرة التي أصبحت هي هدفه الرئيسي. ومن المكان عينه، أرسل رسالة إلى رفيقه الشّيخ الصّادق بن الحاج ليلتحق به، ومنها:

.."اعلم اليوم أنني نزلت بمشونش. اخبرني عن أحوال المؤمنين وهل هم مستعدين للقدوم إلينا في هذا الليلة وسنلتقي إن شاء الله بالحابل، وإلاّ سنضطرّ للبقاء يومين في مشونش لكي يتمكّن النّاس(المحاربين) من القيّام بأعمالهم ثم نرحل بعد ذلك. على كلّ حال سنبقى غدا في مشونش ليقوم الناس بحوائجهم وبعد غد إن شاء الله سنلتقي في مشونش في الموقع الذي نحدّده (نتفق عليه)..

يقال إنّ بوزيّان ماكث في واد مليلي، ويبدو هذا صحيح والله أعلم ..على كلّ حال غدا إن شاء الله أنتم ومن معكم حطّوا بجانبنا ثم نتشاور مع بعضنا[1]"..

نستخلص من هذه المراسلة، أنّ الشّيخ سي عبد الحفيظ كان ينتظر إعانة متوقّعة من الشّيخ بوزيّان للهجوم على بسكرة، لكنّ ذلك لم يحدث لأنّ الشّيخ بوزيّان لم يتمكّن من الانضمام إلى مشروع مهاجمة بسكرة. غير أنّ

1 -A.O.M, 15 K 25, Dossier intitulé" Documents trouvés à Zaatcha et à la Djébira de Si Abelhafid à Sériana", traduction d'une lettre arabe adressée par Si Abdelhafid au cheikh Sadek Belhadj.

غيّاب هذا الأخير، لم يثبّط من عزيمة الشّيخ سي عبد الحفيظ الذي سرعان ما التحم مع الفرنسيين في معركة حاسمة : معركة سريانة.

3-3مباشرة العمل العسكري : معركة سريانة

كان الموقف التي اتّخذه الشّيخ سي عبد الحفيظ قدّ عقّد أكثر مهمّة قائد إقليم بسكرة الذي كان في نزاع مستمرّ مع واحات الزّاب الظهراوي. فمنذ الوهلة الأولى من اندلاع حركة سي عبد الحفيظ، سارع العقيد كربوشية إلى إرسال فرقة من القنّاصة (Chasseurs) وفرقة من 300 رجل من اللفيف الأجنبي (Légion étrangère). وفي الوقت نفسه أصدر تعليمات للقائد أحمد بن شنّوف ليتوجّه إلى سيدي عقبة لمراقبة تحرّكات مقدّم الخنقة[1].

وفي يوم 17 سبتمبر1849 ، عسكر الشّيخ سي عبد الحفيظ في سريانة، قرية من ثمانيّة منازل على بعد خمسة فراسخ شرق بسكرة وعلى ضفّة وادي بيراز .ومن هذه القرية، نوى الشّيخ أن يشعل انتفاضة في كامل قرى الزّاب الشّرقي ولاسيّما سيدي عقبة ليشنّ هجوما شاملا على بسكرة.[2]

وفور اطلاعه على الوضع، أرسل القايد أحمد بن شنّوف مبعوثا لإبلاغ العقيد سان جرمان بحركة سي عبد الحفيظ. وبدون انتظار، أعطى قائد إقليم بسكرة الأوامر للتوجّه إلى سريانة رفقة 150 رجلا من المشاة، 70 من القنّاصة، 55 صبايحي (سيبايس) و 200 فارس من" القوم ."كما أمر بأن

1-A.O.M, 1 H 6, (1) Compte-rendu des événements politiques et des opérations miliaires depuis le mois d'avril 1849, Alger 22 septembre 1849.

2 -A.M.G, MR 1844, Rapport du capitaine Sourville sur la bataille de Sériana, Biskra, 21 septembre 1849.

تلتحق به فرقة من 150 جندي من المشاة، كانوا موجودين بثكنة القصبة القديمة لغرض حماية بسكرة في حالة هجوم مباغت.[1]

وفي طريقه نحو سريانة، التقى الرّائد سان جرمان بالقايد ابن شنّوف الذي نصحه بمهاجمة قوّات سي عبد الحفيظ لقطع السبل أمام وصولها إلى قرى أخرى في المنطقة. وكان ذلك هو القرار الذي اتّخذه سان جرمان[2].

ولما وصل إلى تهودة على مشرف سريانة ليلة 17 سبتمبر1849 ، لاحظ الرّائد سان جرمان أنّ سي عبد الحفيظ.. " تجاهل دخول قرية سريانة، وأنّ معظم جنده كان على الضفّة الشّمالية لوادي بيراز ، وأنّ فرسانه الذين كانوا في أقصى ميمنة الجند، انتشروا ما بين سريانة والجبل ". وبناء على ذلك اعتمد سان جرمان خطّة تهدف إلى مهاجمة مشاة سي عبد الحفيظ بواسطة الخيّالة من جهة اليمين، بينما ينقضّ" القوم "على مؤّخرة فرسان شيخ الخنقة .[3]وفي ذلك كتب شارل فيرو:

.."وبينما اندفع الرّائد على ميمنة العرب في وادي بيراز، هاجم المشاة الوادي أيضا وحرابهم بأيديهم وتوجّهوا نحو مرتفع عليه راية كبيرة تستعمل لجلب وتوجيه 400 أو 500 من مشاة العدو. وبتطويقهم لمجرى الوادي وجد مشاتنا أنفسهم وسط معسكر عبد الحفيظ الذي كان من فرط المفاجأة، لا تزال خيامه منصوبة وخيله وبغاله مربوطة. وهكذا وجد فرساننا الفرصة للمرور وبدأوا في ضرب مشاة العدوّ الذين تخلّى عنهم فرسانهم "..[4]

1 -SEROKA, op cit, p 509.

2 -A.M.G, MR 1844, Rapport du capitaine Sourville sur la bataille de Sériana, Biskra, 21 septembre 1849.

3 -FERAUD, Le Sahara de Constantine, op cit, p 403.

4- FERAUD, Le Sahara de Constantine, op cit, p 403.

لقد فعل عنصرا المفاجأة وسرعة التّنفيذ، زيّادة عن دعم المدفعيّة، فعلتهما في حسم المعركة، ممّا أرغم جند سي عبد الحفيظ على التقهقر تاركين حوالي 100 قتيل (200حسب الرّائد توماس و 289 حسب شارل فيرو. [1]) ورغم الانتصار، فإنّ الفرنسيين دفعوا ثمنا باهضا لتحقيقه حيث خسروا في المعركة 5 ضبّاط من بينهم الرّائد سان جرمان الذي أصيب برصاصتين في الرّأس فقتل في بداية المعركة. ولقد شكّلت حادثة قتله انطباعا حسنا في الجنوب القسنطيني عامّة وفي الزّعاطشة خاصّة[2].

أمّا الشّيخ سي عبد الحفيظ، فقد نجا بأعجوبة من الموت، ذلك وأنّه – حسب رسالة وجّهها أحد أنصاره إلى الشّيخ بوزيان -يكون الشّيخ قد رفض مغادرة ساحة المعركة وترك أنصاره :

.."وأخبركم أنّ سي عبد الحفيظ ترك الآن المجاهدين الذين كانوا معه. ولم يتركهم إلاّ بعد أن قُتِلَ الرّائد (سان جرمان) وأربعة من النّقباء (Capitaines) ، وكانت للشّيخ بندقيّة كارابين (carabine) يطلق منها النّار .. ولقد لزم أربعة أو خمسة رجال لحمله على امتطاء بغل، وكان يقول إنّه لن يترك هذا المكان (ساحة المعركة). أمّا ابنه فقد ذهب إلى النّمامشة وإلى أولئك الذين هم من جانبه. وسيعود سي عبد الحفيظ بعد يومين" [3]

1 - Ibid.

2 -A.M.G, MR 1844, Rappot du capitane Souville sur la bataille de Sériana, Biskra, 21 septembre 1849.

3 -A.O.M, 15 K 25, Dossier intitulé « Documents trouvés à Zaatcha et à la Djébira de Si Abelhafid à Sériana », carnet de 37 lettres, n° 26 traduction d'une lettre arabe adressée par Mohamed Bourekhis au cheikh Bouziane.

وزيّادة على الرّسالة المذكورة، فلقد علم الشّيخ بوزيّان من مصادر أخرى ما وقع بسريانة. ورغم الهزيمة، فقط طلب منه أحد إخوان الرّحمانيّة أن يأتي إلى مشونش لاستئناف الزّحف (مواصلة القتال). وممّا جاء في هذه الرسالة :

" نحن بالقرب من مشونش ننتظر وعد الله ووعدك. أولاد زيّان على استعداد وعددهم 600 وكذلك أبناء فرح وعددهم800 ، وكلّ سكان الجبل يرجون الله وينتظرونك. اسرع، اسرع إلينا ..لقد حارب المؤمنون لكنّ الكفّار كانوا مستعدّين وكان الفوز من جانبهم. لقد تخلى عنّا بنو بني سليمان وهربوا. عدد الكفّار الآن 300 فارس و 400مشاة منهم 200 أتى بهم بولخراص من باتنة و 200كانوا موجودين من قبل في بسكرة. إذا تأتي كل المسلمين يكونون معك"..[1]

لقد وقع ما وقع وحسمت المعركة لصالح الفرسيين وترتّب عن ذلك تفكّك حركة سي عبد لحفيظ وعودة معظم مجاهديه إلى قبائلهم. ولقد سجّل العقيد كربوشية نوعا من الارتياح، لأنّ انتفاضة الشّيخ سي عبد الحفيظ "كادت أن تجرف كامل الزّاب الشّرقي لاضطرابات، وها هو يجنح" لإبداء الطّاعة "..ويضيف كربوشية بأن شيوخ الزّاب القبلي الذين كانوا على الحيّاد " يأتون اليوم ليقسموا لنا عن وفائهم "[2]

ومن جهته عبّر الجنرال هربيون عن" فعل نفسي "أحدثته واقعة سريانة، بدأ يشعر به.[3]

A.O.M, 15 K 25, Ibid.

2 -A.M.G, MR 1844, Rappot du capitane Souville sur la bataille de Sériana, Biskra, 21 septembre 1849.

3 -A.O.M, Lettre du général Herbillon au Gouverneur Général, Constantine, 25 septembre 1849.

لقد وضعت معركة سريانة حدّا للتّفاؤل الذي كان يشكّله احتمال انضمامه إلى قضيّة بوزيّان. ورغم ذلك لم تكن الهزيمة إلاّ حادثة محصورة في حيّز من الزّمن[1]، لأنّه وبعد أيّام قليلة من المعركة ووصول فلول الحملة الثّانيّة على الزّاطشة، اندلعت أحداث خطيرة في الأوراس.

أما الشيخ سي عبد الحفيظ، فقد عاد إلى قريته وتمكّن من تجميع عدد من الأنصار ليعرقل اتصالات القوّات الفرنسيّة بين بسكرة وباتنة، وذلك طول المدّة التي دامها الحصار عن الزّعاطشة.

وبعد سقوط واحة الزّاب، لم يستسلم سي عبد الحفيظ لسلطات الاحتلال وظلّ متحفّزا إلى أن توفيّ بالخنقة في 15 جويلية 1850 متأثّرا بوباء أصاب المنطقة.

1 -D'après une lettre arabe adressée aux Ouled-Djellal, après le combat de Sériana, Si Adelhafid avait une autre version des faits et paraissait garder tout son dynamisme : « Les Français sont tombés sur nous du côté de Sériana, nous les avons combattus et avons tué un grand nombre. Ils ont été cernés et vaincus. Le commandant a été tué avec 4 capitaines et des spahis. Si Bouziane vient vers nous ; nous nous rencontrerons.. » A.O.M 15 K 25, Dossier intitulé « Documents trouvés à Zaatcha et à la Djébira de Si Abelhafid à Sériana », carnet de 37 lettres, n° 16 traduction d'une lettre arabe adressée par Si Abdelhafid aux Ouled Djellal.

على حسب رسالة بالعربية موجهة إلى أولاد جلال بعد معركة سريانة، كانت لسي عبد الحفيظ رواية أخرى للواقعة ويظهر فيها نشيطا وحيويا : "طاح علينا الفرنسيون من جهة سريانة..لقد حاربناهم وقتلنا منهم الكثير ..لقد طوّقوا وهزموا..وقد قُتل الكومندا و 04قبطانات وبعض السبايس(الصبايحية) لو يأتي بوزيّان إلينا سنلتقي معه "..انظر A.O.M 15 K 25 .

traduction d'une lettre arabe adressée par Si Abdelhafid aux Ouled Djellal .

ترجمة رسالة بالعربية من الشيخ عبد الحفيظ إلى أهل أولاد جلال.

ولم تنتظر السّلطات الفرنسيّة بعد معركة سريانة أيّ لين من جانب الشّيخ بوزيّان الذي أصر على مواصلة المقاومة إلى النّهاية.

وكانت الأعمال القتاليّة التي خاضتها الطريقة الرّحمانيّة لتكون أكثر فعّاليّة لو أنّ مقدّم هذه الطّريق ببلزمة محاد بلقاسم (محمد بلقاسم) انضم إلى معسكرات الانتفاضة. ولقد فسّر تغاضيه عن القتال ببعده عن السّاحة ورغبته في العيش في السّلم .[1]فهل يمكن اعتبار هذا المرابط من فئة الرّحمانيين الذين اتّخذوا موقفا مهادنا تجاه الفرنسيين ؟

وعلى عكس ذلك، فإنّ الشّيخ سي عبد الحفيظ الذي كان يعيش في منطقة يعدّ فيها إخوان" الرّحمانيّة بقدر عدد السكّان "وجد نفسه مقتنعا بأنّ ساعة الجهاد قد دقّت، وما كان عليه إلاّ أن يستجيب لرغبة إخوانه ويساهم في الثّورة من خلال زاويته.

رغم هيمنة الطريقة الرّحمانيّة ونفوذها في الزيبان، وجد شيوخها أنفسهم أمام أمرين : إمّا قبول الأمر الواقع (قبول الفرنسيين) وإمّا هجرة البلاد. ويمكن القول إنّ غيّاب قيّادة موحّدة تجمع كلّ زوايا الجنوب من جهة، وانضمام العائلات الإقطاعيّة القويّة في المنطقة إلى الجانب الفرنسي من جهة أخرى، كانت من العوائق التي لم تسمح بمقاومة شعبيّة قويّة.

ولقد رأينا كيف أنّ أي حراك من طرف الرّحمانية استطاع أن يجمع حوله إخوان الطّريقة ويسخّر معظم السكّان سواء في الأوراس أو في الزّاب لينخرطوا في صف المقاومة.

1-A.O.M, 2 H 25, Cercle de Batna , Historique de 1850 par le capitaine Marmier.

وكان الشّيخ سي عبد الحفيظ قد تمكّن من حشد أعداد معتبرة من الأنصار في الأوراس لغرض دعم حركة الشّيخ بوزيّان في الزّاب. ولكنّ تلك القوّة ضعفت بعد مأساة سريانة.

ورغم ذلك، فإنّ شيوخ الرّحمانية عاودوا الظّهور أثناء الحصار على الزّعاطشة لدعم الشّيخ بوزيّان، سواء من الدّاخل : بمشاركتهم المباشرة داخل الواحة، أو من الخارج : كمهاجمة القوّات الفرنسيّة بين بسكرة وباتنة لقطع الاتصالات وامدادات الجيش الفرنسي.

وكانت مساهمة الرحمانيّة هي من شجّعت المدافعين عن الزّعاطشة على الصّمود وإشعال ثورة زعزعت الجنوب القسنطيني بأكمله.

ولقد أدركت السّلطات الفرنسيّة أن انضمام كلّ شيوخ الرّحمانيّة للثورة ودعم بوزيّان، سيجعل مصير تواجدها في خطر. وكان واضحا لديها أنّ الزّعاطشة كانت هي نواة الانتفاضة التي يجب قمعها.

الباب الثالث
المقاومة الطّويلة لواحة الزّعاطشة
محاولة فهم

الفصل الأول
الحملة على الزّعاطشة ومحاصرتها

يجب أن نذكّر أنّ الثّورة رغم توسّعها إلى الأوراس وانضمام شخصيّات دينيّة كثيرة لقضيّة الشّيخ بوزيّان، فإنّ هذا الأخير ظلّ هو الشّخصيّة الفاعلة المهيمنة على أحداث الجنوب القسنطيني لعدم وجود منافس له من هذه الفئة التي أرادت مساعدته على الجهاد دون أدنى طموح.

وفي هذا السيّاق، وبعد أن اعتقد الفرنسيون أنّهم قضوا على مشكل الرّحمانيّة (مؤقّتا) سرعان ما اندلعت حركة الشّيخ سي عبد الحفيظ في أوج مشكلة الزّعاطشة التي اعتبروها بؤرة توتّر مستمرّة يجب إطفاؤها قبل أن يمتدّ لهيبها إلى مناطق أخرى في الجنوب القسنطيني. ولقد شكّل لهم فشل العقيد كربوشيّة أمام الزّعاطشة في 16 جويلية 1849 ، عارا يجب "إصلاحه."

والحقيقة أنّ المدّة المحصورة بين شهري جويلية وسبتمبر لم تكن إلاّ تأجيلا (Surcis) للشيخ بوزيّان من طرف الفرنسيين في انتظار فصل أكثر ملاءمة . فما أنّ خفّت الحرارة، حتّى قرّر الوالي العام للجزائر الجنرال شارون (Charon) إرسال حملة ثانيّة على الزّعاطشة [1] الهدف منها إنهاء المقاومة بأي ثمن كان وباستعمال كلّ الوسائل القمعيّة المتاحة.

وكما حدث في جويلية، فوجئ الفرنسيون من قبل السكّان باصرارهم على المقاومة وتحدّيهم للتهديدات. وسرعان ما توالت النّجدات من كلّ جهة وتحوّلت الزّعاطشة إلى رمز بطولي للمقاومة الشّعبيّة.

1 -A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban par le colonel Borel de Bretizel, Constantine, 14 décembre 1849.

1-1 الاستيلاء على الزّاوية

بصفته قائدا على القطاع القسنطيني، تولّى الجنرال هربيون بنفسه قيّادة الحملة الموجّهة ضدّ الزّعاطشة، رغم تحفّظ وزير الحربيّة الفرنسي الذي لم يعجبه قرار الجنرال، وذهب إلى حدّ التّشكيك في قدرات الجنرال هربيون والعقيد كربوشية (صاحبي الفشل السّابق) في" تحمّل عبء العمليّات " المقرّرة على الزّعاطشة. ففي 11 سبتمبر1849 ، كتب الوزير إلى الحاكم العام بالجزائر بأنّه" يتوجّس خيفة من عدم قدرة هذين الضّابطين على تحقيق هدف الحملة، لأنهما غير جديرين بذلك، وأنّ فشلا آخر بالجنوب القسنطيني سيقوّض الأمن في إفريقيا بأكملها "[1] ! ولقد ذهب الوزير في مراسلة مؤرّخة في 22 من الشهر نفسه، إلى حدّ ضرورة تعيين قادة آخرين للقيّام بالحملة، موضّحا أنّ الأمر يشاطره فيه رئيس الجمهوريّة الفرنسيّة[2].

ولكن، عندما وصل الأمر إلى الجزائر، كان الجنرال هربيون قد غادر قسنطينة مباشرا الحملة، ولم يعد بإمكان الحاكم العام وقف العمليّة.[3]

ومع تخفيض عدد جنود بعض الثّكنات القطاع القسنطيني وإرسال الحاكم العام (الوالي العام) للفرقة الخامسة من القنّاصة التي وصلت عبر ميناء عنّابة وصل عدد جنود الحملة 4493 رجل، يمكن دعمهم ب 1900 جندي آخرين يقودهم العقيد بارال (Colonel Baral) قائد نيابة سطيف. وكان بإمكان هذا الأخير التوجّه بقوّاته عبر بوسعادة حالما يطلب منه الجنرال

1 -A.M.G, 1 H 263, Une lettre du ministre de la guerre au général Herbillon, Paris 11 septembre 1849.

2 -A.M.G, 1 H 263, Une lettre du ministre de la guerre au général Herbillon, Paris 11 septembre 1849.

3 -Ibid.

هربيون ذلك. و زيّادة على ذلك كلّه، دُعِّمت الحملة بفرسان الشيوخ ولاسيما" قوم "شيخ العرب.[1]

انطلق الجنرال هربيون يوم 25 سبتمبر من قسنطينة محفوفا بجزء من الجند وبقوافل من الإبل والبغال تحمل المعدّات والمؤونة والذخيرة وأكياس الرّمل وقذائف المدفعيّة. ولدى مروره بباتنة نحو بسكرة كان القيّاد والشيّوخ من الأهالي يحيّونه ويقيمون له" الضّيفة "(الضيّافة) وفق التّقاليد، تعبيرا منهم على دعمه وتأكيدا على استسلامهم له. ولدى وصوله إلى باتنة يوم 28 سبتمبر، كانت تتقدّم موكبه كوكبة من حوالي 800 فارس من العرب الموالين له. وفي 01 اكتوبر غادر باتنة مواصلا طريقه متوقّفا في نقاط عديدة لاسيّما القنطرة وبسكرة حيث التحقت به قوّات إضافيّة من باتنة. وفي يوم 07 اكتوبر، وصل إلى الزّعاطشة على الثّامنة صباحا.

ولضمان نجاح الحملة، كان الحاكم العام للجزائر قد الحّ على هربيون ناصحا إيّاه : "..بأن يكون هو القويّ ما أمكن ليحقّق نتائج معتبرة عن الزّعاطشة، وأن يسلّط على القرية عقوبات مثاليّة من شأنها أن تعيد المتمرّدين إلى النّظام والطّاعة [2]..اطلبوا (قال له، حاثّا إياه كثيرامن البنادق (السلاح)، سلّطوا على الواحات الثّائرة خطيئات صارمة (عقوبات مالية) لأن

1 -A.M.G, 1 H 211, Historique de la campagne des Ziban par le sergent-major RIBES, cahier I, chapitre 5.

2 -A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban par le colonel Borel de Bretizel, Constantine, 14 décembre 1849.

الأهالي لم يقدّروا تسامحنا وحلمنا معهم. سلّطوا على الزّاب عقوبات ستبقى في الذّاكرة إلى الأبد"..[1]

اعتمادا على تجربته في قمع الانتفاضات في الجزائر، كان الجنرال هربيون ينتظر استسلاما سريعا في الزّعاطشة أمام قوّاته الهائلة. ولقد سبق له أن قمع انتفاضة أولاد جلال سنة1847، ولذلك قرّر إعادة التّجربة لكنّ الوقائع كذّبته وأبانت عن غلطته.

عسكر الفرنسيون شمال شرقي القرية على بعد 500 متر من الزّاوية، بالضّبط على ربوة كدية الميدة (كدية المائدة) التي يغطيها الرمل من أحد جهاتها.

وبينما كانت القوّات الفرنسية تدور حول القرية لإخافة السكّان، قدّم العقيد بوتي (Colonel Petit) المسؤول عن الهندسة العسكرية خطّة تقضي بفتح ثلاثة خنادق لتنطلق منها ثلاث هجومات في آن واحد : هجوم ضدّ الزّعاطشة وفرفار، وهجوم ضد ليشانة والزعّاطشة (من جهة أخرى) وهجوم ثالث على الزّاوية.[2]

وقد اختار الجنرال هربيون النقّطة التّالية (مهاجمة الزّاوية) لاعتبارات ذكرها فيما يلي:

.. "هذه النّقطة توفي كلّ الشّروط المرجوة لإقامة مخزن وحفر خندق تنطلق منه العمليّات المؤديّة إلى جدران القرية عبر بساتين النّخيل . ويمكن اعتبار الزّاوية رأس مثلث على بعد 500 متر من معسكرنا، يجب الوصول إليه

1 -HERBILLON (Emile), Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha , op cit, p 58.

2-BOCHER (Charles), Le siège de Zaatcha, op cit, p 82.

واحتلاله لأنّه سيمكّننا من مزايا سهولة الاتصال واحتلال جزء من الواحة".[1]

وكذاك قرّر لجنرال هربيون القيّام بهجوم كبير ليستولي على الزّاوية، وقد تكفّل العقيد كربوشية بقيادة العمليّة على رأس قوّة مكوّنة من فرقتين من الكتيبة الخامسة للقنّاصة، من عدّة فريق من اللّفيف الأجنبي، ومن الفرقة الثّالثة للمشاة الإفريقيين، ومن فريق من المهندسين العسكريين.[2]

وبسرعة تمكّن الفرنسيّون من الاستيلاء على الزّاويّة بدون مقاومة كبيرة، وهو ما شجّع الجنود الفرنسيين المتحمّسين على التوغّل في البساتين لمطاردة " العرب "الذين كانوا مختفين، ثم اختاروا الوقت المناسب لإطلاق النّار..وفي ذلك كتب شارل بوشي يصف الهجوم الأوّل:

.."لم يعد يمنعهم أي حاجز (قال بوشي عن أصحابه) فتمكنوا بشجاعة من اجتياز الجدار الأوّل ليكتشفوا أن كلّ نخلة وكل حجرة تخفي عدوّا ضاريّا، ولم يكن بإمكانهم التقدّم أكثر من دون دفع دماء .وبسرعة، التحق بعض المدافعين عن القرية بالعرب المختبئين وراء الأشجار والجدران، ممّا أوجد جنودنا في عزلة حملتهم على التّراجع إلى الوراء في ظروف أصعب من تقدّمهم إلى الأمام "..[3]

إنّ الجنود الفرنسيين الذين شاركوا في الهجوم الأوّل كانوا متسرّعين ومندفعين لقصد الاستيلاء بسرعة على الزّعاطشة، ولذلك حصدوا بسرعة

1 -HERBILLON (Emile), Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha , op cit, p 58.

2 -BOCHER (Charles), Le siège de Zaatcha, op cit, p 82.

3 -BOCHER (Charles), Le siège de Zaatcha, op cit, p 82.

خسائر فادحة تمثّلت في 17 قتيلا و 43 جريحا، وهي خسائر كبيرة أجبرت القوّات الفرنسية على التّراجع مرّة أخرى.[1]

وفي المساء، حتّى وإن كان الفرنسيون قد استولوا عن الزّاوية وبعض البساتين، فإنّهم ظلّوا تحت رحمة إطلاق رصاص مكثّف أعاق تحركاتهم، ممّا جعل قائد الحملة هو أوّل من اكتشف عزيمة المدافعين وشكيمتهم.

ومع ذلك بدأت أعمال الهندسة منذ ليلة 07 أكتوبر.

"إنّ مهاجمة واحتلال الزّاويّة والأماكن الناتئة من الواحة لم يثن من عزائم تطرّف المدافعين عن الزّعاطشة وبغضهم لنا ..وكانوا يقدّرون الوضع بحسب ما بشاهدون : فسقوط قتلى في صفوفنا وتراجعنا الاضطراري وترك بعض الجثث من جنودنا أوجد فيهم سرورا بالنّصر ونشوة بالظّفر، حيث بدأ بوزيّان يرسل بعض ألبسة قتلانا التي انتزعوها منهم إلى الواحات المجاورة كغنائم حرب !لقد أثار هذا المشهد نشوة في رؤوس المدافعين زادت من انضمام مقاتلين آخرين وبثّت روح الثّقة في المتواجدين من قبل مع بوزيّان"..[2]

وأمام ذلك الوضع المحرج وجد الجنرال نفسه مخيّرا بين أمرين : إما الانسحاب – كما فعل العقيد كربوشية قبله في جويلية – وإمّا ضرب حصار محكم عن المدينة .وفي النّهاية، مستأنسا بما يملك من قوّة وعتاد، اختار الحلّ الثّاني، مستفيدا من الدّرس الأول، لأنّ أي انسحاب آخر من

1 -A.M.G, 1 H 131, Rapport de la colonne expéditionnaire des Ziban, Zaatcha, 28 novembre 1849.

2 -HERBILLON (Emile), Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha , op cit, p70.

الزّعاطشة سيشكل تهديدا جديّا للتّواجد الفرنسي بكامل الجنوب القسنطيني.

2-1 أشغال الحصار

أشهر قليلة قبل حصار الزّعاطشة، كانت قوّات فرنسيّة تحت قيّادة الجنرال أودينو (Général Oudinot) قد حاصرت مدينة رومة (Rome) ثم استولت عليها بعد اكتساح قويّ [1].ولذلك استنجدت فرنسا ببعض الوحدات المشاركة في الحصار على روما لاقتحام الزّعاطشة. ولذلك أرسلتهم على جناح إلى الجزائر للمساهمة في مهاجمة الزّعاطشة.

ولكن، وعلى خلاف روما، وجد الفرنسيون أنفسهم أمام صعوبات من نوع آخر لأنّ الواحة كانت محاطة بخندق عميق، عريض ومغمور بالميّاه. ويمكن

1 -Le 9 février 1849, le pape IX est renversé et la république proclamée par les républicains de Rome. Le gouvernement français demanda au général Oudinot – envoyé en Italie bien avant, pour défendre Rome contre les Autrichiens – de reprendre cette ville des mains des républicains. Après une farouche résistance menée surtout par Garibaldi, les Français s'emparèrent de Rome le 30 juin 1849, mettant fin à la république romaine et rétablissent le pouvoir temporel du pape. Voir sur ce sujet à titre d'exemple, l'ouvrage de Jean Garigues, La France de 1848 à 1870, Armand Colin, 1995, pp 33-36.

أشهر قليلة فبل حصار الزعاطشة ، كانت قوّات فرنسية بقيادة الجنرال أودينو قد حاصرت ثم اقتحمت مدينة روما واستولت عليها بهجوم كاسح في 9 فيفري 1849 لأن الجمهوريين أسقطوا البابا IXاوكان الجنرال أودينو متواجدا بإيطاليا قبل الحصار للدفاع عنها ضد النمساويين. وبعد مهاجمة ديمقراطيي روما استولى الفرنسيون على المدينة في 30 جوان 1849 جاعلين حدّا للجمهورية المعلنة، بعد أن أعادوا سلطة البابا بصفة مؤقتة. انظر هذا الموضوع على سبيل المثال كتاب :

Jean Garigues, La France de 1848 à 1870, Armand Colin, 1995, pp 33-36.

أن نتصوّر المشكل الذي يحدثه مثل ذلك التّحصين لأي جيش في العالم، مهما كانت الوسائل الموضوعة تحت تصرّفه.

امتدّت المرحلة الأولى من الحصار من 07 إلى 20 أكتوبر1849 ، بعد أن فوجئ الفرنسيون بقوّة المقاومة أثناء استيلائهم على الزّاويّة، فقرّروا ضرب حصار محكم على القرية وبدء الأعمال الهندسيّة لتحضير الاقتحام إذا لم يقدم أهل الزّعاطشة على الاستسلام.

ومباشرة بعد احتلال الزّاويّة، شر العقيد بوتي في نصب المدفعيّة رقم01 على ربوة على بعد 70 متر من الزّاوية وحوالي 150 من القرية الثّائرة. فما بين 08و 20 أكتوبر، نصّب وعبّأ الفرنسيون مدافعهم المرقمّة من 2 إلى 6 الموجّهة نحو الزّعاطشة، وكانت متّصلة بالزّاوية بواسطة أخاديد حفرها رجال الهندسة [1] وكانت تطلق النّار بصفة مستمرّة إمّا لتدمير الجدران أو تخويف السكّان لكي يستسلموا.

وفي يوم 12 أكتوبر تمكّنت المدفعية من إحداث ثقبين(فجوتين) في الجدران لغرض استعمالهما يوم الهجوم : ثقب في الجهة الجنوبيّة الشّرقيّة وآخر في الشماليّة الشّرقيّة من القرية. وصار الفرنسيون يطلقون عليهما اسمي الفجوة اليمنى والفجوة اليسرى. وفي ليلة 20 أكتوبر اعتبرت الفجوتان عمليتين لمرور الجنود وصالحتين لتنفيذ هجوم [2].

1 -A.O.M, 10 H 76, Note sommaire sur l'emploi de l'artillerie dans le siège de Zaatcha par le colonel Borel de Bretizel

2 -A.M.G, 1 H 131, Rapport sur les opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban par le général Herbillon, 28 novembre 1849.

ولقد أوكلت أعمال الحفر التي ستقرّب الجنود من القرية إلى فريق الهندسة العسكرية التي وجّهت أعمالها وفق مثلّثين جنوب-شرق و جنوب-شرق الواحة. وكانت الأشغال تتقدّم ببطء كبير بمعدل متر أو مترين في 24 ساعة، رغم انجاز أخدودين تحت وطأة الرّصاص، لأنّ المُحَاصَرين كانوا ينظّمون هجومات ليليّة مكثّفة على رجال الهندسة الذين كانوا يحتمون وراء حصون اصطناعيّة استعملوا فيها أكياس الرّمل وجذوع النّخل والمتاريس والدّروع..[1]

وأثناء تقدّمهم نحو السّاحة، كان الفرنسيون يستولون على البساتين الواحد تلو الآخر. وكان احتلال كلّ بستان يمثّل معركة ضاريّة بين الطّرفين تخلّف قتلى وجرحى. ولقد أجبر الفرنسيون مرّات عديدة إلى التراجع وترك بستان سبق لهم وان احتلّوه. وكان عليهم تحصين مواقعهم[2] ونصب قطع رشاشات ومدفعية جديدة وربط اتّصالاتهم ببساتين محتلّة أخرى أو بالزّاوية.

.."كان يجب علينا (قال الجنرال هربيون عن الأعمال التي كانت تنجز خلال الزحّف نحو القرية) أن نحصن مواقعنا بعد كل نقطة نحتلّها فنزرّب الجدران ونغلق الفتحات ونحمي المهندسين من النّيران التي تأتينا من كلّ صوب، كلّما أردنا أن ننصب مدفعا"..[3]

1-A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban par le colonel Borel de Bretizel, Constantine, 14 décembre 1849.

2 -A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban par le colonel Borel de Bretizel, Constantine, 14 décembre 1849

3 -A.O.M, 1 H 131, Rapport sur les opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban par le général Herbillon, Zaatcha , 28 novembre 1849.

وللوصول إلى منازل القرية كان على الجنود الفرنسيين اجتياز خندق عميق وعريض تحيط بالواحة. وفي 16 اكتوبر وصل النقّابون إلى الخندق من الجهة الجنوبية الشّرقية للقرية مقابل الفتحة (الفجوة) اليسرى التي أحدثتها المدفعية .ولإدراك أولى جدران المنازل كان يجب على المهاجمين ردم الخندق بعرض مناسب يمكّن من مرور الجنود والمعدات يوم الهجوم. وللقيّام بعمليّة الرّدم كان الجنود يتناولون كلّ ما يقع في أيديهم من الحجارة وبقايا الزّاوية وجذوع النّخل ليلقوا بها في الأخدود. ولقد لزمت أيّام طويلة وصعبة لإحداث ممرّ صالح لمرور الجنود. أمّا الجهة المقابلة للفتحة الثّانيّة ، فكان يجب انتظار 27 اكتوبر لردم جزء من الخندق وإحداث ممرّ كاف يمكّن من مرور الجند.[1]

منذ الأيّام الأولى للحصار تيقّن الجنرال هربيون أنّه لن يستطيع القضاء على المقاومة بالزّعاطشة بالإمكانيات البشرية والماديّة التي كانت متوفّرة لديه:

"إذا كانت المقاومة قد تواصلت (كتب الجنرال) فالسّبب أنّ الحملة لا تملك الوسائل الضّروريّة لمثل هذا النّوع من حرب الواحات وحصار المدن، خاصة وأن القرية تقع في غابة من النّخيل ومحميّة من دفاع قويّ لا مثيل له"..[2]

لقد كانت الأشغال تتطلّب نصف عدد الرّجال المتواجدين في الفيلق، بينما لا يكفي النّصف الباقي في تغطيّة الواحة بأكملها والقيّام بحراسة المعسكر وصيانته وإطعام الحيوانات (الخيل والبغال) وحماية قوافل الإمداد وغير ذلك.

1 -SEROKA, op cit, p 52.

2 -HERBILLON (Emile), Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha , op cit, p108.

وهو ما يبين صعوبة الوضع الذي وجدته القوّات الفرنسيّة في مواجهة قوّات عربية قليلة العدّة والعدد، كانت مسلّحة بالعزيمة وشرف الدّفاع عن النّفس.

ولذا استدعى الجنرال قوّات إضافيّة وصلته من بوسعادة يوم 12 أكتوبر، قوامها 1649 جندي، وبذلك بلغ عدد أفراد الفيلق المهاجم للزّعاطشة 6040جنديّا[1].

وكان لا بدّ لقيّادة الحملة على الزّعاطشة أن تستأنف أشغال المرحلة الثّانيّة من الحصار بعد الفشل الذي سجّلته أثناء هجوم 20 أكتوبر [2]متذرّعة بنقص العدد. وخوفا من فشل جديد، سمح الجنرال هربيون لنفسه بوقت طويل لإتمام الأشغال الهندسيّة التي تمكّنه من الاقتراب من القرية بدون خطر.

إنّ فشل هجوم 20 أكتوبر وإصرار هربيون على عدم الانسحاب قبل احتلال القرية، جعل هذا الأخير يطلب قوّات إضافيّة لتنفيذ مهمّته. وفعلا، وصلته كتيبة جديدة من 1210 جندي بقيادة العقيد كانروبير (Canrobert) وصلت من أومال عبر بوسعادة في 8 نوفمبر. وما بين 8 و 15 من الشّهر نفسه توافدت قوّات أخرى من الفرقة الثّامنة للقنّاصة كانت قد حوّلت بحرا من وهران إلى ميناء سكيكدة، التحمت مع الفرقة 51 التي أتت من بجاية والفرقة الثّامنة التي أصبحت جاهزة في قسنطينة زيّادة عن 40 من النقّابين (Sapeurs) ثم توجّهت كلّ هذه القوّات لتلتحق بالزّعاطشة، وبذلك بلغ عدد

1 -A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban par le colonel Borel de Bretizel, Constantine 14 décembre 1849.

2 -Nous reviendrons après sur l'assaut du 20 octobre

سنعود لاحقا للهجوم الفاشل الذي وقع في 20 أكتوبر.

الجنود المشاركين في الحملة 8075 رجلا منهم 1705 فارسا. وعلى إثر حشد وتجميع تلك القوّات الضّخمة، قُسِّمَ الفيلقُ إلى ثلاث كتائب : المشاة والمدفعيّة والفرسان بقيّادة العقداء بارال(Baral) ، ديمانتي (Demontet) ومربك (Mirbeck) [1].

ولقد عمل الجيش الفرنسي في المرحلة الثّانيّة على تحصين المواقع ، ممّا جعل فرقة النقّابين تتعرّض لنيران المدافعين عن القرية الذين أحدثوا خسائر فادحة في جنود الفرقة كلّما تقدّموا نحو السّاحة. ومع ذلك تمكّن المهندسون والنقّابون من صنع ممرّ متين مقابل الفجوة اليسرى التي أحدثتها المدفعيّة الثّقيلة. وكان الغرض من الممرّ هو الوصول إلى جدران المدينة لاستعمال المتفجّرات لهدم البيوت. كما تمكّنت الأشغال من حفر أخدود متّصل بالخندق الكبيرة .[2] وبنفاذ مواد التّحصين استعمل الجيش الفرنسي كلّ الوسائل المتاحة من حجارة وأقتات النّخل وصناديق وأخشاب وحتى أكياس المؤونة.

"لقد أصبحنا في نقص من مواد التّحصين (كتب الجنرال هريون) رغم توفّر أعجاز النّخل بكثرة، ولكن لم يكن بوسعنا استعمالها في كلّ مكان وفي كلّ وقت.. فزيّادة على ثقل وزنها ووجوب تقطيعها وجرّها، كنّا ننتظر الليل

1 -A.M.G, 1 h 21 Histoire de la campagne des Ziban, par le sergent-major Ribes , cahier 2, chapitre 5.

2 -Journal des attaques exécutées devant Zaatcha du 7 au 26 novembre par le chef de bataillon du génie Lebrerrevillois, Zaatcha , 28 novembre 1849.

لنقوم بذلك، من فرط وكثافة نيران العدوّ التي صارت قريبة منّا، وهو ما تربت عنه المتاعب والصعوبات".[1].

ومع ذلك راحت الأشغال تتقدّم ولو ببطء كبير وخسائر معتبرة. وعلى حسب ما كان قد شاع في المرحلة أنّ أشغال الاقتراب من القرية لم تعرف تقدّما ملموسا إلاّ بعد قدوم الرّائد ليبرتفيلفوا (Liberettevilois) والنّقبب سيشوناغيل (Capitaine Shoennagel) المختصين في الهندسة العسكرية. ويعود هذا الأخير في مذكّراته إلى العمل الذي قام به الرّائد ليبرتلفوا :

.."تسلّم إذن الرائد ليبرتفيلفوا قيّادة الهندسة وقام بتنفيذ الأعمال ليلا كما فعل أثناء حصار روما. أمّا في النّهار فلم نكن نقم إلاّ بأعمال التّحسين والامداد .من جهة اليمين امتدّ الأخدود إلى غاية الرّكن الجنوبيّ للقرية واستطعنا الاستيلاء على بساتين كثيرة إلى أن وصلنا إلى نبع عين الفوّار التي تغذّي الخندق الكبرى وأصبحنا نسيطر عليها. وخلال أحد عشر يوما (11) تمكنّا من فتح ثغرة جديدة مقابل ممرّ أحدثناه في الفترة نفسها. صارت اتصالاتنا مضمونة ومؤنة مع مركز قيادة خطوطنا، كما أصبحنا نحتل نقطة الماء التي كان العرب يغرقون بها الخندق" .[2]

1 -HERBILLON (Emile), Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha , op cit, p178.

2 -SCHOENNAGEL, Récits des attaques et du siège de Zaatcha, Spectateur militaire, janvier 1850.

وأثناء الأشغال الهندسيّة، واصلت المدفعية نشاطها المكثّف والمتواصل لتوسيع الفجوات المفتوحة وفتح أخرى، وخاصّة لتدمير منازل القرية على أصحابها.[1]

إن كان القسم الخارجي للقرية قد تعرض لدمار كبير، فإن القسم الدّاخلي بقي سالما ولم تصله الطّلقات المدفعيّة رغم محاولات رفعها وتعديلها. وكان رجال المدفعيّة يوجّهون طلقاتهم عنوة صوب منزل الشّيخ بوزيّان الذي اعتبروه هدفا رئيسا ونقطة قويّة يجب تدميرها.. " : كانت النّقطة الأقوى في السّاحة (كتب أحدهم) وكان يمثل نقطة ارتكاز لهم ". لكن، ورغم الخسائر الكبيرة التي طالت المدافعين عن القرية، فإنّهم واصلوا القتال بكلّ استماتة مظهرين عزيمتهم على المقاومة إلى النّهاية.

وكان ذلك ما وقع، لأنّ القوّات الفرنسيّة انتظرت هجوم 28 نوفمبر وموت جميع المدافعين لتتوقّف النّار التي كانت تصدر من القرية[2].

إذا كان تقدّم القوّات الفرنسية من جهة اليسار قد بلغ جدران الزّعاطشة، فإنّه توجّب على القيّادة دفع القوّة من جهة اليمين لتصل عين الفوّار في الجهة الشّماليّة من القرية، لأن الموقع سيسمح للمهاجمين برؤية القسم الشرقي للدّشرة. وفي 19 نوفمبر نصّبت منصّة المدفع رقم09 ، وكانت معبّأة لأول مرّة بقذائف من عيار 12 لدكّ جدران القرية من جهة الشّمال الشّرقي. ومنذ الليلة الأولى تمكّنت المدفعية من إحداث ثغرة جديدة بفعل ذلك

1 -Durant le siège de Zaatcha 3500, projectiles ont été tiré sur le village.

خلال حصار الزعاطشة أطلقت 3500 قذيفة مدفعيّة على القرية.

2 -A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban, par le colonel Boral de Bretizel, Constantine, 14 décembre 1849.

المدفع العملاق [1]. وفي صباح الغد شرع رجال الهندسة في ردم الخندق في الجهة المقابلة للفتحة الجديدة. وكان عليهم ردم جزء من الخندق بعرض 8 أمتار وعمق 2,60 متر ! وبعد ثلاثة أيّام أصبح المرور ممكنا فوق الجزء المردوم بإحكام. وبذلك أصبح بإمكان الفرنسيين مهاجمة القرية من ثلاث جهات مختلفة.[2]

ولكن، وقبل الانتهاء من هذه الأعمال، كان الفرنسيون قد حاولوا قبل ذلك اكتساح القرية بالقوّة بهجوم عنيف يوم 20 أكتوبر بعد 13 يوما من العمل الشّاق وتكبّد خسائر فادحة. وكان هجوم 20 أكتوبر قد لقي هو الآخر فشلا ذريعا.

3-1 فشل هجوم 20 أكتوبر

لا يشك أحد في أنّ أصعب لحظة في حصار على مدينة ما هو لحظة الهجوم الذي سيحدّد نجاحه أو فشله مصير المعركة. ويمثّل نجاحه بالنّسبة للمهاجم تتويج مجهودات مضنيّة طويلة، بينما يمثّل بالنّسبة للمدافع نهاية كابوس طويل من التّطويق والحصار.

---

1 -Dès le 17 novembre, lors d'un conseil de guerre composé du général Herbillon, du chef d'état-major, des officiers supérieurs commandant d'artillerie et le génie et les 3 colonels commandant les brigades, le conseil a décidé d'orienter les travaux vers l'ouverture de nouvelles brèches pour qu'aussitôt, l'assaut soit donné . Voir A.M.G, 1 H 211, journal des attaques exécutées devant Zaatcha du 7 au 26 novembre par le chef du bataillon du génie Leberrevillois, Zaatcha, 28 novembre 1849.

منذ 17 نوفمبر وخلال مجلس حرب مؤلف من الجنرال هربون، رئيس الأركان، الضباط السامين، قادات المدفعية والهندسة والعقداء الثلاثة قادة الكتيبة، قرر المجلس توجيه الأشغال نحو فتح ثغرة لاعطاء الأمر لبداية هجوم حاسم، انظر. A.M.G, 1 H 211

2 -SEROKA, op, cit, p 514.

وفي الزّعاطشة، وعندما اعتقد الجنرال هربيون أنّ الأشغال الهندسيّة قد سارت في اتّجاه إيجابي، استدعى مجلسا للحرب في 17 أكتوبر لاتّخاذ القرارات فيما يتعلّق بالقيّام بهجوم نهائي على الواحة. ولقد عبّر كلّ الحاضرين عن قناعتهم بأنّ الطّريق من جهة اليسار أصبح مساعدا على تنفيذ الهجوم لأنّ ردم الخندق تجاه الفتحة المقابلة صار فعليّا وعمليّا، أمّا من جهة اليمين فإن الخندق لم يردم بعد وسيشكّل عائقا أمام تقدم القوّات. ولحلّ المشكل، اقترح شارل نقيب الهندسة أن تُتَّخَذ عربة من عجلتين (كرويلة كانت ملكا لمواطن) كمعبر على الخندق يسهل مرور الجنود. وبعد الاقتراح وافق الجنرال هربيون على انطلاق الهجوم يوم 20 أكتوبر[1].

ولم يكن اتّخاذ قرار الهجوم على القرية بسبب انتهاء الأشغال بصفة مرضيّة فحسب، بل لأسباب أخرى عاد إليها الجنرال هربيّون في رسالة وجّهها إلى الوالي العام للجزائر يبرّر فيها فشله مرّة خرى ويذكر الأسباب التي دعته إلى اتّخاذ القرار:

.."لم أكن لأعطي أمرا بالهجوم على عجل لولا الحوادث التي بدأت تنشأ ببوسعادة، وزحف أحمد بن الحاج نحو الأوراس وتواجد سيدي عبد الحفيظ بمشونش الذي أصبح مصدر تهديد لقوافلنا، ولولا تخوّفي من البدو الذين بدأوا يمرّون بقوّة من التلّ نحو الصّحراء ..هذه هي الأسباب التي حملتني على أن أقوم بهجوم مبكّر تشاورت في شأنه مع كلّ رؤساء المصالح العسكريّة وضبّاط الهندسة"

لتنفيذ هجوم 20 أكتوبر، شكّل الجنرال هربيون كتيبتين : الأولى تحت قيّادة العقيد كربوشية من جهة اليسار وتتكوّن من:

1 -SEROKA, op cit, p 514.

- الفرقة الثّانية من اللّفيف الأجنبي.
- الفرقة الخامسة من القنّاصة المشاة.
- فرقة من رجال الهندسة.

أمّا الكتيبة الثّانيّة فقد وجّهت لجهة اليمين، ووضعت تحت قيّادة العقيد ديمنتي (Colonel Demontet) وتتكوّن من:

- الفرقة الثالثة والأربعين
- الفرقة الثّامنة
- فرقة من المقاتلين الأفارقة
- كوكبة من المهندسين

وإضافة إلى ذلك، وضعت فرقة صغيرة ثالثة تحت تصرّف العقيد بورباكي (Colonel Bourbacki) لقطع كلّ اتّصال محتمل بين الزّعاطشة وليشانة، وفرقة أخرى تحت تصرّف العقيد ميربيك (Colonel Mirbeck) قوامها 350 جندي كلّفت بالدوران حول الواحة لتتدخّل لنجدة المهاجمين -عندما تستدعي الضرورة - في أي مكان من الهجوم.[1]

وفي صباح 20 أكتوبر، أعطيّت إشارة الهجوم على السّاعة السّادسة، وكانت المدفعية قبل ذلك، قد كثّفت من قصفها على الثّغرات المفتوحة. انقضّ المهاجمون الفرنسيون من الجهتين اليسارية واليمينية في آن واحد. وكانت الأنظار متجهة على الخصوص صوب الجهة اليسارية أين وقع ردم الخندق بصفة تمكّن من مرور الجنود. لكن وعند محاولة الجنود اقتحام الفتحة تعرّضوا إلى خسائر فادحة في الأرواح. فبينما حاولوا الاحتماء ببناية انهارت

1 -A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban, par le colonel Borel de Bretizel, Constantine, 14 décembre 1849.

عليهم مخلّفة تسعة (9) قتلى في لحظة واحدة، بما تعرضّ باقي الجنود المكشوفين إلى نار مكثّفة من أعالي المنازل المسنّنة. فما كان على قائد الهجوم إلا إعطاء إشارة الانسحاب ليتمكن النّاجون من العسكر الهروب عبر الأخاديد. وكذلك انسحب الجنود الفرنسيون" والنّار تأكل أفئدتهم [1]" مسجّلين فشلا آخر أمام الزّعاطشة.

أما من الجهة اليمنى، فقد انطلق الهجوم منذ البداية بصعوبات شتّى : العربة (الكرويلة) التي كانت معدّة لتُتَّخَذ كممرّ للجنود سقطت في أخدود مغمور بالماء والطّين قبل أن تصل إلى الخندق. وبعد إخراجها من طرف بعض الجنود، تبيّن لهم أنّها لم تعد صالحة كعبّارة .[2] وكان المهاجمون قد أعدّوا عبّارة أخرى من براميل فارغة وأخشاب، لكنّ حامليها أصيبوا وقتلوا جميعا قبل أن يضعوها في الخندق .[3]وما كان على الجنود الفرنسيين النّاجين إلاّ الارتماء في مياه الخندق الضّحلة لينجوا من رصاص المدافعين عن القرية، ثم وجدوا صعوبة في مغادرتها دون نقاط ارتكاز ولا أيّ وسيلة أخرى للخروج من المأزق .[4]وفي ذلك كتب العقيد بوريل دي برتزل في مذكراته :

.. "رماة الفرقة 43 اقتحموا الخندق التي كانت مغمورة ب 1,5 متر من المياه، محاولين الصعود من الجهة الأخرى التي كانت زلجة. فلجأوا إلى ركن بعرض

1 -BOCHER (Charles), Le siège de Zaatcha, op cit, pp 85-86.

2 -A.M.G, 1 H 404, Dossier siège de Zaatcha, Rapport du capitaine du génie Graille su l'assaut du 20 octobre, Zaatcha le 21 octobre 1849.

3-A.M.G, 1 H 131, Rapport sur les operations de la colonne expéditionnaire des Ziban, 28 novembre 1849.

4 -BOCHER (Charles), Le siège de Zaatcha, op cit, p 86.

مترين وكانت ذخيرة معظمهم قد تبلّلت بفعل الماء ولم يعودوا قادرين على الردّ عن نيران المدافعين المكثّفة. ولذلك تسرّبوا داخل الخندق حاملين ذخيرتهم على أكتافهم وخرجوا تباعا لكنهم لم يتمكّنوا من النّفاذ لأنّ الجدار المقابل لم يكن مهدّما من القاعدة.. ولما حاول بعض الجنود تسلّقه، وُوجهوا بنيران مكثّفة من قُرب، كانت تنطلق من بين الأنقاض. ولم يعد شيء يحمي جنودنا الذين وجدوا أنفسهم في منغلق غير صالح وثيّابهم تقطر بالماء"[1]..

ولقد بقي جنود الفرقة 43 ملازمين لموقعهم الحرج ذاك، لمدّة ساعتين وهم يحاولون النّفاذ إلى القرية. لكنّهم كانوا كلّ مرّة يتكبّدون خسائر إضافيّة مرتفعة تمثّلت في : 30 قتيلا و 90 جريحا أغلب حالاتهم خطيرة.

وفقط، عندما تيقّن الجنرال من فشل فرقة اليسار، أعلن عن انسحاب فرقة اليمين. ولقد وقع الانسحاب تحت حماية الفرقة الأولى للزواف.[2]

وفي ذلك اليوم المشهود خسر الفرنسيون 35 جنديّا و 128 جريحا، حسبما يشير إليه جدول إجمالي عن الخسائر الفرنسيّة وضع بعد انتهاء الحملة.[3]

ولقد قيّم الجنرال هربيون الحصيلة الاجماليّة للهجوم على الزعاطشة ب 80قتيلا[4].

1 -A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban, par le colonel Borel de Bretizel, Constantine, 14 décembre 1849.

2 -A.M.G, 1 H 404, Dossier siège de Zaatcha, Rapport du capitaine du génie Graille sur l'assaut du 20 octobre 1849.

3 -Voir le tableau dans le quatrième chapitre.

انظر الجدول في الفصل الرابع لاحقا.

4-A.M., 1 H 263, Une lettre du général Hebillon au Gouverneur Général, Zaatcha, 22 octobre 1849.

أمّا بالنسبة للعقيد باريزي (Colonel Pariset) فإنّ الأسباب الحقيقية للفشل تعود إلى إحكام التّحصينات والحواجز أكثر ممّا تعود إلى قوّة المقاومين (متناسيا أنّ التّحصينات تدخل في استراتيجية المقاومة) .وذلك ما كتبه في تقريره

عن عمليّات رجال المدفعيّة أثناء حصار الزّعاطشة:

"بعد هجوم 20 اكتوبر، بدت الحسرة على كامل رجال الحملة. وأمام هذا الانطباع أَرْجَعْنَا فشلنا إلى قوّة دفاع عدوّنا بدلا من البحث عنها في ضعف هجومنا وفي عدم خبرتنا في هذا النّوع من الحرب ..كنت من بين المقتنعين بعد الهجوم، بأنّ عدم استثمارنا لقوّتنا هو السبب الرئيسي في فشلنا : لقد تركنا المجال للمدافعين المتحمّسين لينقلوا جرحاهم ويتلقوا المؤونة والمقاتلين الجدد، ممّا كان يغذّي تعصّبهم ..بعد يومين فقط أدركت الأسباب الحقيقية لفشلنا : عدم ردم الخندق بإحكام، صغر حجم الثغرات التي أحدثتها المدفعية، اندفاع الجنود بدون حذر، الانسحاب المبكر من المعركة، هبوط معنويات المهاجمين، وهي أسباب زادت من جرأة أعدائنا قد تكون تداعياتها إثارة الاقليم بأكمله"..[1]

لقد انتصرت المقاومة الضّارية لمدافعي الزّعاطشة عن اندفاع الجنود الفرنسيين .لقد وجد الفرنسيون أنفسهم في مواجهة" عدو مستتر "متمركز داخل الديّار متمكّنا من الحركة بدون حواجز ليدعم المواقع المهدّدة، على حسب ما وصف أحدهم.." : لم يكن بإمكاننا تقدير عدد أعدائنا، (كتب

1 -A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de l'artillerie au siège de Zaatcha par le colonel Pariset, Constantine 6 mai 1849.

النقيب في الهندسة غراي (Graille) ولقد كان علينا من جهة اليمين مواجهة المجهول، وكلّ ما كان واضحا أنّ الأسطح المسننة كانت مزرّبة بالبنادق. وفي آخر الهجوم أصبحنا نتلقى قذائف من الحجارة والطّوب، كانت تمطرنا من أنقاض المنازل المهدّمة"..[1]

إنّ شجاعة المدافعين وعزائمهم ومعرفتهم للأرض كانت من العناصر التي ساعدت على ظفر بوزيّان وأنصاره...

لقد ألقى فشل 20 أكتوبر" ظلالا من الذّهول والحيرة في صفوف الفرنسيين " حسب تعبيرهم، لأنّ الجنود أصيبوا بخيبة أمل مريرة لكونهم عجزوا عن تتويج عمل قاموا به منذ وصولهم إلى الزّعاطشة. وأمام اعترافه بالفشل، عبّر الجنرال هربيون عن نيّته المستقبليّة تجاه الزّعاطشة ،كشف عنها في رسالة موجّهة إلى الوالي العام بالجزائر:

.."سأستعمل كلّ صبري وبما يقتضي بعدي عن المصادر لكيلا أغادر الزّعاطشة قبل أن أدخلها (وأنتقم منها) ".[2]

ولقد عاد في مذكراته إلى الدّرس الذي استخلصه من واقعة 20 أكتوبر، فكتب:

.."بعد 20 أكتوبر فقط، اقتنعت بأنّه لا أمل في استسلام العرب مهما استعرضنا من قوّة ..ولنصبح سادة عن الزّعاطشة (مسيطرين عليها) يتوجّب علينا أن نذهب لنبحث عن المهاجمين في منازلهم "..[1]

1 -A.M.G, 1 H 404, Dossier siège de Zaatcha, Rapport du capitaine de génie Graille sur l'assaut du 20 octobre, Zaatcha, 21 octobre 1849.

2- A.M.G , 1 h 211, Histoire de la campagne des Ziban par le sergent-major Ribes, cahier 2, chapitre 5.

لقد كان وقع ذلك اليوم المشهود عظيما على السكّان. فعندما اطلع النّاس في الصّحراء وفي التلّ على ما أسفرت عليه معركة 20 أكتوبر، انتابتهم فرحة عارمة زادت من سمعة بوزيّان وضاعفت عدد الملتحقين الذين بدأوا يفدون على القرية، ممّا جعل المدافعين عن الزّعاطشة يؤمنون بإمكانيّة النّصر المبين على القوّات الفرنسية نظرا للوضعيّة التي آلت إليها نفسيا هذه الأخيرة، في الوقت الذي ارتفعت فيه معنويّات السكّان.

ولقد استطاع الشّيخ بوزيّان أن يحافظ على تلك الرّوح المعنويّة لمدّة شهر كامل، قبل أن تقرّر القوّات الفرنسيّة هجوما أخيرا سيكون حاسما لإنهاء صمود الشيخ بوزيّان ومن يحيطون به.

مقتنعا مرّة أخرى بأنّ القّوة وحدها هي الكفيلة بكسر مقاومة الزّعاطشة، لجأ الجنرال هربيون إلى استعمال وسائل أخرى توجع السكّان وحلفائهم علّها تحملهم على قبول الاستسلام. وانطلاقا من هذه القناعة بعد هزيمة 20 أكتوبر قرّر الجنرال أن يتوجّه إلى تحطيم أعزّ ما يملك السكان : نخيلهم !!

1-4 قطع أشجار النّخيل

يجب أن نذكّر بأنّ النّخيل يمثّل بالنّسبة لسكّان الصّحراء المورد الاقتصادي الأكثر أهميّة، ويكاد يكون هو الوحيد الذي يؤمّن رزقهم. وخاصّة بالنسبة للسكّان المقيمين (الحضر) في القرى. فعندما لجأت السلطات الفرنسية إلى تخريب هذه الثّروة التي بناها السكّان منذ عشرات السنين بل منذ القرون، يمكننا أن نتصوّر الغضب الذي يتملّك السكّان أمام مثل ذلك العمل الإجرامي المشين.

1 -HERBILLON (Emile), Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha , op cit, p 107.

وعلى حسب تقديرات رئيس المكتب العربي ببسكرة مؤرخة سنة 1848 ، يكون عدد أشجار النّخيل في المرحلة قد بلغ 42.455 نخلة في ليشانة و 17.597نخلة في الزّعاطشة مما يعطي رقما إجماليا ب 60.052 نخلة.

وقد أعطى الجنرال هربيون التقديرات نفسها حيث قدّر ب 60.000 شجرة [1] في كلتا القريتين. أمّا شارل فيرو فقد تحدّث عن 70.000 نخلة[2].

وكان وزير الحربية الفرنسي قبل انطلاق الحملة، قد أشار بصراحة إلى اللّجوء لمثل هذا التصرف المتمثل في المساس بأشجار النّخيل عند الضرورة لحمل السكّان على الاستسلام. وقد ضمّن ذلك في رسالة وجّهها إلى الوالي العام بالجزائر مؤرّخة في 22 سبتمبر1849 .

"عندما تحين لحظة التّنفيذ، سيكون من المفيد التذكير بأنّ النخيل والميّاه هي النّقاط الأكثر تناولا في الواحات ..أنا، أبعد ما أنصح بتدمير كلّي لهذه الثّروة بل بالعكس، يمكن تدمير جزء كفيل بإثارة الخوف ثم استئناف عمليات القطع إذا لزم الأمر، مع الحرص على تنفيذ ذلك بانتظام ودون مبالغة إلى الأمام، إلا بقدر ما تستدعيه الضرورة القصوى، لإجبار السكّان على الاستسلام"..[3]

يبدو واضحا أنّ وزير الحربيّة كان قد رخّص باستعمال قطع أشجار النّخيل كسلاح لردع السكّان، حتى وإن كان قد أمر بتحديد العمليّة وعدم المبالغة فيها.

1 -HERBILLON (Emile), Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha .

2 -FERAUD, op cit, p 404.

3 -A.M.G, 1 H 263, Une lettre du ministre de la guerre au Gouverneur Général, Paris 22 septembre 1849.

ويبدو أن الجنرال هربيون التزم في البداية ب" النصيحة "في الأيام الأولى من الحصار، فاكتفى بقطع عدد محدود من الأشجار ،خاصة تلك التي كانت تعيق عمل الجنود أو تغطي بعض الأهداف. وكانت عمليات القطع تقع بعيدا عن السكّان بحيث لا يستطيعون الدّفاع عن نخيلهم[1]. وكان الجيش الفرنسي يستعمل جذوع النخل كدروع ووقاية من الرصاص مكان أكياس الرّمل أو يستعملها في إحداث معابر فوق الخندق.

لكن، وبعد فشل هجوم 20 أكتوبر، فإنّ المعطيات تغيّرت. فأمام تصلّب السكّان وصمودهم، قرّر الجنرال هربيون – انتقاما منهم -أن يمس بمصالحهم الاقتصادية بقطع أشجار النّخيل على نطاق واسع وبشكل مريع. لقد كان النقيب شارل بوشي صادقا عندما كتب " : أنّ الصّوت الذي كان يحدثه سقوط نخلة أشدّ وقعا على نفوس السكّان من دوي المدافع المتواصل ."[2]وكان الفرنسيون يقصدون من وراء ذلك كسر تضامن سكّان ليشانة مع سكان الزّعاطشة، فاختاروا قطع أشجار الواحة التي تقع بينهما [3] ليصاب الطّرفان.

ففي 25 أكتوبر تموقع الرّائد بونابارت (Commandant Bonaparte) مع رجاله في الجهة الشمالية من ليشانة لحماية الجنود المكلّفين بعملية قطع الأشجار التي كان تقع أمام ذهول السكّان وغضبهم. ولم يعد السكّان يتحمّلون تلك

1 -HERBILLON (Emile), Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha, op cit, p 119.

2 -BOCHER (Charles) Le siège de Zaatcha, op cit, p 87.

3 -HERBILLON (Emile), Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha, op cit, p 119.

المناظر البشعة، فنفذ صبرهم وراحوا يلقون بأنفسهم بدون حذر في معركة من أجل الحياة..

وفي ذلك المشهد الفضيع، كتب الرّائد بونابارت:

.."ولقد انتهى الأمر بالعرب إلى أن تمركزوا في نقطة بارزة كان يشكّلها حائط قريب من مواقعنا التي كانت ممتدّة عبر السّهل .وطالما طلبت من النقيب بيتل (Capitaine Butel) من فرقة المشاة الأفارقة أن يراقب تلك النّقطة بالذّات، لكن سرعان ما أصيب ذلك الضّابط الذكيّ بطلقة بندقية أردته قتيلا، ثم لقي أحد الجنود القناصة المصير نفسه ..وفجأة تجاوز العرب الحائط الذي كان يشكّل حدود مواقعنا وهو ما لم يجرؤوا عنه قبل ذلك طوال مدّة المعارك السّابقة. وكانوا يقذفوننا بالحجارة ، مكشوفي الصدور ، ويطلق بعضهم النّار علينا من بنادقهم، فكنّا نستقبلهم بطلقات ناريّة عن قرب ونحدث فيهم خسائر ..ولقد استنجدت باحتياطي من 20 جندي من فرقة المشاة الخفيفة الذين سارعوا لنجدتنا ومساعدتنا على احتلال بستان على بعد عشرين متر، لنتمكّن من ردّ هجومهم"..[1]

وأمام الحالة الخطيرة التي أصبح عليها الجنود الفرنسيون المهاجمون، سارع الجنرال هربيون بإرسال الفرقة الأولى من الزواف لتحميهم عند الانسحاب تاركين وراءهم جثّتي جنديين وحامل طبلة وبعض التّجهيزات الهامّة[2].

وبينما كان سكّان ليشانة يحمون نخيلهم بتلك الجرأة، جاء سكّان الزّعاطشة لنجدتهم ومساعدتهم، مصوبين نيرانهم على جنود الأخدود الأيمن

1-BONAPARTE, Un mois en Afrique, op cit, pp 89-90.

2 -A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban, par le colonel Borel de Bretizel, Constantine, 14 décembre 1849.

في عملية جريئة كان الغرض منها صرف أنظار الفرنسيين عن مدافعي ليشانة. وفي ذلك المشهد يقول بونابارت:

.."وخرج العرب من الزعاطشة متبوعين بنسائهم اللائي كنّ يشجّعنهم على مواجهة الموت بكلّ شجاعة ..ولقد أظهروا جرأة نادرة في مهاجمتهم لنا إلى درجة أنّنا قتلنا بعضهم على بعد خطوتين من مواقعنا التي كانوا يريدون احتلالها"..[1]

في يوم 2 اكتوبر، واصل الجنود قطع النخيل في المنطقة الشمالية من ليشانة تحت حراسة مشددة من طرف فريقين عسكريين : فريق من الجنود "الأهالي "وفريق من رماة المشاة. وفي ظرف أربع ساعات طرح 1000 نخلة أرضا رغم مقاومة أهل ليشانة .[2]وتواصلت عمليات القطع طوال أيام الحصار، ليصل عدد النّخيل المقطوعة 7000 لسكان الزّعاطشة و 3000 لسكّان ليشانة [3].(نلاحظ أن عدد الأشجار المقطوعة بالزّعاطشة بلغ تقريبا نصف ما يملك السكان).

ولقد ظهر من خلال أعمال ذلك اليوم، أنّ مثل ذلك التصرف لم يكن ليثني عزيمة السكّان في ليشانة والزعاطشة، بل بالعكس زاد في حماسهم ومن بغضهم للفرنسيين، ودفعهم إلى مزيد من الدّفاع لتحصين أرزاقهم.

إنّ قطع آلاف النّخيل بشكل فضيع وخاصة في يومي 26-25 أكتوبر قد أدخل – بدون شكّ -سكّان القريتين في شكل من الحداد والحزن، لكنّه لم ينقص من تضامنهم وصمودهم خلال الأيام المتبقية من الحصار .

1 -BONAPARTE, Un mois en Afrique, op cit, p 63.

2 -A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban, par le colonel Borel de Bretizel, Constantine, 14 décembre 1849.

3-SEROKA, op cit, p 520.

لقد علم السكان الذين وهبوا أرواحهم لقضيّة الشيخ بوزيان أنّ نفوسهم هي أغلى ما يملكون، وأن قطع آلاف النخيل لا يساوي شيئا ولم يكن ليثنيهم عن قناعتهم.

5-1 معنويات الجنود الفرنسيين

لقد علمنا التّاريخ بأنّ قادة الجيوش عادة ما يواجهون خلافات داخل وحداتهم، خاصة أثناء الحملات الطويلة، كحروب الخنادق أو تطويق المدن. وإن كان هذا لم يحدث أثناء الحصار على الزّعاطشة (على الأقل بصفة معلنة)، فإنّ معنويات الجنود الفرنسيين كانت هابطة جدّا، وهو ما يفسّره لنا لاحقا أحد ضبّاطهم.

في العادة، تعوّد الجيش الفرنسي في الجزائر على خوض معارك كلاسيكية سواء في السهول أم في الجبال، ولكنّه وجد نفسه في الزّعاطشة مجبرا على اقتحام قرية محصّنة فرضت عليه ترتيبات هندسة نفّذها ببطء، وكانت أعمالا هندسيّة شاقة كلّفته خسائر يومية في الأرواح. فعلى سبيل المثال خسرت القوّات الفرنسية أثناء إجراء الأشغال ما بين 7 و 20 أكتوبر 47 قتيلا و 179جريحا !ولم تعف الخسائر الباهظة حتى بعض الضبّاط السّامين، حيث أصيب العقيد بوتي (Colonel Petit) من قسم الهندسة برصاصة يوم 9 أكتوبر مات بعد أيام بسببها بمستشفى بسكرة [1].

تلك الظّروف القاسيّة ، ناهيك عن الفشل المتكرّر، كانت تشيع بين الجنود روح الانهزام وعدم التفاؤل بالمستقبل.[2]

1 -SEROKA, op cit, p 511.

2- Le découragement a touché aussi les responsables des hautes instances militaires à commencer par le ministre de la guerre qui afficha des inquiétudes sur la situation à Zaacha dans une lettre adressée au Gouverneur général le 16 novembre 1849 : « Malgré

وعندما يعود الجنود للمعسكر يجدون أنفسهم أمام صعوبات شتّى منها الحرمان من أبسط شيء. وكان عليهم التعوّد والتّأقلم مع حياة الصّحراء القاسيّة.

وفي ذلك كتب الضّابط شارل بوشي:

.." لقد كان مظهر المعسكر الفرنسي حزينا بائسا (كتب بوشي) وهو واقع في سفح جبل قاحط .. وكان معرّضا بصفة مباشرة إلى ريّاح الجنوب المحرقة التي تهب دوما على المنطقة ..لقد كانت دوامات من حبّات الرمل النّاعمة تعيق الجنود وتتعبهم أثناء العمل في الأخاديد كما تؤرقهم في أوقات الراحة بالخيّام. لقد كانت الرّمال تختلط مع الأغذية التي كانت تحظّر في الهواء الطّلق فتعيدها غير مستساغة. اللحوم كانت تأتي من قطيع من الأبقار الغثّة الهزيلة التي كانت تُعلف بالشعير ولا تذبح منها إلا المشرفة على الهلاك بسبب الجوع ..أما البسكويت اليومي، فكان قديما، خامرا ينخره

---

les engagements du général Herbillon avec les tribus sahariennes, engagements heureux dit-on, mais dont les détails manquent, malgré la liberté d'action et la sécurité rendue à la garnison de Boussaâda par le passage du colonel Canrobert et l'arrivée du colonel de Baral, malgré l'expérience que vous exprimez d'un dénouement favorable et prochaine, la situation parait grave » Voir AMG, 1H263, Une lettre du ministre de la guerre au Gouverneur Général.

الاحباط أصاب أيضا المسؤولين العسكريين السامين ابتداء من وزير الحربية الذي سجل حيرة فيما يخص الوضع في الزعاطشة .فوجّه رسالة مؤرخة في 16 نوفمبر 1849 إلى الوالي العام يعبر فيها عن مخاوفه : "رغم مباشرة الجنرال هربيون للعمل مدعوما بقبائل صحراوية، قيل عنها إنها عمل سعيد)جيّد .(غير أن التفاصيل تنقصنا رغم حرية التصرف وتأمين ثكنة بوسعادة بعد مرور العقيد كانروبير ووصول العقيد دي بارال .ورغم الأمل الذي تعبرون عنه، وتوعدون بنهاية قريبة وناجحة، فإنّ الأوضاع تبدو خطيرة في الزّعاطشة "..انظر AMG, 1H263, رسالة من وزير الحرب إلى الوالي العام للجزائر.

الدّود، لأنّه صنع أثناء حوادث جوان 1848 بباريس وها هو يستهلك في عزّ الصحراء !! وكان لا بد لاستهلاكه من غمسه في الماء"..[1]

إنّ الحالة التي وصفها لنا الضّابط الفرنسي بشيء من التّفصيل والتّمحيص تفسر ما آلت إليه معنويّات الجنود من تدهور بعد 50 يوم من تواجدهم في المنطقة، والتي ازدادت تدهورا ابتداء من 11 نوفمبر عندما ظهرت أعراض الكوليرا في المخيّم الفرنسي. إنّ الوباء الذي كان منتشرا في الجزائر وخاصّة في محيط العاصمة وبدرجة أقل في القطاع الفسنطيني، أصاب فجأة كتائب العقيد كانروبير أثناء توجّهه إلى الزّعاطشة وتسبّب في وفاة ما لا يقلّ عن 150رجل [2].ومنذ ذلك، تفشّى الوباء في المعسكر الذي كان يحتوي على عدد كبير من الجنود داخل مساحة محدودة. ولم يكن الوضع إلا ليزيد في انتشار المرض وتعقيد مهمّة الجيش الفرنسي.[3]

1 -BOCHER, Le siège de Zaatcha, op cit, pp 87-88.

2-Dans ses souvenirs, le maréchal Canrobert revient sur l'état auquel se trouvait la colonne lors de son arrivée à Zaatcha le 11 novembre 1849 : « Le moral de l'armée était au plus bas. Les échecs, la température, l'éloignement, le pays dénudé et triste, tous contribuait à faire le dégout ; l'arrivée des Zouaves rendit la confiance, C'était le signal de la fin.. » Voir BAPST Le maréchal Canrobert, Souvenirs d'un siècle, p 480 .

في مذكراته عاد الماريشال كانروبير إلى الوضع الذي كان يتواجد عليه الجنود لحظة وصوله إلى الزعاطشة في 11 نوفمبر 1849 : " معنويات الجيش كانت في أدنى مستوياتها :الفشل الطقس، العزلة، قحط المنطقة، كله كان يساهم في زرع الأسى .فقط قدوم الزواف أعاد الأمل .. وبقدومهم بدأت إشارة النهاية." (نهاية المأساة بالنسبة للفرنسيين) .انظر مذكرات الماريشال كانروبير الموسومة : مذكرات قرن، ص480 .

3 -QUESNOY, Relations médico-chirurgicales de l'expédition de Zaatcha, Recueil des mémoires d médecine, de chirurgie et de pharmacie militaire, 1850, 2ème série, p 248.

.. "في كل لحظة (كتب شارل بوشي) كنا نسمع أنين أولئك البؤساء من الجنود الذين طالهم الدّاء. إنّ أنين آلامهم الذي كان يختلط بدويّ المدافع وزمجرة الرّيح بين جريد النّخل كانت تلقي على النّفوس والأفئدة حزنا عميقا ..فما أتعس ذكريّاتنا عن مثل تلك المشاهد " !! [1]

رغم الاجراءات التي اتّخذها الفرنسيون للحدّ من انتشار الوباء بعزل المصابين أو نقلهم بسرعة لبعادهم من المخيّم واصل الوباء انتشاره بسرعة .[2]وفي ذلك كتب الدكتور كوزنوا (Quesnoy) أحد أطبّاء الجيش الفرنسي:

"لقد كانت من أخطر التعقيدات التي حدثت في وسط الحصار(كتب كوزنوا)، حيث كان معظم الجرحى يموتون من الكوليرا، دون أن نتمكّن من وقف الهلاك".[3]

وعلى حسب تقديرات النقيب شارل بوشي فإنّ معدّل الاصابات اليوميّة كان ما بين 30 إلى 40 في اليوم. وفي المجموع هلك 250 رجلا بفعل داء الكوليرا والسّعار .[4] (Dysenteie)

لقد كانت إذن، معنويات الجنود الفرنسيين منحطّة طوال مدّة الحصار على الزّعاطشة، وهم المتعوّدون على الانتصارات السّهلة التي كانوا يجنون ثمارها

BOCHER, Le siège de Zaatcha, op cit, p 91.

2 -HERBILLON (Emile), Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha, op cit, p 143.

3 -QUESNOY, L'armée d'Afrique, op cit , p 286.

4- BOCHER, "Le siège de Zaatcha, op cit, p 91. A noter que le choléra a aussi frappé les habitants de Zaatcha et des oasis voisines : on ignore toutefois le nombre des victimes.

مع العلم أن الوباء أصاب سكان الزعاطشة والواحات المجاورة لكننا نجهل عدد الضحايا.

بأقلّ الخسائر . لقد وجدوا أنفسهم أمام خصم كبّدهم خسائر يوميّة لم يكونوا يتوقّعونها، زيّادة عن مواجهتهم للأمراض والأوبئة. كما كان عليهم القيّام بأعمال هندسيّة شاقّة تحت ظروف مناخيّة شاقّة تحت درجات حرارة محرقة .وهو ما جعل بعضهم يقرّون بعد حسم المعركة، بأنّهم ارتكبوا أعمالا شنيعة (جرائم) غير مسبوقة؛ وكان ذلك بالنسّبة إليهم انتقام، قد ينسيهم جزءا من ماضي معاناتهم أمام الزّعاطشة[1].

إنّ تغطيّة واحة الزّعاطشة بكاملها والتي يبلغ محيطها 12 كلم، كانت تستدعي قوّات كبيرة. فرغم إرسال قوّات إضافية كثيرة من طرف الوالي العام لتعزيز القوّات الموجودة من قبل في الواحة لم يكف ذلك إلا لمباشرة أعمال الهندسة، و تشديد الحراسة ومواكبة قوافل الاتّصال اليوميّة بين بسكرة والزّعاطشة. ولذلك كان الاقتراب من القرية ممكنا إلا من جهة الشّرق بينما بقيّت الجهة الغربيّة مفتوحة تسمح للسكّان بالإبقاء على اتّصالهم بمحيطهم الخارجي. ولقد ساهم الموقع الجغرافي للزّعاطشة في تعقيد مهمّة الفرنسيين، لأنّ تقدّمهم نحو القرية كان يستدعي قطعهم لحواجز كثيرة : اجتياز غابات النّخيل وتجاوز سواقي السقي وخاصة خندق عميق وعريض، مغمور بالماء .كلّ هذه العوامل جعلت تقدّم الفرنسيين بطيئا ومحفوفا بالمخاطر وجنّبت القرية تدميرا كليّا بواسطة المدفعيّة، كما جنّبها هجوما كاسحا.

1- Voir sur ce point le récit du capitaine Bocher, dans « Le siège de Zaatcha », op cit, p 74.

للمزيد طالع، النقيب شالرل بوشي حصار الزعاطشة، ص.74

وخارج هذه الاعتبارات، يجب القول إنّ دفاعات الزّعاطشة كانت محكمة وشجاعة، ساهمت في إطالة الحصار، وكان المدافعون عن القرية يريدون كلّ مرّة إعادة نجاحهم في صدّ العنوان كما فعلوا في 16 جويلية 1849 .

الفصل الثاني

المدافعون عن الواحة
بين الاستراتيجية والصّمود

في إحدى المعارك التي وقعت أثناء الحصار على الزّعاطشة، أصرّ الرّائد بونابارت على الاحتفاظ بسيف أحد المدافعين عن القرية وجده ملقى بجانب صاحبه الذي استشهد أثناء القتال. وقال الضّابط" إنّه سيحتفظ به كذكرى نفيسة تعبّر عن شهامة المدافعين عن الزّعاطشة وعن شجاعة هذا العربي الذي مات من أجل وطنه "..[1]ولم يكن هذا الضابط وحده هو من عبّر عن اندهاشه أمام المقاومة المثاليّة للمدافعين عن الزعاطشة. فشهادة النقيب دي نوفو الباحث المختص في الشؤون العربية تعكس آراء غيره من الضبّاط الفرنسيين الذين عايشوا من قرب أو من بعد تلك الانتفاضة الشجاعة .

"يجب احترام الحقيقة مهما كان الرّأي .. فمهما كان الرأي الذي نتخذه حول الزعاطشة والكيفيّة التي أدير بها الحصار عليها، يجب أن نقرّ بأنه لا يوجد مكان آخر في إفريقيا واجهت فيه قواتنا مقاومة بتلك الحدّة والقوّة وطول المدّة، وكبّدتنا خسائر مؤلمة ".[2]

1-2 ذاكرة الماضي.

لنجدة شيخ العرب محمّد بن بولخراص بن قانة سنة1831 ، وتخليصه من غريمه فرحات بن سعيّد، سار الباي أحمد بنفسه إلى الزّاب. وبعد دخوله المظفّر إلى بسكرة كبّد أنصار فرحات بن سعيّد هزيمة فادحة بمراح الجازية. ولم يجد فرحات إلاّ اللّجوء إلى الزّعاطشة.

سارع الباي إلى تطويق القرية لتخويف السكّان ثم طالبهم بتسليم فرحات بن سعيّد لكن دون أن يظفر منهم بالاستجابة. فشرع في قطع أشجار النّخيل

1 -BONAPARTE, Un mois en Afrique, op cit, 63.

2 -A.M.G, 31 M I 7, Lettre adressée par de Neveu à Thomas Urbain le 7 décembre 1849.

ليثنيهم عن العدول عن رأيهم ولكن بدون فائدة، فقرّر أن يقوم بهجوم عنيف على القرية .[1]فكان ذلك أوّل حصار متبوع باكتساح شامل تتعرّض له الزّعاطشة في تاريخها.

" لقد كانت المحاولة الأولى للهجوم عنيفة جدّا (كتب الملازم سيروكا) حاول أثناءها أهل الزعاطشة الدّفاع عن نخيلهم، لكنّ المهاجمين أرغموهم على العودة إلى قريتهم بعد أن كبّدوهم خسائر كبيرة. ولكنهم عندما تحصّنوا وراء جدرانهم ووراء خندق عظيم استطاعوا أن يكيلوا المهاجمين كيلين حيث كان يسقط رجل ميتّتا أو جريحا إثر كلّ طلقة بارود".[2]

ولقد فشل باي قسنطينة، رغم محاولات عساكره ومدفعيته على تطويع القرية فاضطرّ إلى الانسحاب تاركا وراءه خسائر كبيرة قدّرت ب 200 قتيل و 200 جريح. وما كان على شيخ العرب محمد بن بولخراص إلاّ أن يحلّ المشكل مع فرحات بن سعيّد بالتّفاهم السلمي العقلاني.[3]

ومن بين المدافعين عن الزّعاطشة عام1849 ، يوجد رجال ممّن عايشوا حصار الزّعاطشة الأول من طرف الباي أحمد، ولعلّ أشهرهم هو بوزيّان الذي أبلى البلاء الحسن في الدّفاع عن قريته [4]. إنّ مقاومة سكّان الزّعاطشة للباي بقيّت راسخة في أذهانهم ثم استيقظت فجأة عندما رأوا الخطر الفرنسي يداهمهم. ولقد تمكّنوا على مرّتين في جولية وفي أكتوبر 1849 من صدّ هجومين فرنسيين كبيرين أيقض فيهم روح التصدّي والانتصار، لكنّ

1 -SEROKA, op cit, p 387.

2 -SEROKA, op cit, p 387

3 -Ibid.

4 -Voir son rôle dans le combat dans le 2ème chapitre de la première partie.

عد إلى دور بوزيان في المعركة في الفصل الثاني من الباب الأول .

العدوّ هذه المرّة كان مختلفا. ولقد ظلّ شعراء الشّعر الشّعبي يمجّدون ذكرى انتصار 1831 ويؤججون حماس الجماهير، ومن بينهم محمّد الليشاني.[1]

واثقون من تجربتهم في الدفاع عن قريتهم، استقبل سكّان الزّعطشة قدوم الفرنسيين بنوع من الاعتزاز بالنّفس والثّقة في التصدّي لأي عدوان مدفوعين بخلفيّة الجهاد المقدّس[2].

ولقد استطاعوا أن يجلبوا أنظار القطاع القسنطيني بأكمله بل الجزائر بأكملها نحو قضيتهم. وكيف لا يستطيعون إثارة اهتمام الجميع وهم المعتزون بماضيهم ، الواثقون من مستقبلهم؟ وكانت تلك هي العوامل التي جعلتهم يصمدون طويلا أمام القوّات الفرنسيّة.

1- Voir le poème dans l'annexe

انظر قصيدة محمد الليشاني في الملحق

Quand est venu, le moustachu Hadj Ahmed le Tyran

De nombreux soldats et mille goums l'accompagnent

IL les a rassemblés au Tell oriental, de Biskra et des Zibans

Nous l'avons battu malgré ses mille cavaliers et il est parti mécontent.

Les Gens de Lichana sont des guerriers qui tombent sur l'ennemi comme des éperviers.

كي جاء بوشلاغم الحاج أحمد مولى الطغيان

جاب عساكر مجمولة وجاب الف من الفرسان

فزّعها من التل الشرقي ومن بسكرة ومن الزيبان

غلبناه وراح في هانة خايف مع عشر ميا قومان

أهل ليشانة أنتاع الزّدمة يتهدّو مثل العقبان

أهل الراي مع المشورة من بكري ناس شجعان

2 -A.M.G, 1 H 263, Une Lettre du ministre de la guerre au Gouverneur Général, 16 novembre 1849.

2-2 الزّعاطشة، الملتقى الرّمزي

قال سيروكا : " لنعطي الطابع الحقيقي لهذه الدّفاعات - التي مهما كان - تبقى مشرّفة لشجاعة الأهالي، يجب أن نقول إنّ الزّعاطشة تحوّلت منذ شهرين إلى ميدان مغلق يؤمّه كلّ مُشاغب ومتعصّب يأتي من محيط القرية ليطلق النّار على الفرنسيين "..[1] والتعبير للملازم سيروكا.

والحقيقة، أنّه ما بين جويلية ونوفمبر1849 ، أي لمدّة خمسة أشهر، لم تتوقّف الوفود المقاتلة عن الوصول يوميّا إلى الزّعاطشة قادمة من الأوراس والزّاب والصحراء. وكان الدّخول إلى القرية أو الخروج منها ميسّرا وخاصة من الجهة الغربيّة ومن المعبر المؤدّي إلى فرفار، لأنّ الفرنسيين الذين كانوا منقوصين من الوقت ومن التّعداد لم يتمكّنوا من غلق كلّ المنافذ بأعمال هندسيّة للاقتراب من القرية، واكتفوا بالقيّام بدوريات متحركة حول الواحة، بينما كان معظم الوافدين يصلون ليلا بحريّة تامّة.

"فمنذ وصول الحملة (كتب الرائد لبرتفيلوا) ظلّ سكّان الزعاطشة على اتّصال دائم مع محيطهم الخارجي بسهولة كما كانوا عليه من قبل. وكانوا يستطيعون إخراج جرحاهم وإدخال المؤونة والذّخيرة والمقاتلين بدون حواجز. هذه الوضعية ساهمت في تعقيد حالة الحصار وإطالته لأنّ الواحات المجاورة كانت تعتبر إرسال النّجدة إلى الزّعاطشة واجبا مقدّسا، ولذلك كانت وفود جديدة من القاتلين تصل يوميا. وكل يوم كذلك، كان

1 -SEROA, op, cit, p 518.

العرب المجاورون للقرية يأتون عبر البساتين لإزعاج الفرنسيين الذين وجدوا أنفسهم بين نارين "..[1]

هؤلاء المقاتلون الوافدون كانوا هم من" يغذّون" شجاعة وعزيمة سكّان الزّعاطشة على مواصلة المقاومة. وكانوا كلّما وصلوا استقبلوا استقبال الأبطال تحت طلقات البارود وزغاريد النّساء .[2]وكانت أعدادهم تختلف حسب أهميّة أعراشهم (قبائلهم) .فعلى سبيل المثال سجّل الجنرال هربيون في 13 أكتوبر1849 ، وصول 380 من عرش أولاد ساسي أحد بطون أولاد نايل .[3]ولذا إنه من الصّعب ضبط عدد القاتلين داخل الواحة والقرية طوال مدّة الحصار، لأنّ العدد كان يتغيّر باستمرار حسب الدّاخلين إلى القرية والخارجين منها.

فعند احتلال الزّعاطشة في أواخر نوفمبر1849 ، قدّر الفرنسيون المقاتلين العرب بحوالي 800 رجل بدون حساب الجثث التي كانت تحت الأنقاض، لأنّ خسائر الاقتحام كانت فادحة على السكّان.ومهما قدّمنا من أعداد فإنّا ستكون نسبيّة لأنّ عدد المشاركين الذين تداولوا على الدّفاع عن القرية بلغ 5000مجاهد أو ربّما تجاوز ذلك[4].

1 -A.M.G, 1 H 211, Journal des attaques exécutées devant Zaatcha du 7 au 26 novembre par le chef de bataillon du génie Liberettevillois, Zaatcha, 28 novembre 1849.

2 -HERBILLON (Emile), Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha, op cit,

3-A.O.M, 2 H 25, une lettre du général Herbillon au Gouverneur Général, Zaatcha, 13 octobre 1849.

4 - A titre d'exemple dans l'attaque exécutée par les défenseurs de Lichana et de Zaatcha , le 31 octobre, sur la tranchée, les sources françaises évaluaient le nombre de ses assaillants à 5000 personnes, Voir A.O.M, 10 H 76.

وكما ذكرنا سابقا[1]، فإنّ بعض الضبّاط الفرنسيين يرجعون أحد أسباب تأجّج الثّورة إلى الدعاية التي كان ينشرها أهل المنطقة ولاسيّما المهاجرين البسكريين عن فرضيّة المغادرة النّهائية للفرنسيين للتّراب الجزائري (بسبب هزائمهم ومشاكلهم الدّاخلية) .ولذلك قرّرت السلطات الفرنسيّة التّضييق على هؤلاء النّاشطين ومراقبتهم.[2]

ولقد حملت اندلاع الأحداث السلطات الفرنسية على المرور إلى التّطبيق والتّنفيذ. ففي رسالة مؤرّخة في 8 نوفمبر 1849 ومرفوعة من محافظ شرطة الجزائر (Préfet de police d'Alger) إلى الوالي العام [3] يخبره فيها أنّ جمعيّة البساكرة مكوّنة من رجال أعظمهم من الواحات الثّائرة صراحة ضدّ الفرنسيين مثل الزّعاطشة، ليشانة وفرفار وغيرها. وأنّه اتّخذ مستقبلا، قرار " عدم إصدار رخص تسمح لهؤلاء بالعودة إلى قراهم، ليس البسكريين

على سبيل المثال ففي الهجوم الذي قام به سكان ليشانة والزّعاطشة في 31 أكتوبر، قدّرت المراجع الفرنسية عدد المهاجمين من العرب ب 5000 رجل، انظر المرجع المرقّم:

A.O.M, 10 H 76.

1-A renvoyer au Chapitre (opinions divergentes) et la 2ème partie.

عد إلى فصل آراء مختلفة في الباب الثاني .

2 -A Alger les Biskris étaient divisés en 9 tribus dont chacune résidait dans un quartier de la capitale, leurs représentants dépendaient d'un commissaire central...Voir A.O.M F80 557, Projet d'arrêté concernant la corporation des Mozabites.

في العاصمة كانت توجد 19 قبيلة من البساكرة، كل قبيلة تسكن حيا معينا ويقودهم رؤساء منهم، ويحكمهم محافظ مركزي انظر A.O.M F80 557 تنظيم التجمعات الميزابية.

3 -A.O.M, F 80 557, Une lettre du préfet de police d'Alger au Gouverneur général, 27 aout 1849.

فقط، وإنّما كل الأعضاء المنخرطين في الجمعيّة ".[1]لأنّه وقبل أن يتّخذ القرار ، كان قد علم من عمالة قسنطينة أنّ أعضاء الجمعية بدأوا يغادرون المدينة بصفة جماعيّة مكثّفة منذ خريف 1849 ، وفي ذلك كتب والي قسنطينة :

.. "أيّاما قليلة، وقبل أن تتوجّه قوّاتنا في حملة ضدّ الزّعاطشة، شعرت بأنّ أعدادا هائلة من أهل الصّحراء المعبّر عنهم قبليا بالبساكرة تركوا قسنطينة ليتوجّوا إلى منطقتهم، ومنذ ذلك لم تنته هذه الهجرة إلى درجه أنّه لم يبق بقسنطينة إلا خمسون فردا من أربع مائة من البساكرة"..

وأضاف.." : كلّ ذلك يدلّ على أنّ هؤلاء الأشخاص ومنهم من ينتمي إلى وادي سوف، إنّما ذهبوا لدعم صفوف الأهالي الذين يحاربون الآن الصّفوف الفرنسيّة في الزّيبان" [2]

1 -Parmi les autres mesures prises à l'encontre des Biskris d 'Alger, nous citons celle qui interdisait à toute personne originaire du Sud constantinois de s'inscrire dans les registres de cette corporation et d'exercer un métier à Alger, sauf si elle est porteuse d'une autorisation de sortie de son pays délivrée par le commandant supérieur de Biskra ou de Batna. Voir A.O.M. F 80 557, lettre du préfet d'Alger au Gouverneur Général, Alger 27 aout 1849.

من بين الاجراءات التي اتخذت ضد البساكرة بالجزائر العاصمة نذكر تلك التي تفرض على كامل سكان الجنوب القسنطيني أن يسجلوا أنفسهم في الجمعية البسكرية وأن تكون لهم مهنة محددة بالعاصمة. أما غير ذلك فلا بدّ من رخصة يعطيها القائد الأعلى ببسكرة أو بباتنة لتسمح لهم بالدّخول إلى العاصمة.

2 -A.O.M F 80 557, lettre du préfet de Constantine au Gouverneur Général, Constantine le 25 octobre1849.

وعلى كلّ حال ، فكان من الطبيعي أن لا يبقى البساكرة من أصول واحات الزّعاطشة، بوشقرون وليشانة، غير مكترثين بما يحدث في قراهم. فما كان عليهم لحماية أهلهم وأموالهم إلاّ التوجّه إلى الزّاب للكفاح ضد الفرنسيين مع الشّيخ بوزيّان.

وفي ذلك كتب هربيون:

..."إن بساكرة الجزائر المطلعون على أعمالنا السياسيّة من خلال نشاطنا، يعرفون حتّى ألقاب رؤسائنا، جاؤوا بكثرة ليساهموا بذكاء في دعم الدّفاع ويزيدوا من مصاعبنا"..[1]

تلك المساهمة التي وصفت ب"الذكيّة "تجسّدت في الميدان تحت أشكال مختلفة: من البسكريين من كان يشير إلى ضابط فرنسي معيّن ليركّز عليه المجاهدون طلقاتهم .. ومنهم من كان يقترب من الخندق ويستفزّ الفرنسيين (في الغالب بالفرنسيّة) ليثبّط عزائمهم ويزرع فيهم روح الفشل. فهؤلاء رغم قلّتهم ، مقارنة مع عدد المقاتلين، لعبوا أدوارا حربية معتبرة، لأنّ مجرّد وجودهم كان يحيي روح المقاومة لدى إخوانهم.

ومن بين المدافعين عن الزّعاطشة وُجد أشاص إلى جانب الشّيخ بوزيّان كان لهم باع في مواجهة الفرنسيين من بينهم الشّريف الحاج موسى الدّرقاوي الذي انضمّ إلى المقاومين في العشرين يوم الأخيرة من الحصار مصحوبا مائة (100) من الرّاجلين وستّة فرسان .[2]ولقد مكث الشّيخ الدّرقاوي بالزّعاطشة

1 -A.O.M, 2 H 25, Lettre du général Herbillon au Gouverneur Général, Zaatcha, 3 octobre 1849.

2 -Originaire d'Egypte et membre de l'ordre du Darkawiya, Hadj Moussa est arrivé en Algérie en 1827. En 1835, désirant marcher sur Alger pour combattre les Français il vient s'installer à Médéa avec 1000 à 2000 cavaliers. Refusant de reconnaître l'autorité de

إلى غاية سقوطها في أيدي الفرنسيين واستشهاده بجانب الشّيخ بوزيّان. ومن الشّخصيات الحاضرة منذ بداية الحصار الشّيخ عبد السّلام بن مولاي أرشيد، وقد أصرّ على البقاء إلى النهاية حيث قضّى نحبه يوم سقوط القرية .[1]ولقد ذكرت بعض المراجع الفرنسيّة، بأنّ المبروك بن عزّوز أحد أبناء مصطفى بن ابن عزّوز (البرجي مؤسس زاوية نفطة)كان حاضرا على مراحل .كما كان عليه الحال بالنّسبة للمدعو موسى بن عمر أحد المقاتلين السّابقين في صفوف الأمير عبد القادر في الحضنة [2].

إنّ حضور شخصيات من ذلك الحجم، ساهم بدون شك في رفع هيبة الزّعاطشة وحظوتها.

ونساء الزّعاطشة ؟

---

l'émir Abdelkader, ce dernier lui infligea une défaite décisive à Haouch Amura dans les environs de Médéa. Le chérif avait le temps de prendre la fuite laissant sa famille, ses hommes et ses biens aux mains de l'émir. Depuis, il vivait dans le désert, changeant plusieurs fois de villes avant de gagner Zaatcha au cours du siège. Voir le récit de sa vie raconté par son ami Hadj Qara et traduit par Georges dans la Revue africaine, 1856.

الحاج موسى الدرقاوي ذو أصول مصرية وكان على الطريقة الدرقاوية. جاء إلى الجزائر سنة 1827 . وحاول في أفريل 1835 التوجه إلى العاصمة لمحاربة الفرنسيين فعسكر في المدية مصحوبا ب 1000 أو 2000من المقاتلين لكنه رفض الاعتراف بسلطة الأمير عبد القادر فكبده هذا الأخير هزيمة نكراء في حوش عمورة قرب المدية. وبعد أن تمكن من الفرار تاركا أهله ومتاعه في يد الأمير، صار يتنقل في الصحراء دون مكان قار إلى أن التحق بالزعاطشة أثناء الحصار ..انظر مسيرة حياته التي كتبها صديقه الحاج قارة وترجمها جورج في المجلة الافريقية.

1 -A.O.M, 15 K 25, Dossier intitulé « Documents trouvés à Zaatcha et à la Djébira de Si Abelhafid à Sériana », carnet de 37 lettres, traduction d'une lettre arabe adressée par le chérif Si Abdessalam Ben Molay Archid au cheikh Si Abdelhafid.

2-A.O.M,1 H 6 (1) Compte rendu des événements politiques et des opérations militaires depuis avril 1849, Alger, 22 septembre 1849.

بعيدا من أن يبقين على الحيّاد واللامبالاة فيما يحدث بقريتهنّ، سارعن بالقيّام بأدوار معتبرة في الدّفاع عن الواحة . مراجع كثيرة (فرنسية وعربية) تؤكّد مشاركة النّساء في كثير من المعارك التي جرت حول القرية وفي البساتين. ولقد ذهب النّقيب بوشي إلى أبعد من ذلك، حيث ذكر أنّ النّساء كنّ أكثر شراسة من بعض الرّجال، خاصة في معركة 24 نوفمبر، وفي ذلك كتب:

"أكثر شراسة من الرّجال، كنّ يرسلن إلى النّار (الجبهة) أشدّ المتعصّبين وأكثر الرجال عزيمة في الزّعاطشة"..[1]

ومن الثّابت، سواء في الحملة الأولى أم الثّانيّة، أنّ النّساء كنّ يقمن بدور التّشجيع والتّحفيز على القتال، سواء قبل المعارك أو أثناءها.وكنّ يأتين صفوفا مباشرة خلف الرّجال يحفّزنهم بالصّراخ وبالزّغاريد، ويقمن بدفعهم إلى الأمام حتّى النّهاية.

ورغم أنّ الشّيخ بوزيّان حاول تجنيبهن ثقل المعارك واعفائهنّ، فإنّ بعضهنّ آثرن البقاء في القرية ومشاركة الرّجال في المصير المحتوم نفسه.

3-2 الاستراتيجية العسكريّة

لم يفاجأ سكّان الزّعاطشة بقدوم الجيش الفرنسي يوم 7 أكتوبر1849 ؛ بل بالعكس كانوا ينتظرونه منذ 16 جولية. لكن في تلك المرّة لاحظوا أنّ عدد القوّات كان أكبر وأن قيّادة الحملة أوكلت لقائد القطاع القسنطيني نفسه، وأنّ الجنود الفرنسيين كانوا أكثر عزما من المرّة السّابقة، ومع ذلك أصرّوا على المقاومة إلى النّهاية.

1 -BOCHER Charles, Le siège de Zaatcha, op, cit, p 93.

فأمام قوّات فرنسية ضخمة انتشرت على بعد عشرة أمتار من القرية، لم يجد سكّان الزّعاطشة إلا اعتماد استراتيجيّة دفاعيّة. وقد اكتفوا في البداية باتّخاذ مواقع على السّطوح ومنع أيّ كان من التقدّم نحو جدران القرية. وفي يوم الاستيلاء عن الزّاوية، حاول العقيد بورباكي الاطّلاع على المساحة (الفضاء) الواقعة بين الزّاوية وساحة القرية لمراقبة الآثار التي تركتها المدفعيّة على الجدران، لكنّه قوبل بإطلاق نار مكثّف أجبره على التقهقر بعد أن تلقّى خسارة بشرية كبيرة .[1] ولكن، وباستثناء هجومي 20 أكتوبر و 26نوفمبر، فإنّ الفرنسيين لم يحاولوا القيّام بهجومات فجائيّة على القرية. وكان المدافعون من أعلى القلاع والأسوار ومن السطوح المسنّنة ومن وراء الخندق يردّون عن المدفعيّة الفرنسيّة ببنادقهم بكلّ دقّة مستدفين عمّال الهندسة والضبّاط الذين كانوا يظهرون بين الحين والحين للإشراف على الأشغال. ففي يوم 9 أكتوبر، وعندما كان العقيد بوتي (Colonel Petit) رئيس قسم الهندسة العسكرية يستمع إلى نصائح الملازم سيروكا ، تلقّى رصاصة صائبة هشّمت له كتفه (مات بسببها في مستشفى بسكرة)[2]، ومنها اعترف الفرنسيون ب"مهارة الرّماة الأعداء "كما عبّر عن ذلك الجنرال هربيون في رسالة وجّهها إلى الوالي العام للجزائر يؤكّد فيها على ضرورة

1 -A.M.G, 1 131, Rapport sur les opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban par le général Herbillon, Zaatcha, 28 novembre 1849.

2 -A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de l'artillerie au siège de Zaatcha, par le colonel Pariset, Constantine, 6 mai 1849.

"صيّانة الدم الفرنسي "بكل الوسائل الممكنة بما في ذلك التّحصين القويّ (blindage)كما سبق وأن شرحنا[1].

وكلّما تقدّمت الأشغال للاقتراب من القرية كلما لجأ المدافعون إلى وسائل أخرى لتعطيل التقدّم، ومنها الرّجم بالحجارة، فمعظم من يكشف عن نفسه كان يصاب بقذيفة حجريّة .[2] أمّا أخطر الوسائل التي تسبّبت في مصاعب للفرنسيين، فكانت تتمثل في الشّهب الملتهبة (أقباس ناريّة) .ففي ليلة 5-6 نوفمبر حوالي الثامنة والنصف قذف المدافعون مخبأ من الأخشاب على رأس الأخدود الأيسر بأقباس أحدثت فيه حريقا مهولا. وفي اليوم الموالي أستبدل المخبأ المنكوب بأخر من جلود الأنعام (أغنام وأبقار) . لكنّ مدافعي القرية حاولوا معاودة الكرّة على المخبإ، أملا في إحراقه من جديد.[3]

.."إضافة إلى هذه "..(ويعني بها رمي الحجارة على الجنود) ، كتب النقيب سوفيل (Capitaine Souville) في أحد تقاريره،.." انهال قبس ملتهب تجاوز الوقاية وسقط في الأخدود بين الجنود. وفي الوقت نفسه سقط قبسان مشتعلان آخران على سطح المخبأ الذي التهب بسرعة. ولما أدرك النقيب سانت أندري (St. André) استحالة إطفاء الحريق، أمر بتفريق الجند إلى الوراء وإلى الأمام داخل الأخدود. وسرعان ما امتدّت المادّة الحارقة المكوّنة من الزّيت والقار إلى ألواح وسقف المخبأ الذي التهب بمساعدة الرّيح التي

1 -A.O.M, 2 H 25, Une lettre du général Herbillon au Gouverneur Général, Zaatcha, 13 octobre 1849.

2 -A.M.G, 1 H 131, Rapport sur les opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban, par le général Herbillon, 28 novembre 1849.

3 -A.M.G, Journal des attaques exécutées devant Zaacha du 7 au 26 novembre par le chef de bataillon du génie Liberrevillois, Zaatcha, 28 novembre 1849.

كانت تسوط حول فتحة الأخدود رغم وقايتها بحزم من الجريد التي امتدّت إليها النّار"..[1]

وبعد فشل كلّ محاولة، كان الفرنسيون يستغرقون وقت طويلا في إصلاح الخسائر، ممّا يمكّن المدافعين من فترة ثمينة يجدّدن فيها دفاعاتهم. وفي بعض الأحيان يستغلّ المدافعون فترات ضعف الفرنسيين أثناء عمليات الاصلاح، ليقوموا بهجمات فجائيّة يصلون أحيانا إلى الخندق ويلتحمون مع الجنود الذين يقومون بالأشغال رجلا برجل. وبما أنّ الفرنسيين كانوا حرصين، يستعجلون الوصول إلى ساحة القرية، قاموا بتشديد الحراسة في العشرين يوم الأخيرة لحماية أنفسهم ومعدّاتهم قبل بدء الهجوم الحاسم.

ولم تعد استراتيجيّة المدافعين عن الزّعاطشة-بالاكتفاء بالدّفاع ناجعة لردء الأخطار المحدقة بهم والمتمثّلة في وجود جيش عرمم على بعد أمتار من منازلهم .وكان عليهم اعتماد استراتيجية أكثر جرأة تمثّلت في مهاجمة الأشغال باستمرار طوال مدّة الحصار لتعطيل اقتراب الفرنسين من القرية. وكانوا كثيرا ما يقومون بهجماتهم الفجائية أثناء الليل مستغلين معرفتهم للمواقع والمسالك ممّا كان يمكنهم من إلحاق خسائر بشرية بالفرنسيين [2] والاستيلاء على بعض الأسلحة وبعض المعدّات الهامّة.

1 -A.M.G, MR 1844, Rapport sur l'affaire de la nuit du 6 a 7 novembre 1849 dans la tranchée devant Zaatcha par le capitaine Souville.

2- Le courage des défenseurs de Zaatcha a beaucoup impressionné les Français. Boursel nous rapporte le cas de ce combattant : « d'une force herculéenne et d'une taille colossale, il s'agite au milieu du désordre de la mêlée, renverse tout ce qui s'oppose à son passage, se jette sur un sergent de Zouaves décoré, lu arrache ses croix d'honneur et essuie en se retirant plusieurs coups de fusil tirés précipitamment à quelques distances et dont pas un seul ne l'atteint ou du moins ne le fait tomber. Arrivé sur une imminence

مسلحون ببنادق أو مسدّسات وبأقباس مشتعلة، كان المدافعون عن الزّعاطشة يتوغّلون بكثرة داخل البساتين ويفاجئون عمّال الأشغال الهندسية. وفي ذلك كتب هربيون:

"في كثير من الأحيان، يستغل المدافعون معرفتهم الجيّدة للمسالك، فيخرجون علينا بطريقة مفاجئة، سريعة، تجبرنا على التّراجع عن مواقع سبق وأن استولينا عليها".[1]

غير أنّ المدافعين عن الزّعاطشة لا يستطيعون احتلال المواقع الجديدة تحت وابل من الطلقات المدفعية، فيضطرّون إلى التراجع إلى القرية والاختباء وراء الجدران، ولكن بعد أن يكونوا قد استولوا على بعض المعدّات أو خرّبوها.[2]

(conclut-il), il s'arrête, se retourne et agite en signe de triomphe e ruban de la croix dont il vient de s'emparer.. » Voir Bourseul, Souvenirs d'Afrique, op cit, pp 18-19.

كانت شجاعة المدافعين عن الزعاطشة تبهر الفرنسيين. ويحكي بورسال عن حالة أحدهم.." :بقوّة هرقلية وبجسم عملاق فاهر كان يصول ويجول وسط الالتحام ، يوقع كلّ شيء أمامه ويسقط كلّ ما يعيق طريقه ..وفجأة ارتمى على رقيب (مكرّم) من فرقة الزواف، فانتزع منه نياشينه ..تلقى عدة طلقات نارية من قرب دون أن تصيبه طلقة واحدة أو على الأقل لم تسقطه أمامنا ..ولما وصل إلى نقطة معيّنة، توقّف ، ثم التفت وهو يلوّح بأشرطة النياشين كعلامة انتصار " !! أنظر مذكرات بورسال" : ذكريات من إفرقيا "صفحات.19-18.

1 -HERBILLON (Emile), Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha , op cit, p 83.

2- Les maisons de Zaatcha avaient des rez -de- chaussées au-dessous du niveau du sol que les boulets de canon ne pouvaient atteindre. Ceci explique pourquoi les soldats français s'aventuraient jusque dans ces abris pour en finir avec la résistance.

منازل الزعاطشة معظمها واطئة وطابقها السفلي تحت مستوى الأرض، مما جعل المدافع لا تصيبها، وهو ما يفسر مغامرة الجنود الفرنسيين للوصول إلى المخابئ لإنهاء المقاومة .

منذ العاشر من أكتوبر وبعد تجاوز الصّدمة الأولى، انتقل أنصار الشّيخ بوزيّان إلى الهجوم. في ليلة، اندفع حوال 300 رجل نحو الزّاوية الجنوبيّة الشّرقيّة من القرية أين كانت الأشغال جاريّة ومتقدّمة، وخاضوا معركة ضاريّة مع الفرقة 43 للفيف الأجنبي، لكنّ الهجوم لم يلق النجاح المرجو فعاد المدافعون إلى مواقعهم في القرية. وفي الأيّام اللاحقة، خاضوا هجومات مماثلة متتاليّة ليلة12 ،13 ، ثم 25 أكتوبر .[1] وخلال بداية شهر نوفمبر عاود الثوّار هجوماتهم وتحصلوا على نتائج أفضل. ففي يوم 16 من الشهر نفسه، اندفعوا من الرّكن الجنوبي الشرقي للقرية حيث تسلّقوا الجدران من ثلاثة أماكن مختلفة وفاجأوا الجنود المندوبون إلى الحراسة. وبما أنّ الفرنسيين لم يكونوا قادرين على الصّمود أما الهجمة، تراجعوا تاركن أسلحة وعتادا مهمّين لخصومهم. ولم يستطع الفرنسيون توقيف الهجوم الساحق إلا بالاستنجاد بالفرقة 16 التي تمكنت من صدّ المقاومين .ولقد دام الاشتباك عشيّة كاملة إلى أن انسحب المدافعون نحو القرية تحت وطأة القنابل والقذائف المدفعيّة.[2]

ولكن لا ندري أبفعل الصدفة أم بفعل تحضير مسبق، حدث أخطر هجوم على الفرنسيين وأحدث فيهم خسائر كبيرة ؟ ولقد وقع الاقتحام عندما أوشكت أعمال تحضير الهجوم الفرنسي على الانتهاء . ففي يوم 24 أكتوبر عند منتصف النّهار، وفي وقت كان الجنود الفرنسيون يتبادلون مراسيم تغيير الحراسة، خرج أنصار الشّيخ بوزّيان في هجوم كاسح مقتحمين الجهة

1 -A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban par le colonel Borel de Bretizel, 14 décembre 1849.

2-A.M.G, 1 H 211, Journal des attaques exécutées devant Zaatcha du 7 a 26 novembre par le chef de bataillon de génie Lebrettevillois, Zaatcha, 28 novembre 1849.

الشمالية الشرقية للورشة، ممّا حمل الحراس الفرنسيين على الفرار، ليستولي المهاجمون على القطعة المدفعية رقم 12 ولواحقها. وفي لحظة سقط 4 قتلى من جنود الرماة الفرنسيين وحلّت الفوضى داخل الأخدود الذي يختبئ به الجنود .[1] وفي ذلك كتب قائد فرقة الهندسة ليبرتفيلوا:

..."وبسرعة وجّهنا نحو العدو نيران المدفعية من المنصة رقم 10 إلى أن وصلت فرقة الاحتياط وأخذت تبحث عن العرب داخل صفوفنا وتمكّنت من استرجاع القسم الذي احتلّوه. وقمنا تحت قصف نيران مكثّفة من إعادة تنظيم متارس دفاعنا التي حطّمها العدوّ .[2] ولكنّ العرب المختبئين وراء الجدران وفي البساتين ظلّوا يرشقوننا بنيران كثيفة مشكلين خطرا على مواقعنا. ولتعريتهم، اضطرّت فرقتان إلى تطويق مواقعهم داخل البساتين، ممّا جعل عدونا يضطرب ويتراجع" .

لقد كانت الخسائر الفرنسية فادحة فعلا : 11 قتيلا من بينهم ضابط و 35 جريحا من بينهم ضابطان. وزيادة عن الخسائر البشرية من الجانب الفرنسي، استولى المدافعون عن الزّعاطشة على عدد كبير من البنادق(المتطورة) وعلى تجهيزات هامّة من أثاث المخيّم. غير أنّ ذلك الهجوم المظفّر " والمجهود الأقصى للمدافعين "لم يكن كافيّا، لأنّ القوّات الفرنسيّة تمكنّت، يومين فقط بعد ذلك، من شنّ الهجوم الأخير[3].

1 -A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban par le colonel Borel de Bretizel, 14 décembre 1849.

2-A .M.G, 1 H 211, Journal des attaques exécutées devant Zaatcha du 7 a 26 novembre par le chef de bataillon du génie Lebrettevillois, Zaatcha, 28 novembre 1849.

3 -BOCHER Charles, "Le siège de Zaatcha", op cit, p92.

ولتعطيل تقدّم الفرنسيين نحو القرية، لجأ المقاتلون العرب إلى وسيلة أخرى فاجأت الفرنسين صبيحة 14 نوفمبر. لقد استطاع أنصار بوزيّان بفضل معرفتهم للسّاحة أنّ يصرفوا الميّاه نحو الخندق (الأخدود) الذي يحتمي به الجنود الفرنسيون. وما هي إلاّ لحظات حتى امتلأ الأخدود وفاضت المياه حول السّاحة المجاورة له، غير أنّ الفرنسيين اهتدوا إلى حلّ مكّنهم من تصريف المياه نحو البساتين ولم يبق إلا الطّين في الأخدود الذي عاد إلى طبيعته العمليّة.

ويجب القول إنّ مقاومة أهل الزّعاطشة ما كانت لتتّخذ ذلك الحجم الضّخم لولا مساعدة أهل ليشانة. إمّا بحضورهم الجسميّ في المعارك وإمّا بخوضهم لمعارك خاصّة ضدّ الفرنسيين حول قريتهم (ليشانة) وخاصّة بتاريخ 20 أكتوبر 1849 . فسكّان ليشانة لم يدّخروا جهدا في إسعاف ودعم جيرانهم. وكان مقاتلو القريتين يشتركان في صفة واحدة ، صفة الهجوم المفاجئ ..وذلك ما قاموا به على زوايا متعدّدة، ولاسيّما في المعركة التي حدثت يـــوم 31 أكتوبـــر. وفـــي ذلك يـــقول العقيد بـــوريل دي بريتـزل (Colonel Borel de Bretizel) :

500.."أو 600 عربي خرجوا فجأة من ليشانة والزّعاطشة واقتحموا الأخدود الأيسر داخل البساتين بحثا عن نقاط خاليّة للعبور، لكنّهم ردّوا من كل الجهات، فانسحبوا تاركين قتيلين على حافة دفاعنا.

حانقون (غاضبون)، تجمّعوا مرّة ثانيّة وشنّوا هجوما قويا (استعراضيا) على المعسكر"..[1]

1 -A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de l'artillerie au siège de Zaatcha, par le colonel Pariset, Constantine, 6 mai 1849.

إنّ الدّعم الذي أسداه سكان ليشانة لسكان الزّعاطشة، كان يعطّل تقدّم الأشغال الهندسية للاقتراب من القرية، كما كان يعيق عمل الفرق العسكريّة المتنقلة حول الواحة قصد المراقبة. وكان الفرنسيون يعاقبونهم بقطع نخيلهم ورجم قريتهم بين الفينة والفينة بقذائف مدفعيّة.

ورغم بعض الفتور في الأيّام الأخيرة من الحصار[1]، فإنّ سكّان ليشانة لم يتوقّفوا عن دعم أنصار الشّيخ بوزيّان إلى النّهاية.

لقد كلّفت المجهودات الجبّارة التي بذلها المدافعون عن الزّعاطشة أثمانا باهظة في الأرواح والممتلكات. وسيكون من الصّعب تحديد ضحايا ثورة الزّعاطشة، لأنّ معظمهم كان يسقط داخل القرية ويدفن داخلها وفي كثير من الأحيان خارجها. ولقد حاولت مصلحة الشؤون العربية في إقليم بسكرة من جمع معلومات بواسطة " القوم" الذين كانت لهم اتّصالات بسكّان واحات الزّاب الضّهراوي ، تقدرّ عدد ضحايا الاشتباكات التي وقعت ما ين 7 نوفمبر إلى 25 نوفمبر1849 ، ما بين 200 و 500 ضحيّة.[2]

1 -Dans les derniers jours du siège, devant les projectiles qui tombaient sans cesse sur le village, une délégation de Lichyana se présenta devant les Français pour engager des discussions de soumission. Le général Herbillon leur a demandé des otages et les représentants de Lichyana sont partis sans revenir.

في الأيام الأخيرة من الحصار، وأمام تساقط القذائف المدفعية التي كان تتساقط بدون توقف على القرية، حاول وفد من ليشانة الاتصال بالفرنسيين لفتح نقاش، لكن الجنرال هربيون طلب مهم رهائن، فانسحب الوفد ولم يعد أبدا.

2 -A titre d'exemple, le rapport établi par le commandant Dubosquet chef du bureau arabe de Biskra sur les pertes arabes pendant la journée du 7 octobre a donné lieu aux chiffres suivants : 35 tués répartis comme suit : Zaatcha 10, Beni-Khélil 10 , Ouled-Djellal 6 , Bouchagroune 2, Ouled-Salah 15, divers contingents 7.

ومهما كان عدد الضحايا كبيرا، فإن الفرنسيين يقولون بأنّ السكّان لم يطلبوا " الأمان "يوما. وحتى في يوم 25 نوفمبر، عندما قدّم الجنرال هربيون التّحذير الأخير ردّ عليه المقاتلون بوابل من الرّصاص وباستعراض للقوّة.

ولقد حاول بعض الفرنسيين تفسير تلك" الإستماتة" ب " التعصّب الدّيني ."

أمّا البعض الآخر، ومن بينهم الجنرال هربيون فقد أعطى تفسيرات أخرى:

.."بما أنّ معظم المقاتلين كانوا من خارج القرية، فإنّ الخسائر لم تكن لتحدث حدادا كبيرا في الأوساط العائليّة، وهو ما مدّد في طول الحرب على القرية"..[1]

إنّ سكّان الزّعاطشة، كغيرهم من الشّعوب، لهم حساسيّة التأثّر بالخسائر، بفقدان ذويهم وأعزائهم ولكنّهم آثروا التّضحية. ولذلك يجب البحث عن أسباب إصرارهم في الجانبين الدّيني و" الوطني "أيضا .[2]

وعلى حسب تقرير دي بوسكي رئيس المكتب العربي ببسكرة، فإن الخسائر العربية يوم 7 أكتوبر كانت 35قتيلا موزّعين كالتالي : الزّعاطشة10 ، سيدي خليل10 ، أولاد جلال06 ، أولاد الصالح15 ، بوشقرون02 ، كتائب مختلفة07 ..

1 -HERBILLON (Emile), Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha , op cit, p 74

2 Le chef de Bataillon Bonaparte (P.N) cite l'exemple de ces paroles prononcées par un défenseur de Zaatcha grièvement blessé : « De retour au gourbi du colonel, il ne se passa pas longtemps que j'entendais des cris d'un Arabe qui, atteint par nos balles se plaignait d'une voix lamentable. Je demandai la signification de ses paroles à un interprète qui me les traduit ainsi « Roumis ! disait le blessé ; que vous avais-je fais pour me traiter ainsi ? Mon sang coule, mais je suis content de mourir pour ma patrie et ma religion. » Voir Bonaparte, Un mois en Afrique, p71.

كتب بونابارت، رئيس فرقة، هذه الكلمات نطق بها أحد جرحى الزعاطشة قبل موته إثر جرح بليغ : "لدى عودتي إلى كوخ العقي(قربي) لم يمر وقت طويل حتى سمعت صراخا عاليا لعربي أصيب

إنّ أحد عوامل قوّة ثورة الزّعاطشة يكمن في أنّها كانت مقادة من طرف رجل واحد وهو الشيخ بوزيّان. لقد كان ذلك القائد الفذّ يتمتّع بسلطة مطلقة أمام كلّ أنصاره ومساعديه. وكان حضوره الدّائم بالزعاطشة وفي كل المعارك يلهب المشاعر ويشجع أنصاره على مواصلة المقاومة. فرغم صعوبة الأوضاع، أبرز الشّيخ شجاعة نادرة مع عزّة في النفس ونشاط مستمر إلى النهاية.

ولقد زاد حضور مقاتلين بأعداد هائلة توافدوا من آفاق ورحاب متعدّدة من تسخير كلّ الطّاقات الكامنة في نفوس المقاومين، في وقت أبرز السكّان قوّة تمسكهم بالجهاد المقدّس للدّفاع عن رمزيّة مقوّماتهم المقدّسة، وهو ما كان يزيل عنهم كلّ إحجام أو تردّد، فكانوا يقارعون بكلّ شجاعة العدوّ الفرنسي على مشارف معسكره محدثين في صفوفه خسائر فادحة، بعد أن تعوّدوا على دوي المدافع وصمدوا أمام كلّ أنواع الحرمان والحصار. ولقد سخّر المقاومون كلّ ما يملكون من قوّة معتمدين على الذّكاء في تصريف طاقاتهم : فكانوا يهاجمون في الوقت المناسب ويختارون الأهداف المناسبة ويستعملون عنصر المفاجأة لمباغتة عدوّهم.

فإن كانت مقاومة الزّعاطشة قد بلغت من القوّة ما بلغت، فإنّ بعض ذلك يرجع إلى الدّعم الخارجي المادي والمعنوي الذي لقيته من محيطها القريب والبعيد، لأنّ الحملة الفرنسية على القرية، كان عليها أن تواجه اضطرابات

برصاصنا يدلي بكلام بصوت مؤثر، فطلبت من أحد المترجمين أن يفسر لي ما يقول، فترجم كلماته كالتالي :" أيها الرومي ! ما ذا فعلت لك حتى تعاملني بهذه الطريقة؟ إن دمي ينزف ولكنني سعيد بأن أموت في سبيل ديني وفي سبيل وطني ".انظر بونابارت، شهر في إفريقيا.

في الحضنة وفي الأوراس ولدى قبائل وشخصيات مؤثّرة كانت تساند الشّيخ بوزيّان بقوّة.

الفصل الثالث
حصار الزّعاطشة من منظور خارجي
علامات التّضامن

إنّ استمرار حصار الزّعاطشة حمل معظم سكّان الجنوب القسنطيني على رفع راية الثّورة سواء في الأوراس، في الحضنة أو في بوسعادة. وكانت قرى كثيرة من المنطقة قد انخرطت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في قضيّة الشّيخ بوزيّان وقريته الثّائرة.

ولا بدّ أن نشير إلى القبائل البدوية (الرحّل) والقبائل الأوراسية التي كانت تقارع القوّات الفرنسيّة بمهاجمة القوافل المتوجّهة نحو الزّعاطشة. لقد كانت كلّها، مظاهر تضامن وتآزر لم تضعف إلاّ في أواخر مدّة الحصار.

3-1 الدّعم الفعلي من طرف البدو

عندما بدأت ثورة الزّعاطشة في ماي1849 ، كان البدو متواجدين في التلّ في رحلتهم المتجدّدة. وكان الفرنسيون يعرفون ارتباطهم بالحضر من السكّان فكانوا يخشون من أن ينضمّوا إلى حركة الشّيخ بوزيّان. ولذلك عمد رئيس إقليم بسكرة منذ شهر أوت على منعهم من العودة إلى الزّاب، على الأقل إلى غاية إنهاء قضيّة الزّعاطشة التي كانت تتوقّعها سهلة .[1] لكن ورغم كلّ وسائل التّحذير والتّخويف، غادر البدو التلّ ليصلوا إلى الزّاب في الخريف خلال شهر أكتوبر 1849.[2]

وكالعادة حطّ البدو الرحل مضاربهم حول واحات الزّاب القبلي، وبالطّبع، فإنّهم لم يستطيعوا البقاء خارج ما كان يقع أمام أعينهم بالزّعاطشة من ظلم. وزيّادة على علاقاتهم المتينة مع السكّان الحضر شاهد البدو بحقد

1 -A.O.M, 1 H 6, Rapport du commandant Saint-Germain sur l'insurrection du Zab Dahraoui, Biskra, 10 Aout 1849.

2- A.O.M, 2 H 25, Une lettre du général Herbillon au Gouverneur Général, Zaatcha, 27 octobre 1849.

كبير عمليات قطع أشجار النّخل، مصدر الرّزق الأساسي للسكّان، فلم يلبثوا أن أعلنوا صراحة عن مواقفهم الدّاعمة للثّورة.[1]

ففي 30 أكتوبر، وعندما كانت قافلة فرنسيّة تقوم بأعمال معاينة بين فرفار وطولقة وجدت نفسها مُهَاجمَةً من طرف كوكبة من الفرسان ومن بعض المشاة ينتمون لبدو نصبوا خيامهم في عين المكان ومعلنين عداءهم للفرنسيين. ولما سمع الجنرال بالحادثة، سارع مصحوبا بخيّالته إلى نجدة البعثة، وخاض مع البدو معركة كبيرة قبل أن ينسحب إلى معسكره[2].

وفي اليوم الموالي، ولغض سبر قوّة البدو الذين يقدّرون في مجملهم بين 6000و 8000 رجل من بينهم فرسان، انتدب الجنرال هربيون فرقة عسكرية أوكل لها مهمّة استكشاف حالة الموقع الذي جرت فيه المعركة. وكانت الفرقة مكوّنة من 200 فارس مدعومين بالفرقة الخامسة للرّماة وقطعتي مدفعية جبليّة (خفيفة). ولما وصلت القوّات الفرنسية إلى غابات فرفار تعرّضت لهجوم ضار من قِبل البدو. ولقد استطاع الجنرال هربيون بفضل قوّة السّلاح تفريق المهاجمين، ولو إلى حين. فعندما قرّر الفرنسيون التّراجع نحو معسكرهم، تعرّضوا لهجوم ثالث. ورغم قوّة الأسلحة الفرنسيّة والنار المكثّفة التي كانت تصدر عن مشاة الفرقة، فإنّ البدو استطاعوا ملاحقة الفرنسيين إلى غاية 300 متر فقط من المعسكر الفرنسي الذي كان

1 -Parmi les tribus nomades, il y avait celles qui vivaient à Zaatcha, C'est le cas des Amour, d'une fraction des Ghamra et des O.Kous fraction des Ben Ahl-Ben-Ali.

1من بين القبائل نذكر تلك التي تقطن الزعاطشة ومن بينها العمور ، وغمرة وأولاد كوس من عرش أهل بن علي.

2 -A.O.M, 2 H 25, Une lettre du général Herbillon au Gouverneur Général, Zaatcha, 2 novembre1849.

قائما على كدية المائدة. وفي اليوم الموالي، عاد البدو مصحوبين ببعض سكّان بوشقرون وليشانة وفرفار ليقوموا باستعراض قوّتهم حول المعسكر الفرنسي[1].

لقد شكّل قدوم البدو غير المنتظر مصاعب إضافيّة للفرنسيين، فكان يتوجّب على الفرنسيين القتال على جبهتين : أي داخل الواحة وخارجها. وكان على الفرنسيين دعم الفرق التي كانت مكلّفة بالحراسة وبتغذيّة الحيوانات (الخيل والبغال والأغنام والأبقار) لتحميها من هجمات البدو.

وفي خضم الأحداث، حاول وفد من الشّرفة (الشّرفاء ؟) ومن الأثرياء التقرّب من الفرنسيين ووعدوا الجنرال هربيون بتقديم رهائن بشرط أن يلتحقوا بمضاربهم الشتوية ويعملون على دعوة قبائل أخرى. ولكن المبادرة لم تأت بشيء، لأنّ الوفد كان منقسما على نفسه، كما كان عرش الشّرفة ضدّ المبادرة أصلا .وكان البدو من هذا العرش من بين المهاجمين للقوّات الفرنسيّة حول واحات الزّاب.

وأمّا غمرة الذين كانوا يملكون حوالي 4070 نخلة و 373 شجرة مثمرة في واحة الزّعاطشة، فقد كانوا من أشرس المدافعين ضدّ الفرنسيين[2]. وفي ذلك كتب الجنرال هربيون:

" إنّ غمرة، (كتب هربيون) هذه القبيلة البدويّة وأهلها من أهم ملاّك النّخيل في الزّعاطشة يظنّون أنّ تمديد عمر المقاومة هو أفضل الطّرق للحفاظ على ممتلكاتهم. ولذلك فهم يساعدون بوزيّان بقوّة ويدعمونه

1 -A.O.M, 2 H 25, A.O.M, 2 H 25, Une lettre du général Herbillon au Gouverneur Général, Zaatcha, 2 novembre 1849.

2 -A.O.M, 10 KK 30, Rapport du commandant de la subdivision de Batna, 11 juillet 1849.

بالمؤونة .. وهم من يدفعون القبائل البدوية إلى التمرّد ..وعليه يجب أن تسلّط أقصى العقوبات عليهم".[1]

ورغم كل محاولات التّهدئة مع البدو، ورغم مجهودات شيخ العرب الذي حاول التأثير في الرعيّة إلاّ أن القبائل البدوية استمرّت في دعمها للزّعاطشة والتّضييق على القوّات الفرنسيّة. ففي يوم 12 نوفمبر، تعرّضت قافلة فرنسيّة كانت تحمل الأعلاف إلى هجوم خاطف من طرف البدو على مستوى واحة بوشقرون. وبعد الحادثة، ابتعد البدو عن السّاحة وارتحلوا إلى الضفّة الأخرى لوادي جدي بين واحات أورلال ومليلي على بعد خمسة فراسخ جنوب الزّعاطشة. وبذلك الابتعاد من السّاحة السّاخنة لم يكن البدو ليتخلّوا عن الشّيخ بوزيّان ولكن لحماية أسرهم من بطش الجيش الفرنسي.[2]

أمّا بالنّسبة للفرنسيين، فإنّ مسألة البدو لم تنته عند هذا الحد، لأنّهم كانوا يريدون وضع حدّ نهائي لتمرّد هؤلاء على سلطتهم. وتحضيرا لذلك، قام الجنرال هربيون بعقد اجتماع طارئ يوم 15 نوفمبر مع إطاراته العسكرية ورؤساء الوحدات، تقرّر على إثره ملاحقة البدو ومعاقبتهم. وفي بكرة اليوم الموالي، هاجمت القوّات الفرنسيّة على الساعة الثّانيّة ليلا مضارب البدو مستخدمة عنصر المفاجأة ومعتمدة على قوّات كبيرة قادها كلّ من العقيدين كانروبير (C.Canrobert) وبارال (C. Baral) مدعومين بفرقة من الخيّالة قادها العقيد مربك (C. Mirbeck) وإلى تلك القوّات، أضيف" قوم "

1 -A.M.G, 1 H 131, Une lettre du général Herbillon au Gouverneur Général, Zaatcha , 8 novembre 1849.

2 -A.M.G, 1 H 211, Histoire de la campagne des Zibans, RIBES, Cahier2, Chaptre 8.

قدموا من السّور، من سطيف ومن بسكرة. وفي بكرة اليوم الثّامن من نوفمبر أعطى الجنرال هربيون من أورلال إشارة الهجوم على مخيّمات البدو الذين كانوا يقدّرون ب 3000 خيمة [1]. وفي ذلك كتب ريبس (Ribes) :

.."الفرسان مدعومون بالقوم (كتب الرقيب أول ريبس) ارتموا بحماس وسط خيام البدو متبوعين بالمشاة . حاول فرسان العدوّ المفاجئين التصدّي لقواتنا للحظات ليمكنوا أصحابهم من تهريب القطعان، لكنّهم سرعان ما فرّوا أمام قوّة الهجوم وفجائيته تاركين 200 جثّة على الأرض"..[2]

ولقد استطاع الفرنسيون أن يستولوا على 1500 بعير و 1200 نعجة، بعد أن عاثوا في المخيّم فسادا من نهب وحرق وتقتيل، ولكن بعد أن تكبّدوا 6 قتلى و 23 جريحا .

بعد الحادثة، انقسم البدو قسمين : قسم جاء إلى الفرنسيين يعلن استسلامه ويعيد شراء رؤوس ماشيته، وقسم ناوأ الفرنسيين تماما، رافضا أي اتصال بهم على غرار السّلميّة ورحمان الذين توغّلوا نحو الجنوب دون أن يتصلوا بالفرنسيين.[3]

وعلى كلّ، فقد أضعفت معركة أورلال البدو وجعلت حدّا لمساندتهم لمجاهدي الزّعاطشة الذين حرموا من دعم قويّ، بينما مكّنت الفرنسيين من التّركيز على الواحة أملا في إنهاء المقاومة.

1-HERBILLON (Emile), Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha , op cit, p161.

2 -M.G, 1 211, Histoire de la campagne des Zibans, RIBES, Cahier2, Chaptre 8.

3-Ibid.

2-3 عودة الخليفة السّابق للأمير عبد القادر محمّد الصغير بن الحاج

منذ تراجع حركته سنة 1844 ، استوطن الخليفة السّابق للأمير عبد القادر منطقة وداي سوف بعد مروره على الأوراس وعلى منطقة الجريد (تونس) . رافضا كلّ اتّصال بالفرنسيين.

ولقد عمل محمّد الصغير بن أحمد بن الحاج على ترسيخ تواجده بسوف ومدّ جسور تعاون مع سكّان الزّاب، آملا في أن يلعب دورا ما في مقاومة الاحتلال الفرنسي. وفي سنة 1849 ، مكّنته حركة بوزيّان من أن يواصل الكفاح باسم الجهاد المقدّس.

فمنذ بداية الانتفاضة في الزّعاطشة، صار الفرنسيّون يتوجّسون خوفا من عودة محمّد الصغير بن أحمد بن الحاج إلى السّاحة. ورغم أنّ هذا الأخير لم يعد يملك قوّات كبيرة لمواجهة الفرنسيين فإنّه بالمقابل كان يملك نفوذا قويّا يحتفظ له به سكّان الزّاب، من شأن ذلك أن يمدّد في انتشار الثّورة ويهدّد بجديّة التّواجد الفرنسي.

أمّا الشّيخ بوزيّان، فلا شكّ وأنّه كان يريد أن يستفيد من عودة محمّد الصّغير بن الحاج، ولكنّنا لا ندري إن كان تمكّن من الاتصال به، ولكننّا نعلم أنّه تابع عودته إلى الزّاب بكلّ اهتمام. وكان أنصار الشّيخ بوزيّان يحيطونه علما وبصفة دائمة عن تحرّكات خليفة الأمير الأسبق ما تبيّنه رسالتان وجدتا في الزّعاطشة بعد تنفيذ الهجوم النّهائي.[1]

1 -L'une de ces lettres lui a été adressée par Brahim Ben Yamina : « Je vous apprends, dit-il à Bouziane qu'il n y a aucun doute sur l'arrivée de Mohamed-Séghir Belhadj et demain s'il plait à Dieu, il campera à Ain Naadja. Les Ouled Ameur sont allés d'El-Fayed à Sidi-Ukba. Ses nouvelles sont arrivées et cela est certain. Il est campé entre les Ouled-Amor et Ouled –Hadidja et demain il sera à Ain-Naadja.. » A.O.M, 15 K 25, Dossier intitulé

في بداية شهر نوفمبر1849 ، وصل محمّد الصغير بن الحاج إلى الفيض في الزّاب الشرقي صحبة 50 فارسا وبعض المشاة .[1]وعند اقترابه من سيدي عقبة القرية التي سبق له وأن كان عليها شيخا، سارع القايد أحمد بن شنتوف بإخبار الجنرال هربيون بقدوم خليفة الأمير الأسبق وبالخطر الذي يمكن أن يشكّله في المنطقة لكونه " ما زال يحتفظ ببعض القدر عند النّاس وقد يتسبّب في اضطرابات ." [2]وبدوره كتب هربيون إلى الوالي العام للجزائر بتاريخ 6 نوفمبر يعبّر له عن قلقه تجاه وصول محمّد الصغير وما يمكن أن يترتّب عنه في المنطقة:

.."قيل إنّ ابن أحمد سيتّجه إلى أحمر خدّو (جبل) ليبحث عن إمكانيّة الاستفادة من التمرّد الذي وقع بالأوراس إثر دعوة المرابط سي عبد الحفيظ والمرابط الصّادق بن الحاج. إنّ حضوره بالأوراس لا يمكن لا أن يحرّك حميّة النّاس ويثير فيهم مشاعر سبق وأن بردت بعد سي عبد الحفيظ. وأخشى أن يجدّد تكتيك1844 ، ويثير قبائل السّهول"..[3]

« Documents trouvés à Zaatcha et à la Djébira de Si Abelhafid à Sériana », carnet de 37 lettres, traduction d'une lettre arabe adressée par Brahim Ben Yamina au cheikh Bouziane.

في أحدى هاتين الرسالتين المرسلة من طرف إبراهيم بن يمينة إلى بوزيان قال له فيها" :أخبركم بدون أدنى شك بقدوم محمد الصغير بن الحاج، وغدا إن شاء الله سيحط في عين النعجة(الناقة؟) .أولاد اعمر ذهبوا من الفيض إلى سيدي عقبة .لقد وصلت الأخبار وهذا مؤكد .فهو نازل بين أولاد اعمر وأولاد بو حديجة وغدا سيكون في عين النعجة (الناقة؟)

1 -SEROKA, op cit, p 514.

2 -HERBILLON (Emile), Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha , op cit, p128.

3 -A.O.M, 2 H 25, Une lettre du général Herbillon au Gouverneur Général, Zaatcha, 6 novembre 1849.

ومنذ ذلك، لم ينقطع الجنرال هربيون عن المتابعة اليومية لخطوات محمد الصغير بن أحمد بن الحاج وحركاته. وفي 10 نوفمبر، كتب للعقيد كربوشية ببسكرة يطلب منه أن يفعل كلّ شيء لكيلا يستولي خليفة الأمير الأسبق على سيدي عقبة لأنّ " هذه الواحة - حسب تعبير الجنرال -تشتمل على أغنى مخازن الحبوب من قمح وشعير وهي مصدر تموين الإدارة "..وفي الرّسالة نفسها عبّر له عن استعداده لدعمه بقوّات إضافيّة لمحاربة الخليفة السّابق عن الزّاب[1].

"فلو أنّ تحرّك الخليفة السّابق (أضاف هربيون) يقع ما بين 12 و 15 نوفمبر وتتأكّدون من ذلك، يتوجّب عليكم الاحتفاظ بفرقة لقطع الطّريق عنه ..وسأعمل كلّ ما في وسعي لأرسل إليكم فرقة من الفرسان لمساعدتكم على هذه العمليّة".[2].

ولحسن حظ الفرنسيين، فإنّ محمّد الصغير ظلّ بعيدا عن ساحات المعارك بعد أن حاول طويلا – وبدون جدوى - الاتصال مع سي عبد الحفيظ والشّيخ الصّادق بن الحاج للتّنسيق معهم على خوض الكفاح.

ويبدو أيضا أنّه يكون قد رفض عرضا من البدو الذين طلبوا منه أن يترأسهم لغرض مواصلة الكفاح. وعلى كلّ ، فقد بقيّ بدون نشاط[3] يذكر إلى غاية سقوط الزّعاطشة، ثمّ انسحب إلى منطقة وادي سوف.

1 -A.O.M, 2 H 25, Pièces à l'appui, une lettre du général Herbillon au colonel Carbuccia, Zaatcha , 10 novembre 1849.

2 - Ibid.

3 -Une lettre du général Herbillon au Gouverneur Général, Zaatcha, 2 novembre 1849.

ومع ذلك، فإن مجرّد حضوره في الزّاب قد أجّج مشاعر المقاومين في الزّعاطشة وسخّر لهم مزيدا من المقاتلين الذين انضمّوا إلى المدافعين عن القرية. إنّ حضور خليفة الأمير الأسبق قد أثّر إيجابا في قبائل الأوراس والزّاب ودفعها إلى مزيد من العزم لخوض عمليات عسكريّة .

3-3 انتفاضةالقبائل الأوراسيّة ومشكل الاتصالات

كان إحكام الحصار على الزّعاطشة وتواصله طويلا يعتمد على القوافل التي كانت تأتيه من قسنطينة لتمدّ الجيش بالمؤونة والذّخيرة. وعندما تصل القوافل إلى باتنة في طريقها إلى بسكرة ن يتحتّم عليها أن تسلك طريقا جبليا وعرا محفوفا بالمخاطر (خاصّة مضيق القنطرة الشّهير) قبل أن تطل على سهل الوطاية نحو بسكرة أو مباشرة نحو المعسكر الفرنسي في الزّعاطشة . كما كان يتوجّب على قوافل أخرى أن تسلك الطريق المعاكس لنقل الجرحى نحو باتنة وقسنطينة. ولدعم مقاومة الشّيخ بوزيّان، عمدت قبائل أوراسيّة على تعطيل الاتصالات بين بسكرة وباتنة، وذلك طوال مدّة الحصار.

ففي يوم 23 أكتوبر ، تعرّضت قافلة فرنسية لهجوم من حوالي 200 من الفرسان العرب بين الوطاية وبسكرة. ولمّا علم الجنرال هربيون بذلك، أرسل على جناح السّرعة العقيد ميربك مدعوما ب 100 من الجنود الرّماة و 40 من الصبايحية (السيبايس) لحماية القافلة .[1]وفي اليوم نفسه كتب للوالي العام ليعبّر له عن قلقه وانشغاله بالمسألة:

1 -A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban, par le colonel Borel de Bretizel, Constantine, 14 décembre 1849.

" ..إنّ اتصالاتي عبر باتنة أصبحت مقلقة ..ويلزمني الآن كوكبة من الفرسان لضمان مرور البريد من بسكرة إلى الوطاية..وإذا تأكّدت حركة ابن أحمد بن الحاج ستلزمني فرقة مع كل قافلة للعبور عبر القنطرة إلى الوطاية"..[1]

وبعد تلك الحوادث المتكرّرة أخذت الأحوال تتدهور في الأوراس يوما بعد يوم، فخرج الشيخ سي عبد الحفيظ (الخنقي) عن صمته وراح يقارع القوّات الفرنسيّة في مشونش مدعوما ب 2000 من المشاة وما يزيد عن 200 فارس من أعراش بني بوسليمان، التوابة، السراحنة، الشّرفة، أولاد زيّان الظّهارة وغيرهم.[2]

ولقد انتشرت حالة عامّة من اللأمن إلى درجة أنّ حمَلَةَ البريد الفرنسي كانوا يخطفون أو ينظمون طواعية إلى جانب الثّورة.[3]

1 -Une lettre du général Herbillon au Gouverneur Général, Zaatcha, 24 octobre 1849.

2 -Le retour de Si Abdelhafid ne dura pas longtemps. Bien que les contingents réunis sous ses ordres fussent nombreux, il préféra se retirer à Kebaych chez les Ouled-Abd – Errahman dans les Aurès. D'après certaines sources, il parait qu'il a même demandé l'amen au colonel Carbuccia et que le général Herbillon n'a pas voulu lui accorder sans poser quelques conditions, ce qui a fit avorter le projet. Voir A.O.M , 2 H 25, Mémoire relatif aux événements accomplis dans la subdivision de Batna du 16/9/1848 au 6/12L1849 par le colonel Carbuccia.

إن عودة سي عبد الحفيظ لم تدم طويلا رغم أنه جمع الكثير من الأنصار فإن فضل الانسحاب إلى الكبيش عند أولاد عبد الرحمن. وحسب بعض المراجع يكون قد طلب الأمان، لكن هربيون وضع شروطا تعجيزية أبطلت المشروع .انظر A.O.M 2H 25 مذكرة متعلقة بالأحداث التي وقعت في نيابة قيادة باتنة.

3 -A.O.M 10 H 76, Journal des opérations, par le colonel de Bretizel, Constantine ,14 décembre 1849. C'estce qui arriva le 21 octobre pour les goums chargés d'apporter le courrier d'Alger où ils ont disparu entre Biskra et Zaatcha

وفي 12 نوفمبر أقدم أولاد سلطان على قتل علي باي القايد الذي فرضته عليهم سلطات الاستعمار.[1]

ولمواجهة الأوضاع، عمد الجنرال هربيون على تعزيز الوحدات المتواجدة بسكرة وباتنة. ففي 10 نوفمبر أوفد العقيد كربوشية على رأس قوّات من اللّفيف الأجنبي (Légion étrangère) لخلافة العقيد ميربك (C. Mirbeck) وضمان سلامة الاتصالات ما بين بسكرة وباتنة. وبعد 8 أيّام أرسل إلى بسكرة تعزيزات إضافية من 500 رجل من فرقة جيش إفريقيا و 120 فارسا[2]، طالبا من قايد الحضنة السابق سي مقران الذي سبق وأن عزله في أوت 1849 بعد أن تعدّدت الاضطرابات والانتفاضات عند أولاد سحنون أن يعود إلى منصبه ويذهب مع زمالته المكونة من 50 فارسا ليراقب ويحرس طريق القوافل بين الوطاية وبسكرة .

ومع كلّ تلك الاجراءات ظلّت المواصلات بين بسكرة وباتنة خطيرة . فالبعكس، تضاعفت الهجومات ضد القوافل الفرنسية في العشر الأواخر من الحصار على الزّعاطشة .

ففي 16 نوفمبر، تعرضت قافلة فرنسية من 200 بغل محمّلة بالذّخيرة والمؤونة تحت قيّادة الرائد بطاي (Commandant Bataille) انطلقت من باتنة

وهو ما وقع لحاملي البريد الفرنسي من الجزائر يوم 21 أكتوبر الذين اختفوا ما بين بسكرة والزعاطشة.

1 -A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban, par le colonel Borel de Bretizel, Constantine, 13 novembre 1849.

2 -A.O.M, 10 KK, Un rapport du commandant de la subdivision de Batna, 13 novembre 1849.

محروسة بفرقة صغيرة، إلى هجوم على مستوى واد فوضالة بالقرب من القنطرة من طرف 500 من المشاة وحوالي 100فارس من قبائل أوراسية.
وفي الوقت نفسه، وفي الاتّجاه المعاكس، غادرت قافلة بسكرة وهي تحمل جرحى سالكة طريق الوطاية فالقنطرة تحت حماية النّقيب سوفيل الذي سارع إلى إسعاف قافلة أخرى بقيّادة الرّائد باتاي (Commandant Bataille) تعرضّت لهجوم في طريق باتنة، غير أنّ المهاجمين تفرّقوا بفعل المفاجأة.[1]
وبعد الحادثة، تمكّنت قافلة أخرى من الوصول إلى بسكرة دون مشاكل كبرى .وكان الفرنسيون يخشون منطقة القنطرة التي كانوا يعتبرونها أخطر منطقة على القوافل الفرنسية. وبالفعل فما أن مرّت القافلة المحمّلة بالجرحى بالقنطرة يوم 20 نوفمبر على السّاعة السّابعة، حتّى تعرّضت لهجوم خاطف من قبائل المنطقة التي تحوّلت إلى مشكل مقلق بالنسبة للفرنسيين .[2]وفي ذلك كتب النقيب سوفيل:
.."لقد كان اجتياز الجسر طويلا وشاقا لأنّ القافلة كانت كبيرة تتألّف من 400بعير و 500 بغل. وعلى العاشرة صباحا وصلنا إلى النقطة التي تتقاطع فيها طريق العرش مع طريق مهيّأة للآليات. وكان العدوّ ينتظرنا هناك ولكنه لم يكن من قبل متأكّدا من الطريق الذي سنختاره. ولما علم أننا سنجتاز عبر طريق الآليات، ظهر فجأة بأعداد كبيرة من رؤوس الجبل يمينا ويسارا،

1- A.M.G, MR 1844, Rapport du capitane Souville sur l'attaque d'un convoi de blessés et de mulets dans le défilé d'El-Kantara, Batna 21 novembre 1849.

تقرير النقيب سوفيلعن مهاجمة قافلة في مضيق القنطرة من قيبلة أوراسية، باتنة 21 نوفمبر 1849.

2 -A.O.M 2 H 25 , Mémoire relatif aux événements accomplis dans la subdivision de Batna du 16 septembre 1848 au 6 décembre 1849, par le colonel Carbuccia.

فأمرت برص صفوف القافلة وسط الطريق كما أمرت بفتح نيران مدفعين رشّاشين على المهاجمين الذين دبّ فيهم الاضطراب، فاستغلّ فرسان الملازم فيريه ذلك ليحملوهم على التفرّق "..[1]

بعد ذلك واصل النّقيب سوفيل مسيرة القافلة متجاوزا المواقع اليمنى واليسرى التي كان" يدافع عنها الأوراسيّون بحدّة "حسب تعبيره. لكنّ المهاجمين انقضّوا فجأة على مؤخّرة القافلة، ممّا اضطر النّقيب سوفيل على توجيه فرقة من الرّماة وفرقة من السبايس بقيّادة الملازم ماتياس (Lieutenant Mathias)لمواجهتهم .ورغم ذلك أصرّوا على ملاحقة القافلة ومناوشتها إلى غاية أعالي مضيق صفية ابن المسعي. ومن ثمّ واصلت القافلة طريقها نحو باتنة بدون حوادث تذكر.[2]

إنّ تمرّد الأوراس عن السّلطات الفرنسيّة أقلق كثيرا القائمين على حصار الزّعاطشة. فعلى سبيل المثال عندما اعترض الثوّار قافلة الرّائد باتاي على مستوى القنطرة يوم 17 نوفمبر1849 ، كانت قوّات الجنرال هربيون المرابطة في الزّعاطشة على وشك نفاذ الذّخيرة والمؤونة، غير أنّ القافلة تمكّنت من الوصول بعد ثلاثة أيّام من التأخر. ويمكن تصوّر الحالة النّفسيّة التي كان عليها الجنرال هربيون طوال المدّة التي امتدّت فيها الانتفاضة بالأوراس وأخطارها على الطّريق، فلم يكد يمرّ يوم، إلا ويكتب

1 -A.M.G, MR 1844, Rapport du capitane Souville sur l'attaque d'un convoi de blessés et de mulets dans le défilé d'El-Kantara, Batna 21 novembre 1849.

2 -Dans ce combat, les pertes arabes étaient évaluées à 30 hommes tués et 80 blessés,les pertes françaises de 13.

في تلك المعركة، قدرت الخسائر العربية ب 30 قتيلا و 80 جريحا والخسائر الفرنسية بثلاثة عشر (13).

فيه إلى الوالي العام بالجزائر يعبّر فيه عن تخوّفه وقلقه من الوضع. ولم يزل يطلب الامدادات والتّعزيزات ليتمكّن من إرسال جزء من الفرسان إلى باتنة وإلى بسكرة .

كلّ ذلك كان يثير قلقه، لكن دون أن يفكّر في الانسحاب أو في رفع الحصار على الواحة، لأنّ عمليّة الاقتحام كانت تتطلّب وقتا ليس إلاّ.

4-3 انتفاضة بوسعادة

إلى غاية 1849، لم يفكّر الفرنسيون في احتلال عسكريّ لمدينة بوسعادة المحاذية للشّمال القسنطيني، وكانوا في البداية قد اكتفوا بتعيين شيخٍ عليها في شخص القمري ليمثّل الإدارة الفرنسية بالمدينة . ففي سنة 1849 فقط خطرت للوالي العام أن يقيم ثكنة دفاعيّة من الجنود" الأهالي "تحت قيّادة ضابط فرنسي لتقدير مدى استعداد السكّان للتّواجد الفرنسي ولمراقبة تحرّكات أولاد نايل.

لكن، وبعد ما وقع في الزّعاطشة، قرّر أخيرا، احتلال المدينة بصفة دائمة ومنحها دائرة إدارية.[1]

لنجدة الجنرال هربيون الرّابض بالزّعاطشة أمّام دفاعات قويّة، كان على بعض القوّات الفرنسيّة أن تمرّ على بوسعادة التي كانت تشكّل وصلة عبور إجباريّة نحو الزّاب. ولمّا جاء العقيد دي بارال (Colonel de Baral) إلى بوسعادة ومكث فيها مدّة دون انزعاج من أي شكل من أشكال التمرّد بالمدينة[2]، ناداه الجنرال هربيون إلى الزّعاطشة، فترك وراءه مخزنا هامّا من

1 -A.M.G, 1 H 211, Histoire de la campagne des Ziban par le sergent -major Ribes, cahier 1, chapitre 4.

2 -Selon le colonel Pein, le colonel de Baral a été informé par le cheikh de la ville El-Goumri qu'un marabout de la ville à savoir Ben-Chabira correspondait avec Bouziane et

المؤونة وفرقة من 150 جندي مريض، تحت قيّادة الملازم الأول لابيار (Lieutenant Lapyère)[1].

في تلك المرحلة، وكما حصل للشّيخ بوزيّان في الجنوب القسطيني وما ناله من شهرة حدث له الشيء نفسه لدى سكّان بوسعادة ومحيطها. وكانت رسائله وأخباره تدور عند العامّة وفي أوساط قبيلة أولاد أولاد نائل التي عرفت حسب التعبير الفرنسي " بقوّتها وتعصّبها وبأسها الحربي ."ويعرف أولاد نائل بتواجدهم حول بوسعادة والجلفة. وكان الحديث عنهم محلّ اهتمام بالزعاطشة وخاصّة فيما يتعلّق بمساهمتهم أثناء الحصار وفي ردّ عدوان الحملة عن القرية.[2]

---

les défenseurs de Zaatcha. Le colonel de Baral n'a pas eu le temps ou n'a pas jugé utile d'arrêter Ben-Chabira. Voir Colonel Pein, « Lettres familiales sur l'Algérie », A. Jourdan, Alger, 1893, p XXI (21).

حسب العقيد بين يكون العقيد دي بارال قد أخبر من طرف شيخ المدينة القمري من أن مرابطا بالمدينة ويعني ابن شبيرة يراسل بوزيّان والمدافعين عن الزعاطشة .لكن دي بارال لم يكن له الوقت أو أنه لم ير أي ضرورة في توقيف ابن شبيرة ..أنظر الكولونيل بين" رسائل عائلية عن الجزائر .A " Jourdan, Alger, 1893ص21.

1- A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban, par le colonel Borel de Bretizel, Constantine, 14 novembre 1849.

2 -A titre d'exemple, Ahmed père de Ben-Chabira qui habitait Ain Kehla à quatre lieu de la ville, arriva Boussaâda et répandit le bruit que les Français étaient battus à Zaatcha. Voir Féraud, Histoire des villes de la province de Constantine : Sétif, El-Bordj, M'sila, Boussaâda, Constantine, L. Arnolet, 1872, p 358.

على سبيل المثال جاء والد بن شبيرة الذي يسكن في عين الكحلة إلى بوسعادة وبث أخبارا ودعايات مفادها أن الفرنسيين هزمزا بالزعاطشة ، انظر، شالرل فيرو" تاريخ مدن الجنوب القسنطيني : سطيف، برج بوعريريج، بوسعادة، المسيلة، قسنطينة ".ل .آرولي، باريس،1872 ، ص.358.

ولقد استغلّ ابن شبيرة - أحد مرابطي الرّحمانيّة ببوسعادة – الأجواء السّائدة في الزّاب لتحريك انتفاضة ضد الفرنسيين [1]نظرا لوجود قوّة فرنسية محدودة بالمدينة وهو ما سمح له بالمرور إلى العمل المسلّح.[2]

ولقد بدأ التحضير للثّورة وسط خلافات ووجهات ظر متباينة حول الموقف الذي يجب اتّخاذه. ومن البداية حصل ابن شبيرة على تأييد مطلق من أولاد عتيق، أولاد حركات، أولاد عامر، أولاد عميد وقبائل هامّة أخرى، وقليل من بقي على الحياد أو انحاز إلى الفرنسيين. وعلى إثر ذلك جال ابن شبيرة وسط عرش أولاد نايل الكبير في الباديّة ونال تأييدا كبيرا لدى معظم القبائل، ولم يبق له إلاّ الاعلان عن بدء الانتفاضة.[3]

وفي 18 أكتوبر1849 ، كان أولاد نايل على أبواب مدينة بوسعادة وتحت تصرّف المرابط ابن شبيرة مدعوما بقبائل من داخل المدينة. وفجأة، تعرّضت الثّكنة العسكرية الكائنة بسيدي عطية شمال المدينة إلى هجوم من قبل حوالي 800 مسلّحا.[4]

1 -Parmi les autres causes de l'insurrection, il y a la division traditionnelle entre les chefs des fractions de Boussaâda et le bruit qui court dans la ville, selon lequel un établissement européen serait constitué prochainement dans la ville. Voir Féraud, op cit, p 356.

من الأسباب الأخرى التي دعت إلى الانتفاضة بالمدينة الخلافات التقليدية بين الأعراش والأخبار التي راجت حول عزم السلطات الفرنسية إقامة مؤسسة أوروبية كبيرة ببوسعادة، وهو ما رفضه السكان جملة وتفصيلا ..انظر فيرو، مرجع سابق، ص.356

2 -A.M.G, MR 1317, Boussaâda et son insurrection en 1849, par le lieutenant Lapyère.

3 -FERAUD, Histoire des villes de la province de Constantine, op cit, p 358

4 -A.M.G, MR 1317, Boussaâda et son insurrection en 1849, par le lieutenant Lapyère, op cit.

"..وفجأة هوجمنا (كتب الرّقيب أوّل ريبس) فاضطرّت الفرقة إلى التّقهقر إلى الوراء بعد أن سجّلت بعض القتلى و الجرحى في صفوفها .وشيئا فشيئا، أعيد تنظيم الدّفاع وتمكنّت مجموعة من الزوّاف (Zouaves) بقيّادة رقيب أن تصدّ جزءا من الهجوم الذي استهدف الشّارع الدي يسكنه الشيخ القمري، كما تمكّنت كوكبة أخرى مكوّنة من عدّة اختصاصات من مواجهة العدوّ على مستوى سيدي عطيّة. وبعد ذلك وجد المتمرّدون أنفسهم في اضطراب ممّا دفعهم إلى التفرّق. وبما أنّ الشّيخ كان رجلا قديرا وذكيّا ومتعوّدا على هذا النّوع من الحرب، فقد عمد إلى إقامة متاريس قويّة قسمت المدينة قسمين[1] ".

وأثناء الاشتباكات، تكبّد الجانب الفرنسي خسائر بشرية معتبرة تمثلت في 12 قتيلا وما يفوق ذلك من الجرحى، كما خسر مواقع استراتيجية لم يسترجعها إلا ليلا عندما هاجم العرب على حين غرّة عندما كانوا يحتفلون بنصرهم (المحدود). وبذلك الهجوم المفاجئ، استطاع الملازم لابيير (Lieutenant Lapyère) أن يسترجع المواقع التي كان قد فقدها من قبل. ولقد استغلّ الضّابط الفرنسي الفرصة ليرسل مبعوثا إلى المسيلة وإلى سطيف يطلب تعزيزات عسكريّة [2].

وعلى إثر ذلك، انطلق على عجل النّقيب بين (Capitane Pein) المكلّف بالشّؤون العربيّة ببرج بوعريريج على رأس الفرقة 38، مدعومة ب 12 من الزوّاف وبعض الرّجال من فرقة إفريقيا. وبعد مسيرة شاقّة، وصل إلى

1 -FERAUD Charles, Histoire des villes de la province de Constantine, op cit, p 359.

2- A.M.G, MR 1317, Boussaâda et son insurrection en 1849, par le lieutenant Lapyère, op cit, p 359.

بوسعادة يوم 23 أكتوبر[1]. وفي 24 أكتوبر وصل الخليفة المقراني إلى بوسعادة على رأس 200 فارس. وما لبث النّقيب بين وأن التحقت به تعزيزات أخرى بداية من 2 نوفمبر من بينها فرقة العقيد كانروبير، لكنّ هذا الأخير طلب منه الجنرال هربيون أن يتحوّل إلى الزّعاطشة بعد ثلاثة أيّام فقط، تاركا وراءه مدينة ثائرة[2].

أمّا المنتفضون ببوسعادة من أنصار ابن شبيرة، فقد اتّخذوا مواقف دفاعية وراء متاريس أقاموها بالمدينة. وبدأ أولاد نايل في الانسحاب خلسة واحدا واحدا لكنّهم كانوا يعودون بالتّداول. وفي الأخير قرّر ابن شبيرة الخروج من المدينة واللّجوء إلى قبيلة أولاد عامر في ضواحي بوسعادة، مع إبقاء أنصاره على أهبة الثّورة[3].

ولم تنته حركة ابن شبيرة نهائيّا إلا بقدوم العقيد دوماس (Colonel Dumas) على رأس قوة كبيرة قدمت من المدية في 13 نوفمبر 1849. وكانت مهمّة هذا الأخير تتمثّل في خلافة العقيد كانروبير الذي تحوّل إلى الزّعاطشة، ومواصلة طريقه – إذا استدعى الأمر – نحو الزّاب.

---

1 -Dans ses célèbres lettres familiales, le capitaine Pein a insisté sur le caractère religieux de l'insurrection de Ben Chebira et son lien avec Bouziane. Voir colonel Pein, op cit, p245.

في رسائله العائلية الشهيرة أصر النقيب بين على الطابع الديني لانتفاضة بوسعادة بقيادة ابن شبيرة الذي كان على علاقة ببوزيان فكتب : "لقد صار لبوسعادة شريف وهو المرابط ابن شبيرة الذي راسل بوزيان والذي استطاع أن يجلب الأحياء العليا لدعوته. ولقد تحول سوق المدينة إلى بؤرة متوترة يجتمع فيها الثائرون ليشتروا السلاح والذخيرة لحربهم المقدسة، كما كانوا يصنعون البارود في كلّ مكان، في الشوارع وفي المنازل.." انظر: العقيد بين Pein, op cit, p245

2- FERAUD Charles, Histoire des villes de la province de Constantine, op cit, p 359.

3- FERAUD Charles, Histoire des villes de la province de Constantine, op cit, p 359.

وكان العقيد دوماس على خبرة كبيرة بالشؤون العربيّة، فاستطاع بحنكته أن يحمل المنتفضين على قبول معظم شروطه ومنها دفع خطيئة بقيمة 8000 فرنك في ظرف 3 أيّام وإزالة الحواجز والمتاريس التي كانوا قد أقاموها وإعادة الرّهائن.

وبعد أيّام من سقوط الزّعاطشة عاد العقيد دي بارال إلى بوسعادة ولم يعد أحد من الثائرين يفكّر في حمل السّلاح بعد الحزن الذي خيّم على المدينة إثر انتهاء الشّيخ بوزيّان[1]. وكانت هي الهدنة التي استغلتها السّلطات الفرنسية لتقوم بإعادة تنظيم إدارتها على المدينة[2].

لقد استمدّت ثورة ابن شبيره جذورها من حصار الزّعاطشة. ولقد عمل الشّيخ بوزيّان كلّ ما في وسعه، ووفّق إلى أبعد الحدود في تعميم ثورته حيث وصل نداؤه إلى بوسعادة. وبعد فشل متكرّر، استطاعت القوّات الفرنسيّة الضّخمة الاستيلاء على واحة الزّعاطشة. وكان أولاد نايل من أهمّ النّاشطين في انتفاضة الزّعاطشة، وكانت علاقتهم بأهلها تفرض عليهم الاستجابة للنّداء. ولكن، هناك نقطة هامّة يجب الوقوف عندها،

1 -A.M.G, 1 H 211, Histoire de la campagne des Ziban par le sergent-major RIBES, cahier2, chapitre 7.

2- Après le soulèvement de Zaatcha, les Français créèrent un cercle administratif à Boussaâda. Voir A.O.M, 2 H 25, Organisation du cercle de Boussaada, Alger, 22 janvier 1851.

بعد سقوط الزعاطشة، قام الفرنسيون بإنشاء إقليم إداري ببوسعادة ووضعوا المدينة وما جاورها من قرى تحت قيادة النادي الذي يساعده حاكم البلاد في شخص الشيخ القمري. أما قبائل الحضنة الشرقية التي كانت تحت قيادة ابن مقران تحولوا إلى قيادة الحضنة. أما القبائل التي تقطن جنوب المدينة، فقد تشكّلت منها قيادة أولاد نايل. انظر قرار إعادة تنظيم نادي بوسعادة A.O.M, 2 H 25 المؤرخ في 22 جانفي 1851.

ألا وهي دور الرّحمانيّة في تفجير الثّورة. وكان من الصّعب على رجل مثل ابن شبيرة وهو من أقطاب الرّحمانيّة أن يتخاذل عن الجهاد المقدّس الذي شهره إخوان الطريقة في كامل الجنوب القسنطيني لمواجهة الاحتلال.

ولإظهار عزّته، لم يكتف الشّيخ ابن شبيرة في إعلان الجهاد المقدّس بل عبّر أيضا عن تضامنه المطلق مع إخوانه في الجنوب القسنطيني عامّة وفي الزّعاطشة خاصّة.

عندما رأى المتحالفون مع الزعاطشة تلك القرية تنتفض بقوّة ضدّ القوّات الفرنسيّة الغازيّة، وجد سكّان الجنوب القسنطيني أنفسهم أمام خيار صعب : إمّا المواجهة والتعرّض لكلّ أنواع القمع أو السّكوت السّلبي وترك الأمور تسير بدون ردّ فعل. ولكن، مع تلقّي الحملة الفرنسيّة منذ البداية لفشل متكرّر، فكيف لا يتشّجع السكّان لاغتنام فرصة قتال الفرنسيين. ولذلك، يضاف الضّغط الذي كان يمارسه الشّيخ بوزيّان من خلال مراسلاته العديدة على ضرورة اللجوء إلى الجهاد لصدّ العدوان. وكان من الطّبيعي أن يختار السكّان -الذين كانوا يعانون من آثار الاستعمار- الكفاح المسلّح كوسيلة لانعتاقهم وتحرّرهم.

إنّ الأعمال المسلّحة التي وقعت في الزّاب وفي الأوراس وفي بوسعادة أعاقت كثيرا الجنرال هربيون على تنفيذ مخطّطاته. وكان ذلك العمل هو من أطال عمر الحصار وتسبّب في مشاكل نفسيّة وخسائر بشرية ومادية لم يكن الفرنسيون يتوقّعونها. ولم يكن بوسع الجنرال أن يقوم بعمل فعّال وسريع في ظلّ ما كان يعترض قوافل التّموين بالزّاد والذّخيرة بالأوراس، حيث كانت تتعرّض لمضايقات مستمرّة غير بعيد عن

المعسكرات الفرنسيّة. وكان الجنرال هربيون يتوقّع مثل تلك الأعمال ولكنّه كان يخشى ما يخشى انتشارها على نطاق واسع. ولقد رأينا كيف أنّه تسرّع في هجوم 20 أكتوبر أملا في القضاء على الانتفاضة قبل أن تنتشر في كلّ مكان. كما أدرك مبكّرا أنّ الانتفاضات المحتملة لا يمكن أن تعمّر إلا في ظلّ استمرار المقاومة بالزّعاطشة، ولذلك وجّه كلّ تركيزه إلى تلك الواحة مطالبا بالمزيد من الدّعم وتعزيز القوّات لتدمير الزّعاطشة وجعل حدّ لكلّ ثورة في الجنوب القسنطيني.

الفصل الرّابع
تدمير الزّعاطشة

لقد أظهر فشل هجوم 20 أكتوبر 1849 صعوبة اقتحام الزّعاطشة والاستيلاء عليها. ومنذ ذلك، عمد الفرنسيون على تكثيف عددهم ومعدّاتهم لجعل حدّ للمقاومة. ولقد قاموا كذلك بتسريع أشغال الاقتراب من القرية بتوسيع المعابر فوق الخندق وفتح فجوة ثالثة.

وخلال العشرة الأيّام الأخيرة من نوفمبر، اقتنع الجنرال هربيون بإمكانيّة تحقيق نتيجة ناجحة بهجوم نهائي كاسح. وفي المدّة نفسها أصرّ المدافعون عن القرية مرّة أخرى على كلّ نيّة تدعو إلى التخلّي عن الدّفاع والاستسلام للفرنسيين. ولقد كانوا عقدوا العزم على خوض معركة الشّرف فحسب، بل معركة النهاية.

4-1 الهجوم النّهائي

قسّمت القوّات لتي كانت أعدّت للهجوم النّهائي إلى ثلاث فرق :

الفرقة الأولى مكوّنة من 950 جندي بقيّادة العقيد دي بارال وكلّفت بمهاجمة وسط الواحة.

الفرقة الثّانيّة مكوّنة من 880 جندي بقيّادة العقيد كانروبير، وأوكل إليها مهاجمة الجهة اليمنى من الواحة.

الفرقة الثّالثة مكوّنة أيضا من 880 رجل تحت قيّادة العقيد دي لورمال (Colonel du Lourmel)، وأوكلت إليها مهاجمة الجهة اليسرى .

كما كلّف العقيد بورباكي (Colonel Bourbaki) صحبة 1200 جندي بحراسة محيط الواحة لمنع سكان القرى الأخرى من الدّخول إلى الزّعاطشة وتقديم دعم محتمل لإخوانهم.

وما بين 24 و 26 نوفمبر، وضع الفرنسيون أكواما من المعدّات قرب الفتحات قصد استعمالا في الوقت المناسب (سلاليم، حبال، متفجّرات

وغيرها)[1]. وكانوا عازمين على استخدامها بفعاليّة وسرعة حالما تسمح لهم الفرصة.

وإن كان يوم 24 نوفمبر قد شهد معركة ساخنة بدأها المدافعون عن الزّعاطشة فجأة، فإنّ يوم 25 نوفمبر كان فاترا (يدل على تراجع قدرة المدافعين).

وفي ليلة 26 نوفمبر، قام الجنرال هربيون مع القادة الثّلاثة المكلفين بتنفيذ الهجوم على معاينة الاستعدادات الأخيرة.

وفي صبيحة 26 نوفمبر، وعلى السّاعة السّابعة ونصف صباحا، اصطفّت الجبهات الثلاثة أمام الفتحات في وقت انطلق فيه العقيد بورباكي لمراقبة محيط الواحة بينما شرعت المدفعيّة في قنبلة القرية. على السّاعة الثّامنة، وقف الجنرال أمام الفتحة الوسطى لإعطاء إشارة الهجوم.

بدأ اقتحام القرية من طرف الفرق الثّلاثة في آن واحد بإشارة من الجنرال نفسه فانطلق الجنود نحو الفجوات[2]. في الجهة اليمنى شكّل العقيد كانروبير كومندوس من 16 فردا، كانوا من أوائل من ولجوا الفتحة اليمنى[3]. وبمجرّد وصول الجنود إلى جدران المنازل سقط ضابطان (2) و

1- A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban, par le colonel Borel de Bretizel, Constantine, 14 novembre 1849.

2 -A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban, par le colonel Borel de Bretizel, Constantine, 14 novembre 1849.

3 -Conscient des difficultés de l'assaut, le colonel Canrobert a écrit son testament et l'a remis à un officier d'ordonnance juste avant le début du combat. Naturellement après en être sorti sain et sauf ; il récupéra son testament et le brûla. Il était le premier à bénéficier d'une promotion, puisque quelques jours après, il était promu général de brigade. Voir BAPST, Le maréchal Canrobert, Souvenirs d'un siècle, p 485.

13 جندي قتلى تحت رصاص المدافعين، ولم ينج العقيد كانروبير إلا بأعجوبة[1]، وهو ما كتبه في مذكّراته :

"..ولجنا الفتحة ونحن نزحف على أربع، تسلقنا، تعثّرنا ونحن نتقدّم.. القسم الأكبر من مرافقي قتل.. ولكن الباقين واصلوا الزّحف وأنا على رأسهم حتى دخلنا القرية.."

وواصل :

" هنا : أزقّة ضيّقة ومنازل منهارة وحواجز ! الطلقات النّارية تدوّي من كلّ مكان.. كان يجب علينا تفتيش النازل واحدا واحدا.. كنّا نفقد من رفاقنا كلّما تقدّمنا ولكنّنا كنّا نطعن بحرابنا كلّ من يعرض لنا في طريقنا[2].."

ومن جهته، تمكّن العقيد دي لورمال من الولوج عبر الفتحة اليسرى لكنه وجد أمامه دفاعا قويّا ممّا تسبّب له في فقدان كثير من الجنود بينما تلقّى هو نفسه جرحا على مستوى الكتف. وكان أحد جنود الفرقة قد سجّل تلك اللحظة من بداية اقتحام القرية :

"..قطعنا ثلث المسافة دون أن نتلقّى طلقة ناريّة واحدة.. كان العرب ينتظروننا.. تأخروا لما رأوا سيطرتنا على السطوح .. وبدأت الحواجز.. كان علينا المرور من منزل إلى آخر بالمشي فوق طوالع مسوسّة (هشّة).. أطللنا

وعيا منه بخطورة الهجوم، كتب العقيد كانروبير وصيته وسلمها لأحد الضباط قبيل انطلاق الهجوم بقليل. ولكن، وبعد نجاته بأعجوبة، أحرق الوصية. وكان هو أول من استفاد بترقية بعد أيام فقط من نجاته حيث رقي إلى جنرال كتيبة.

1- HERBILLON Emile, Quelques pages d'un vieux cahier, op cit, p 153.

2- Promu général, il mourut à la bataille de Sébastol le 5 novembre 1854. رقي إلى لواء ومات في معركة سيبستول في نوفمبر 1854

من فوق على فناء مربّع .. وفجأة، دوّت عشرون طلقة نارية من أسفل الفناء إلى أعلى السطح مستهدفة رؤوس جنودنا..

في هذا الظّرف تلقّى المقدّم [1](Lieutenant-colonel) رصاصة اخترقت كليته من أسفل إلى أعلى .. لم توقفنا الخسارة لحظة على مواصلة الزّحف.. وبعد نصف ساعة تبادلنا المصافحة مع فرقة من الزوّاف وصلت من الجانب المقابل[2].."

أمّا في الوسط، فقد تشجّع العقيد دي بارال لما رأى العقيدين كانروبير ودي لورمال يلجان من الثغرتين اليمنى واليسرى، فاندفع هو الآخر من الوسط في معركة مميتة خسر فيها كثيرا من الجنود.

وبعد نصف ساعة فقط، وجد العقداء الثلاثة أنفسهم يتصافحون في ساحة القرية. لقد أتمّوا المرحلة الأولى من الهجوم بنجاح، لكنّ المعركة الحقيقيّة ما كانت إلا لتبدأ !

عندما أدرك المدافعون أنّهم أصبحوا عاجزين عن صدّ الفرنسيين من الخارج (كما دأبوا على ذلك من قبل) لجأوا إلى الاختفاء في المنازل وبدأوا في إطلاق النّار من كلّ مكان ومن حيث لا يراهم الجنود الفرنسيون. وكان على هؤلاء تفتيش المنازل منزلا منزلا ، ممّا كان يعرّضهم لأخطار وإصابات كلّما تقدّموا خطوة إلى الأمام. وفي تقريره عن الاقتحام، كتب الجنرال هربيون :

" يجب علينا تطويق ثم اقتحام كلّ منزل. من السّطوح لا ننزل إلى البيوت إلا عبر فتحة مظلمة وسط السّقف لا تضيء إلا جزءا ضئيلا من الغرفة،

1 ا-لمقدم رتبة عسكرية عالية تقع بين العقيد والرائد.

2- A.M.G, MR 882, Relation de l'expédition de la prise de Zaatcha, le 27 novembre 1849.

وهناك نتلقّى طلقات نارية من قرب من عدوّ عازم على فقدان حياته. ففي هذه البيوت المظلمة اختفى كلّ من تركوا السّطوح.. وكثيرا ما تكون الحجرة واسعة، وكلّ من يتجرّأ على الدّخول إليها يتلقى رصاصة دون أن يرى على من يردّ. الأبواب موصدة بفعل الأنقاض، ولا نرى النّور إلا من خلال نوافذ ضيّقة تمطر طلقات ناريّة... إنّه هجوم جديد أكثر خطرا من هجوم الاقتحام الأوّل[1].."

لقد كلّفت استراتيجية اقتحام الحجرات ثمنا باهظا للفرنسيين، ففي وقت قصير فقدوا الكثير من جنودهم ولم يتحصّلوا على أيّ إشارة تنبئ بقرب انتهاء المعركة بين الأنقاض. ولذلك لجأ الجيش الفرنسي إلى استعمال وسائل أقلّ تكلفة من التّضحيّة بالأرواح وأكثر تدميرا للسكّان : إنّها المتفجّرات..

"..لقد أدركنا أخيرا أهميّة المتفجّرات (كتب الرّقيب أوّل ريبس). في البداية لم يحمل مهاجمونا متفجرات معهم خوفا من وقوع حوادث غير منتظرة. ولقد تبيّن فيما بعد أنّه يمكن استعمال المتفجّرات التي كانت معدّة مسبّقا وكانت مكدّسة أمام الفجوات.. وسرعان ما بدأ دوي المتفجّرات، وأصبحنا لا نرى إلا المنازل تنهار على من فيها. وكانت الجدران المنهارة تكشف لنا عن مخابئ الأهالي التي ظلّت تخرج منها طلقات ناريّة مكثّفة.. رغم ذلك كان جنودنا يندفعون بشجاعة وينهون كلّ من يعترضونهم بحراب بنادقهم[2].."

1 - A.M.G, 1 H 131, Rapport sur les opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban, Zaatcha, le 28 novembre 1849.

2 -A.M.G, 1 H 211, Histoire de la colonne des Ziban par le sergent -major Ribes, cahier2, chapitre 4.

وكان الزوّاف – بعد كلّ انفجار - ينقضّون على كلّ من بقي حيّا بطرق وصفها مؤرّخون فرنسيون ب "البربريّة" (يعني الهمجيّة)[1].

ولقد امتعض كثير من المؤرّخين فما بعد عن تصرّف الجنود الفرنسيين أثناء اقتحامهم للزّعاطشة.

" لو نستحضر الوضع ببرودة وبكلّ هدوء (كتب ألفريد ناتمن) سوف لن نتردّد بأنّ نقرّ بأنّ انتصارنا كان مخزيّا[2]."

أمّا بيليسييه، فقد قال صراحة : "إنّ شرف المهزوم يسوّد نصر الغالب[3]"

أمّا الشهادة الأكثر إثارة، فلا شّك أنها تلك التي سجّلها شارل بوديكور (Charles Baudicour) سنة 1851 حيث كتب :

".. الزوّاف في سكرتهم (نشوتهم) بالنّصر، كانوا ينقضّون بوحشيّة على الخلائق الذين لم يتمكّنوا من الفرار. أحدهم قطع - وهو يمزح - ثدي امرأة كانت تتوسّل لنا أن نجعل حدّا لحياتها، وتركها تنزف إلى أن ماتت بعد مدّة في ألم كبير.. وجندي آخر تناول طفلا خائفا من رجليه ورطمه بقوّة على جدار فتهشّمت جمجمته.. وفي مواضع أخرى وقعت مشاهد لا يمكن أن يتحمّلها إلاّ شخص منحطّ (متخلّف حضاريا)، أمّا الفم الشّريف فلا يستطيع حتّى أن ينطق بها أو يسجّلها [4] .."

1- C'est le terme employé par Baudicourt dans son livre "La guerre et le gouvernement de l'Algérie", Sagnier et Bray, Paris, 1853, p 507.

2-Cité par FILLIAS (A), Histoire de la Conquête et de la colonisaion de l'Algérie, 1830-1960, Arnaud de Vresse, Paris, 1960, pp 456 et 353.

3- PELISSIER de REYNAUD (E), Annales algériennes, 3 vol. Dimaine, Paris, 185, p 318.

4- BAUDICOUR, op cit, p 520.

وبالرّجوع قليلا إلى الوراء، اعتقد بوديكور أنّ مثل تلك الوسائل الهمجيّة لم تكن ضروريّة ، لأنّها ما كانت إلا لتزيد من كره العرب للفرنسيين وتزيد في أحقادهم. وأضاف : " إنّ السّلم لن يكون ممكنا بحدّ السلاح[1]". غير أنّ الجنود الذين حضروا معركة الزّعاطشة الأخيرة لم يكونوا يفكّرون بالطّريقة نفسها. لقد كانوا متعطّشين للانتقام ومارسوا ما اعتقدوه من قوانين الحرب، حتّى بعد النّصر ! وكان بعضهم يفكّر في المستقبل معتقدا أنّه من الواجب ضرب العدوّ بقوّة حتى تبقى العبرة لمن بعده.

وفي ذلك قال سيروكا : "يجب أن تبقى الزّعاطشة مثالا دائما عن قسوة العقوبات[2]."

4-2 موت الشّيخ بوزيّان

إلى آخر رمق من حياته، استطاع الشّيخ بوزيّان أن يحافظ على موقف بطولي مشرّف طوال مدّة القتال الطّويل الذي خاضه ضدّ الفرنسيين. لقد شارك بكلّ اعتزاز وهو محاط بعائلته وذويه في الدّفاع بقوّة عن قريته أثناء معركة 26 نوفمبر 1849 الحاسمة. وبموته فقط، تحقّق الانتصار الفرنسي على الواحة. ولقد حارب الشّيخ بوزيّان في ذلك اليوم المشهود محاطا بحوالي 100 من أنصاره من أحدى المنازل ذات الجدران المسنّنة بالزّعاطشة.

وبوشاية، تعرّف الرّائد لافراند (Commandant Lavrande) من الفرقة الثّانيّة، على مكان تواجد الشّيخ بوزيّان فقام بتطويق المنزل بإحكام. ولقد حاول الزوّاف الوصول إلى المنزل متسلّقين جدران المنازل المجاورة، لكن

1.- Ibid.

2 -SEROKA, op cit, p 520.

بدون جدوى. أمّا لافراند، فقد اقترح توجيه قطعة مدفعيّة نحو المنزل الذي يختبئ فيه الشّيخ ورشقه بقذائف قويّة. لكنّ رماة المدفع قتلوا وهم يحاولون تصويب القطعة نحو الدّار. بعد ذلك اهتدى الرّائد لافراند إلى المتفجرات فاستخدم عبوة ناسفة لهدم الجدران. وبعد تنفيذ انفجارين اثنين وتسجيل خسائر إضافيّة في صفوفه، تمكّن من إسقاط الجدار الأمامي للدّار والكشف عن المدافعين داخل حجرة[1] "**وكانت هي اللّحظة التي اختارها الشّيخ بوزيّان للخروج**" كما كتب الرّائد لافراند في تقريره العسكري المؤرّخ في 27 نوفمبر الذي يقول فيه :

" بعد ظهور بوزيّان، أمرت بوقف النّار وألقيت عليه القبض بواسطة جنديين قدّماه أمامي فانتزعت منه سبحته ومسدّسه وحزام ذخيرته.. وبينما أنا أفعل، أرسلت ضابطا ليأتي بأوامر الجنرال وفي الوقت نفسه أرسلت جنودا إلى المكان الذي كان يختبئ فيه بوزيّان مع زوجته وابنيه وبنته الجميلة وولده (الطّفل الصبيّ) وعشر نساء وحوالي 150 من أعوانه. وفي لحظة قصيرة تمّ إعدامهم جميعا.[2]

وأمّا الجنرال هربيون فقد أعطى **الأوامر** ب " **إعدام بوزيّان فورا** "، فنفّذ في الأمر بسرعة. وعلى حسب ضبّاط حضروا مراسيم تنفيذ الاعدام فإنّ الشّيخ لما علم بأمر قتله أبدى هيأة تليق بمقامه وبهيأته كقائد ثورة، وقال بكلّ هدوء إنّه كان عليه واجب.. وإنّه أدّى هذا الواجب وهو غير نادم على أيّ شيء[3].

1 -BOCHER Charles, Le siège de Zaatcha, op cit, p 97.

2- A.M.G, 1 H 131, Note du commandant Lavarande, 27 novembre 1849.

3 -A.M.G, 1 H 131, Note du commandant Lavarande, 27 novembre 1849.

وعلى حسب شهادة شارل بوشي، فـــإنّ الشّيخ بوزيّان قـــال بالحرف الواحد :

" لقد كنتم أنتم الأقوى، لكنّ الله أقوى منكم.. الله أكبر وما قدّر فعل[1]."

وأما أحد شهود عيّان ممّن حضروا إعدام الشّيخ فقد كتب :

"... كنت حاضرا عند موت ذاك الشّيخ، أعني بوزيّان.. وهو أقوى مشهد رأيته.. لقد كان ينتظر بكلّ هدوء أن يُعْنَى به (يعني أن يُقتل).. ولمّا علم أنّه سيموت، نهض بكبرياء بكامل جسمه نظر بشزر إلى الزوّاف المكلّفين بإعدامه.. إنّ هذا الرّجل مع ألف من المدافعين الدّائمين معه والفرق التي كانت تأتي لتساعده بالتّداول، استطاع أن يردع قواتنا لمدّة 53 يوما (هكذا كتب) بلا مدافع ولا متفجّرات.. وكان سلاحه القويّ الوحيد هو التعصّب ! فإذا كان من حقّ كلّ أمّة أن يكتب لها مؤرّخوها صفحة جميلة (من تاريخها)، فإنني أكتب لكم تحت تأثير اللحظة، ولكنني أؤكّد أنها كانت غاية في الإثارة[2].."

ولقد سقط الشّيخ تحت الرّصاص ليلقى ابنه اليافع البالغ 17 سنة من العمر[3] المصير نفسه ككلّ الذين لم يقضوا في الهجوم. ولم يكتف الجنرال

1 -BOCHER Charles, Le siège de Zaatcha, op cit, p 98.

2- A.M.G, MR 882, Relation de l'expédition de la prise de Zaatcha, le 27 novembre 1849.

3-Comme son père le fils de Bouziane a tenu à mourir dignement, ce qui ressort du témoignage de cet officier : « Le fils était beau, jeune et brave. Il mourut avec le calme qui distingue le véritable courage. Un instant avant qu'on le fusillât, un soldat l'ayant poussé un peu rudement avec la crosse de son fusil, l'œil du jeune arabe s'enflamma : « je suis le fils de Bouziane, on tue le fils de Bouziane, on ne le frappe pas » Vr. BORSEUL, Souvenirs d'Afrique, op cit, p 34.

هربيون بقتل الشّيخ بل أمر بقطع رأسه وتعليقها على حربة بندقيّة، كما علّقت رأس ابنه على الدبّوس ورأس الشيخ موسى الدّرقاوي على الماسورة.

ولقد كانت الرؤوس الثلاثة في البداية محلّ عرض بالمعسكر الفرنسي ثم بسوق بسكرة وذلك : " لأقناع المشكّكين المشدّدين بموتهم وليكونوا عبرة لمن يريد أن يحذو حذوهم[1]" على حدّ قول هربيون. بعد ذلك حفظت رأس الشّيخ بوزيّان بقسنطينة، ثمّ حوّلت فيما بعد إلى متحف باريس (Muséum) حسب الدكتور ربوت (Docteur Rebout) الذي عاد ذلك في رسالة منشورة بالمجلّة الإفريقية سنة 1884 ذكر فيها ظروف تحويل الرؤوس إلى فرنسا :

" إنّ رأس بوزيان التي قطعت وعلّقت على حربة بندقية إثر انتهاء حصار الزّعاطشة، حسب شارل فيرو، قد احتفظ بها على غرار رأس بوبغلة ورأس الشريف الذي قُتل أثناء معركة وقعت على أبواب تبسّة من طرف الملازم جابي (Lieutenant Japy) ثم أدرجت ضمن قائمة المجموعات الأنثروبولوجية لمتحف باريس. وأنا هو من أرسل هذه الغنيمة النّفيسة : وكان كل رأس منها مصحوبا ببطاقة (شريط طويل) تحمل اسم صاحب

تماما مثل أبيه، أصر ابن بوزيان أن يموت بكرامة حسب شهادة أحد الضباط : " لقد كان ابن بوزيان جميلا وشابا وشجاعا وقضى نحبه بالهدوء الذي يعبر عن الشجاعة الحقيقية. ولحظات قبل أن يعدم لكزه أحد الجنود بإخمص بندقيته، فقال له : " أنا ابن بوزيان، وابن بوزيان يقتل ولا يضرب" . انظر بورسول، ذكريات من إفريقيا، مصدر سابق، المجلة الافريقية ، ص 34.

1- A.O.M, 2 H 25, Une lettre du général Herbillon au Gouverneur Général 26 novembre 1849.

الرّأس وتاريخ موته وخاتم المكتب السياسي لقسنطينة مع إمضاء كلّ من م. دي نوفو (M. de Neveu) و م. كريزلي [1](M. Crezley).

من جانبنا، نتساءل عن سبب احتفاظ الفرنسيين برأس بوزيّان. هل كان هذا لمجرّد ذكر انتصارهم عليه، لأنّ الشّيخ تسبّب لهم في مشاكل عويصة نتجت عنها خسائر كبيرة في الأرواح ؟ ولكن، لم يكن الشّيخ بوزيّان وحده هو من لقيّ هذا المصير كما ذكرنا، خاصّة وأن المتاحف الفرنسية بالجزائر التي كانت قائمة خلال القرن التّاسع عشر لا تخلو من بقايا مقاومين جزائريين.

3-4 نهاية واحة واندثار سكّان

في منتصف يوم 26 نوفمبر 1849، لم تعد الزّعاطشة إلاّ كومة من الأنقاض. ومع ذلك ظلّ الفريقان يتبادلان إطلاق النّار إلى غاية الثّالثة بعد الظّهر. بعد ذلك شرع الفرنسيون في هدم كلّ ما بقيّ قائما : قصور، منازل، مساجد، مآذن، جدران وبساتين. وتواصلت عمليات التّدمير طوال يوم 27 نوفمبر قبل أن يرحل الفرنسيون نحو قسنطينة بعد أن محوا الواحة من الخريطة : ولم تعد الزّعاطشة موجودة.

في نفس اليوم، وتحت تأثير اللّحظة، أرسل الجنرال هربيون إلى الوالي العام للجزائر يخبره فيها عن احتلاله للزّعاطشة :

".. إنّ الزعاطشة تحت سلطتنا، وهي الآن محتلّة من طرف ثلاث فرق. بوزيّان والمدافعون لم يعودوا موجودين. في هذا الصباح اجتازت فرقنا بمعدّل 800 رجل للفرقة، الثّغرات التي أحدثتها المدفعيّة ووسّعها رجال

1- RIBOUT, Lettre au sujet des têtes de Bou-Baghla, Bouziane et le chérif de Tébessa, Revue africaine, n° 30, 1886, pp 78-80.

الهندسة. في البداية واجهنا المدافعون بقوّة من فوق سطوحهم ومن تحت منازلهم التي كانت مهيّأة لدفاع جيّد.. ولقد قتلوا عن آخرهم في أقل من ساعة والآن نحن نسيطر تماما على الشّوارع والمنازل[1].."

لقد عرف سكّان الزّعاطشة المصير نفسه الذي عرفه بوزيّان، فكلّ من نجا منهم من الاقتحام الأوّل تمّ إعدامه بالسّلاح. لقد أحصى الفرنسيون حوالي 800 من العرب على السّاحة دون أن يتعرّفوا على من ردموا تحت الأنقاض. ولقد قتل الفرنسيون خارج القرية كلّ من حاولوا الدّخول لمساعدة إخوانهم المحاصرين في الزّعاطشة[2].

وبعد تحقيق قام به الملازم سيروكا لدى سكّان الزّاب الظّهراوي محاولا تحديد إجمالي لقتلى كلّ عرش ممّن سقطوا مع مدافعي الزّعاطشة في هجوم 26 نوفمبر، وكان نتائج التّحقيق وفق الجدول الآتي [3]:

1 -A.O.M, 2 H 25, Une lettre du général Herbillon au Gouverneur Général, Zaacha, le 26 novembre1849, Voir texte original dans les annexes.

2- A.O.M, 2 H 25, Une lettre du général Herbillon au Gouverneur Général, Zaacha, le 26 novembre1849, Voir texte original dans les annexes.

3 -SEROKA, op cit, p 519.

	الأعراش والقرى	المقاتلون
01	سكان الزّعاطشة	30
02	غمرة	25
03	أولاد زيّان	40
04	أولاد جلال	30
05	أولاد ساسي	40
07	أولاد حركات	20
08	بوشقرون	20
09	البوازيد	20
10	ليشانة	15
11	فرقة سي موسى الدرقاوي	60
12	السحاري	50
13	الرواغة	10
14	امدوكل	10
15	فرفار	15
16	أولاد سلطان	15
17	أولاد الصالح	05
18	بوسعادة	02
19	أولاد جناغ	10
20	بني فرح	10
21	أولاد سيدي خملة	12
	المجموع	439

وبالطّبع، فإنّ عددا كبيرا من الذين قتلوا بالزّعاطشة بقوا مجهولين ولم تعرف هوياتهم، لكن يمكن استنتاج أنّ إحصاء الضحايا المسجّل على الجدول يبيّن انتماءهم إلى قرى وأعراش مختلفة موزّعة على الجنوب القسنطيني والصّحراء الجزائرية الشّرقية، وهي ظاهرة فريدة من نوعها وغير مسبوقة في تاريخ القرن التّاسع عشر في الجزائر ، فلم تُعرف قرية جلبت هذا الاهتمام مثل ما حدث في الزّعاطشة.

أمّا الخسائر الفرنسيّة، فقد أحصيت على عجل في اليوم الموالي (27 نوفمبر) من طرف العقيد بورال دي بريتزل الذي لم يأخذ بعين الاعتبار الأموات من الفرنسين الين ماتوا فيما بعد بمستشفى بسكرة متأثّرين بجراحهم ولا الذين ماتوا بسبب وباء الكوليرا الذي أصاب الجند أثناء الحصار. ولهذا تعدّ الأرقام التي قدّمها دي بريتزل غير مكتملة وغير دقيقة. أمّا الملازم سيروكا، وفي إحصاءاته من إقليم بسكرة، فقد أعطى قائمة شاملة لخسائر الفرنسيين التي تكبدوها يوم 26 نوفمبر وحده وقدّرها 43 قتيلا و 175 جريحا. أمّا مجمل الخسائر التي وقعت طوال مدّة الحصار، فقد حدّدها سيروكا بموت 20 ضابط وجرح 60.، وموت 300 جندي وجرح 620، زيّادة عن موت 250 جندي بسبب الكوليرا. وبناء على إحصاء سيروكا، فإنّ مجمل الخسائر البشريّة الفرنسيّة بلغ 570 قتيلا و 680 جريحا[1].

1- Notons que dans les chiffres des soldats tués se trouve 170 environ morts de leur blessure à l'ambulance ou à l'hôpital. Par ailleurs, d'autres officiers présentent les mêmes chiffres avec moins de détails. D'autres parlent seulement de 1500 entre tués et blessés.

ولمّا اطّلع وزير الحربيّة على الخسائر البشرية الفرنسية قدّر أنّها مرتفعة جدّا، وكان ردّ فعله الأوّل هو عزل الجنرال هربيون من منصبه كقائد للقطاع القسنطيني مباشرة بعد انتهاء الحملة على الزّعاطشة[1].

وكان الجنرال هربيون مباشرة بعد انتهاء الثّورة في الزّعاطشة قد أمر بمصادرة أموال السكّان وممتلكاتهم. وبموجب قرار من الوالي العام للجزائر مؤرخ في 10 أفريل 1850، وزّع جزء من الأموال المحجوزة على

يقدر عدد الجنود الفرنسيين الذين ماتوا في الإسعاف أو بالمستشفى بحوالي 170 جندي. ويقدم بعض الضباط الأرقام نفسها تقريبا، بينما يقدر البعض الأخر عدد القتلى والجرحى ب 1500 في المجموع.

1 -Le général Herbillon a été destitué un mois après la prise de Zaatcha. Dans une lettre datée du 2 janvier 1850, le ministre de la guerre explique les raisons : « Le général Herbillon est rappelé et mis en disponibilité, et cependant il a bien combattu et pris Zaatcha, mais il a eu le tort grave, en sa qualité de commandant de la province, de ne pas avoir empêché ou réprimé à temps les faits qui ont occasionné la rupture avec des populations qui étaient soumises et payaient le tribut. La France s'est trouvée engagée dans une guerre qui a couté beaucoup de sang et d'argent et qui n'était pas nécessaire. » Voir, A.M.G, 1 H 263, lettre du 2 janvier 1850.

لقد عزل الجنرال هربيون من منصبه بعد شهر من انتهاء الحملة على الزعاطشة. وفي رسالة مؤرخة في 2 جانفي 1850 يشرح وزير الحربية أسباب العزل : " لقد استدعي الجنرال هربيون ووضع تحت التصرف. لقد حارب جيدا واستولى على الزعاطشة ولكنه لقي صعوبات كبيرة بصفته قائدا على القطاع القسنطيني وهذا منذ فشله في منع أو قمع قبائل كانت مستسلمة وتدفع الضرائب، وفي الأخير دفعت ثمن الحرب. لقد وجدت فرنسا نفسها مقحمة في حرب كلفتها كثيرا من الدماء وكثيرا من الأموال، وهي حرب لم تكن ضرورية "

العائلات التي ساندت فرنسا وبقيت وفية لها على شكل مكافآت على ما قدّمته من خدمات[1].

ومنذ ذلك، أدلى بعض التجار الذين مرّوا على الزّعاطشة بشهادات مثيرة حول ما آلت إليه الواحة بعد دمارها. وهي شهادات مسجّلة في بداية القرن العشرين، ومنها على سبيل المثال:

".. وغير بعيد، ها هو المكان الذي كانت عليه قرية الزّعاطشة التي انزعت من على الأرض انتزاعا (محيّت) كعقاب على ثورة 1849 : برج خال كان مركز اتصال بريدي.. بعض النّخلات العقيمات هنّ من بقين من 7000 شجرة قطعت من أصولها على مستوى وجه الأرض.. أكوام من التّراب في المكان الذي دمّرت فيه القرية التي كانت قبل ذلك شامخة.. نصب تذكاري للجنود الذين سقطوا خلال حصار ال 52 يوما.. عرصة مهشّمة تحت آلة شحن معطّلة.. وشجرة مشمش برّي.. هذا ما بقي من مدينة الزّعاطشة.[2]."

ولم يُعَدْ بناء المدينة. فقط لوحة في طريق بسكرة، على مستوى طولقة، تشير إلى القرية القديمة (أو بالأحرى إلى مكانها). فالفرنسيون لم يكتفوا بهدم الزّعاطشة بل ذهبوا إلى حدّ محوها من الوجود.. ربّما إلى الأبد.

1-A.O.M, 10 KK 30, Un rapport du commandant de la subdivision de Batna, 11 juillet 1850.

2 -Monographie de Biskra et du Sahara de Constantine, Bulletin de la société géographique d'Alger et de Constantine, 1921, p 591.

4-4 استسلام الزّيبان والأوراس

كانت النّشرات العسكرية الفرنسيّة تركّز كثيرا عن الأثر الذي تركه تدمير الزّعاطشة في نفوس سكّان المنطقة، بحيث أنّه أغرقهم في ذهول. وكان ذلك الحدث العنيف من العوامل التي جعلت الحركات التي كانت مرتبطة بالشّيخ بوزيّان تفتر شيئا فشيئا.

فمنذ يوم 27 نوفمبر (وخوفا من الاستعراضات الفرنسية) أرسلت معظم قرى الزّاب وفودا لتعلن استسلامها وطلب الأمان من الجنرال هربيون. لكنّ هذا الأخير أصرّ على شروط إضافيّة كدفع مبالغ مالية كعقوبات وتسليم رهائن من كلّ عرش وقرية الى غاية تسديد مبلغ المخالفات.

وفي اليوم الموالي 28 نوفمبر، شرعت القوّات الفرنسيّة في الرّحيل نحو بسكرة محمّلة بالجرحى والمرضى والرّهائن. وفي الفاتح من ديسمبر استأنفت القوّات الفرنسية مسيرتها نحو مدينة القصر التي وصلتها يوم 4 ديسمبر 1849، وهي المدينة التي تمّ فيها حلّ الحملة ضدّ الزّيبان بصفة رسميّة[1].

1- Après la dissolution de la colonne, quatre colonnes furent dégagées : La première sous le général Herbillon se dirigea à Constantine, la deuxième sous les ordres du colonel de Baral, prit le chemin de Boussaâda : la troisième sous la commande du colonel Canrobert se dirigea vers les Aurès, une dernière colonne prit le chemin de Bône. Voir A.M.G , 1 H 211, Histoire de la campagne des Ziban par le sergent-major RIBES, cahier 2, chapitre 8 et 9.

بعد نهاية مهمّة الفيلق الذي شارك في الحملة على الزعاطشة، قسمت القوات إلى أربع كتائب : الأولى تحت قيادة هربيون توجهت إلى قسنطينة ؛ الثانية تحت قيادة دي بارال توجهت إلى بوسعادة؛ الثالثة تح قيادة كانروبير توجهت إلى الأوراس: والرابعة توجهت إلى عنابة (بونة) انظر : تاريخ الحملة على الزاب، الرقيب-أول ريبس، راس 2، فصل 8-9.

وفي الأوراس بدأ الهدوء يعود تدريجيّا، حيث هجر محمّد الصغير بن الحاج الخليفة الأسبق للأمير، مشونش وتوجّه إلى سوف، كما طلب الشّيخ سي عبد الحفيظ الإذن بالعودة إلى الخنقة مسقط رأسه.

وكانت بعض القبائل الأوراسيّة، قد استغلّت مرور القوات الفرنسية نحو القصر لتطلب الأمان من الجنرال هربيون، لكنّ هذا الأخير وضع لهم الشروط نفسها كما فعل بالزّاب، مضيفا أنّه سيرسل قوّات بقيّادة العقيد كانروبير لمعاقبة المتردّدين عن الاستسلام ووضعهم بالقوّة تحت السّيطرة الفرنسيّة[1].

كانت الوجهة الأولى لكتيبة العقيد كانروبير هي قبيلة أولاد سلطان لأنّ القائد الجديد لنيابة القيادة العسكرية بباتنة أراد أن ينتقم لمقتل القايد علي باي الذي قتلته هذه القبيلة أثناء الحصار على الزّعاطشة. وفي يوم 8 ديسمبر 1849، تمركزت قوّات العقيد كانروبير بين أولاد سلطان وأولاد علي بن (صابر) صبور. وما لبثت أن تقدّمت معظم القبائل مذعورة (بما حدث في الزعاطشة)، بما في ذلك أولاد سلطان لتسديد مبالغ العقوبات المسلّطة عليهم. ولدراسة الأوضاع الجديدة في الأوراس والحضنة، سمح العقيد كانروبير لنفسه بشيء من الرّاحة فعاد إلى باتنة في 23 ديسمبر[2] من السّنة نفسها.

وسرعان ما توجّه تلقاء سهل وادي عبدي مصحوبا ب 4000 رجل، لأنّ بعض القرى وعلى رأسها نارة ظلّت تبدي عداء واضحا (كرها) للفرنسيين زيادة عن موقفها الداعم لحركة الزّعاطشة. وفي 31 ديسمبر اتّخذت

1- SEROKA, op cit, p 522.

2- Ibid.

القوّات الفرنسيّة مواقع حول نارة القرية الجبليّة المتمرّدة. وبعد أيّام قليلة أعطى العقيد كانروبر إشارة الهجوم على نارة يوم 5 جانفي 1850 من ثلاث جهات مختلفة، وفي ذلك كتب :

" ..جزء من المدافعين (كتب العقيد ليلة الهجوم) تفاجأ مذعورا من تزامن وتنسيق الفرق الثلاثة التي وصلت في آن واحد، فتركوا المدينة عند اقترابنا منهم، فسقط الكثير منهم في البساتين بفعل نار جنودنا وسيوف السيبايس (الصبايحية). أمّا الذين وقفوا في وجهنا واستماتوا في الدّفاع، فقد لاحقناهم منزلا بعد منزل ودمّرناهم. منذ السّاعة السّابعة صباحا شرعت في حرق وتدمير القرى الثّلاثة التي تتشكّل منها نارة [1].

ورغم قوّة الهجوم، تكبّد الفرنسيون 8 قتلى و 30 جريحا، أمّا الخسائر الجزائريّة فقد قدّرت بحوالي 200 قتيل[2] وتدمير كامل لنارة بما في ذلك منارة المسجد.

وبعد نهاية الحملة على نارة، عادت كتيبة كانروبير إلى باتنة منهيّة آخر قلعة ثائرة في الأوراس الذي عرف هدوءا نسبيّا طوال سنة 1850 على غرار كامل الجنوب القسنطيني.

1- A.O.M, 2 H 25, Une lettre du Colonel Canrobert au général Herbillon, Menna, 5 janvier 1850.

2- Les Français ont interdit aux survivants de reconstruire le village de Nara. On leur a permis en revanche de bâtir des maisons au pied de la montagne dans la vallée de Oued Abdi. Voir BOCHER (Charles), « La prise de Nara », Revue des deux mondes, op cit, p 872.
لقد منع الفرنسيون من بقي حيا من السكان من إعادة بناء مدينة نارة. وبالمقابل سمحوا لهم ببناء منازل في سفح الجبل مقابل سهل واد عبدي.. انظر شارل بوشي : احتلال نارة.
« La prise de Nara », Revue des 2 mondes, op cit, p 872

الفصل الخامس
التّداعيّات السيّاسيّة، الدّروس والذّاكرة
بعد سقوط الزّعاطشة

بعد وقوع الزّعاطشة في يد الفرنسيين، اعتبر هؤلاء الجنرال هربيون مسؤولا عن تطوّر الانتفاضة، فقاموا بعزله كقائد عام لقطاع فسنطينة واستخلافه بالجنرال سانت أرنو (Saint-Arnaud) ويكون هذا الأخير قد استفاد من أخطاء سابقيه، فاقترح اعتماد أساليب سياسية جديدة علّها تجنّب فرنسا اندلاع ثورات أخرى في المستقبل كالتي حدثت في الزّاب سنة 1849.

1-5 التّنظيم الإداري الجديد للجنوب القسنطيني

من أولويّات الاجراءات التي دأب الفرنسيون عليها بعد كلّ انتفاضة شعبية جزائرية، إعادة التّنظيم الإداري في المنطقة الثّائرة أو على الأقل إصلاحه. وبعد ثورة الزّعاطشة، عمدت السلطات الفرنسيّة إلى إعادة تنظيم الإدارة في كامل الجنوب القسنطيني، وخاصّة في الحضنة وبدرجة أقل في الزّيبان.

ففي الحضنة، دفعت ثورة أولاد سحنون السلطات الفرنسيّة على ردّ الفعل منذ شهر أوت 1849. وبما أنّ الفرنسيين كانوا في تلك الفترة منشغلين بمشكل الزّعاطشة، فقد اكتفوا بتعيين قايد جديد على أولاد سحنون وعن كامل أولاد درّاج بينما أجّلوا الباقي إلى ما بعد انتهاء الثّورة في الزّاب.

وإذا كان عزل سي مقران من قيادته الكبيرة لم يطرح أيّ مشكل، فإنّ مسألة استخلافه استدعت خلافات كبيرة.

وكان الرّائد سان جرمان قد اقترح تعيين دحمان بن الذبّاح أحد نشطاء آل بوعكّاز على رأس قيّادة أولاد سحنون. وعلى حسبه، فإنّ الأوان كان قد آن لإعادة السّلطة لتلك العائلة الكبيرة، فكتب إلى العقيد كربوشية :

" لقد حان الأوان لرفعهم في الصف إن أردنا ألا نراهم في صفوف أعدائنا[1].."

كما برّر اقتراحه بإعادة التّوازن بين العائلات الكبرى بتقسيم السلطة على قبائل عديدة وبالتّالي، كما قال "استعمالهم للتوازن فيما بينهم[2]".

أمّا أولاد سحنون فقد أملوا أن يتولّى القيّادة عليهم المختار بن الدّايخة الذي كان ساعتها قايدا على أولاد علي بن صابر وبني سلاّم في إقليم باتنة، وفي ذلك كاتبوا النّقيب مارمي (Capitaine Marmier) رئيس المكتب العربي بباتنة :

" ليس لنا اشتغال بالزّاب لأنّ مصالحنا كلّها بالتلّ .. يلزمنا رجل يعرفنا ويدافع عنّا عند ترحالنا إلى التلّ ويسهل علينا الحصول على مراعٍ لماشيتنا .. هذا الرّجل وجدناه في شخص سي المختار بن الدّايخة .. اجعلوه قايد علينا. "

ولقد دعّم كلّ من العقيد كربوشية والنّقيب مرمي ذلك الاختيار بينما عارضه بشدّة الرائد دي سان جرمان الذي ذهب إلى حدّ عرض استقالته من على رأس إقليم بسكرة[3].

وعلى إثر جولة قام بها أولاد سحنون إلى قسنطينة في أواخر شهر أوت 1849، مصحوبين بالقايد "المرجوّ" المختار بن الدّايخة، بعد أن أكّدوا أملهم في تنصبه عليهم بدلاً من غيره. ولم يرفض قائد القطاع الفسنطيني

1 -A.O.M, 2 H 25, Pièces à l'appui, Une lettre du commandant Saint-Germain au colonel Carbuccia, Biskra 7 aout 1849.

2-A .O.M, 2 H 25, Pièces à l'appui, Une lettre du commandant Saint-Germain au colonel Carbuccia, Biskra 15 aout 1849

3- A.O.M,10 H 17, Historique du cercle de Biskra en 1849, par le capitaine Marmier.

الاقتراح جاعلا بذلك حدّا نهائيّا لمسألة طالما أثارت الجدل لاسيّما من طرف الرّائد سان جرمان[1]. فبعد أن ثارت الزّعاطشة، كان من المقرّر إبقاء سي المختار في منصبه وتقسيم قيّادة سي مقران قسمين : قيّادة السحاري وأوكلت إلى القايد سي بولخراص بن محمّد بلحاج بن قانة ابن أخي شيخ العرب. وقيّادة أولاد زيّان أوكلت إلى سي الدرّاجي بن محمّد الحاج ابن أخي سي مقران (المعزول). الأوّل (سي بولخراص) اقترحه عائلة ابن قانة ليرضى شيخ العرب بقرار تقسيم البدو على قيادتين. أمّا الثّاني (سي الدرّاجي) فقد اقترحته عائلة سي مقران بعد أن أُبعد هذا الأخير بصفة نهائيّة من الحكم[2].

أمّا في الزّيبان، فلم تمس الاصلاحات الإداريّة إلا القبائل البدويّة. وكان الكثير من الضبّاط الفرنسيين وعبر سنوات طويلة، قد طالبوا قائد

1- Le commandant Saint-Gemain avait menacé de présenter sa démission du commandement du cercle de Biskra, si sa position n'était pas prise en compte au sujet du successeur de Si Mokrane. Effectivement en apprenant la désignation de Si Mokhtar à la tête des O. Sahnoune. Il présenta sa démission au début de septembre 1849, mais il mourut quelques jours après à la bataille de Sériana avant de recevoir une réponse. Voir A.O.M H 25, Mémoires relatifs aux événements accomplis dans la subdivision de Batna du 16 septembre 1848 au 6 décembre 1849 par le colonel Carbuccia.

كان الرائد سان جرمان قد هدد بالاستقالة من على رئاسة إقليم بسكرة في حالة تعيين المختار بن الدايخة على رأس أولاد سحنون. وفعلا قدم استقالته في بداية سبتمبر 1849أ لكنّه قتل بعد أيام فقط في معركة سريانة، دون أن يتلقى ردّا من مسؤوليه. انظر Voir A.O.M 2 H 25, Mémoires relatifs aux événements accomplis dans la subdivision de Batna du 16/9 /1849 au 6/12/1849.

2 -A.O.M,1 H 17, Rapport sur les modifications à apporter dans l'organisation du cercle de Biskra.

القطاع القسنطيني بتقسيم البدو إلى قيّادات شتّى متذرّعين بشساعة المساحة التي ينتشر عليها هؤلاء وبالمشاكل الجمّة التي تسود الأعراش وصعوبة تنفيذ الأوامر والتعليمات عليها لبعد شيخ العرب عن مضاربها. وكان هذا الأخير يرفض رفضا تامّا -ولو بالكلام- كلّ ما يمكن " أن يحدّ من سلطته أو يمس كرامته[1]". ولقد استغلّت السّلطات الفرنسيّة انتفاضة الزّعاطشة لتبدي ردّ فعل ضدّ رغبة شيخ العرب وتقوم بإصلاحات إدارية وفق ما تقتضي مصلحتها.

"..الأحداث الأخيرة (لاحظ العقيد كانروبير) برهنت لنا كم أن يده ضعيفة (ويعني شيخ العرب) وتنقصها القوّة، وذهنه ينقصه الذّكاء وتصرّفه ينقصه الحماس، ولم يتمكّن من السيطرة على القبائل البدوية.. إنّ قدوم هؤلاء فجأة لم يترك أي مجال للشكّ في عجز شيخ العرب.. فإننا نملك الحق بأن نكلّمه بحزم حتى لا نلقى رفضه القوي كلّما أردنا أن نرشّح عربا آخرين للحكم[2].."

وبعد أن تبيّنت مشاركة البدو في ثورة الزّعاطشة، قرّر الفرنسيون تقسيم القبائل البدوية إلى قيادتين : البدو الشراقة تحت قيادة علي بن القيدوم، والبدو الغرابة تحت قيادة سي أحمد بن الحاج[3].

1- A.O.M, 10 H 18, Une lettre du capitaine Saddé au colonel Canrobert, Biskra, 17 décembre 1849.

2- A.O.M, 10 H 17, Une lettre du colonel Carbuccia au général Herbillon, Barika, 18 décembre 1849.

3- A.O.M, Tableau d'organisation du cercle de Biskra par Séroka, Biskra, 31 décembre 1850.

إنّ التنظيم الجديد لم ينقص من سلطة شيخ العرب لأنّ القايدين اختيرا من عائلة ابن قانة، ولكنّه أنقص من حريّة تصرّفه، كما أنّه صار يسمح للفرنسيين بمراقبة القبائل البدوية بصفة أكثر نجاعة لأنّ شيخ العرب لم يرد أن يضطلع بذلك.

أمّا في الأوراس، فقد رأى القايد أحمد باي بن شنّوف أنّ سلطته قد تعزّزت لأنّ قبيلة أولاد بني سليمان التي كانت تخضع لقيادة سي بلعبّاس قدّ ضُمّت تحت سلطته، في الوقت الذي عزل غريمه أحمد بن فرحات عن قيّادة أولاد صولة بسبب تعاطفه مع الشّيخ سي عبد الحفيظ، كما فعل الفرنسيون مع بعض الشّيوخ والقياد بسبب مواقفهم الإيجابيّة مع ثورة الزّعاطشة كقيّاد أولاد الصّالح[1].

وفي جويلية 1850 أصبح التنظيم الجديد المعتمد رسميا على مستوى إقليم بسكرة كالشّكل التّالي[2] :

1 -A.O.M, 10 H 17, Rapport sur la modification à apporter dans l'organisation du cercle de Biskra.

2- A.O.M , Tableau de l'organisation du cercle de Biskra par Séroka, Biskra, 31 décembre 1850.

جدول تنظيم إدارة إقليم بسكرة من طرف سيروكا، بسكرة، 31 ديسمبر 1850.

القيادة	القايد
الزّيبان	محمد الصغير بن علي بن القيدوم
الزاب الشرقي وأحمر خدّو	أحمد بن شنتوف وفرحات بن عبد الله
الخنقة وجبل شاشار	سي محمد بن الطيب بن سيدي ناجي
أولاد زيّان	سي الدراجي بن نيوب
السحاري	بولخراص بن محمد بن الحاج
أولاد زكري	الحاج محمد
سوف	أحمد باي بن شنتوف-ع. الرحمن بن جلاب
العرب الشراقة	علي بن القيدوم بن بوعزيز بن قانة
العرب الغرابة	سي أحمد بن الحاج- ابن التلي بن القيدوم

بصفة إجماليّة كان التّنظيم الجديد لا يختف كثيرا عن ذلك الذي كان معتمدا ما بين 1844 و 1848. وحتّى وإن كان آل ابن قانة قد ضعفوا بعد ثورة الزّعاطشة، فإنهم بقوا على جزء من سلطتهم وضمّت إليهم قيّادة السّحاري. وبالمقابل عرف منافسوهم من آل بوعكّاز تراجعا كبيرا في نفوذهم، رغم أنّ السّلطات الفرنسيّة بدأت تفكّر في "إعادة الاعتبار" إليهم، كما كتب العقيد كربوشية في شهر أوت 1850:

"..سيأتي اليوم الذي سننادي فيه آل بوعكّاز لنستغّل النّفوذ الذي يمتازون به في الوقت الحاضر.. ولكنّ ذلك لن يحدث إلا إذا عجز آل ابن قانة على الحفاظ على السّلم والهدوء وعلى تكريس سلطتنا[1].."

أربع سنوت بعد ذلك، أقدم الفرنسيون على تعيين علي باي بن فرحات بن سعيّد على رأس قيادة كبيرة تشمل تقرت، وادي ريغ ووادي سوف،

1- A.O.M, 2 H 25, Un rapport du colonel Carbuccia, Batna, aout 1850.

منهيين بذلك انفراد عائلة ابن قانة بالحكم. ولقد طفى التّنافس فجأة بين العائلتين القويتين وخلق وضعا كذلك الذي كان سائدا قبل 1844. وبعد 20 سنة من العداء والتّنافس، خرج آل بوعكّاز مرّة أخرى من الباب الضيّق بوشوشات من خصومهم[1]، تاركين المجال لعائلة ابن قانة التي ستبقى من أقوى العائلات نفوذا إلى غاية الاستقلال الوطني الجزائري.

2-5 المعطيات السياسيّة الجديدة

عندما بدأ بوزيّان يتحدّث سنة 1849 عن الجهاد المقدّس وواجب القيّام بثورة، استقبل الرّائد سان جرمان هذا الكلام بشيء من السّخريّة والاستخفاف رغم معرفته الجيّدة لشؤون الزّاب. ولقد كلّف تهاونه واستخفافه بنوايا الشيّخ ثمنا باهظا دفعته فرنسا من أجل تطويع الزّعاطشة. ومع ذلك، كان الوالي العام للجزائر قد حذّر من التهاون والتّساهل في كلّ ما يصدر عن المجتمع الأصلي للسكّان .

"..إنّ ما حدث (كتب الوالي العام) يدلّ قطعا بأنّنا لا يجب أن نعوّل عن هدوء تام ومستمرّ أمام شعب متعصّب وسهل الانقيّاد كالشّعب العربي. يجب علينا أن ننتظر في كلّ لحظة قيّام حركات جديدة ونكون على استعداد لقمعها. بضع كلمات من شريف ظلامي، مغمور ، بعض الأخبار المحرّفة عن أوضاعنا في فرنسا وعن مشاريعنا ستكون كفيلة بإحياء الأحقاد واندلاع ثورة ضدّنا.

1- A.O.M, 6 X 19, Rapport sur le projet de chemin de fer transsaharien par Féraud.

إنّ السّرعة والحدّة والانتشار التي رأيناها في تمرّد الزّيبان لدليل قاطع بأننا لا يجب أن نتهاون مع الحوادث من هذا النّوع مهما كانت معزولة، وأن اليقظة التّامة هي التي تجنّبنا أحداثا مماثلة لمثل ما وقع في الزّعاطشة[1].."

ويوافق الملازم سيروكا رأي الوالي العام ويكمّله معتقدا أنّ يجب التدخّل بسرعة كلّما ظهرت حركة قبل أن تتفاقم الأوضاع، فيقول :

" ..مهما كان الحال، وكلّما تظهر صعوبات أو احتجاجات يجب معالجتها فورا دون أن توقفنا أيّة اعتبارت مناخيّة أو غيرها.. يجب الإسراع في الحسم لأنّ كلّ تأخّر تنجم عنه صعوبات إضافة[2].."

ولقد أُخذ بتلك التّوصيّات بجديّة على الأقل على مستوى إقليم بسكرة[3]

1- A.O.M, 1 H 6, Rapport du gouverneur général sur les événements qui ont eu lieu en Algérie en 1849.

2-SEROKA p cit, p 523.

3 -En 1852, le chérif Mohamed Ben Abdallah, après ses succès à Touggourt, arriva dans les Ziban dans le but de soulever la région. Le commandant Collineau chef du cercle de Biskra par intérim, se porta rapidement vers le chérif et le surprit le 22 mai à proximité de l'oasis de M'lili. Après un combat acharné, les Français remportèrent la victoire. Le chérif s'enfuit vers le Sahara et la région retrouva le calme. La rapidité avec laquelle les Français réagirent influença beaucoup sur l'issue du combat ; le chérif n'eut pas le temps de rallier la population du Zab à sa cause. Voir Féraud, Le Sahara de Constantine, op cit, pp 423- 426.

سنة 1852 قدم الشريف محمد بن عبد الله إلى الزاب بعد أن حقق انتصارات في تقرت قصد تأليب سكان الزيبان على الثورة. لكن الرائد كولينو رئيس إقليم بسكرة بالنيانة سارع إلى مفاجأة الشريف على مستوى واحة مليلي وخاض معه معركة كبيرة انتهت لصالح الفرنسيين مما حمل الشريف على الفرار إلى الصحرء، فاستعادت المنطقة "هدوءها ". إن سرعة التنفيذ هي التي أثرت في مصير المعركة للطرف الفرنسي لأنها لم تمنح الشريف فرصة الاتصال بالسكان ولا فرصة للسكان أن يستعدوا لتقديم الدعم الكافي الذي كان يحتاج إليه الشريف الثائر.

لقد استفاد الفرنسيون دروسا مفيدة من ثورة الزّعاطشة ومن بينها الحذر الذي يجب تحرّيه عندما يتعلّق الأمر بمواجهة أشخاص من مجتمع السكّان الأصليين "الأهالي كما يعبّرون عنهم". وخلال رحلة قام بها العقيد كربوشية في الزّاب خلال سنة 1850 أخبر الجنرال سانت أرنو (Général Saint-Arnaud) بأنّ " بعض المشاغبين على حدّ تعبيره، يحاولون إحياء أمجاد بوزيّان والشّهداء، وهم يخاطبون المتعصبين من سكّان القرى محاولين بذلك زرع الاضطرابات" . لكنّ الجنرال نصحه بالحذر مع التّعامل مع مثل تلك الأحداث وأن يحاول ألاّ يقحم السّلطة الفرنسية بشكل مباشر:

" يجب اجتناب وضع السلطة الفرنسية بصفة مباشرة في مثل هذا النّوع من المقاومة الفردية العربيّة. إنّ ذلك يمثّل جزءا ممّا دعا إلى الثّورة في الزّعاطشة[1].."

ولاجتناب المواجهات مع المرابطين (شيوخ وإخوان الزّوايا) اعتمد الضباط الفرنسيون سياسات جديدة تختلف عن تلك التي دفعت الشّيخ سي عبد الحفيظ إلى الثّورة. وكان النّقيب مارمي يصرّ على تكييف "القناعات الدّينيّة" لهذا الشّعب الذي كان يصفه " بالخشن، المتعصّب، الخرافي والسّريع الانقياد عندما يُنادى باسم الدّين[2] ".

ولقد اعتمد فيما بعد كثير من الضبّاط هذه السياسة بشرط أن تفرض رقابة صارمة على كلّ طريقة وعلى كلّ زاوية. فعلى سبيل المثال : عندما

1 -A.O.M, 2 H 25, Une lettre du général Saint-Arnaud au Gouverneur Général, Constantine, 15 décembre 1850.

2- A.O.M, 2 h 25, Cercle de Batna, Historique de 1850 par le capitaine Marmier.

توفي سي عبد الحفيظ في جولية 1850، حاول رئيس النيابة العسكرية بباتنة، طالبا من رئيس المكتب العربي والقايد أحمد باي بن شنتوف، فرض خليفة لسي عبد الحفظ في شخص الشيخ الصادق بن الحاج كمقدّم على كامل الأوراس[1] آملا في شراء (ذمم الطريقة) وكسب ثقة من يخلف سي عبدالحفيظ :

" إنّه لمن الأهميّة بمكان – من أجل الهدوء في الأوراس – أن نمارس شيئا من الضّغط المباشر من أجل تعيين رئيس جديد عن الإخوان، وأن نمنحه شيئا من الاستقلالية على سلطتنا، ونعطيه بعض المزايا : بسان من الواحة[2] مثلا .."

ولقد تبيّن أنّ الاحتياطات الفرنسية جاءت معاكسة تماما لمصالحها. فعلى سبيل المثال كان اقتراحها لتعيين الشيخ الصّادق بن الحاج خلفا للشيخ عبد الحفيظ قد أنمّ عن خطإ جسيم في تقديرات الضبّاط الفرنسيين بإقليم باتنة، ذلك أنّ الشّيخ الصّادق بن الحاج كان من ألدّ أعداء الفرنسيين، ولقد برهن على ذلك في أكثر من مستوى لدعمه المطلق للشّيخ بوزيّان وترأسّه هو نفسه لانتفاضة عارمة بالأوراس سنة 1858 . غير أنّ عرض الضبّاط الفرنسيين وجد في بعض الحلات توغّلا في شأن بعض الزّوايا على مستوى الفطر الجزائري بأكمله وحاول تحريف دورها الاعتيادي.

إنّ الحصار الطّويل على واحة الزّعاطشة قد فاجأ كثيرا من الضبّاط والسّاسة الفرنسيين ، وقد اول بعضهم إرجاع الأسباب إلى ضعف عدد

1 -A.O.M, 10 K 30, Un rapport du colonel Carbuccia, Batna, 16 juillet 1850.

2 -Ibid.

أفراد القوّات العسكريّة، وانتشار الثّورة بسرعة في المنطقة ناهيك عن المقاومة الشّرسة التي أبداها السكّان. لكن البعض الآخر (الأكثر واقعية) يعيد الأسباب إلى الجهل التّام للمقوّمات الأساسيّة لأهل واحات الصحراء (الدينية والوطنية).

ولذلك، وبعد انتهاء الحملة على الزّعاطشة، انتبهت السّلطات الفرنسية على مستوى القطاع القسنطيني، للقيّام بدراسات معمّقة ونوعيّة عن كلّ واحة لتوضيح القضيّة وتجنيب الفرنسيين في المستقبل فصلا من الفصول التي عاشوها في الزّعاطشة.

ولقد سبق للعقيد باريزي (Le colonel Pariset) وأن ذكر في ملحق بتقرير له فيما يتعلّق باستعمال المدفعية أثناء الحصار على الزّعاطشة وعدم إعادة التجربة في واحة أخرى. في رأيه أنّه يجب تجنّب استعمال الأسلحة الثقيلة داخل الواحة أثناء حصار ما والاكتفاء بالتطويق والسيطرة على المنافذ التي تربط القرى بالسّهل أو بقرى أخرى والاكتفاء باستعمال المدفعية عند الضرورة فقط كتدمير هدف ما. " إنّ القتال بالطريقة التي مارسناها يكون في العادة لغير صالح المهاجمين" كما كتب في ملحق تقريره. ويرى أنّه زيادة على التّطويق المحكم، يجب الاقتراب ببطء نحو الهدف[1] واستعمال المدفعية عند الضّرورة فقط.

وعلى عكس العقيد باريزي، يرى ضبّاط آخرون من إقليم بسكرة، كانوا قد قاموا بدراسات مسبقة للواحات المعنيّة. ففي أكتوبر1850 أنهى الملازم سيروكا دراسة أسماها "مشروع الهجوم على واحة أولاد جلال" فبعد

1 -A.O.M, Journal des opérations de l'artillerie au siège de Zaatcha, Constantine, 6 mai 1850.

دراسة جغرافيا منطقة أود جلال، تحدّث عن كيفية تحضير الحملة التي تقوم بالهجوم، وعن آثار القذائف المدفعة على جدران القرية[1] . أمّا شالتون (Cholleton) وهو أيضا من ضباط إقليم بسكرة، فقد نشر بعد سنتين دراسة أخرى وسمها "تفصيل مشروع الهجوم على سيدي عقبة" وقد أثار فيها صعوبات الحرب في الواحات، وموقع سيدي عقبة والطريق المؤديّة إليها وتعداد جنود الحملة والاستراتيجية المتّبعة وعن القرارات التي يجب اتّخاذها بعد الاحتلال المحتمل للمدينة.[2]

" ..السكان يتلقون أوامر ببناء منازل في مواضع تحدّدها السلطات، بحيث لا تكون معزولة ولا مختفية عن الأنظار لتسهل مراقبتها أثناء العمليات العسكريّة[3].."

ولنا أن تساءل عن جدوى هذه الدّراسات وهل أنّها حقّقت شيئا ؟ لقد وجد الفرنسيون أنفسهم في مواجهات مستمرّة وخاصّة تلك التي وقعت في مدن صحراوية غير بعيدة عن الزّاب (الأغواط، تقرت، الوادي الخ..) وتكرّرت فيها الأخطاء نفسها، رغم أن الفرنسيين لم يتكبّدوا فيها خسائر كبيرة.

فبعد 27 سنة من ثورة الزّعاطشة ، اندلعت انتفاضة أخرى في إحدى قرى الزّاب الظّهراوي ألا وهي قرية العامري التي لا تبعد كثيرا عن طولقة. ولقد اندلعت أحداث العامري في ظروف مشابهة للأحداث التي تسبّبت في الثّورة. ولقد حاولت السلطات الفرنسية قمع الثورة في العامري بسرعة

1 -A.M.G, MR 1817, Séroka, Biskra, 15 octobre 1850.

2 - A.M.G, MR 1317, C. Cholleton, Description et projet d'attaque de l'oasis de Sidi-Okba, Biskra, 15 novembre 1853.

3- Ibid.

حيث توّجهت قوّات من قسنطينة تحت قيّادة الجنرال كارتري (Général Carteret) الذي عمل على تطويق الواحة بإحكام ابتداء من يوم 11 أفريل 1876 . ولقد كانت التّعليمات التي تلقّاها قائد الحملة على العامري واضحة وصارمة تتلخّص في : " **لا نريد زعاطشة أخرى** ! " ولذلك عمد من البداية على العنف بقنبلة القرية بقوّة دون أن يضرب عليها حصارًا[1] .

وما أن حلّ يوم 28 أفريل حتّى تمكّنت القوّات الفرنسية من تطويع القرية بعد هدم معظمها وفرض عقوبات صارمة على أهلها من عرش البوازيد حيث صادرت أموالهم وفرّقتهم إلى مناطق كثيرة من القطر الجزائري.

" لا شكّ أنّ قضيّة الزّعاطشة قد أثّرت في عرش البوازيد أهم قبيلة بالعامري، وهي التي أجّجت الانتفاضة[2].."

ولكن يبدو أنّ الفرنسيين كانوا قد استفادوا بما يلزم من الزّعاطشة التي كانت تجربة فريدة من نوعها.

3-5 ذكرى الزّعاطشة

لقد بقيت ذكرى الزّعاطشة عالقة إلى الأبد في نفوس أهل المنطقة، كما كانت بصمة عار في أذهان الفرنسيين. لقد استوجب احتلال المدينة تدميرها الكلّي وموت ما يزيد عن 1000 من سكّانها (أغلبية السكان) ومنهم شرفاء ومرابطون ورؤساء زوايا. ففي سنة 1852، كتب المقدّم بودفيل من إقليم بسكرة (Lieutenant-colonel Boudville) ما يلي :

1 -HURRBIELLE (L'abbé Jean), Au pays du bleu Biskra et les oasis environnants, Auguste Challamel, Paris, 1899.

2- CATALDO, Biskra et les Ziban, op cit, p 44.

"..لقد بقيّت ذكرى الزّعاطشة كخميرة حقد سوف لن تخفّ مع مرور الزّمن. لقد تحوّل الدّفاع عن الواحة والمعارك التي دارت حولها مواضيع للشّعر والغناء الشّعبي حيث يمجّد بوزيّان وأبطال الجهاد الذين ماتوا حوله.. ونحن نعرف أنّ مثل هذا الغناء الحماسي يُغنّى في التجمّعات وأعراس القرى وأعياد التجمّعات الكبرى[1].."

هناك مثال بسيط يُظهر كم كان الفرنسيون يتمنون محو ذاكرة الزّعاطشة من نفوس سكّان منطقة الزّاب. ففي سنة 1852 قرّر قائد إقليم بسكرة إعطاء المثل في هذا الاتّجاه، فأمر شيخ ليشانة آنذك بتوقيف المدعو امحمّد بن لحمر لأنّ هذا الأخير كان يمجّد بغنائه (شعره) الشّيخ بوزيان وشهداء الجهاد في الزعاطشة أمام العامّة. وبدلا من أن يقوم شيخ ليشانة بتوقيف الشّاعر، استشار السكّان في الأمر لكنّهم سكتوا عنه لأنّ أوجاعهم كانت أعمق من أن يشتغلوا بتوافه لم تكن لتضمّد جراحهم .. ولمّا لم ير منهم أيّ ردّ فعل رافض أو مؤيد اتّخذ بنفسه مبادرة توقيف الشّاعر أمحمّد بن لحمر وأخذه إلى بسكرة كسجين. وهناك ثار عليه غضب السّلطات الفرنسيّة التي لم تقم بعزله فحسب بل بنفيه إلى فرنسا ! (كانوا يريدون من الشيخ أن يعالج القضية بنفسه ودون عنف ولا إقحام السلطات الفرنسية في الموضوع) وهو ما يبيّن أن الفرنسيين بقوا محتفظين في ذاكرتهم بما وقع في الزّعاطشة وأنّ مثل هذه الحوادث التي تبدو بسيطة هي من تتسبّب في مثل ما وقع سنة 1849 بالزّعاطشة[2].

1- A.O.M , 10 H 18, Historique du cercle de Biskra en 1852 par le lieutenant-colonel Boudville, 1 janvier1852.

2- A.O.M, 10 H 18, Historique du cercle de Biskra en 1852 par le lieutenant-colonel Boudville, 1 janvier1852.

كلّ الضبّاط الفرنسيين الذين شهدوا الحصار على الزّعاطشة أثاروا – كلّ حسب رأيه- ذكرى تلك الفصول المثيرة والمؤلمة . ولقد تردّد الجنرال هربيون كثيرا قبل أن ينشر مذكّراته عن الانتفاضة. ولما أراد أن يخرج عن صمته، أربع سنوات فقط، قبل وفاته كان يريد أن يردّ عن الانتقادات التي طالته فيم يتعلّق بطول الحصار وضخامة الخسائر وعجزه عن إخماد ثورة وقعت في قرية صغيرة. لكنّ الجنرال هربيون بقي يحتفظ في ذاكرته ما اعتبره "نصر عسكري مبين" لم يتلقّ الثّواب اللازم (المكافأة) حسب تعبيره[1]. وكانت " معاناة الجنود وآلامهم من الأمور التي تحزّ في نفسه، ولم ينس أولئك الجنود الذين : " كانوا رغم الكوليرا يخوضون معرك تكاد تكون يوميّة وصامدين أمام عدوّهم.. ولقد استطاعوا بفضل شجاعتهم وطاعتهم (انضباطهم) وإصرارهم على النّصر أن يهزموا دفاعا من أشد

1-En apprenant sa destitution après l'insurrection de Zaatcha, le général Herbillon ne dissimila point son chagrin notamment dans la lettre qu'il envoya à son frère en date du 22 février 1850 : « Je suis rappelé en France avec une brutalité jusqu'ici sans exemples. Le ministre, après avoir accordé toutes les récompenses que j'avais demandées pour mes braves officiers et soldats qui s'étaient distingués dans l'expédition qui a été terminée par la prise de Zaatcha, me met en disponibilité sans m'en donner les motifs.. » et il dit encore dans ses notes personnelles " ..si cette affaire de Zaatcha fut arrivée sous Napoléon 1er, on aurait agi d'autre façon." Voir HERBILLON, Souvenirs d'un vieux cahier, op cit, pp 161-163.

لم يخف الجنرال هربيون لمّا علم بتنحيته استياءه الحاد، لاسيّما في الرسالة التي وجهها لأخيه بتاريخ 22 فيفري 1850 : " لقد استدعيت إلى فرنسا بنوع من الجفاء غير المعهود إلى حد الآن. فالوزير بعد ما وافق على كلّ المكافآت التي طلبتها لضبّاطي وجنودي الشجعان الذين تألقوا في الحرب التي انتهت بإسقاط الزّعاطشة، وضعني تحت التصرّف (بمعنى عزلني) دون أن يقدّم لي أسبابا عن ذلك."

المقاومات ويسقطوا الزّعاطشة." إنّ أقواله " غير المقنعة " حسب شارل أندري جوليان (Charles André Juien) تعدّ متحيّزة ومعرضة، ولكنّها لم تمنع من توضيح جوانب هامة ومثيرة من ثورة بوزيّان[1].

أمّا الفصول ذات العلاقة بانتفاضة الزّعاطشة، الأكثر " اختلاجيه"[2] والأكثر "التصاقا"[3] بالذّهن فهي بلا شكّ تلك التي كتبها ونشرها النّقيب شارل بوشي سنة 1851. لقد كانت الزعاطشة بالنسبة إليه "حصارا طويلا شاقا ومرهقا " و "مطبوعا بكلّ أنواع الحرمان " حسب تعبيره. ويتذكّر " مدينة مهدّمة عن آخرها من كلّ الجدهات" كما يتذكّر "درسا لا ينسى سلّط على سكّان محطّمين". ويبرّر ذلك بقوله : " إنها قوانين الحرب التي لا بدّ منها ولا يمكن تجنّبها" لأنّ، حسب رأيه، " إنّ كلّ مدينة تتعرّض لاقتحام بعد أن ترفض الاستسلام، تدفع الثّمن".

فعندما نقرأ لهذا الضّابط نتخيّل أنّه كتب مذكّراته من ساحات معارك، ولم يزل يعبّر عن مشاعره العميقة ويعطي أمثلة واضحة عن المشاهد التي أثّرت فيه[4].

وعندما نشر الماريشال كانروبير مذكّراته، كانت غنيّة بأحداث عسكريّة أهمّ من مسألة الزّعاطشة[5]. ومع ذلك ذكر ما أسماها "مصائب الحروب"

1-HERBILLON (Emile), Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849, Relation du siège de Zaatcha , op cit, Voir l'ensemble de l'ouvrage.

2- C'est l'expression de Charles Féraud dans le Sahara de Constantine, op cit, p 354.

3- Ainsi qualifié par Pélissier dans « Annales Algériennes » op cit , p 318.

4- BOCHER Charles, "Le siège de Zaatcha" op ct, pp 97-98-99.

5- Après sa participation à la conquête de l'Algérie, Canrobert (1809-1895) quitta définitivement le pays en 1851. Il soutient Louis Napoléon lors du coup d'Etat du 2 décembre 1852. Il remplaça Saint-Arnaud à la tête des forces françaises en Crimée

ومنها ما عرفه بالزّعاطشة وهي الحرب التي كلّفته 12 جنديّا من 16 من مجموعة الزوّاف الغالية عليه، و كانوا أوّل من تجاوزوا خطّ الفتحة اليمنى معه. كما يتذكّر الحفل الذي أقامه جنوده حول خيمته وهم يتقاذفون رؤوس بوزيّان وابنه وموسى الدّرقاوي. ويذكر أنّه كان "مستاء ومتقزّزا" من المشهد في البداية ثم اقتنع فيما بعد " أنّ ذاك كان ضروريّا للتّأثير في نفوس السكّان المستعدّين دائما للثّورة"[1]. وعلى خلاف الآخرين، فإنّ مذكّرات كانروبير حول الحوادث كانت مقتضبة وبدون تفاصيل، ولم تتعرّض للأسباب المحيطة بالانتفاضة.

وعلى غرار الضباط السامين، كتب معظم الضبّاط والجنود مذكّراتهم حول الزّعاطشة مركّزين عن الأحداث التي طبعت نفوسهم، ولكنّهم كانوا كلّهم يشتركون في نقطة واحدة ألا وهي فظاعة تلك الحرب ومأسويتها، ويصفونها أنها نوعيّة ونادرة الحدوث في تاريخ غزو الجزائر.

إنّ السيّاسة التي زعم الفرنسيون أنهم صاروا يعتمدونها تجاه سكّان الجنوب القسنطيني، كانت قائمة على الحذر واليقظة لم تكن إلاّ أوهاما، لأنّه لا يمكن تغيير السّلوك بمجرّد قرارات سياسيّة. ولقد كان العنف هو الوسيلة الوحيدة في يد القوات الاستعماريّة . ولأسباب مختلفة، كان الضبّاط الفرنسيون يستعملون في الميدان كلّ الوسائل (المحظورة) لتنفيذ مخطّطاتهم وفرض "النّظام".

(1854-1855), puis promu maréchal ; il participa à la guerre franco-allemande en 1870. Sous la IIIème république, il fut l'un des défenseurs du parti bonapartiste.

1 -BAPST, Le maréchal Canrobert, Souvenirs d'un siècle, op cit, p 485.

أمّا سكّان الجنوب القسنطيني فلم يؤمنوا يوما بليونة السيّاسة الفرنسية خاصّة بعدما رأوا أو سمعوا ما وقع في الزّعاطشة. وكانوا قبلها قد عرفوا غطرسة الفرنسيين وتصرّفاتهم فلم يعودوا يرجون أي خير من السياسة الفرنسية في المنطقة.

أثناء مقاومة الأمير عبد القادر، قامت القوّات الفرنسية بتدمير مدن كثيرة وحرق قرى بأكملها، وكانت تعتبر ذلك من منطق الحرب التي كانت تدعو الأمير إلى الاستسلام. ولكنّ الجزائريين المنكوبين كانوا في غالبيهم، قد أعادوا بناء مدنهم بشكل أو بآخر وجدوا شكلا من الهدوء إلاّ الزّعاطشة. فلماذا حظي هدم الزّعاطشة لدى الفرنسيين بذلك القدر من الأهميّة ؟ ولماذا ترك هدم قرية من بين قرى كثيرة دمّرت هذا الانطباع (الخالد) في نفوس سكّان المنطقة ؟

لقد عانى الفرنسيون كثيرا أثناء الحصار الطويل على الزّعاطشة وتكبّدوا خلاله خسائر غي مسبوقة من طرف المدافعين عن القرية.

لقد تصرف الفرنسيون تجاه الزّعاطشة تصرّف الرّومان تجاه قرطاج. بمعنى أنهم انتقموا للماضي (التّاريخي) باستعمال عجرفة غير مسبوقة لحماية المستقبل، فعمدوا إلى محو مدينة وشعب من الخريطة.

خلاصة عامّة

إنّ انتفاضة الزّعاطشة التي بدأت بحادث بسيط (محاولة توقيف الشّيخ بوزيّان من طرف ممثّل عن الإدارة الفرنسيّة) تحوّلت بسرعة إلى حركة ثورة عارمة. حتّى وإن كان قد سبق للشّيخ بوزيّان ممارسة الجهاد والدّعوة إليه قبل الحادثة، لا شيء كان يوحي بانتفاضة قريته بل بمنطقة بأكملها. ولقد حدث الأمر ساعة محاولة القبض عليه، عندما هبّ بعض أنصاره وبعض أفراد عائله من تخليصه من قبضة أيدي أعضاء من المكتب العربي ببسكرة. ومن ثمّة اعتبر سكّان الزّيبان أنّ ذلك كان مجدا شخصيّا للشّيخ، ممّا أحدث فورا ذلك التّسخير العام لصالح الحرب المقدّسة (الجهاد). إنّ الانتفاضة العارمة تكاد تكون نتيجة حركة عفوية لم يكن أي شخص بما في ذلك الشّيخ بوزيّان ينتظر أن تتحوّل إلى انتفاضة بتلك الحدّة.

وشيئا فشيئا، فرض الشّيخ بوزيّان نفسه كقائد بدون منافس للحركة الثّوريّة عندما بدأت رسائله تجوب مساحة واسعة من المنطقة وينتقل أنصاره عبر كلّ الإقليم للدّعوة إلى الجهاد. وبسرعة بدأت قريته تستقطب الفضوليين والرّاغبين في الجهاد إلى جانبه.

ومن جهة أخرى حاول الفرنسيون مدعومين بآل ابن قانة تطويق الأحداث وحصرها في الزّعاطشة، ممّا جعل ضمائر سكّان المنطقة تستيقظ وتبدي تعاطفها ومساندتها للشّيخ.

لقد عمل تصرّف الإدارة الفرنسيّة وأعوانها منذ البداية على تمجيد الانتفاضة والرّفع من شأن بوزيّان دون أن يشعروا بذلك. وكذلك ما زالت الانتفاضة في القرية تتوسّع إلى أن بلغت مستوى ثورة في كامل الزّاب.

إنّ الحملة العسكريّة الواسعة التي قادها العقيد كربوشية سنة 1849 أبانت صراحة عن مقاومة مثاليّة قام بها سكّان الزّعاطشة. ومنها، وجدت قيّادة القطاع القسنطيني نفسها في مواجهة انتفاضة امتدّت بسرعة إلى نطاق واسع، وما كان عليها إلا تحضير حملة ثانيّة كبيرة مطالبة الوالي العام للجزائر بتعزيزات عسكريّة ضخمة. وكذلك استغلّ الشّيخ بوزيّان نصره الأوّل لينال تأييدا شعبيا واسعا وهو يشهر نداء الجهاد في سبيل الله ضدّ الكفّار. وقد استطاع أن يركّز مجهوداته على الأوراس ليجرّه إلى الثّورة، وهو ما حقّقه منذ سبتمبر 1849.

وإن كان حركة الشّيخ بوزيّان قد انتقلت إلى الأوراس، فإنّ ذلك يعود أيضا إلى مواقف معظم مقاديم الرّحمانيّة.

في العادة، عندما تنخرط الزّاوية في الكفاح فإنّها تقوم ب "توفير المال وتسخّر شبكاتها الخاصة للاتصال ووسائلها الخفيّة[1] ". ولقد أضفت الطّريقة الرّحمانية شكلا من الشرعيّة الدّينية على المقاومة في الزّعاطشة. إنّ انضمام شيخ الرحمانية الوقور المقدّم سي عبد الحفيظ قد مكّن من انضمام آلاف الإخوان للمساهمة في الكفاح المسلّح، غير أنّ انهزامه المبكّر في سريانة حدّ من حماسه في الالتحاق بالثّورة.

1- CHENTOUF (Tayeb) « Les résistances armées du XIXème siècle, Essai de synthèse, cahiers Maghrébins d'histoire , mars 1989, p 126.

إنّ طول مقاومة الزّعاطشة كان مثالا صادقا عن عزيمة السكّان الذين لاقوا دعما كبيرا من خارج الواحة، بسبب تمسّكهم بقضيتهم، حيث كانت تتوافد عليهم التّشجيعات كعلامات تضامن مطلقة مدّة 52 يوما. لقد أبان المدافعون عن الزّعاطشة عن شجاعة نارة وعن عزيمة صلبة حتّى النّهاية. وكانوا ينتظرون عدوّهم في مواقعهم ويستبدلون تكتيكهم وفق الظّروف التي تفرضها المعارك. وباختصار، فقد استعملوا كلّ الوسائل التي أتيحت لهم للصّمود الطويل وتكبيد العدوّ ما أمكن من الخسائر أملا في النّصر المبين. وبتلك العزائم استطاعوا أن يتجاوزا كلّ الاستراتيجيات التي وضعتها القّوات الفرنسيّة طوال مدّة الحصار إلى غاية الحسم النّهائي المحتوم.

ولم يستطع الفرنسيون - رغم إمكانياتهم الضّخمة- تجاوز جدران القرية بالسّرعة التي كانوا يتوقّعونها. إنّ الجنرال هربيون الذي انتقد "بالإفراط في الحذر" والذي عُدَّ عمله سلبيّا من طرف السّلطات الفرنسيّة العليا ومن بعض ضبّاطه أيضا، وهو يتحمّل مسؤولية طول الحصار والخسائر الفرنسية التي نجمت عنه. وكان من الصّعب على الفرنسيين الاقتراب من القرية باعتماد أشغال هندسيّة وسط بساتين محفوفة بالمخاطر وأمام خندق عظيم شكّل لهم حاجزا حقيقيا لم يتمكّن عدد محدود من رجال الهندسة تجاوزه بالسرعة المطلوبة، كما كان الجنود يعانون من كلّ ما يتطلّبه حصار طويل، زيّادة عن الأمراض وصعوبة المناخ، ممّا كان يشجّع المدافعين عن الاصرار على المقاومة.

وحتّى وإن كانت الثّورة قد قُمعت في آخر المطاف، فإنّ ذكرى المقاومة لم تسقط في طيّ النّسيان. فخلال القرن التاسع عشر، لم يغادر الفرنسيين

هاجسُ إمكانيّة تجدّد ما حدث في الزّعاطشة كلّما حاصروا قرية من قرى الوطن. أمّا في أذهان مواطني الزّاب فإنّ ذكرى ما حدث في الزّعاطشة ظلّ حيّا يتغنّى به الشّعراء والمغنّون لتمجيد الشيخ بوزيان وشهداء الزّعاطشة، إلى درجة أنّ الفرنسيين كانوا يتدخّلون أحيانا لكسر تعلّق المواطنين بالماضي[1].

إنّ ثورة الشّيخ بوزيان تدخل فيما يسمّيه بعض المؤرّخين "الثّورات الجهوية" لأنّها تعكس نوعا من "الوطنية الجهوية"[2]، لأنّها لا تتّخذ طابعا وطنيّا، بمعنى أنّها لا تستطيع استقطاب كلّ القبائل الجزائرية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا تحت قيّادة واحدة كما كان عليه الوضع مع الأمير عبد القادر. لقد حاول الشّيخ بوزيّان تمديد ثورته خارج الجنوب القسنطيني دون أن يحصل على كثير من النّجاح لأنّ الفرنسيين كانوا يحتلّون المناطق التي يمكن أن يطمح لجرّها ويحكمون القبض عليها، وكان من الصّعب عليه التّجوال أو إرسال موفدين إلى مناطق بعيدة من القطر (كما فعل الأمير). فذلك ما كان للحركات التي وقعت في الجنوب القسنطيني سنة 1849 أو قبلها أو بعدها (أولاد جلال، الحضنة، الأوراس، بوسعادة) وكان بينها بعض التّنسيق. وكان سقوط الزّعاطشة في أيدي الفرنسيين قد أخمد حماس تلك الحركات ولو إلى حين. وكانت نارة هي القرية التي شهدت استثناء، حركة ثورية مباشرة بعد الزّعاطشة.

1- Voir le sous-titre consacré au souvenir de Zaatcha dans le cinquième chapitre de la 3me partie.

2- GALLISSOT, Abdelkaer et la nationalté algérienne, Revue historique, II, 1965, p 345.

عندما تكلّم فرانسوا روث (François Roth) عن حرب 1870الفرنسية الألمانية قال : " الوطنية ليست بناء ذهنيّا ولا مشروعا سياسيا، فهي تولد عند الاحتكاك مع العدوّ خاصّة مع المستعمر."[1]انطلاقا من هذا التّعريف، فإنّ كلّ الحركات الشّعبيّة التي حدثت في الجزائر منذ 1830 تحمل طابع الوطنيّة. ففي ثورة الزّاب كان الحسّ الوطني حاضرا حتّى في أحلك أيّام الحصار. ففي وقت السّلم كان من الممكن للفرنسيين استعمال إغراء المال للحصول على معلومات أو إرشاء أشخاص، لكن، عندما اندلعت الأحداث في الزّعاطشة، فإنّ هذا العنصر (الإغراء بالمال) لم يعد مجديا وسقط من يد الفرنسيين. وفي ذلك لاحظ العقيد باريسي : " إنّ فخّ المال لم يعد فعّالا كما عليه عند العرب، وصار عاجزا تماما[2]" ويضيف : "التعصّب والوطنيّة دفعتا إلى درجة أنّ الوعود بالمال لم تجد نفعا في حصول المكتب العربي على أدنى معلومة من العرب[3]"

إنّ الوطنيّة (الحس الوطني) التي أظهرها السكّان وإن كانت على نطاق محدود، فإنّها تنم عن التصاق متين بالأرض الغالية، بالمنطقة وبالوطن بأكمله لدى البعض.

إنّ السياسة العامّة التي قادها بوزيّان، ورغم تعدّد مظاهرها. تتلخّص في هدف واحد واضح وهو " **طرد الكافر**" من أرض الإسلام. ولذلك كان الجهاد هو العنصر الأساسي في دفع الثّورة من البداية، وكانت الجماهير

1- ROTH (François), La guerre de 1870, Fayard, 199.

2-A.M.G, Histoire de la campagne des Ziban par le sergent-major RIBES, caher 2.

3- A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de l'artillerie au siège de Zaatcha, par le colonel Pariset, Constantine, 6 mai 1850.

التي اندفعت إلى قضيّة بوزيّان تريد الانتصار للأرض. فعندما دعا الشّيخ بوزيّان الشّيخ الصّادق بن الحاج ، قال له صرحة : ".. اقدموا بدون تأخر.. احفظوا أرواحكم ودينكم وسينصركم الله.. إنّ الزّاب القبلي والزّاب الظهراوي لهم الإيمان بالدّين وسيعلمون على نصرة دين الله.. كلّ المسلمين قد اجتمعوا للدّفاع عن هذه القضيّة[1].."

لقد كان الحسّ الدّيني من أهم العوامل التي دفعت المدافعين عن الزّعاطشة للتضحيات الجسام، عندما كانوا يواجهون الموت يوميّا ويأتون بكلّ شجاعة ليقارعوا العدوّ من قرب، رغم الخسائر التي يتكبدونها دون أن تثني من عزائمهم شيئا. لقد استطاع الشّيخ بخطبه الملتهبة أن يثني أنصاره عن التّفكير في إمكانيّة الاستسلام وأن يختاروا السّقوط شهداء في سبيل الله. لقد كان بإمكان المدافعين عن الزّعاطشة أن ينسحبوا (ولو فرادى) ولكنهم آثروا جميعا الاستشهاد حتّى النّهاية. لقد كان الإسلام إذن، هو الدّافع إلى الثّورة في البداية وهو المحرّض عليها إلى النّهاية (حتّى الاستشهاد).

ويمكن أيضا تفسير انتشار الثّورة بعدم تمكّن الفرنسيين من الاحتلال الكامل للمنطقة لحداثة تواجدهم بالزّاب (بضع سنوات فقط).

إنّ الإدارة الفرنسيّة رغم تمركزها في بعض المدن الكبرى لم تستطع بسط سيطرتها خارج تلك التجمّعات الكبرى. أمّا الشّيوخ العرب والقيّاد المكلّفين بذلك فعادة ما يكتفون بجمع الغرامة من الأرياف والحفاظ على نوع من

1- A.O.M, 15 K 25, Dossier intitulé « Documents trouvés à Zaatcha et à la Djébira de Si Abelhafid à Sériana, traduction d'une lettre arabe adressée par le cheikh Bouziane au cheikh Sadek Belhadj ", Voir annexes, n ° 3.

النّظام بفضل ما يتمتّعون به من استقلاليّة. وعليه، فإنّ السكّان حالما سمعوا بالدّعوة إلى الجهاد انصاعوا نحو اختيار الكفاح المسلّح.

ولم تكن الانتفاضة لتأخذ ذلك الحجم الكبير لولا وجود شخصيّة بوزيّان القويّة النّشيطة المحاربة، رغم أنّه لم يكن مرابطا ولا مقدّما. ولكنّه بفضل حنكته وصدقه في الجهاد المقدّس استطاع شيئا فشيئا أن يبلغ هيئة رجل دين (مجاهد).

فبفضل تصرّفه وتحرّكاته ومراسلاته وخطبه الحماسّة ذات الطّابع الدّيني استطاع أن يذكّي روح المقاومة لدى العامّة من السكّان وأن يكسب ثقة أنصاره. ولما ارتفع إلى مستوى قيّادة ثورة واسعة النّطاق، كان يسهر على تسيير الشؤون السياسية والعسكرية بمهارة فائقة. فبوجوده، كان أنصاره يشعرون بالأمن التّام.

وبفضل إصراره وإقدامه وذكائه، استطاع أن يتغلّب على صعوبات شتّى ويخوض معارك بفعاليّة. وعندما أدرك أنّ انهزامه أصبح أمرا لا مفرّ منه، "آثر أن يموت ميتة تليق بمقامه وعن صموده التّاريخي"مثل ما كتب شارل فيرو.

إنّ الزّعاطشة التي وصفها أوغستان برنار (Augustin Bernard) ب"سراغوسا الصّحراء"[1] أو (Saragosse du désert) للحصارين اللتين تعرّضت لهما هاته المدينة الاسبانية سنتي 1808-1809 من طرف قوات نابليون الأول (Napoléon 1er)، ودافع عنها سكّانها بشراسة.

1- AUGUSTIN (Bernard), Histoires des colonnies françaises et de l'expansion de la France dans le monde, Tome II, l'Algérie, Pon, Paris, 1930, p 276.

فخلال حصار الزّعاطشة، عاش السكّان مدّة طويلة تحت وطأة القذائف ودوي المدفعيّة، وهو ما خلّده أحد الشعراء الشّعبيين بكلّ كبرياء واعتزاز قائلا إنّ المدينة ستكون مقبرة لجحافل الجنود التي تأتيا من الجزائر ومن سكيكدة ومن عنّابة وغيرها. والحقيقة أنّ واحة الزّعاطشة قد تحوّلت في تلك الفترة إلى رمز المقاومة الوطنية ضدّ الفرنسيين بينما صارت القرية عبارة عن قلعة من قلاع الجهاد المقدّس. فمجرّد قدوم القّوات الفرسية بشكل يومي كان يثير في سكّان الزّعاطشة مشاعر الاعتزاز والافتخار وهو ما كان يحوّل استماتة المدافعين إلى فخر، رغم أن معظمهم كان من أهل الرّيف البسطاء مدعومين بمرابطين وإخوان شائعين في الطّريقة الرّحمانيّة. وبالمقابل لم تلق ثورة الزّعاطشة الدّعم من العائلات الكبيرة : آل ابن قانة، بن شنتوف، سي مقران وغيره من قيّاد الجنوب القسنطيني خوفا على مناصبهم وامتيازاتهم. ولم يخف بعضهم العداء التّام لثورة بوزيّان (عائلة ابن قانة) ورغم ذلك كان الفرنسيون يشكّكون في نوايا بعض القياد والشيوخ ويصفونهم ب "المتعاطفين بذكاء مع الثّورة" .

منذ محاولة احتلال الجزائر و"الأهالي" أمام خيارين : إمّا إظهار معارضة للفرنسيين بشكل أو بآخر والسقوط تحت عصا القمع أو قبول "السّلم الفرنسي" مقابل غطرسة المستعمر وهضمه للحقوق والقبول بوصف "أهلي" بدلا من مواطن، ومعنى ذلك الوقوع تحت الهيمنة الاستعمارية ولاعدل القيّاد وخسارة الأراضي الخ.. وعليه فإنّ المقاومات الشّعبيّة لم تهدأ لحظة، إلى غاية القرن العشرين وبداية نوع من النّضال السياسي الهادئ إلى حد ما. وحتّى وإن كانت السياسة الفرنسية لم تتغيّر تجاه الجزائريين، فإنّ السّاحة عرفت نوعا من الهدوء النّسبي طوال قيام

الحركة الوطنية السياسية التي توجّت بثورة أوّل نوفمبر، فكانت تتويجا لكلّ الثّورات الوطنية التي قامت منذ 1830.

ولقد مثّلت ثورة الزعاطشة فصلا هاما من فصول الكفاح المسلّح وأعطت نموذجا حيّا عن إصرار الجزائريين على مواجهة الاستعمار. وهي تُعدّ بلا منازع من المحاولات الهامة التي قامت بعد الأمير عبد القادر لإحياء الكفاح المسلّح. لقد كانت حقّا ثورة دينية بطابع وطني والعكس صحيح.

هناك ثلاثة عوامل ميّزت طابع ثورة الزّعاطشة : طول مدّة صمود المقاومة، رمزيتها ونتائجها. ففي تاريخ الجزائر لا توجد قرية بذلك الحجم تعرّضت لقصف مستمر لمدّة طويلة جدّا تحت حصار محكم، وصمدت مثل ما صمدت الزّعاطشة.. ولم تعرف قرية بذلك الحجم جلبت لها أنظار الجزائريين والفرنسيين على السّواء.. ولم تعرف أيّ قرية زخم تلك النّجدات والتّعاطف الشّعبي الذي كان ينهال عليها يوميّا إلى غاية نهايتها.

الملاحق

- رسائل
- وثائق
- خرائط
-لوحات

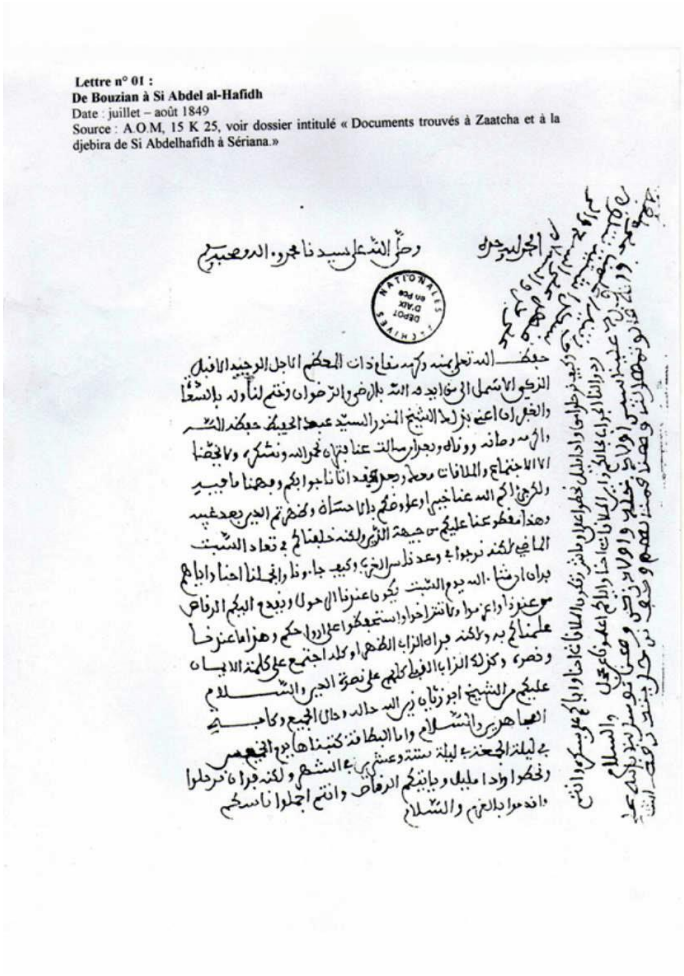

Lettre n° 01 :
De Bouzian à Si Abdel al-Hafidh
Date : juillet – août 1849
Source : A.O.M, 15 K 25, voir dossier intitulé « Documents trouvés à Zaatcha et à la djebira de Si Abdelhafidh à Sériana.»

رسالة رقم 01 : من الشّيخ بوزيّان إلى الشّيخ سي عبد الحفيظ.

Lettre n° 02 :
De Bouzian à Sadeq Belhadj
Date : juillet-août 1849
Source : A.O.M, 15 K 25, voir dossier intitulé « Documents trouvés à Zaatcha et à la djebira de Si Abdelhafidh à Sériana. »

رسالة رقم 02 : من الشّيخ بوزيّان إلى الشّيخ الصّادق بن الحاج.

Lettre n° 03 :
D'un disciple de la Rahmaniyya à Si Abd al-Hafidh
Date : 1849.
Source : A.O.M, 15 K 25, voir dossier intitulé « Documents trouvés à Zaatcha et à la djebira de Si Abdelhafidh à Sériana. »

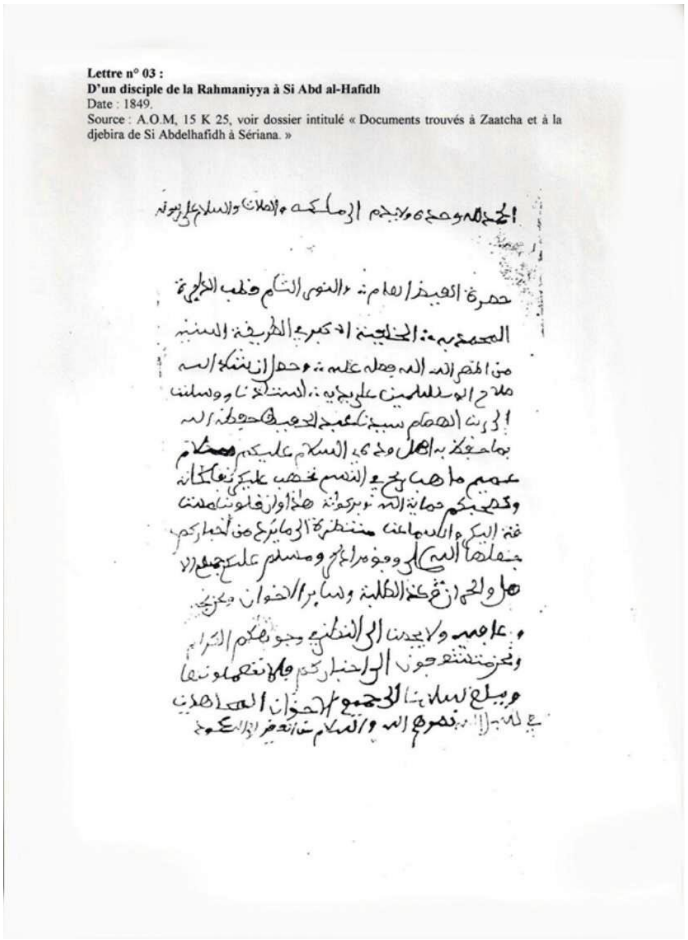

رسالة رقم 03 : من أحد تلاميذ الرحمانية إلى الشّيخ سي عبد الحفيظ.

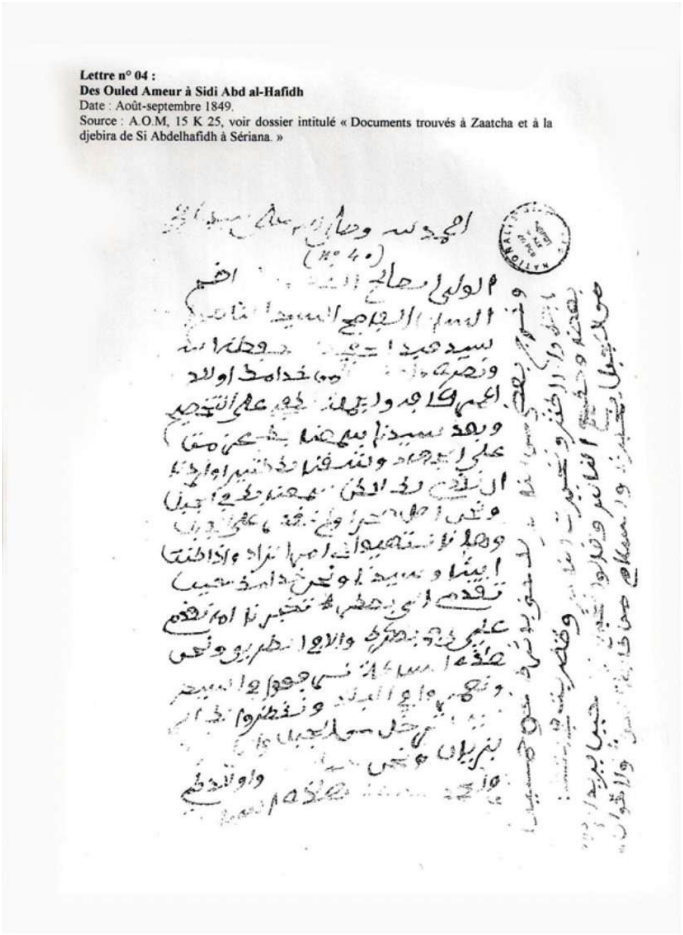

Lettre n° 04 :
Des Ouled Ameur à Sidi Abd al-Hafidh
Date : Août-septembre 1849.
Source : A.O.M, 15 K 25, voir dossier intitulé « Documents trouvés à Zaatcha et à la djebira de Si Abdelhafidh à Sériana. »

رسالة رقم 04: رسالة من أولاد اعمر إلى سي عبد الحفيظ.

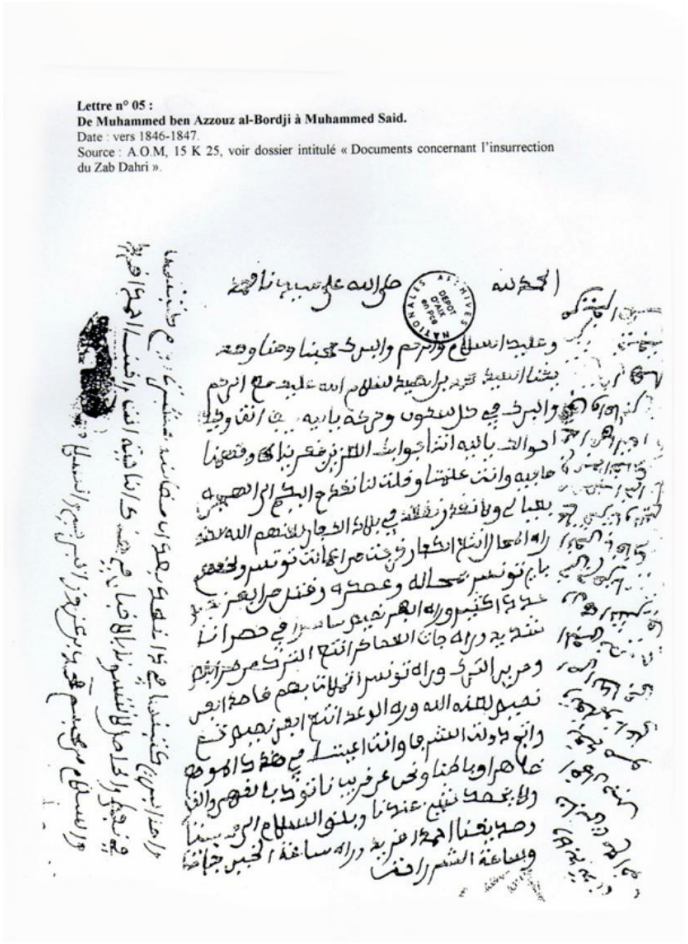

Lettre n° 05 :
De Muhammed ben Azzouz al-Bordji à Muhammed Said.
Date : vers 1846-1847.
Source : A.O.M, 15 K 25, voir dossier intitulé « Documents concernant l'insurrection du Zab Dahri ».

رسالة رقم 05 : رسالة من محمّد بن ابن عزوز البرجي إلى محمّد الصّيد.

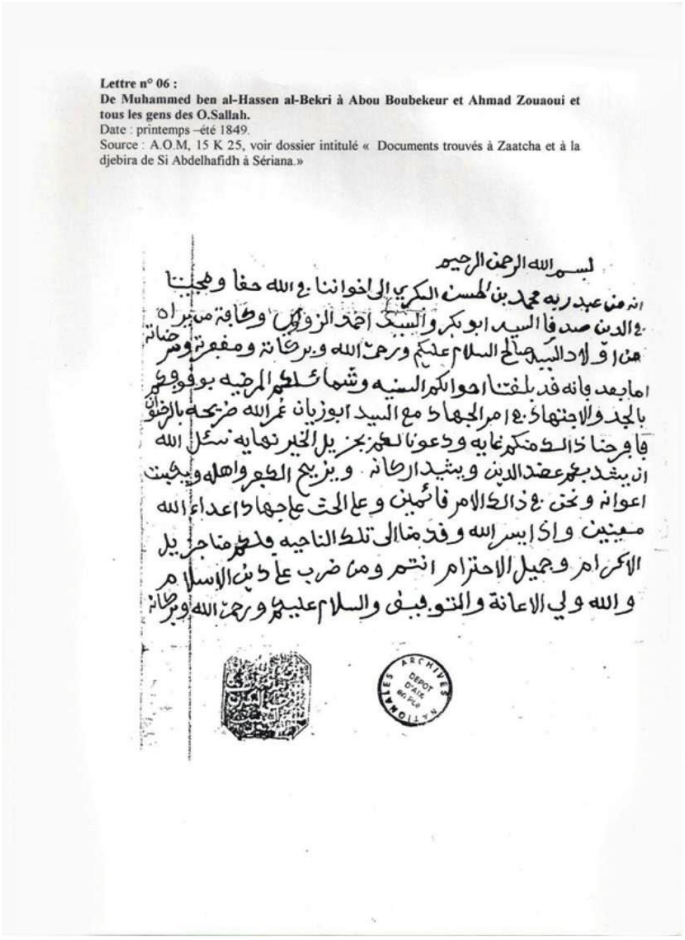

Lettre n° 06 :
De Muhammed ben al-Hassen al-Bekri à Abou Boubekeur et Ahmad Zouaoui et tous les gens des O.Sallah.
Date : printemps –été 1849.
Source : A.O.M, 15 K 25, voir dossier intitulé « Documents trouvés à Zaatcha et à la djebira de Si Abdelhafidh à Sériana.»

بسم الله الرحمن الرحيم
انه من عبد ربه محمد بن الحسن البكري الى اخواننا في الله حقا ومحبينا
في الدين صدقا السيد ابو بكر والشيخ احمد الزواوي وطائفة من ذراه
من اولاد الشيخ صالح السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضاته
اما بعد فانه قد بلغنا احوالكم السنيه وشمائلكم المرضيه بوفوركم
بالجد والاجتهاد في امر الجهاد مع السيد ابوزيان عمر الله ضريحه بالرضوان
فاوجنا ذالك منكم غايه ودعونا لكم بجزيل الخير نهايه نسئل الله
ان يشد بكم عضد الدين ويشيد اركانه ويزيح الطغيان واهله ويثبت
اعوانه ونحن في ذالك الامر قائمين وعلى الحث عاجلا داعداء الله
معينين واذا يسر الله وقدمنا الى تلك الناحيه قدمنا جزيل
الاكرام وجميل الاحترام انتم ومن ضرب على دين الاسلام
والله ولي الاعانة والتوفيق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

رسالة رقم 06 : رسالة من محمّد بن حسن البكري إلى أبي بكر وأحمد الزاوي من عرش أولاد الصالح .

Lettre n° 07 :
De la djemaa de Lichyana au caïd Muhammed Segir Ben Ali Ben Guidoum Ben Gana.
Date : mai-juin 1849.
Source : A.O.M, 15 K 25, voir dossier intitulé « Documents concernant l'insurrection du Zab Dahri.»

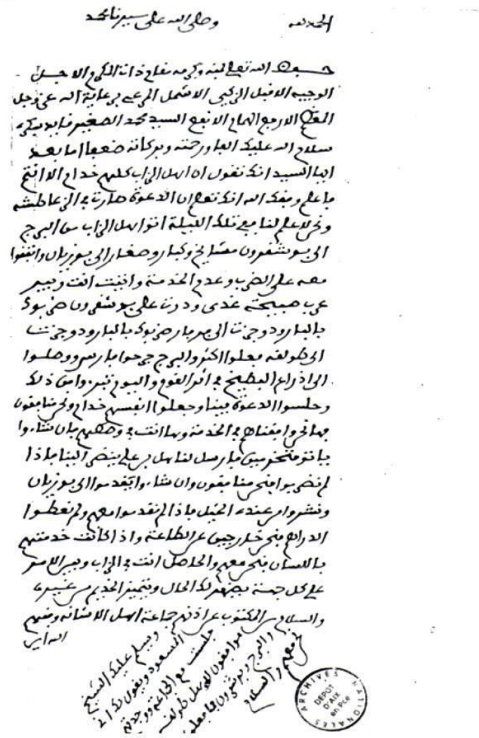

رسالة رقم 07 : من جماعة ليشانة إلى القايد محمّد الصغير بن علي بن القيدوم بن قانة.

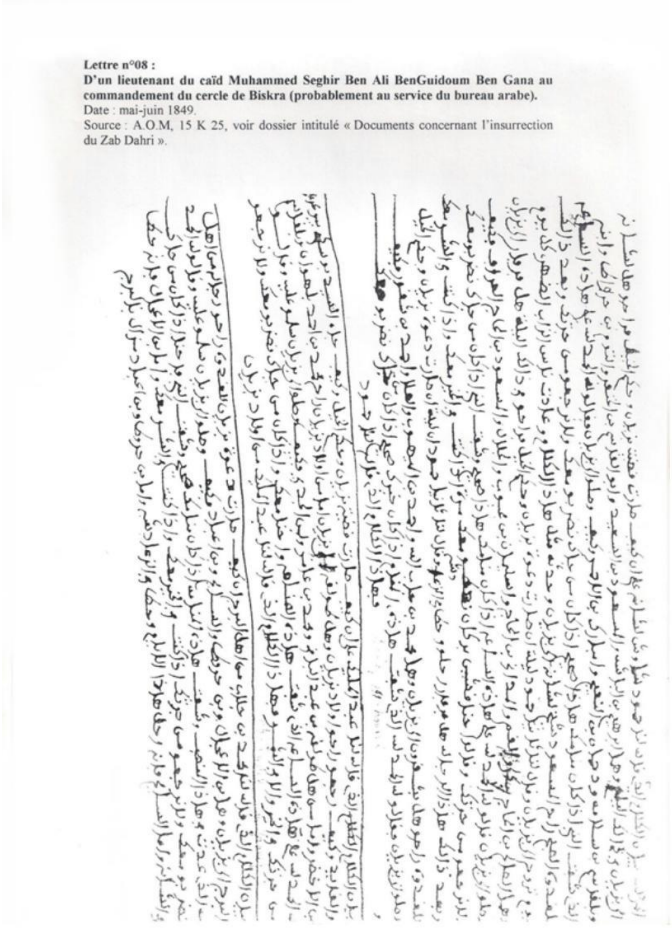

Lettre n°08 :
D'un lieutenant du caïd Muhammed Seghir Ben Ali BenGuidoum Ben Gana au commandement du cercle de Biskra (probablement au service du bureau arabe).
Date : mai-juin 1849.
Source : A.O.M, 15 K 25, voir dossier intitulé « Documents concernant l'insurrection du Zab Dahri ».

رسالة رقم 08 : رسالة من أحد نوّاب القايد محمد الصغير بن القيدوم بن قانة إلى قائد إقليم بسكرة (احتمال إلى مصلحة المكتب العربي).

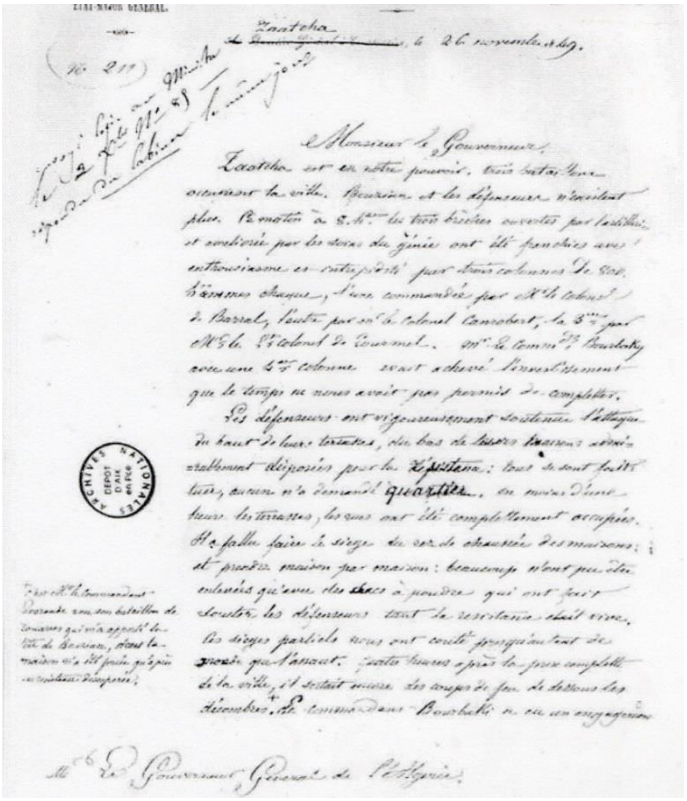

رسالة من الجنرال هربيون إلى الوالي العام مؤرخة في 26 نوفمبر 1849

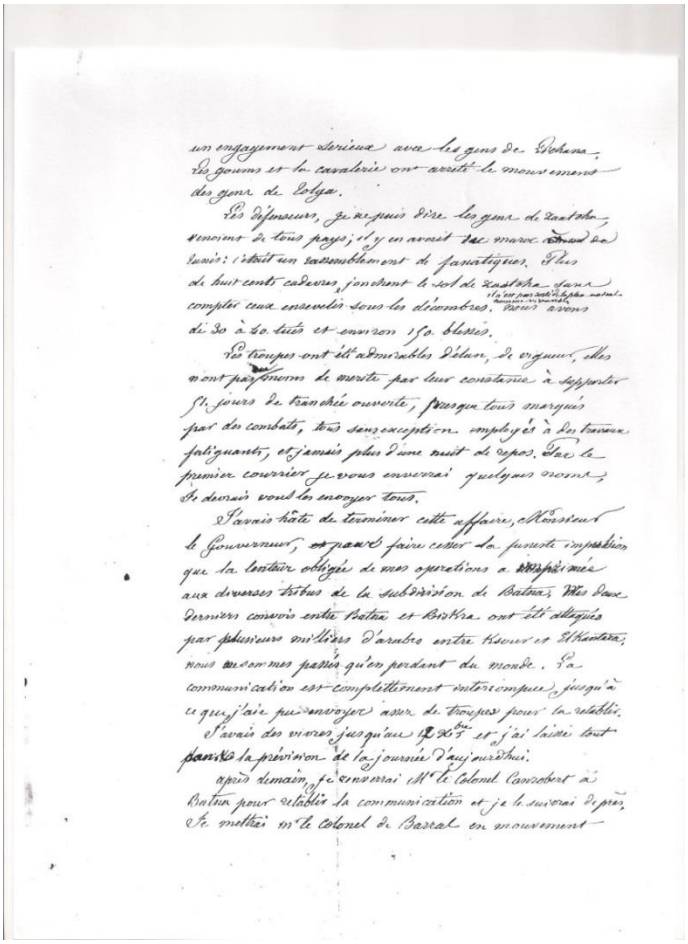

un engagement sérieux avec les gens de Zaatcha.
Les goums et la cavalerie ont arrêté le mouvement
des gens de Lolya.

Les défenseurs, je ne puis dire les gens de Zaatcha
venaient de tous pays; il y en avait de Nefta, de
Tunis: c'était un rassemblement de fanatiques. Plus
de huit cents cadavres jonchent le sol de Zaatcha dans
l'enceinte même. Plus de cent ennemis ont été tués
compté ceux ensevelis sous les décombres. Nous avons
eu 30 à 40 tués et environ 150 blessés.

Les troupes ont été admirables d'élan, de vigueur, elles
ont par-dessus tout de mérite par leur constance à supporter
51 jours de tranchée ouverte, j'ai vu tous mangués
par des combats, tous sans exception employés à des travaux
fatigants, et j'aurais pu dire nuit de repos. Par le
premier courrier je vous enverrai quelques noms,
je devrais vous les envoyer tous.

J'avais hâte de terminer cette affaire, Monsieur
le Gouverneur, et pour faire cesser la funeste impression
que la lenteur obligée de mes opérations a produite
aux diverses tribus de la subdivision de Batna. Mes deux
derniers convois entre Batna et Biskra ont été attaqués
par plusieurs milliers d'arabes entre Kseur et El Kantara;
nous avons eu quelques pertes à déplorer. La
communication est complètement interrompue jusqu'à
ce que j'aie pu envoyer assez de troupes pour la rétablir.

J'avais des vivres jusqu'au 12 Déc. et j'ai laissé tout
dans la journée d'aujourd'hui.
la prévision de

après demain je renverrai M. le Colonel Carrobert à
Batna pour rétablir la communication et je le suivrai de près,
Je mettrai M. le Colonel de Barral en mouvement

تابع لرسالة هربيون A.O.M, 2 H 25 – 26 نوفمبر 1849

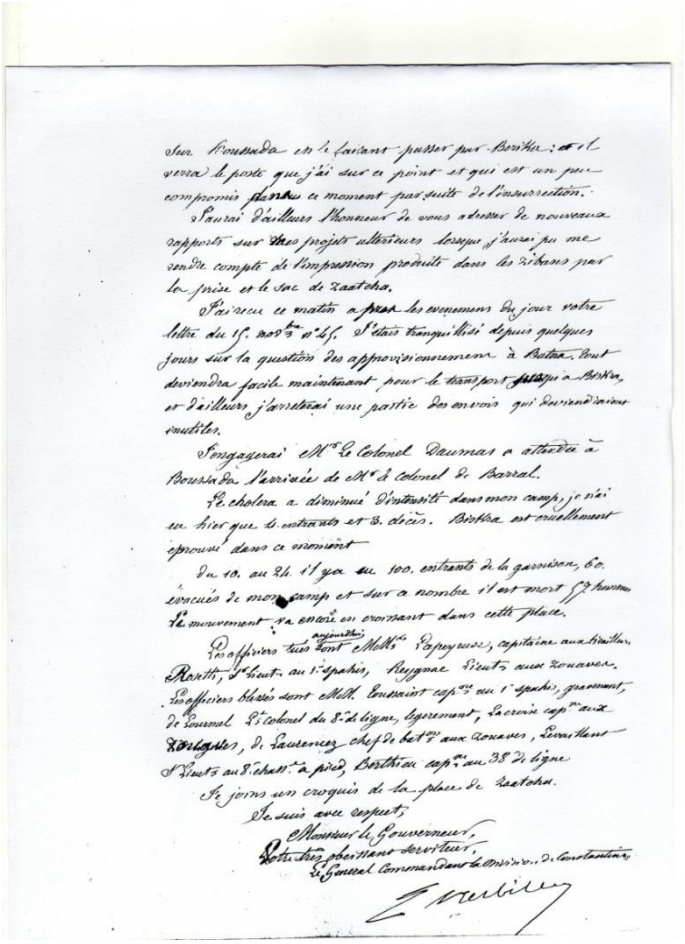

Sua Boussada en le faisant passer par Bordja ; et il
verra le poste que j'ai sur ce point et qui est un peu
compromis dans ce moment par suite de l'insurrection.
J'aurai d'ailleurs l'honneur de vous adresser de nouveaux
rapports sur mes projets ultérieurs lorsque j'aurai pu me
rendre compte de l'impression produite dans les Zibans par
la prise et le sac de Zaatcha.
J'ai reçu ce matin après les événements du jour votre
lettre du 15 novbre n° 45. J'étais tranquillisé depuis quelques
jours sur la question des approvisionnements à Batna. Tout
deviendra facile maintenant pour le transport jusqu'à Bordja,
et d'ailleurs j'arrêterai une partie des convois qui deviendraient
inutiles.
J'engagerai M. le Colonel Daumas à attendre à
Boussada l'arrivée de M. le Colonel de Barral.
Le choléra a diminué d'intensité dans mon camp, je n'ai
eu hier que 6 entrants et 3 décès. Bordja est actuellement
épargné dans ce moment
Du 10. au 24. il y a eu 100. entrants de la garnison, 60.
évacués de mon camp et sur ce nombre il est mort 50 hommes
Le mouvement va encore en croissant dans cette place.
Les officiers tués sont MM. Pappyrasse, capitaine aux Tirailleurs
Rarett, Sous-Lieut. au 1er spahis, Reygnac Sous-Lieut. aux Zouaves.
Les officiers blessés sont MM. Lemaire capne au 1er spahis, grièvement,
de Tournal Lt Colonel du 8e de ligne, légèrement, Lacroix capne aide
de camp, de Lauremez chef de bataillon aux Zouaves, Lieutenant
Sous-Lieut. au 8e chasseurs à pied, Berthier capne au 38e de ligne
Je joins un croquis de la place de Zaatcha.
Je suis avec respect,
Monsieur le Gouverneur,
Votre très obéissant serviteur,
Le Général Commandant la Subdivision de Constantine
[signature]

تابع لرسالة هربيون A.O.M, 2 H 25 – 26 نوفمبر 1849.

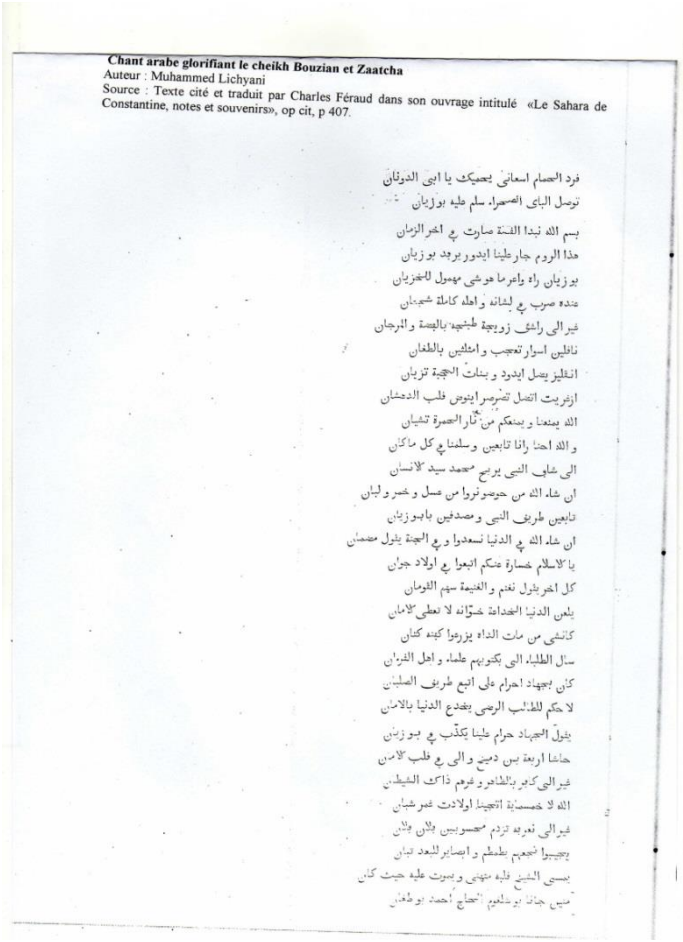

Chant arabe glorifiant le cheikh Bouzian et Zaatcha
Auteur : Muhammed Lichyani
Source : Texte cité et traduit par Charles Féraud dans son ouvrage intitulé «Le Sahara de Constantine, notes et souvenirs», op cit, p 407.

فرد الحمام اسعاني يحميك يا ابني الدونان
توصل الباي الصحراء سلم عليه بوزيان

بسم الله نبدا الفتنة صارت في اخر الزمان
هذا الروم جار علينا ايدور برجد بو زيان
بو زيان راه واعرها هو شي مهول للخزيان
عنده صرب في لشانه و اهله كاملة شجبان
غير الي راشق زوجة طبخها بالبصة و المرجان
نافلين اسوار تعجب و امثلين بالطعان
انفليز يصل ايدود و بنات الحجرة تزيان
ازغريت اتصل تصرصر اينوس قلب الدمشان
الله يمنعنا و يمنعكم من نار الحمرة تشيان
و الله احنا راانا تابعين و سلمنا في كل ما كان
الى شاف النبي يرضع محمد سيد الانسان
ان شاء الله من حوضو نرواو من عسل و خمر و لبان
تابعين طريق النبي و مصدقين بابو زيان
ان شاء الله في الدنيا نسعدوا و في الجنة يقول مصمان
يا الاسلام خسارة عنكم اتبعوا في اولاد جوان
كل اخر يقول نغنم و الغنيمة سهم القومان
يلعن الدنيا الخداعة خسرانه لا تعطي الامان
كانشي من مات الداه يزوروا كبره كتان
سال الطلبة الي يكتوبهم علماء و اهل القران
كان بجهاد احرام على اتبع طريق الصليبان
لا حكم للطالب الرسمي يخدع الدنيا بالامان
يقول الجهاد حرام علينا يكذّب في بو زيان
حاشا اربعة بس دميني و الى في قلب الامان
غير الي كبر بالظاهر و غرهم ذاك الشيطان
الله لا خمسة اتجينا اولادت عمر شبان
غير الي نعرفه نردم محسوبين بلاس بلان
يجيبوا نجمهم بطمطم و ابصابر للبعد لبان
يمسي الشيخ قلبه منهي و يموت عليه حيث كان
منين جانا بوسلعوم الحاج احمد بوطمان

قصيدة محمد الليشاني في تمجيد الشيخ بوزيان

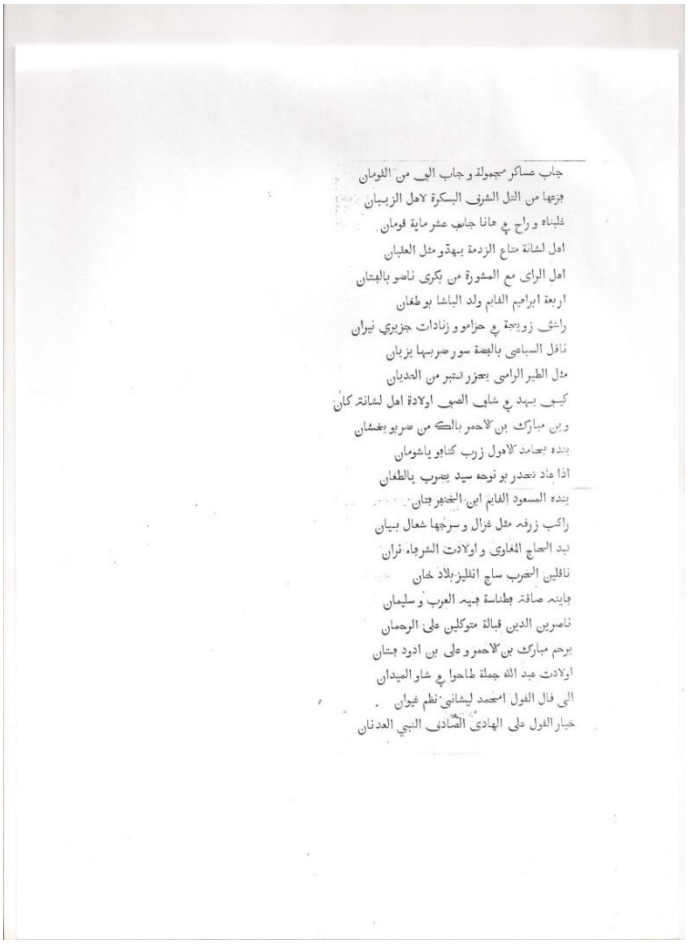

جاب عساكر مجمولة و جاب الي من القومان
فزعها من الخل الشرف البسكرة لاهل الزيبان
عليناه و راح في حالنا جاب عشر مايا قومان
اهل لشانة متاع الزدمة يهدّو مثل العقبان
اهل الراى مع المشورة من بكرى ناصو بالهيشان
اربعة ابراهيم القايم ولد الباشا بوطغان
راشق زويجة في حزامو و زنادات جزيري نيران
ناقل السباعي باليصة سور ضربها بزيان
مثل الطير الرامي يحزر تتبر من الحديان
كيبى يسهد في شاف الضيف اولادة اهل لشانة كان
و بن مبارك بن لاحمر بالك من ضربو بغشان
يندة بحامد لاهول زرب كناپو ياشومان
اذا عاد تعدر بو نوحة سيد يضرب بالطغان
يندة المسعود القايم ابن الخنبر جنان
راكب زرفة مثل غزال و سرجها شعال بنيان
تبد الحاج المغاوى و اولادت الشرفاء نران
ناقلين الحرب ساج انظليز بلاد خان
وابنة صافة قبطانة فيهم العرب و سليمان
ناصرين الدين قبالة متوكلين على الرحمان
يرحم مبارك بن لاحمر و على بن ادود بستان
اولادت عبد الله جملة طاحوا في شاو الميدان
الى قال القول امحمد ليشاني نظم غيران
خيار القول على الهادي الصّادق النبي العدنان

تابع قصيدة محمد الليشاني في تمجيد الشيخ بوزيان

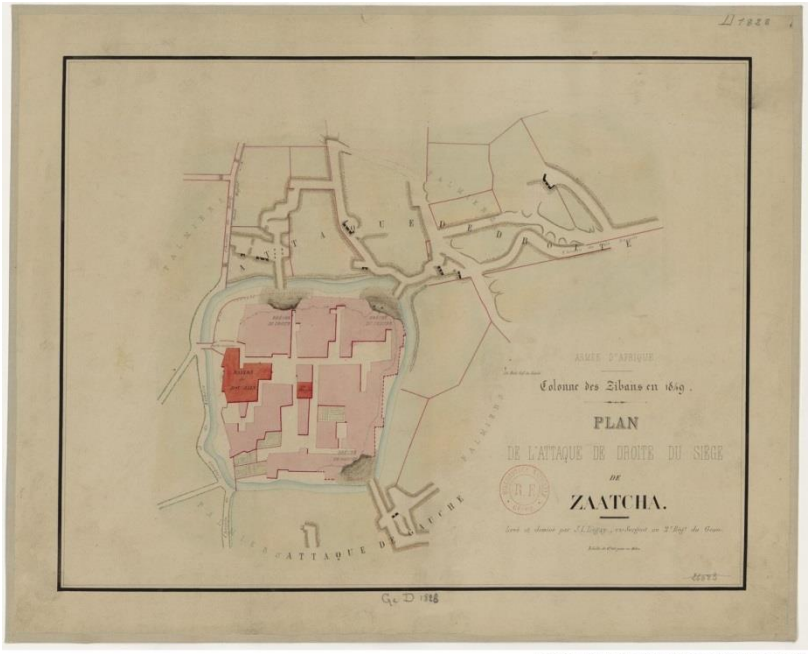

Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France

جيش إفريقيا.

الحملة على الزيبان سنة 1849

مخطط الهجوم من ناحية اليمين أثناء حصار الزّعاطشة

Armée d'Afrique

Colonne des Ziban

Plan de l'attaque de droite du siège de Zaatcha.

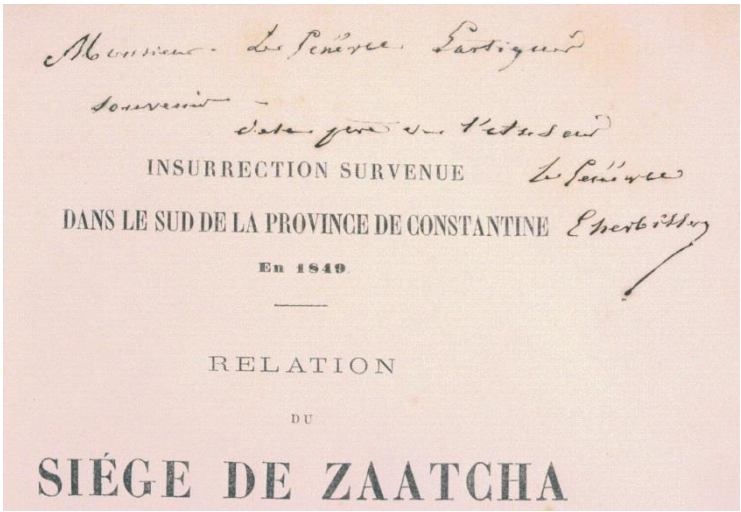

INSURRECTION SURVENUE

DANS LE SUD DE LA PROVINCE DE CONSTANTINE

En 1849.

RELATION

DU

SIÉGE DE ZAATCHA

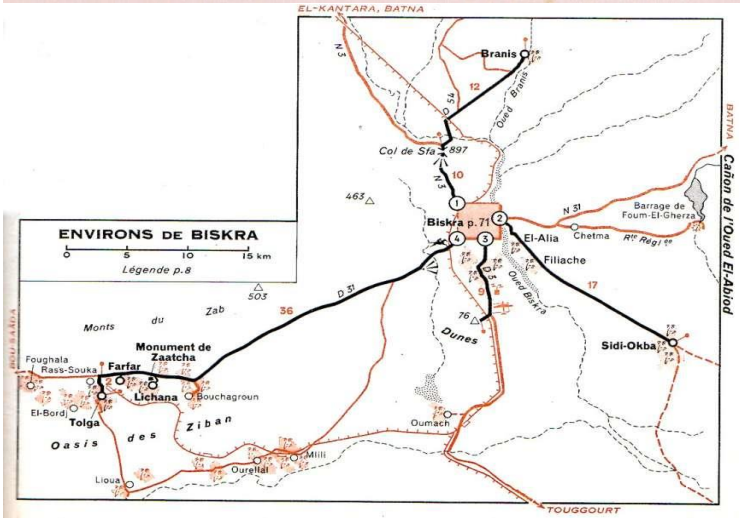

موقع واحة الزّعاطشة من بسكرة

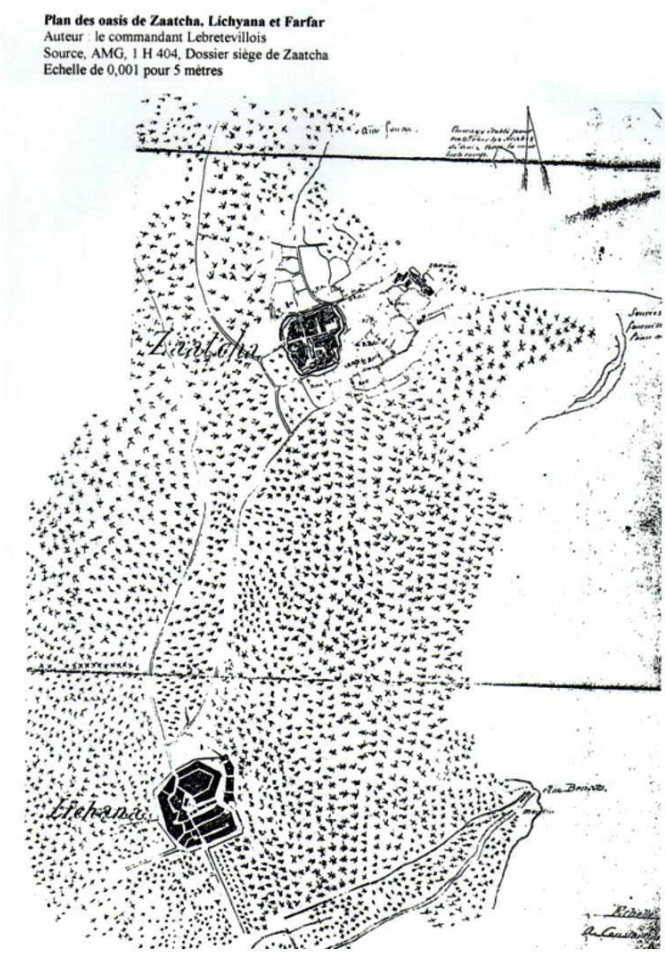

مخطط واحات الزعاطشة، ليشانة وفرفار، إعداد الرائد ليبرتفلوا

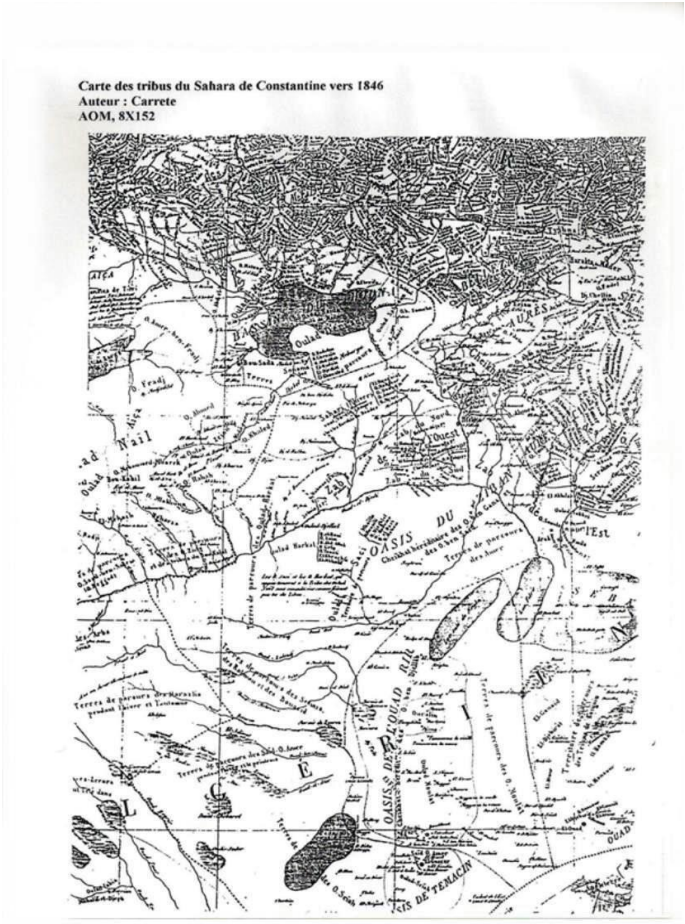

خريطة القبائل الصّحراوية نحو 1846، من إعداد كاريت (Carrette)

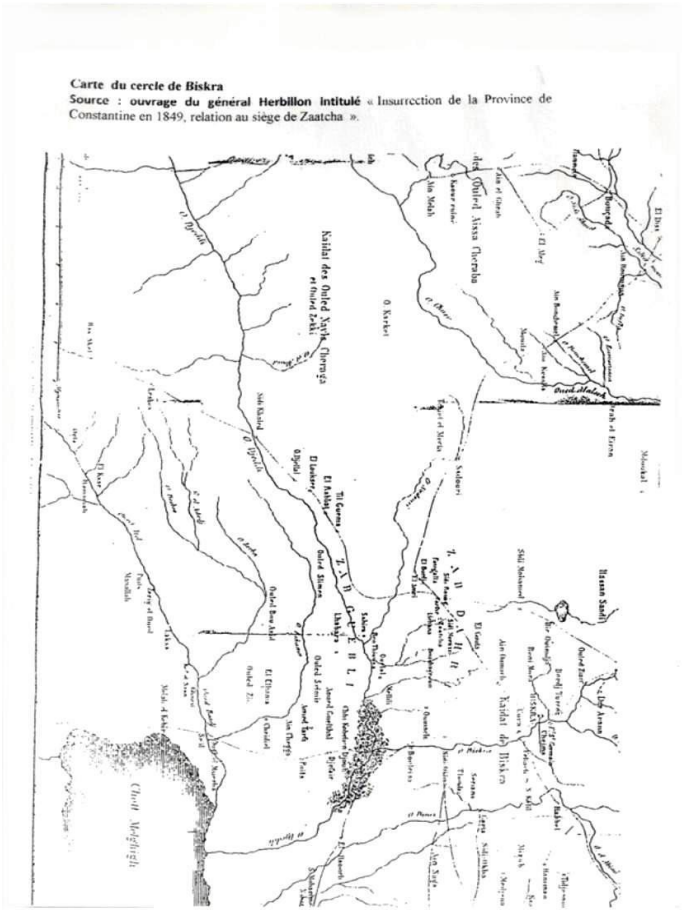

خريطة إقليم بسكرة مصدرها : هربيون، "انتفاضة الجنوب القسنطيني سنة 1849، وقائع حصار الزعاطشة."

الشيخ بوزيّان قائد ثورة الزّعاطشة (المتحف الوطني للمجاهد الجزائر)

S. Quelques pages d'un vieux cahier, الجنرال هربيون قائد الحملة على الزّعاطشة

Souvenirs du Général Herbillon.

بسم الله الرحمن الرحيم
«ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا
بل أحياء عند ربهم يرزقون» صدق الله العظيم
هنا في أرض الزّعاطشة الظاهرة، رمز البطولة والتضحية والتفاني
على الشهادة، كان الصمود الأسطوري للشيخ بوزيان وأتباعه من المجاهدين الميامين،
الذين تصدّوا ببسالة الأبطال لقوات الجيش الفرنسي المحتل المقدرة 6000 عسكري فرنسي
مدججين بأحدث الأسلحة الفتاكة حيث دام الحصار المضروب على الزعاطشة 51 يوما
وذلك من 07 أكتوبر إلى 26 نوفمبر 1849 تاريخ سقوطها شهيدة وقد واجه أبطال الزعاطشة قوات الإحتلال ببطولة نادرة وكبدوها خسائر فادحة
في الأرواح والعتاد 20 ضابطا قتيلا و60 جريحا والمئات من الجنود بين قتيل وجريح رغم تفوق الباطنين الأبطال للإبادة إلا أنهم قاوموا باستماتة وفضلوا الشهادة ولم يعرفوا التسلاح
صانوا أرضهم المرتوية بدماء الشهداء، تلاحمت الأجساد في محراب الشهادة حيث استشهد [illegible] تدمير الزعاطشة تدميرا كاملا وقدم 10000 مقاتلة
قامت قوات الإحتلال بقطع رؤوس الشهداء الشيخ بوزيان و[illegible] ورفعت [illegible] موسى الذي تاوين لتقتيل جماجمهم إلى متحف «الإنسان» بباريس، فرحم الله شهداء الزعاطشة وكل شهداء الجزائر
المجد والخلود لشهدائنا الأبرار
OPPO A1k

تصب تذكاري بني في الزّعاطشة لتخليد ثورة الشيخ بوزيّان

المصادر و المراجع Sources et bibliographie

I) المصادر

أ) أرشيف ما وراء البحر في إيكس أون بروفنس

Archives d'Outre-mer (Aix en Provence)

سلسلة Série H

1 H المراسلات السياسيّة :

1H 4 :

- عدة رسائل بالعربية من شيخ العرب بوعزيز بن قانة فيما يخص حالة الزّيبان قبل 1844.
- ملخص تاريخي عن حياة الحسن بن بن عزوز البرجي
- رسالة من أخي فرحات بن سعيّد إلى الجنرال غالبواه

1 H 6 :

- عرض حال عن الأحداث السياسية والعمليات العسكرية منذ شهر أفريل 1849، الجزائر 22 ديسمبر 1849.
- رسالة من العقيد كربوشية إلى مدير شؤون الأهالي لقسنطينة، باتنة 12 سبتمبر 1849.
- تقارير مختلفة عن انتفاضة الأوراس خلال حصار الزعاطشة.
- تقرير النقيب سيروكا عن معركة سريانة.
- تقريران عن حياة سي عبد الحفيظ الخنقي
- رسائل عديدة موجهة من طرف الجنرال هربيون إلى الحاكم العام، خاصة المؤرخة في 5 ماي، 24 جويلية، 24 أوت و25 سبتمبر 1849.
- ترجمة رسمية لرسالة بالعربية موجهة للماريشال بيجو م طرف بوعزيز بن قانة في 15 أوت 1845.
- رسالة من الدوق دومال للماريشال بيجو في 13 جوان 1844.

1 H 7 :

- رسالة من الجنرال هربيون لوزير الحربية فيما تعلق بموضوع احتلال نارة، قسنطينة في 22 جانفي 1850.
- تقرر العقيد كانروبير عن احتلال نارة، 5 جانفي 1850.
- تقرير بعنوان : دراسة عن عملنا مع الأعراش (القبائل).

H 2 العمليات العسكرية

2 H 25 :

- ملف يحتوي على مجمل الرسائل التي وجهها الجنرال هربيون فيما يخص انتفاضة الزعاطشة 1849-1850.
- كناش معنون "رسائل للدعم" يحتوي على تخاليص الرسائل المتبادلة بين الجنرال هربيون والعقيد كربوشية فيما يتعلق بالمسائل التي حدثت في نيابة قيادة باتنة سنة 1849. كما يحتوي أيضا على ملخصات رسائل الرائد سان جرمان
- رسالة من الجنرال سانت أرنو للحاكم العام للجزائر، قسنطينة في 15 ديسمبر 1850.
- نبذة عن إقليم باتنة سنة 1850 من طرف النقيب مارمي
- تقرير من العقيد كربوشية، باتنة أوت 1850.
- ملف يحتوي على تقارير وجداول عن التنظيم لإداري الجديد للجنوب القسنطيني بعد انتفاضة الزعاطشة.
- رسالة من العقيد كانروبير للجنرال هربيون، مناعة 5 جانفي 1850.
- إقليم بسكرة، تعليمة إضافية لتقرير النصف الثاني من شهر ماي 1849.
- إقليم باتنة، تقرير 21 ماي 1849.
- رسائل متعددة من الرائد سان جرمان عن تطور الاضطرابات في الزعاطشة.

- نبذة عن بسكرة، من طرف نقيب الهندسة لاغريني.
- مجلة الأحداث السياسية التي جرت في بسكرة سنة 1849.
- مذكرات متعلقة بالأحداث التي وقعت في نيابة قيادة باتنة من 16 سبتمبر إلى 6 ديسمبر 1849.

2 H 85

- تقرير الدوق دومال للجنرال بيجو، باتنة، 22 مارس 1844.

6 H القادة من الأهالي (في القطاع القسنطيني)

6 H 26 :

- جداول متعددة تحتوي على معلومات سياسية عن الزيبان كتبها الرائد توماس سنة 1844.

6 H 36 **عائلة ابن قانة** :

- تقارير عديدة من الجنرال نيقرييه عن تجاوزات آل ابن قانة.

6 H 38

- سي علي باي وعائلته.

8 H التنظيم الإداري .

- 8 H 4 نيابة قيادة باتنة، إنشاء إقليم بسكرة 1849-1907

- 8 H 5 حالة القبائل (الأعراش) في إقليم بسكرة .

10 H دراسات وتعليمات

- 10 H 17 : نبذة عن إقليم باتنة من طرف نوفو، باتنة 12 ديسمبر 1847.
- نبذة عن إقليم بسكرة 1844-1852.
- خرائط ومعلومات عن الأعراش.
- نبذة عن إقليم باتنة سنة 1849 من طرف النقيب مارمي رئيس المكتب العربي.
- تقرير عن التعديلات التي ألحقت بإقليم بسكرة سنة 1850.

- تقرير الجنرال كانروبير، من معسكر بريكة في 18 ديسمبر 1849.

10 H 18

- نبذة عن القسم الاقليمي والسكان الأهالي من طرف الملازم دي بوسكي، بسكرة، 31 ديسمبر1848.
- ملخص نبذة سياسية عن إقليم بسكرة 21 ديسمبر 1848.
- رسالة من النقيب صادي للعقيد كانروبير، بسكرة 17 ديسمبر 1849.
- دراسة عسكرية عامة عن إقليم بسكرة، 1886.
- نبذة عن نشاط إقليم بسكرة سنة 1852، من طرف القائد بودفيل.
- نبذة قصيرة عن الشيخ المختار مرابط أولاد جلال من طرف رئيس المكتب العربي ببسكرة.

10 H 37 :

- الطريق من بجاية إلى بسكرة عبر جيجل، قسنطينة، 26 نوفمبر 1888.

10 H 43 :

- نبذة عن تاريخ بسكرة من طرف الرائد سيروكا والنقيب بيسيوال، 1879.

10 H 72 :

- الشّخصيّات السياسة في الزّيبان 1881.

10 H 76 :

- تاريخ بسكرة، من طرف العقيد سيروكا، 1856.
- جريدة عمليات الحملة على الزّيبان من طرف العقيد بوريل دي بريتزل، قسنطينة، 14 ديمبر 1849.
- تعليمة مقتضبة عن استعمال المدفعية أثناء حصار الزعاطشة من طرف العقيد بوريل دي بريتزل.
- جريدة العمليات المدفعية ثناء الحصار على الزعاطشة من طرف العقيد باريزي، قسنطينة 6 ماي 1850.

- دراسة عسكرية من ملحقة بريكة 28 مارس 1902.

16 H : الشؤون العسكرية

: 16 H 1

- الطرق الدينية، الزّوايا والمرابطون

: 16 H 2

- الزّوايا، معلومات مختلفة، 1849-1876.
- نبذة تاريخية عن إخوان إقليم بسكرة.
- جدول معدّ من طرف الملازم سيروكا عن الطرقيّة في محيط إقليم بسكرة، بسكرة في 18 أكتوبر 1851.

: 16 H 10

- نوطة مفصّلة عن الزّوايا، الشيوخ والمقاديم في محيط إقليم بسكرة، 27 ماي 1895.

: 16 H 73

- تقرير S.L.N.A 1955

سلسلة H H Série

: 1 H H 3

- تنظيم قبائل الجنوب (الحضنة وبسكرة)

: 1 H H 70

- تقارير مختلفة حول إقليم بسكرة، تغطي مرحلة ما بين جافي وجوان 1849.

سلسلة E Série

: 1 E 55

- رسالة من فرحات بن سعيّد إلى القائد العام بالجزائر، 1834.

: 1 E 122

- رسالة من فرحات بن سعيّد إلى الحاكم العام مع الردّ عليها.

: 1 E 204

- رسالة من بوعزيز بن قانة.
- مستخرج عن تقرير موجّه إلى وزير الحرب من طرف الجنرال باراغواي دي هيلي، 3 فيفري 1840.

: 1 E 205

- تقرير متعلق بثكنة بسكرة سنة 1844.
- ترجمة رسمية لرسالة من فرحات بن سعيّد للدوق دي روفيقو مؤرخة في 3 مارس 1832.
- مراسلة ملحقة لبرقية من قائد القطاع القسنطيني، مؤرخة في 14 جوان 1844.

: 1 E 206

- رسالة من الماريشال لوفاسو عن التّجارة في بسكرة.

: 1 E 211

- مراسلة وجدت بالزمالة (1838-1843)
- رسالة من خليفة الأمير على الزاب محمد الصغير بن أحمد بن الحاج، جويلية 1842.

سلسلة Série K

المكاتب العربية لعمالة قسنطيبة

: 15 K 2

- الطرق الدينية الصوفية في بسكرة.
- مشروع قرار وزيري لتنظيم الضرائب عن العرب بالجزائر.

: 15 K 2

- تقرير صادر عن الرائد سان جرمان، بسكرة ، 1 أوت 1846.

: 15 K 7

- جدول تنظيم إقليم بسكرة، 31 ديسمبر 1858.
- الطرق الدينية في محيط إقليم بسكرة، 1 نوفمبر 1852.

15 K 14 :

- إقليم بسكرة التقارير نصف الشهرية من 1847 إلى 1850.

15 K 25 :

- ملف معنون :"وثائق وجدت بالزعاطشة وفي جبيرة سي عبد الحفيظ الخنقي بسريانة".
- كناش من 37 رسالة مترجمة رسميا ذات علاقة بانتفاضة الزعاطشة.
- رسالة بالعربية من أولاد سحنون إلى العقيد كربوشية.
- رسالة بالعربية من محمد بن حسن البكري إلى أبي بكر وأحمد الزواوي ولكل عرش أولاد الصالح.
- رسالة بالعربية من الشيخ بوزيان إلى الشيخ سي عبد الحفيظ الخنقي.
- رسالة بالعربية من مصطفى بن بن عزوز البرجي إلى محمد بن الصّيد.
- رسالة بالعربية من أولاد جلال إلى الشيخ سي عبد الحفيظ الخنقي.
- رسالة بالعربية من الشيخ سي عبد الحفيظ الخنقي إلى الشيخ الصادق بن الحاج.
- ترجمة رسمية لرسالة بالعربية من الشريف سيدي عبد السلام بن مولاي الرشيد إلى الشيخ سي عبد الحفيظ الخنقي، معونة ملف يخص ثورة الزّاب الظهراوي.
- تقريران صادران عن نائبي محمد الصغير بن علي بن القيدوم بن قانة..
- رسالة بالعربية من شيخ العرب بوعزيز بن قانة للرائد سان جرمان.

44K 1 :

- إقليم بسكرة، تقارير نصف شهرية، 1846-1847.

: 44 K 2

- إقليم بسكرة، احصائيات سياسية وتاريخ عام عن الأعراش، 41846-1847.

سلسلة Série KK

: 1 KK 3

- رسالة من العقيد ربيو للرائد سان جرمان، باتنة، 29 جانفي 1845.
- رسالة من الجنرال هربيون إلى شيخ العرب بوعزيز بن قانة.
- رسالة من الجنرال بيدو للرائد سان جرمان، قسنطينة 21 فيفري 1849.

: 1 KK 8

- رسالة من مجهول للحاكم العام بالجزائر، 24 ماي 148.

: 1 KK 470

- نبذة تاريخية عن المقاطعة منذ سقوط قسنطينة إلى غاية 1847.

: 10 KK 20

- تقرير صادر عن العقيد كربوشية رقم 149، باتنة، 2 أكتوبر 1848.

: 10 KK 30

- تقرير صادر عن النقيب مارمي، رقم 121، باتنة في 1 أوت 1849.
- كتاب يجمع تقارير كثيرة صادرة عن العقيد كربوشية عن تمرد الزعاطشة وتداعياته. انظر خاصة تقارير : 12-19 أوت تقارير 12 أكتوبر، 13 نوفمبر 1849. وتقارير: 21 فيفري، 11 جولية، 1 أوت، 12 ديسمبر 1850.
- انتفاضة الشيخ الصادق بن الحاج في الأوراس.

سلسلة Série X

: 6 X 19

- تقرير عن مشروع السكة الحديدية الصحراوية، شارل فيرو.

: 8 X 2

- ملخص عن مدينة بسكرة.

: 8 X 152

- خريطة عن أعراش المنطقة من عاد كاريط سنة 1846.

: 8 X 216

- تقرير عن قضية قصبة بسكرة سنة 1844 من طرف الرائد توماس.
- تقرير صادر عن الرائد سان جرمان عن استسلام أحمد باي 1848.

10 X 2

- رسائل عربية كثيرة صادرة عن الحسن بن بن عزوز البرجي.

: 10 X 72

- تقرير بعنوان الصحراء الشرقية الجزائرية.

: 12 X 75

- تقرير الدوق دومال عن العلاقات التجارية مع جنوب الصحراء سنة 1844.

سلسلة Série F

: F 80 557

- رسالة من محافظ شرطة الجزائر إلى الوالي العام بالجزائر، الجزائر في 27 أوت 1849.
- رسالة من رئيس عمالة قسنطينة إلى الوالي العام بالجزائر، قسنطينة في 25 أكتوبر 1849.

: F 80 495

- تقارير نصف شهرية صادرة عن المكتب العربي ببسكرة فيما يتعلق بأحداث وقعت في نادي بسكرة سنة 1848.

: F 80 497

- تقارير نصف شهرية صادرة عن المكتب العربي ببسكرة فيما يتعلق بأحداث وقعت في إقليم بسكرة سنة 1849.
- تقارير نصف شهرية صادرة عن المكتب العربي بباتنة فيما يتعلق بأحداث وقعت في إقليم باتنة سنة 1849.

: F 80 933

- الضّرائب على العرب في الجزائر.

: F 80 550 à 553

- إحصائيات عن الأعراش (القبائل) في إقليم باتنة وإقليم بسكرة.

: F 80 557

- تعاون بناني ، بسكري، قبائلي ما بين 1832 و 1841.
- مشروع قرار متعلق بتعاون بني مزاب البسكريين.

:F 80 1647

- ترجمة رسميّة لرسالة بالعربية من بوعزيز بن قانة للجنرال غالبواه في موضوع معركة سالسو التي جرت سنة 1840.

: F 80 Mi 35

- مذكرات عن سيدي عقبة.
- جدول يحتوي على معلومات عن الزيبان ما بين 1845 -1848.

ب) أرشيف وزارة الحرب بفنسان

Archives du Ministère de la guerre à Vincennes.

سلسلة Série H

:H 95

- تقرير عن الحملة على بسكرة.
- رسالة من الدوق دو مال إلى العقيد دو بروتون.
- تقرير صادر عن الجنرال بيجو إلى وزير الحربية.

:H 129

- جريدة الحملة على الزعاطشة صادر عن العقيد كربوشية.

: H 131

- تقرير عن العمليات التي حدثت أثناء الحملة على الزيبان صادر عن الجنرال هربيون بالزعاطشة في 28 نوفمبر 1849.

- تقرير صادر عن رئيس المكتب العربي ببسكرة متعلق بحصار الزعاطشة.
- رسالة من العقيد مربك إلى الجنرال هربيون عن موضوع الزعاطشة.
- رسائل عديدة من الجنرال هربيون إلى الوالي العام بالجزائر، بالخصوص رسائل : 2 نوفمبر، 6نوفمبر، 2 ديسمبر 1849.

H 211 :

- تقرير العقيد كربوشية عن الحملة على الحضنة والصحراء، 1849.

1 H 211 :

- تاريخ الحملة على الزيبان من طرف الرقيب أول ريبس، كراس1-11
- رسائل متعلقة بحملة الجنرال هربيون من 5 إلى 14 مارس 1847.
- جريدة الهجومات المنفذة في الزعاطشة من 7 إلى 26 نوفمبر من طرف رئيس فرقة الهندسة لبررفيلوا، الزعاطشة 28 نوفمبر 1849.
- تقرير حول الحملة على بوسعادة صادر عن العقيد دوماس.
- جريدة الحملة على الحضنة والصحراء، العقيد كربوشية، بسكرة، 20 جويلية 1849.

H 229 :

- مذكرات عسكرية عن الجزائر عن شارون الوالي العام للجزائر 1848.
- معلومات عن العائلات الكبرى في الزيبان.
- جدول القيّاد من الأهالي في القطاع القسنطيني سنة 1850.

H 230 :

- نظام حدّ السيف في الجزائر، مستخرج من المجلة العسكرية الفرنسية1869.

H 234 :

- ملخص التاريخ العسكري في الجزائر، 1844.
- تقرير الجنرال بيجو عن الوسائل التي يجب اعتمادها لتطويع الجزائر.

- عرض حال عم مهمّة في الزيبان سنة 1844.
- حالة القطاع القسنطيني ما بين 1839-1842، العقيد دي نوفو.
- تقارير متعلقة بحملة الدوق دومال على بسكرة سنة 1844.
- رسالة من وزير الحربية إلى الوالي العام، 1 أوت 1849.

H 263 :

- مراسلة الجنرال هربيون عن موضوع حصار الزعاطشة، سبتمبر-أكتوبر 1849.
- رسائل عديدة من وزارة الحربية إلى الولي العام في شأن حصار الزعاطشة، لاسيما رسائل: 10 أوت، 11-22 سبتمبر، 22 أكتوبر، 10 نوفمبر، 1849 و 2 جانفي 1850.

H 404 : ملف عن حصار الزعاطشة يحتوي على :

- تقرير نقيب قسم الهندسة غراي حول هجوم 20 أكتوبر الفاشل، الزعاطشة 21 أكتوبر 1849.
- تقرير العقيد كربوشية عن هجوم 20 أكتوبر 1849.
- مخطط الهجوم على الزعاطشة من 7 أكتوبر إلى 28 نوفبر 1849.
- مخطط واحات ليشانة، الزعاطشة وفرفار.
- رسومات حول كيفية الهجوم على الزعاطشة مؤرخ في 13 أكتوبر.
- مخطط يحتوي قرى ليشانة، الزعاطشة وفرفار.
- تحديد موقع معسكر حول الزعاطشة بالبوصلة، 29 أكتوبر 1949
- رسومات عن واحات الزعاطشة، ليشانة وفرفار.
- استكتشاف افتراضي لواحة الزعاطشة وضع أثناء حملة العقيد كربوشية.

H 4809 :

- مسح أحادي لبسكرة وتقرت.

سلسلة Série MR

M R : مذكرات واستكشافات.

: M R 882

- نبذة مفصلة عن القسم الشمالي لإقليم بسكرة.
- علاقة البعثة بالحملة والاستيلاء على الزعاطشة.
- نبذة عن المدعو سي الحاج عمر.

: MR 1317

- الجزائر: إقليم قسنطينة (1834-1876)
- معلومات إحصائية عن بسكرة م طرف دي نوفو، 1844.
- معلومات إحصائية عن القنطرة من طرف دي نوفو 1844.
- معلومات إحصائية عن الزيبان من طرف لاكروا، 1845.
- مخطط مهاجمة واحة أولاد جلال من إعداد سيروكا 1850.
- تفصيل مشروع مهاجمة سيدي عقبة من طرف الملازم شولتون 1853.
- طريق بسكرة - تقرت.
- بوسعادة وانتفاضتها سنة 1849، من إعداد لابايز.
- مذكرة عن المنطقة الجنوبية لأولاد نايل.
- تقرير من إعداد لاكروا عن الزيبان، قسنطينة، 1844.

M R 1319 : أوراق بيليت.

- سرد الأعمال العسكرية أمام ازعاطشة من طرف نقيب الهندسة شونغال سنة 1850.

M R 1844 : تعليمت بارالهوت.

- الفرقة الثانية من اللفيف الأجنبي : وقائع عمليات الفرقة منذ 6 أكتوبر 1849 يوم الذهاب إلى الزيبان إلى يوم 20 ديسمبر تاريخ الرجوع إلى بسكرة.
- مذكرة عن الرحيل من أحمر حدّو ومن الزّاب الشرقي.

- تقرير النقيب سوفيل عن معركة سريانة، بسكرة، 21 سبتمبر 1849.
- تقارير عن ليلة 6-7 نوفمبر 1849 داخل الخندق من طرف النقيب سوفيل.
- تقرير صادر عن النقيب سوفيل عن تعرض قافلة للهجوم بالقنطرة وجرح جنود وبغال، باتنة 21 نوفمبر 1849.

7 MI 31 :

رسالة من دي نوفو إلى توماس أيربان في 7 ديسمبر 189.

ج) الجرائد الرسمية **Journaux officiels**

- Le Moniteur algérien, 19 janvier 1838, 3 janvier 1839, 24 aout 1844, 30 juillet 1849, 30 septembre 1849, 10-15 et 30 novembre 1849 ; 10-20 septembre 1849.
- El-Mobacher (المبشر) 1844-1849, pour consultation.

جدول عن حالة **د) المنشورات الرسمية** **Publications officielles**
المؤسسات الفرنسية في الجزائر (1840)

II) مصادر ومراجع عربيّة ووطنية

Sources et bibliographie arabes et nationales

- ابن خلدون (عبد الرحمن)، تاريخ البربر والخلافات الاسلامية في إفريقيا، ترجمة البارون دو سلان، باريس المكتبة الشرقية، 4 أجزاء، طبعة 1925.
- أبو عبيد البكري، وصف إفريقيا، ترجمة و.ه.كترينيير تحت عنوان : نبذة عن مخطوط عربي من الخزانة الملكية يتضمن وصفا لإفريقيا، باريس 1831.
- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1987.
- بوعزيز بن قانة، راسة تاريخية عن عائلة ابن قانة، الجزائر، جول غربونيل، 1930.
- بولخراص بن قانة، آل ابن قانة، منذ الاحتلال الفرنسي، باريس، و. دانتي 1879.
- بوعزيز يحي، "من كفاح الجزائر في القرن لتاسع عشر، أربعة أحداث في ثلاث وثائق"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 2 ، جويلية 1972.
-HACHLEF ALI (Sidi), Les chorfa : les nobles du monde musulman, Paris, Publisud, 1913.
حشلاف سيدي علي، الشرفاء أو نبلاء العالم الاسلامي، باريس، 1995.

-ZOUZOU ABDELHAMID, L'évolution politique, sociale et économique de l'Aurès (1837-1937), thèse de Doctorat d'Etat, Paris, université Val de Marne, 1992.

زوزو عبد الحميد، التطور الساسي والاجتماعي والاقتصادي في الأوراس ما بين 1837-1937 أطروحة دكتوراة دولة، جامعة فال دو مارن، 1992.

-CHENTOUF TAYEB, Les résistances armées du XIXème siècle, Essai de synthèse, Cahiers maghrébins d'histoire, mars 1989.

شنتوف الطيب، المقاومات المسلحة في القرن 19، تحليل، كراريس مغاربية في التاريخ، 1889.

-SALHI Mohamed-Brahim, Etude d'une confrérie religieuse algérienne : la Rahmania à la fin du XIXème siècle et dans la première moitié du XXème siècle, 2 vol, thèse de 3ème cycle, Ecole des hautes études et sociales, 1979.

صالحي محمد إبراهيم، الرحمانية عند نهاية القرن 19 وبداية القرن 20 : دراسة طريقة دينية جزائرية، أطروحة درجة ثالثة، المدرسة العليا للدراسات الاجتماعية، الجزء الثاني، 1972.

- العنتري .ص، تاريخ بايات قسنطينة، ترجمة فايسات تحت عنوان : تاريخ قسنطينة أثناء الهيمنة التركية من 1817 الى 1837، صدر سنة 1852.

-العياشي مولاي أحمد، رحلة في الجنوب الجزائري والدولات البربرية في الغرب والشرق، ترجمة أدريان بربريجر، الجزائر، 1846.

-FERKOUS Salah, Officiers et tribus, Les bureaux arabes dans la province de Constantine (1844-1857), thèse de 3ème cycle, université de Montpellier III, 1984.

فركوس صالح، رؤساء القبائل و المكاتب العربية في إقليم قسنطينة (1844-1857)، أطروحة الطور الثالث، جامعة مونتبلييه III، 1984.

-NADIR Ahmed, "Les ordres religieux et la conquete française (1830-1851)", Revue algérienne des sciences juridiques, politiques et sociales, vol. IX, n° 4, 1972.

نذير أحمد، الطرق الدينية والغزو الفرنسي (1830-1851) المجلة الجزائرية للعلوم القانونية، السياسية ولاجتماعية، مجلد IX رقم 4، الجزائر 1972.

-NACIB Youcef, Cultures oasiennes, Bousaada :essai d'histoires sociale, Alger, E.N.A.L,1986.

- نصيب يوسف، ثقافات شرقية بوسعادة، دراسة اجتماعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

ه) مصادر ومراجع فرنسية

a) Instruments bibliographiques. **أ) أدوات بيبليوغرافية**

Bibliographie militaire des ouvrages français et des articles des principales revues françaises relatifs à l'Algérie, la Tunisie et au Maroc de 1830 à 1926.

-JULIEN Charles André, Histoire de l'Algérie contemporaine, Tome1, La conquête et le début de la colonisation, Paris PUF, 1968.

-LEIMDORFER François, Discours académique et colonisation, Thèmes de recherche sur l'Algérie pendant la période coloniale, Paris, Publisud, 1942.

-SOCIETE HISTIORIQUE ALGERENNE, Revue africaine, Alger, Tome I : 1856-1881, Tome II : 1882-1921, Tome III : 1922-1930.

b) **Sources imprimées, mémoires et études sur le sud-constantinois**.

ب) مراجع مطبوعة، مذكرات ودراسات عن الجنوب القسنطيني.

-BAPST, Le maréchal Canrobert, Souvenirs d'un siècle, Paris, E. Plon, Nourrit Cnie, 6 tomes ; 1898-1913.

-BAUDICOUR Louis , La guerre et le gouvernement de l'Algérie, Paris, Sagnier et Bray, 1853.

-BISKRA et le SAHARA constantinois, Bulletin de la société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord, 1923.

-BOCHER Charles, "Le siège de Zaatcha", Revue des 2 mondes, Paris 1851.

- BOCHER Charles," La prise de Nara", Revue des 2 mondes, Paris, 1858.

-BONAPARTE Pierre-Napoléon, Un mois en Afrique, Paris, Pagnerre, 1850.

-BOUFFARD, (L), Atlas de l'Algérie, Paris, Hachette, 1848.

-BOURSEUL (E.C), Souvenirs de la guerre d'Afrique, Insurrection des Ziban, Paris, J.Dumane, 1851.

-CARETTE Emile, Voyages et émigration des principales tribus de l'Algérie septentrionale, Exploration scientifique pendant les années 1840, 41,42, Paris, 1853.

-CARETTE Emile, Recherches sur la géographie et le commerce de l'Algérie méridionale, Paris, imprimerie Royale, 1854.

-CATALDO Hubert, Biskra et les Ziban, Montpellier, collection François Aulliers , 1988.

-COUR (A), Arbre généalogique de la famille de Si Abdelhafid, Revue africaine, 1921.

-DAUMAS, Le Sahara de Constantine, Paris, Langlois et Fortin, 1854.

-DUBOC, Mémoires sur la constitution géologique des Ziban et de l'Oued Rir, Paris, Carrelian, Goeury et Delémont ; 1850.

-FERAUD Charles, Histoires des villes de la province de Constantine, Sétif, Bordj, M'sila, Boussaâda, Constantine, R. Arnolet, 1872.

-FERAUD Charles, Kitab Al-Adouani ou Sahara de Constantine et de Tunis, Constantine, Arnolet, 1868.

-GABRIEL Esquer, Iconographie historique de l'Algérie depuis le XVIème siècle jusqu'à 1871. Tome III (18381871), Pari, Plon, 1929.

-GUON (J.L.G), Voyage d'Alger au Ziban en 1847, Alger, imprimerie du gouvernement, 1852.

-GUYON (J.L.G), Atlas, Alger, impr. du gouvernement, 1850.

-HERBILLON Emile, Quelque pages d'un vieux cahier, Souvenirs du général Herbillon, publiés par son arrière-petit-fils Berger Levault.

-HERBILLON Emile, Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine e 1849 , Relation du siège de Zaatcha , Paris, J. Dumaine, 1863.

-HURABIELLE l'abbé Jean, Au pas du bleu, Biskra et les oasis environnantes, Paris, Augustin Challamel, Paris, 1899.

-LARTIGUE, Monographie de l'Aurès, Marbe Aurion,1904.

-LEHURAUX Léon, Le nomadisme et la colonisation dans les hauts plateaux de l'Algérie, Paris, comité de l'Afrique française, 1931.

-LE PONT DEL LA CROIX de Vaubois, Prise de Zaatcha 1849, Carnet de la Sabretcha, tome 1, 1903.

-MAGUELONNE J), Monographie historique et géographiques des tribus des Ziban, Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de Constantine, 1910.

-MARTHE et GOUVION, Kitab Ayane El-Maghariba, Alger, imprimerie orientale, Fontana frères, 1920.

-MARTHE et GOUVION, Monographie de Biskra et du Sahara constantinois, Bulletin de la société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord, 3ème trim. 1921.

-MARTHE et GOUVION, Nouvelles d'Afrique, Quelques réflexion su l'expédition de Zaatcha," la Sentinelle de l'armée", 28 février 1850.

-MORIZO Jean, L'Aurès ou le mythe de la campagne rebelle, Paris, le Harmattan 1991.

-PEIN, Lettres familiales sur l'Algérie, un petit royaume arabe, Alger, 1893.

-PIESSE Luis, Voyage aux Ziban, Bulletin de la société de géographique et d'archéologie d'Oran, 1885.

- QUESNOY Dr. F, Souvenirs de l'armée d'Afrique, Le siège et l'assaut de Zaatcha, Revue militaire, 1888.

- QUESNOY Dr. F Relation médico-chirurgicale de l'expédition de Zaatcha, Recueil des mémoires de médecine de chirurgie et de pharmacie militaire,2ème série 1850.

- QUESNOY Dr. F, L'Armée d'Afrique depuis la conquête d'Alger, Jouvet et compagnie, Paris.

- RAGOT (W), "Le Sahara de a province de Constantine", Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de Constantine, 1873-1874.

-REBOUT, "Lettres au sujet d la tête de Bubaghla, de Bouziane et du chérif de Tébessa", Revue africaine n° 30, 1886.

- RINN, "Notes sur le sergent-major Pélisse, Massacre de la garnison de Biskra en 1844", Revue africaine 1886.

-ROUSSET Camile, "L'Algérie de 1848 à 1851, Zaatcha expédition en Kabylie", Revue des deux mondes, txc,1888.

-ROUSET Camile, Constantine, les oasis, les bureaux arabes et la Kabylie.

-SERISIAT, Etude sur l'oasis de Biskra, Paris Challamel, 2ème édition, Paris 1875.

SCHOENNAGEL (A), "Récits des attaques et du siège de Zaatcha", Spectateur militaire,1850.

-SEROKA Joseph-Adrien, "Le Sud-constantinois de 1830 à 1855", Revue africaine 1912.

-VALEE Sylvain-Charles, Correspondance du maréchal Valée publiées par G.Yver, 5 volume, Larose, 1849-1858.

-ZACCONE (J) Batna au Souf à Touggourt, Librairie militaire, Paris, 1865.

-YAKONO (X), "Les premiers prisonniers algériens de l'ile St. Marguerite 1841-1843", Revue d'histoire maghrébine, 1974.

c) **Ouvrages et articles généraux** ز) كتب ومقالات عامّة

-AZAN Paul, Conquête e pacification de l'Algérie, Librairie de France, 1929.

- AZAN Paul, L'armée d'Afrique de 1830 à 1852, Plon, Paris, 1936.

- AZAN Paul, L'émir Abdelkader du fanatisme musulman au patriotisme français, Paris, Hachette, 1925.

-BERBRUGER Adrien, Histoire Pittoresque et Monumentale ; Province de Constantine, 4ème partie, J. Delahay, 1843.

-DUPONT et COPOLANI ; Les confréries religieuses musulmanes, A. Jourdan, Alger 1897.

-DUBOIS Marcel, Les colonies française, un siècle d'expansion coloniale, A. Challamel, Paris ; 1902.

-EMERIT (M), L'Algérie à l'époque d'Abdelkader, Larose, Paris, 1951.

-ENCYCLOPEDIE de l'Islam, A. Picard et fils, tome I- 1913. Tome II-1927, tome IV1934.

-FAUCON Narcisse, Le Livre d'Or d'Algérie : histoire politique, militaire, administrative et faits principaux, biographie des hommes ayant marqué

dans l'armée, les sciences et les Lettres de 1830 à 1889, tome I et II, Challemel, Paris, 1889.

-FILLIAS (A), Histoire d la conquête et la colonisation de l'Algérie 1830-1860, Arnaud de Vresse, 1960.

-FRANCFORT, Histoire du 11ème régiment d'artillerie 1830-1839, imp. Henri Charles, Lawazelle, 1893.

-FREMAUX (J) Les bureaux arabes dans le département d'Alger , 1844-1856, thèse de 3ème cycle, Université de Toulouse 1976.

-GAFFAREL Paul, L'Algérie, Histoire, conquête et pacification, Firmin-Didot, 1883.

-GALIBERT Léon, L'Algérie ancienne et moderne, Paris, Furne sans date.

-GALISSOT ®, Abdelkader et la nationalité algérienne, Revue historique, Tome II, 1965.

-GRINDIN, Le dernier maréchal de France, Paris 1895.

-GSEL Stéphane, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Hachette, Paris, 1913.

-AUGUSTIN Bernard, Histoire des colonies françaises et de l'expansion de la France dans le monde, Tomme II, l'Algérie, Plon, Paris, 1930.

-HERODOTE, Textes relatifs à l'histoire de l'Afrique du Nord par Stéphane Gisel, A. Jourdan, Alger, 1915.

-HIRTZ Charles, l'Algérie nomade et Ksourienne, P. Tacussel, Marseille, 1938.

-LEON l'Africain Jean (El-Hassan Ibn Mohamed El-Wassan El-Faci, la description d'Afrique, traduit en français par Jean Temporal, Lyon, 1556.

-MARTEL (A), Les confins saharo-tripolitains de la Tunisie 1881-1911, thèse, tome I, 1965.

MAZE Jules, La conquête de l'Algérie, Maison d'Alfred Mane et Fils, Tours, 1911.

-NEVEU (de), Les Khouan arabes religieux chez les musulmans d'Algérie, A. Jourdan, Paris, 1913.

-NOIR Luis, Souvenir d'un zouave sou la tente, Achille Faure, Paris, 1867.

-PELISSIER de REYNAUD (E), Annales algériennes, Paris, Dimaine, Alger, Bastide, 3ème volumes, 1854.

-PEYRONNET (P), Livre d'or des officiers des affaires indigènes 1830-1930, 2 tomes, Soubiron, 1930.

-PERRET Emile, Les Français en Afrique 1848-1886, Bloud et Barral, 2 vol. Paris, 1887 et 1902.

-RINN (Luis), Marabouts et Khouan, Etude de l'Islam en Algérie, A. Jourdan, vol. 1, Alger, 1844.

ROVIGO Anne Savary (duc de), Correspondances du duc de Rovigo commandant en chef du corps d'occupation (1831-1833), G. Esquer, champion 4 vol., Paris 1914-1924.

-SALLUSTE, Œuvres complètes, traduites par M. Nisard, J.J. Dubochet , le chevalier et comp, Paris.

-SIEGES CELEBRES, Etudes historiques sur les défenses des places, A. Pelygrave, 1890.

-TURIN Yvonnes, Affrontements culturels dans l'Algére coloniale, Entreprise nationale du livre, Alger, 1971.

-VATIN Jean-Claude, L'Algérie politique Histoire et société, Presse de la fondation nationale des sciences politiques, Paris, 1983.

-YAKONO (X) Les bureaux arabes et l'évaluation des genres de vie indigène dans l'ouest du Tell algérois (Dahra, Chélif, Ouarsenis, Sersou), thèse de Lettres, Paris, 1953.

الفهرس

- كلمة المترجم:.....07
- تنبيه:..... 11
- مقدمة: 13
- الباب الأول: السلطات الفرنسية في الزيبان وانتفاضة الزّعاطشة.....35
- الفصل الأول: غزو الزيبان من طرف الفرنسيين.....37
- 1-1: سياسة التوغل الفرنسي في شؤون الزيبان(1832-1844).....40
- 2-1: الغزو العسكري للزيبان 48
- 3-1: التنظيم السياسي في الزيبان (1844-1849).....56
- الفصل الثاني: اندلاع انتفاضة الزّعاطشة ورد فعل السلطات الفرنسية في الزيبان:.....65
- 1-2: الاضطرابات السياسية في الأوراس والحضنة:.....67
- 2-2: الشيخ بوزيان يضرب بقوة:.....72
- 3-2: رد فعل سلطة إقليم بسكرة:.....82
- الفصل الثالث: أل ابن قانة وثورة الزّعاطشة.....91
- 1-3: علامات تصدع قيادة أل ابن قانة.....93
- 2-3: أل ابن قانة وقمعهم لثورة الزّعاطشة.....100
- 3-3: موقف أل ابن قانة أثناء ثورة الزّعاطشة من منظور ضباط فرنسيين.....107
- الفصل الرابع: الحملة الأولى على الزّعاطشة:.....115

- 4-1: وصف واحة الزّعاطشة.....117
- 4-2: فشل الاستيلاء على الزّعاطشة:.....122
- 4-3: التداعيات التي نتجت عن فشل الاستيلاء على الزّعاطشة.....135
- الباب الثاني: محاولة تفسير الطابع السياسي والديني لثورة الزّعاطشة.....145
- الفصل الأول: أسباب ثورة الزّعاطشة.....147
- 1-1: الجهاد المقدس.....150
- 1-2: مسألة الضريبة (الغرامة):.....157
- 1-3: آراء مختلفة 165
- الفصل الثاني: الطابع الديني والسياسي للانتفاضة من خلال شخصية بوزيان.....173
- 2-1: شخصية بوزيان (الدينية).....175
- 2-2: صورة الزعيم السياسي والعسكري:.....179
- 3-3: الروح الوطنية.....188
- الفصل الثالث تأييد ودعم الطريقة الرحمانية للثورة 191
- 3-1: الرحمانية والغزو الفرنسي للزيبان 193
- 3-2: تسخير إخوان الطريقة الرحمانية: دور سي عبد الحفيظ الخنقي.....200
- 3-3:مباشرة العمل العسكري: معركة سريانة 207
- الباب الثالث: المقاومة الطويلة لواحة الزعاطشة. محاولة فهم.....215
- الفصل الأول: الحملة على الزعاطشة ومحاصرتها.....217

- 1-1: الإستيلاء على الزاوية.....220
- 2-1: أشغال الحصار.....225
- 1-3: فشل هجوم 20 أكتوبر 1849.....233
- 1-4: قطع أشجار النخيل.....240
- 1-5: معنويات الجنود الفرنسيين.....245
- الفصل الثاني: المدافعون عن الزّعاطشة بين الاستراتيجية والصمود:.251
- 1-2: ذاكرة الماضي.....253
- 2-2: الزّعاطشة ، الملتقى الرمز.....256
- 3-2: الاستراتيجية العسكرية:.....262
- الفصل الثالث: حصار الزّعاطشة من منظور خارجي، علامات تضامن.275
- 1-3: الدعم الفعلي من طرف البدو.....277
- 2-3: عودة الخليفة الأسبق للأمير عبد القادر، محمد الصغير بن أحمد بن الحاج:.....282
- 3-3: انتفاضة القبائل الأوراسية ومشكل الاتصالات:.....285
- 4-3: انتفاضة بوسعادة:.....290
- الفصل الرابع: تدمير الزّعاطشة:.....299
- 1-4: الهجوم النهائي:.....301
- 2-4: موت الشيخ بوزيان:.....307
- 3-4: نهاية واحة واندثار سكان:.....311
- 4-4: استسلام الأوراس والزيبان:.....317

- الفصل الخامس: احتلال الزّعاطشة: التداعيات السياسية و الدروس والذاكرة بعد سقوط الزّعاطشة.....321
- 5-1: التنظيم الاداري الجديد للجنوب القسنطيني:.....323
- 5-2: المعطيات السياسية الجديدة:.....329
- 5-3: ذكرى الزعاطشة.....335
- خلاصة عامة:.....341
- ملحقات:.....350
- المصادر والمراجع:.....372

د. أوعثماني ستار: ثورة الزّعاطشة 1849 م

بوزيّان أحد سكّان الزّعاطشة وهي قرية صغيرة في الزّاب الجزائري تمكّن سنة 1849 من إثارة سكّان قريته إلى حركة احتجاجيّة تحوّلت بسرعة إلى ثورة عارمة بلغت كامل أقاليم الجنوب القسنطيني. ورغم كلّ المحاولات التي بذلتها السلطات الفرنسيّة خلال شهر ماي 1849 لإخماد الانتفاضة، فإنّ حركة الشّيخ بوزيّان ظلّت تتطوّر و تتوسّع بسرعة. ففي جولية 1849 فشلت حملة فرنسيّة على أبواب الزّعاطشة. وبعدها انتشرت دعوة بوزيّان في الأوراس بفضل بعض مقاديم الطريقة الرّحمانيّة. وفي 7 أكتوبر 1849 وصلت حملة فرنسية ثانيّة بقيادة الجنرال هربيون قائد القطاع العسكري القسنطيني بنفسه . أمام تهديدات الجنرال أصر سكّان الزّعاطشة على مواصلة التحدّي والوقوف في وجه القوّات الفرنسية للدفاع عن واحتهم، ممّا حوّل الزّعاطشة إلى رمز للكفاح المسلّح، وهو ما جعل المقاتلين يفدون إليها من كلّ الجهات لنجدة الزّعاطشة ودعم ثورة الشّيخ بوزيّان. وبعد هجوم كاسح في 26 نوفمبر 1849، سقطت قرية الزّعاطشة في أيدي الفرنسين بعد مقاومة مثاليّة أبداها المدافعون عن الواحة. وانتهت المعركة الحاسمة بإعدام الشّيخ بوزيّان وتهديم الزّعاطشة عن آخرها..

المؤلّف حاصل عى شهادة دكتوراه من جامعة إيكس مرسيليا (فرنسا) وهو أستاذ التعليم العالي بجامعة بجاية (الجزائر) و منسّق عمل جماعي موسوم "منطقة القبائل من منظور كتاب فرنسيين من القرن التاسع عشر ميلادي (2011) كما هو مسؤول عن نشر أعمال الملتقى الدّولي الموسوم "بجاية مدينة التّاريخ والحضارة" وهو عمل نشر سنة 2013. صدر له أيضا بالفرنسية كتاب بعنوان : "دراسات في تاريخ الجزائر"، دار النشر ثيرا، 2021.

ترجمه من الفرنسية إلى العربية الأستاذ محمّد العربي حرزالله.